2272
.68975
.366
v.1, Pt.1

2272.68975.366 v.1,pt.1
Musa
al-Mutawwal fi al-
susyulujiya

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

JUN 15 2014

Princeton University Library
32101 072710831

منشورات كلية التربية في جامعة دمشق

المطوّل في علم الاجتماع

(السوسيولوجيا)

الكتاب الأول

في

علم الاجتماع العام

الجزء الأول

تأليف

منير مشابك موسى

دكتوراه الدولة في الآداب (سوسيولوجيا) من جامعة باريس
شهادة اختصاص في السيكولوجيا الاجتماعية
مدرس السوسيولوجيا في كلية التربية بجامعة دمشق

مطبعة جامعة دمشق

١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م

Mūsā, Munīr Mashābik

منشورات كلية التربية في جامعة دمشق

al-Mutawwal

المطول في السوسيولوجيا

(علم الاجتماع)

الكتاب الأول

في

السوسيولوجيا العامة

تأليف

منير مشابك موسى

دكتوراه الدولة في الآداب (سوسيولوجيا) من جامعة باريس
شهادة اختصاص في السيكولوجيا الاجتماعية
مدرس السوسيولوجيا في كلية التربية بجامعة دمشق

مطبعة جامعة دمشق

١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م

المقـــدمة

عقـدنا العزم على تأليف سلسلة في السوسيولوجيـا دعوناها « المطول في السوسيولوجيا » . وسيكون هذا المؤلف بمثـابة موسوعة صغيرة ، تتألف من كتب يختص كل منها بفرع من فروع السوسيولوجيا التي سيراهـا القارىء في الفصل الرابع من كتابنا هذا. فالكتاب الاول خصص «للسوسيولوجيا العامة» ، وخصص الكتاب الثاني « لطرق البحث في السوسيولوجيا » ، والكتاب الثالث « لسوسيولوجيا التربية » ، والكتاب الرابع « للسوسيولوجيـا الريفية » ، والكتاب الخامس «للسوسيولوجيا الاقتصادية» ، والكتاب السادس «للسوسيولوجيا السياسية» ..... ألخ ..... وستنتهي السلسلة بكتاب يخصص لتاريخ السوسيولوجيا والفكر الاجتماعي ..

وواضح تمـاماً من عرض هذا المشروع الضخم انه من المتعذر على مؤلف واحد اخراج مثل هذه السلسلة ، لذلك سنلجأ إلى اختصـاصيين مختلفين نشترك معهم في تأليف بعض هذه الكتب . لعلنا بهذا العمل نقدم للقارىء باللغة العربية بعضاً من الكنوز التي يغرف منها القراء في مختلف الأمم ذات الحضارات الصناعية الراقية وخاصة في أوروبا وأميركا . مع العلم ان المكتبة العربية لاتزال مفتقرة تماماً إلى المصـادر والمراجع في هذا **الفرع من العلوم الاجتماعية والانسانية** . ونريد ان ننبه إلى ان القـارىء العربي لا يمكن ان يتعمق في هذا الفرع إذا لم يتقن احدى اللغات العالمية الآتية : الانكليزية ، الفرنسية ، الالمانية والروسية ..

وستقوم هذه السلسلة بتعريفه فقط بنواحٍ هامة من هذا الفرع ، ولكنهـا لن تغنيه اطلاقاً عن الرجوع إلى المصادر والمراجع الاصلية والاساسية في هذه

2272
.68975

اللغـات ، التي لايزال أغلب مؤلفي العرب ، في هذا الفرع ، يعتبرون بالنسبة لمؤلفيها نقلة وجماعين ومقتبسين وشارحين ومفسرين ومترجمين . وهذا لا يضيرنا إطلاقاً لأننا يجب ان نمر في مرحلة علمية كهذه لنخلق بعدهـا جيلاً مبدعـاً ومبتكراً ومنتجاً ..

نقدم الى القارىء كتابنا الاول الذي هو باكورة عملنا الجامعي، مع الاقرار بانه مجرد **محاولة** في هذا العلم ، انه مجرد محاولة « تلميذ » لم يصل بعد إلى مرتبة « الاستاذ » أو « الاساتذة »، وانتاج « طالب » لم يدرك بعد مرتبة « الواصل » أو « الواصلين » .. وقد حاولنا جهدنا ان تأتي فيه افكارنا موضوعية وعلمية . ولكن الافكار في هذا العلم لاتزال غير مستقرة، وهي في تبدل وتغير مستمرين. وما نقره اليوم ، فقد ننكره بعد بضع سنوات . لهذا نريد ان نحذر القـارىء من الوقوع في أخذ أفكاره دون شك وتمحيص . لأن هذه الافكار غير منزلة، فكيف بها إذا كانت أفكار « محـاول » لا عالم . ونؤكد بكل صراحة اننـا غيرنا فيها كثيراً وكثيراً بعد كتابتها بصورتها الاصلية (في محاضراتنا) بأشهر لا تزيد على التسعة . ولو قيض لنا ان نطبـع هذا الكتاب طبعة أخرى بعد سنة فقط لغيرنا وحورنا وصححنـا أيضاً الكثير والكثير . وهمنا هنا هو ان نرشد القارىء والطـالب إلى الطريقة العلمية الصحيحة في البحث وإلى المنحى العلمي الصحيح لا أن نعطي بديهيات وعقائد للحفظ والاعتقاد والإيمان .

وأغلب فصول هذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقيناها على طلابنا في كلية التربية بجامعة دمشق في العام الدراسي ١٩٥٨-١٩٥٩ . وقد عدنا اليها فنقحناها وزدنا عليها فتألف منها هذا الكتاب الذي يبحث في ظهور ونشأة السوسيولوجيا، وتعريفهـا ، وفروعها ، والسوسيولوجيـا الحيوانية والنتائج التي تقدمها لفهم المجتمع البشري ، والعناصر والعوامل التي تلعب دورها في المجتمع وتساعد على تعليل الحوادث والظواهر والمؤسسات الاجتماعية، كالعوامل والعناصر الجغرافية والاقتصادية والبيولوجية والاجتماعية والثقـافية والتاريخية ....؟ كما يبحث

في التعليل والسببيـة والقوانين والتنبؤ والحتمية ومسائل أخرى هـامة في السوسيولوجيا .

نرجو أن نكون وفقنا في عرض أفكارنا من حيث **الدقة والوضوح** ونأمل ان نتجنب كثيراً من الضعف في المستقبل .

دمشق في ١٩٥٩/٧/٢٢

منير مشابك موسى

تصدير للقسم الاول

قبل ان تظهر السوسيولوجيا بشكل واضح على يد أوغست كونت ، كانت الدراسات الاجتماعية مصبوغة بالصبغة الفلسفية . وكانت هذه الدراسات داخلة في مجال الفلسفة الاجتماعية خاصة ، ومنذ زمن ابن خلدون وفيكو أصبحت داخلة أيضاً في مجال فلسفة التاريخ . وظلت أفكار وأبحاث كونت الاجتماعية والسوسيولوجية مصطبغة بالصبغة الفلسفية حتى انه وحد بين السوسيولوجيا والفلسفة الوضعية ، وبقيت نزعة الفلسفة الاجتماعية غالبة لديه . **فما الفرق بين الفلسفة الاجتماعية والسوسيولوجيا ؟**

لقد سبقت الفلسفة الاجتماعية السوسيولوجيا إلى الظهور . اذ ظهرت في بلاد اليونان ، وألح عليها في القرون الوسطى ، وبرزت بشكل واضح جداً في القرن الثامن عشر الذي سبق القرن التاسع عشر ، قرن ظهور السوسيولوجيا وصيغت كثير من أبحاثها ، ولدى مؤلفين مختلفين ، باشكال لاتختلف عنها في السوسيولوجيا المعاصرة . وتظل الفروق ؛ مع ذلك ، واضحة بينهما . والفروق التي تفصل بينهما هي تلك التي تفصل ، عامة ، بين الفلسفة والعلم الاختباري أو التجريبي ، انها فروق في درجة التجريد وفي الطريقة . كلاهما ينزع إلى وصف وتعليل الواقع الاجتماعي ؛ وكلاهما قائم على ملاحظة الوقائع والظواهر الاجتماعية والتعميمات المشتقة من هذه الملاحظات .

ولكن في العلم الاختباري (وتدخل السوسيولوجيا في نطاقه) توضع التعميمات المتعلقة **بمجال خاص** إعتماداً على الوقائع الملاحظة في هذا المجال أو في مجالات مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً . وتوضع هذه التعميمات دون تصور أية معرفة

(لاتأكيداً ولا نفياً) على مستوى التجريد العالي عن الواقع منظوراً اليه **ككل** . وتشكل كل القضايا ، التي يتألف منها اي علم اختباري ، (منظومة) systéme (أو مذهباً) مكتفية بنفسها .

ولا يسمح ، في هذه المنظومة ، لاي قضية ان تلعب دورهاالا اذااحتوت على معرفة اختبارية ، وبمعنى آخر اذا لم تكن خاضعة للحدود المرسومة في العلم الذي توضع فيه .

وتهدف الفلسفة على عكس العلم الاختباري، الى معرفة الواقع في كليته او كله . واستناداً الى مجموعة من الوقائع الملاحظة، يؤلف الفيلسوف بعض المبادىء النهائية التي تهدف الى تعليل الواقع ككل (as a whole) ، واعتماداً على هذه المبادىء النهائية يضع الفيلسوف بعض مسلمات وأوليات يستخدمها لتعليل وتفسير مجموعات الاشياء الخاصة التي يميزها في الوقائع الملاحظة. وهكذا، فبينما يعلل السوسيولوجي المجتمع على ضوء الحوادث الملاحظة في المجتمع ، وغالباً ، استناداً الى مجالات المعرفة الاختبارية، فان الفيلسوف الاجتماعي يعلل المجتمع على ضوء التعليل الذي يطبقه على الواقع العام أو الكلي (total Reality) ، ويتمكن الفيلسوف الاجتماعي من الكلام عن العلل الاولى ، والقيم العليا ، **والغايات النهائية ، بينما لم يهيأ السوسيولوجي للخوض في مثل هذه الابحاث .**

فالسوسيولوجيون الاوائل ومنهم ؛ كونت وماركس وسبنسر وحتى دوركهايم نفسه وماكس فيبر وجميع السوسولوجيين اصحاب النظريات ... خلطوا بين المنحيين والاتجاهين، وبهذا ظلت ابحاثهم السوسيولوجية ممازجة بالاعتبارات الفلسفية، والفلسفية الاجتماعية [١].

---

(١) راجع من اجل هذا البحث :

N. S. Timasheff: Soliological thecry N. y. (1955). PP. 4—5.

وسيظهر هذا واضحاً للقارىء عندما يطلع على النظريات السوسيولوجية المختلفة التي سنعرضها في بعض فصول كتابنا هذا .

ومهما يكن من أمر ، فقد صدرنا القسم الاول بهذه العجالة ليدرك القارىء صحة رأينا في أن المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع هو أوغست كونت (مع الاعتراف بان سوسيولوجياه ظلت فلسفية أكثر منها اختبارية) .



القسم الأول

مدخل

نظرة تاريخية عن ظهور السوسيولوجيا

الفصل الأول

دور التهيئة والتحضير

ما توصل الينا من ثقافات الشعوب يدل على أن جميع الشعوب التي لعبت دوراً على مسرح التاريخ عرفت مصلحين ومفكرين وفلاسفة أعطوا بعض حكم، وملاحظات، وأفكار حول المجتمع وأوضاعه، وما يظهر فيه من مؤسسات وحوادث وخاصة ما هو بارز منها. «نجد في كل مجتمع، كما يقول غاستون بوتول Gaston Bouthoul، سوسيولوجيا كامنة نادراً ما يعبر عنها»[1].

انها متضمنة بصورة ضعيفة في مؤسسات الرهوط أو المجموعات حتى في أكثرها بدائية وأصغرها حجماً. ويجري كل شيء وكأن المؤسسات والقانون (الشرائع والحكم) والنظمة (أو التركيب) organisation العائلية والاجتماعية تتحدر من عدد معين من الاصول والبديهيات. هذا ما نجده في بابل وآشور ومصر الفراعنة والصين والهند وجزيرة العرب في جاهليتها ... فلدى جميع هذه الشعوب نجد بعض الافكار المرتبطة بالعقائد الدينية تعالج كثيراً من مشاكل المجتمع، لتجد لها الحلول العملية. وتصطبغ اكثر هذه الاهتمامات الاجتماعية بالطابع النفعي الذرائعي. وهكذا ظلت هذه الافكار أو الملاحظات الاجتماعية مبعثرة لا يجمعها مذهب فلسفي واحد الى أن أطل العالم اليوناني على التاريخ بحضارته العظيمة. فظهرت عندئذ في هـذه البلاد مذاهب فلسفية

---

(١) Gaston Bouthoul : Histoire de la sociologie P. 6

وفلسفات اجتماعيـة Philosophies sociales وفلسفات سياسية Philo. politiques متماسكة تحاول أن تفسر الوجود والمجتمع ككل . ونجـد في التفكير اليوناني البذور الاولى لكثير من العلوم الحديثـة : كالفيزياء ، وعلم الفلك ، وعلم النفس ...

الفلسفة الاجتماعية والسياسية في بلاد اليونان :

لقد كانت أكثر فلسفتهم الاجتماعية تدور حول تحديد **مبادىء وأصول** التنظيم الاجتماعي كما يجب أن تكون . ولكن كثيراً ما يختلط في **اعتباراتهم التعليمية والامرية** Normatives نزوع ظاهر لتحليل شروط الحياةالاجتماعية تحليلًا موضوعياً ، وبفلسفتهم الاجتماعيـة والسياسية هذه ، يمكن ان يعتبروا كمبشرين سابقين للسوسيولوجيا التي ظهرت بعدهم بقرون تقارب الاربعة والعشرين .

السوفسطائيون : وكان السوفسطائيون سباقين الى مثل هذه الاعتبارات اذ انتقدوا المؤسسات الاجتماعية الآثينية التي ظلت **بدائية** Archaique ، ومن مخلفات « أصنام القبيلة » على الرغم من الاهمية التجارية والسياسية والفكرية التي كانت تتمتع بها اثينا في ذلك الحين . ومنهم بروتاغوراس(٤٨٠-٤١٠ق م) الذي أنكر امكان البرهان على وجود الالهة واعتبر ان « الانسان مقياس الاشياء جميعاً » وأنه « لا يوجد شيء هو واحد في ذاته وبذاته ، ولا يوجدشيء يمكن ان يسمى أو يوصف بالضبط . لان كل شيء في تحول مستمر » . لقد بحث السوفسطائيون **عن قانون** طبيعي Droit naturel يقوم ويؤسس على الطبيعة البشرية وعلى الدراسة الموضوعية للمجتمعات ، دون اعتبار ارادة البشر التحكمية ، كما قالوا بنظرية السلطة القائمة على العقد الاجتماعي . ويختلط في هذا البحث اعتبارات أخلاقية واصلاحية . اذ اعتبروا أن المؤسسات الاثينية غـير عادلة وطالبوا بالغاء الرق ، ونبذ القومية الضيقة المحصورة في حـدود المدن

الاغريقية ، وألحوا على وجوب تأمين العدالة والمساواة لجميع الناس . وهكذا كانوا يهاجمون التقاليد عندما تبدو لهم مضرة وسيئة . وقد وضعوا ، في المجال الاجتماعي ، الاساسي في الطريقة العلمية . اذ كانوا يحترزون من التعليلات المألوفة ، والاساطير والخرافات التي كانت تلعب آنذاك دوراً هاماً في تفكير الناس ومفاهيمهم عن التاريخ والحياة الاجتماعية . فأيقظت انتقاداتهم انتباه المفكرين ووجهتهم نحو الظواهر الاجتماعية .

وبهذا شقوا الطريق وجعلوا من الممكن ظهور الابحاث **والافكار المذهبية** بين من تلاهم من المفكرين كسقراط وأفلاطون وأرسطو ... [٢]

وقد تقدم عليهم أيشيلوس Aechylus (٥٢٥ – ٤٥٦ق م). وأظهر التطور العام للحضارة البشرية ، وكذلك سبقهم هيرودوت Hérodote (٤٨٥ – ٤٢٥ ق م) الى **دراسة ووصف عادات وتقاليد** كثير من الشعوب غير اليونانية ، وبهذا «استحق لقب أول سوسيولوجي وصفي عظيم » [٣] .

وجاء بعدهم **أيبوقراط** (٤٦٠ – ٣٨٠ ق م) فقدم في كتاباته عن الهواء والماء والمكان (أو الرياح والمياه والامكنة) أول تحليل قيم عن تأثير المحيط المادي على المجتمع البشري . فوصف تأثير المناخ والطوبوغرافيا في شعوب أوروبا وآسيا وخاصة في ملامحهم أو صفاتهم الجسدية ومؤسساتهم السياسية بعمق واسهاب لم يطاوله انسان بعده حتى زمان ابن خلدون وبودون Bodin . اذ اعتقد ان شعوب المناطق الحارة هي شعوب ذكية حاذقة ، ولكنها ضعيفة

---

(٢) من أجل السوفسطائيين راجع :

١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية .

٢) عبد الرحمن بدوي : فجر الفلسفة اليونانية .

٣) Gaston Bouthoul : histoire de la sociologie

٤) Gaston Bouthoul : traité de sociologie

(٣) Harry ElMer Barnes : An introduction to the history - ofsociology . P . 6 - 7

وخبيثة أو ضعيفة الاخلاق . أما شعوب المناخات الباردة فهي ، على العكس من ذلك ، قوية ولكنها بلهاء أو ضعيفة الذكاء . وشعوب البلاد المعتدلة المناخ ، وخاصة اليونان ، تملك **ميزات** الشعوب السالفة دون مساوئها ، اذ انها **قوية وشجاعة وحكيمه** . وهكذا نجد لديه بعض افكار هامة ظهرت في العصر الحديث في مذهب المدرسة **الانتروبوجيوغرافية** Anthropogeographic الذي نادى به راتزل Ratzel وريتر K. Ritter وسواهما (كما سنرى فيما بعد ، حيث سنناقش قيمة هذه الافكار) .

أفلاطون : (٤٢٦ – ٣٤٧ ق م) تلاهم افلاطون ، وكان يراود ذهنه فكرة اساسية هي : كيف يمكن تجنيب بلاده ماحل بها من اضطرابات **مدمرة** لا تحتمل . ولهذا وضع كتابه « الجمهورية » وكان أول طوباوية (إيتوبيا) Utopie شرح فيهما مذهباً حقيقياً في الفلسفة الاجتماعية . وأوضح في هذا المؤلف كيف يجب أن تكون المدينة المثلى . وبهذا لا يصف المدينة كما هي ولكن كما يجب أن تكون . ولتفادي الاضطرابات يقترح افلاطون العودة الى مؤسسات الاغريق **الاولية** . والانموذج الذي نادى به هو تنظيم اسبارطة **الراسخ في تقشفه وارستقراطيته وعسكريته** . وهكذا أراد ان تحذو مدينته المثالية حذو اسبارطة . ولهذا **اقترح التقليل من المبادلات بين المدن** ، وحذر من الشعراء وغوايتهم ، لانهم عوامل في اثارة الناس واشاعة الابتكارات والتجديدات . وأقام نظاماً طوائفياً Régime de castes ، قسم على أساسه المجتمع الى ثلاث طبقات ، على غرار النفس الانسانية . اذ يعتقد ان النفس تتألف من قوى ثلاث هي : الشهوة (القوة الشهوانية) التي تشتهي الاشياء المادية ، والقلب مركز العواطف (القوة الغضبية) ، والعقل (القوة العاقلة او الناطقة) . والخير الاسمى (أي **الاستقرار** الذي يمنع الانفجارات والخلافات) يكمن في

---

(٤) Ibid . P . 7

التوازن بين هذه القوى الثلاث ، ذلك التوازن الذي تخلفه الفضائل الاساسية الثلاث المتعلقة بها ، ألا وهي : **الاعتدال والشجاعة والحكمة** . ومن الضروري ان ينعكس توازن النفس البشرية هذا في المجتمع البشري ، الذي يجب ان يكون على صورة النفس ، فيتألف من ثلاث طبقات (classes) (أو طوائف) Castes هي: ١) **الصناع أوأصحاب الحرف** Artisans (اي العمال والزراع) ، ٢) **المحاربون** ، ٣) **الحكام والفلاسفة** .

الصناع ويقابلون الشهوة (أو القوة الشهوانية) ، والمحاربون ويقابلون القلب أو العاطفة (أو القوة الغضبية) والحكام الفلاسفة ويقابلون العقل (أو القوة العاقلة) . **والعدالة** في المدينة تكون في توازن الطبقات الثلاث . واذا ما سادت **طبقة الحكام** المحاربين وأصحاب الحرف كنا أمام دولة عادلة فاضلة ، تحققت فيها المساواة والعدالة وذهب عنها الفساد والانحلال . وقد قصر الملكية على أصحاب الحرف فقط . وكان يريد ان يقضي على أسباب الطمع والخلاف : الملكية والمال ، والدافع الى التعلق بهما : الاسرة . ولهذا حرم الملكية على الطبقة العليا أي حراس المدينة (الحكام والمحاربين) ليحل بين أفرادها الوئام والاخوة . وقدألح على شيوعية النساء والاطفال بينها . اذ يجب ان يربى الاطفال معاً جاهلين أهلهم الحقيقيين .. وبهذا يضع حداً فاصلا بين حال الحاكم وحال المالك . اذ لا يمكن ان يكون الحاكم مالكاً . ولنرسخ الاخلاق الفاضلة يجب ان نلح على **الدين والموسيقى والتربية الحسنة** والمثال الفاضل ...ويرى افلاطون ان للتربية تأثيراً عظيماً في تكييف وتنشئة الافراد حسب مقتضيات المجتمع ، وان كل فساد في المجتمع مرده الى فساد في التربية والنظام الاجتماعي . ونجد خلال ما يرسمه من خطط أفكاراً وملاحظات سامية عن أنواع الحكومات ، والتوازن الاجتماعي ، والمشكلات الاجتماعية ونشأتها ، ومشاكل السكان ، وعوامل البيئة الطبيعية وأثرها في أخلاق الناس ، وحرب الطبقات وأساسه : الملكية والحرمان والظلم ؛ كما نجد لديه محاولة مشكورة لمعالجة الحوادث او

الوقائع الاقتصادية والسياسية معالجة علمية ، حينما يدرس الشروط الجغرافية في « النواميس » في المقالين (الرابع والخامس) والديموغرافية (في الجمهورية ، المقال الخامس ، وفي النواميس ، المقال الخامس) التي تدخل في تأسيس المدينة ، وعندما يعطي القانون الشهير لتقسيم العمل (الجمهورية ، المقال الثاني) . وعندما يرى ، قبل دروكهايم ، **الصفة المعنوية** للتضامنات التي يولدها هذا القانون (الجمهورية ، المقال الخامس) . وعندما يدرك أهمية العوامل الاقتصادية وتضاد أو تحارب الطبقات ، حيث يكتب : « تحوي المدينة دائماً ، وعلى الاقل ، طبقتين متألبتين الواحدة على الاخرى : هما طبقة الاغنياء وطبقة الفقراء » . (الجمهورية ، المقال الخامس) [٥] . وكذلك نجد لديه نظرية في الاختلالات أو الاضطرابات الاجتماعية ، هذه الاضطرابات التي تكمن في تتابع **أدوار** cycles سياسية متعاقبة تحدث من جراء التضاد او التعاكس السيكولوجي « للأجيال » ويعتبران التطور الاجتماعي قائم على الهيمنة أو السيطرة المتعاقبة لعدد من النماذج السيكولوجية الثابتة هي : العادلون ، الطامعون ، البلوتوقراطيون ، المستبيحون والمستبدون . ويقيم ترابطاً بين طابع الدولة وطابع الافراد اذ يقول : « ان الدول أو الحكومات تتبدل كما تتبدل قلوب الرجال وعدد الواحدة مرتبط بعدد الاخرى » . [٦] ولهذا يقابل الطباع الخمسة السابقة حكومات خمس : الموناركية أو الارستوقراطية ، التيموقراطية ، الاوليغارشية ، الديموقراطية ، والمستبدة ...

وذهب أفلاطون ، قبل دروكهايم ، الى القول بوجود « العقل الجماعي » ، وبتأثير المظاهرات والاعياد الجماعية وحماسها في نفوس الافراد ...

وأثرت نظريته بوجوب تسليم الحكم للصفوة من الناس في النظرية الحديثة

---

(٥) راجع : B. Cuvillier : Manuel de sociologie Tom. I. P.11

(٦) نقلاً عن : Gaston Bouthoul : Histoire de la sociologie. P. 11

للأستوقراطية السياسية فاعتنقها **الفاشيون والنازيون** وبعض فلاسفة الراسمالية في عصرنا الحاضر ...

وبهذا يعتبر ، على الرغم من ثورته على الاوضاع الفاسدة وتقدميته ، واعطائه المرأة كثيراً من الحقوق ، ظهيراً للأرستوقراطية الاثينية الرجعية اذ حاول أن يديم سيطرتها بواسطة نظام الطوائف الذي اقترحه ...

كما قدم بعض افكار هامة للسوسيولوجيا التاريخية في كتابه «النواميس»، اذ اوضح بعضاً من طبيعة التطور الاجتماعي وزمان حدوثه . واخيراً حاول ، على عكس سابقيه وكثيرين من لاحقيه ، ان يفهم ويحلل المجتمع **كوحدة** أو ككل . وهذا هو الاتجاه الغالب الآن على السوسيولوجيا الاميركية .

ولكل ماتقدم من افكار اجتماعية لدى افلاطون ، ذهب أحد مدرسي السوسيولوجيا في السوربون ، هنري دوسور (H.Dussort) الى القول : « اذا جاز **لدور كهايم** أن ينقل أصل ، اذ لم يكن أصل السوسيولوجيا، فعلى الاقل أصل التفكير الذي يؤدي اليها ، من كونت الى مونتسكيو (Montesquieu) ، فمن الضروري ان ننقله ، وبحق ، الى افلاطون نفسه ، بسبب بحثه المتحسس (المتلمس) (tatonnante) والتقريبي في الحقيقة الاجتماعية خلال تجلياتها (أو ظهوراتها) السياسية والتاريخية »[٧].

أرسطو: (٣٨٤-٣٢٢ ق.م). لقد كان ارسطو **اكثر واقعية** من افلاطون فأدخل في كتابه: « السياسة » الطريقة الاستقرائية في دراسة الحادثة الاجتماعية. ولكنه كان اكثر محافظة منه واقرب الى الرؤساء السياسيين . لذلك كتب كثيراً في تأييد **الاوضاع الراهنة** في عصره . فدافع ، بعكس استاذه ، عن **الاسرة والملكية والرق** ...

---

(١) H . Dussort : La préhistoire de la sociologie à la lumière de son présent ; cahiers internationaux de sociologie. Vol. XVIII (1955) Paris. P. U. F. P. 140

Princeton University Library
32101 072710831

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
تحت	ونحت	٢١	١١٥
تعارض	تعارضاً	٢٧	١٢٠
ruche	ruche	٨	١٢٤
اعضاء وكر آخر	واعضاء وكر آخر	١٣	١٣٩
مجتمعات الحشرات	مجتمعات الفقريات	١٠	١٤٩
اللاحقة	اللاحمة	١٠	١٤٩
ومهما يكن أمر فإن امهات الطيور	ومهما يكن من أمر فأمهات الطيور تعلم	١٠	١٥٥
توضع	توضع	٣	١٥٥
حمارة	حماوة	١٧	١٦١
يقتل	يقتتل	٢٠	١٦٥
الأول	الثالث	١	١٧٣
تشام	تسام	٦	١٧٤
الى اعتبار	الى اعتبار المجتمع	١٧	١٧٤
حتيمة	حتمية	٨	١٩٦
فارتفاع	فارتفاعات	٨	١٩٦
الدولة	الدول	٢٠	٢٢٠
النوليتيكية	النيوليتيكية	٢٠	٢٣١
المسيسني	المسيسيبي	٠٢	٢٣١
والنظم الاجتماعية	والتنظيم الاجتماعي	٣	٢٥٦
السوسيولوجيون	السوسيولوجيا	٩	٢٦٦
Assotiation	Association	٥	٢٧٦
العوامل الاقتصادية والطبقات الاجتماعية	٣) العوامل الاقتصادية والطبقات	٨	٣٢٣
لأن هنا فقراء كثيرون	لأن هناك فقراء كثيرين	١٥	٣٣٦

جدول الخطأ والصواب

وقعت بعض الاخطاء المطبعية سهواً . لهذا نصحح الرئيسي منها ، ونترك غير الرئيسي لأن القارىء الكريم سيميزه دون جهد .

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
Saliogical thecry	Sociological theory	الهامش	٧
أصنام القبيلة	أوهام القبيلة	١٤	١٢
فالحكومة	فالحكومات	١٩	٢٠
الصفة	الصنعة	١٩	٢٨
dettoilach	d,Holbach	١٨	٣٦
التشريفات	التشريعات	١٩	٣٩
تحتويه	تحتويها	١١	٤٨
العقيد	العقيدة	٥	٥٣
Sosios	Socius	٣	٥٨
شافلي	شفلي	١٧	٧١
le Tien(٨)	le Tien في مد ما يعاش أو يعانى du vécu	١٨	٨١
ثلاث	ثلاثة	١٨	٨٣
خالعة	خالقة	٧	٨٢
المعلوم	العلوم	١٥	٨٤
المتوافرة	المتواترة	١١	٨٧
العمومية تصح	العمومية لا تصح	٦	٨٩
لا يمنع	لا يمكن	١٠	٨٩
المجتمع	المجتمع . كما	١	٩٦
السوسيولوجيا التستمد	السوسيولوجيا الى البيولوجيا التستمد ١		١٠٨
مجتمعة	مجتمعية	١٣	١٠٩

صراع الطبقات ٣٧٤
البنية ـ التحتية أو الأساس ٣٧٧
التفاعل بين الأساس والبنية الفوقية ٣٨٠

خاتمة عامة للفصلين الحادي عشر والثاني عشر

إمكان استفادة السوسيولوجيا من الاقتصاد السياسي والماركسية ٣٨٦
الفهرست : ٣٩١
الخطأ والصواب : ٣٩٩

الصفحة

ظهور التقسيم الاجتماعي للعمل ٣٠٦
« الملكية الخاصة والطبقات الاجتماعية ٣٠٦
« القرية ٣٠٧
الثقافة والدين في العهد القبلي ٣٠٩
العهد الزراعي الحقيقي وظهور المدن والدول والامبراطوريات ٣١٠
الأسرة في هذا العهد ٣١٦
الحضارة والثقافة ٣١٦
٣ً) العوامل الاقتصادية والطبقات الاجتماعية ٣٢٣
٤ً) العوامل الاقتصادية ونموذج الحكم والحياة السياسية عامة ٣٢٥
٥ً) « « والحروب والثورات والجرائم ٣٣١
٦ً) « « والثقافة والحضارة ٣٣٧
٧ً) « « والتطور الاجتماعي والتاريخي ٣٤٠
الفصل الثاني عشر : بعض النظريات ذات النزعة الاقتصادية ٣٤٣
افلاطون — ٣٤٤
أرسطو — ٣٤٥
القرن التاسع عشر — ٣٤٥
١ً) المادية الاقتصادية : ٣٤٧
٢ً) المادية التاريخية ٣٤٨
أ — الطريقة الديالكتيكية الماركسية ٣٤٩
ب — المادية الفلسفية الماركسية ٣٥٧
ج — المادية التاريخية أو النظرية المادية للتاريخ ٣٦٠
أسلوب الانتاج ٣٦٢
أ — القوى المنتجة ٣٦٤
ب — علاقات الانتاج ٣٦٦

الصفحة

بشل ٢٦٤
بكلي ٢٦٥
الفصل العاشر : السوسيولوجيا والجغرافيا والاكولوجيا ٢٦٨
استفادة السوسيولوجيا من الجغرافيا ٢٦٩
استفادة السوسيولوجيا من الاكولوجيا ٢٧٤
الفصل الحادي عشر : العوامل الاقتصادية وأثرها في المجتمع ٢٨٢
تحديد العوامل الاقتصادية ٢٨٤
تأثير العوامل الاقتصادية ٢٨٥
١ً) العوامل الاقتصادية والديموغرافيا : ٢٨٥
أ ـ كثافة السكان ٢٨٥
ب ـ الولادات ٢٨٧
جـ ـ الوفيات ٢٩٠
د ـ الزواج ٢٩٣
هـ ـ الطلاق ٢٩٤
و ـ الهجرة ٢٩٥
٢ً) العوامل الاقتصادية ونموذج المجتمع ٢٩٧
العهود الحضارية : ٢٩٧
عهد الالتقاط ٢٩٨
عهد الصيد ٢٩٩
عهد الرعي ٣٠١
عهد الزراعة ٣٠٣
علاقات الانتاج والتقسيم الطبيعي للعمل في المتحد البدائي ٣٠٤
القبيلة الدموية ٣٠٥

الصفحة

١ - الموقع والمسافة والوضع ٢١٥
المكان ٢١٨
السهل ٢١٩
الصحراء ٢٢١
الجبل ٢٢٣
الغابة ٢٢٦
النهر والبحيرة والبحر ٢٢٧
الثقافة والطوبوغرافيا ٢٢٩
الكارثة الطبيعية ٢٣١
الموارد الطبيعية ٢٣٢
الجيوسياسة ٢٣٥
الفصل التاسع : النظريات الجغرافية ٢٤١
- ابن خلدون - ٢٤٢
مونتسكيو ٢٤٦
الانتروبوجغرافيا ٢٤٩
كارل ريتر ٢٤٩
- مور ٢٥٢
- هنتجنتون ٢٥٣
- الشروط الجغرافية والنظم الاجتماعية والسياسية ٢٥٦
- ازدهار الحضارات وأفولها ٢٦٠
كيرشهوف ٢٦٢
دومولن ٢٦٢
ركلوس ٢٦٣

العدوانية ١٦٥
الايثار والصداقة ١٦٨
التقليد ١٦٩
نتيجة عامة للقسم الثالث ١٧٣

القسم الرابع : العوامل المحدودة في المجتمع البشري

بعض النظريات الاجتماعية - علاقة السوسيولوجيا
ببعض العلوم الاجتماعية وبعض الفلسفات

تصدير للقسم الرابع ١٨١
الفصل الثامن : العوامل الجغرافية والطبيعة وأثرها في الفرد والمجتمع ١٨٣
تقسيمات العامل الجغرافي ومفهومه ١٨٦
العلاقة الخاصة بين الجغرافيا والمجتمع ١٨٧
أولاً : **تأثير الظواهر الجوية** - ١٨٨
١ - مفهوم المناخ وتأثيره الانتخابي ١٨٩
٢ - **الفصول والطقس** : تأثيرات العوامل المناخية على المجتمع ١٩١
٣ - الظواهر الجوية والثقافية ١٩٢
التفكير والابداع ١٩٣
الاخلاق والطباع ١٩٥
نشاط الشعب وحيويته الجسدية ١٩٨
المؤسسات الاجتماعية والسكان والمناخ؟ ١٩٩
المناخ والسياسة والرق والانتحار ٢٠١
٥ - المناخ والحضارة ٢٠٤
هل يمكن تفسير الحضارة بالمناخ ٢١٠
التغيرات الطقسية والتاريخ الاجتماعي ٢١١
ثانياً تأثير الظواهر الارضية ٢١٤

الصفحة

القسم الثالث : المجتمعات الحيوانية

الفصل الخامس : المجتمعات الحيوانية ١٠٧
فيزيولوجيا العلاقات الاجتماعية ١٠٨
مختلف نماذج التجمعات الحيوانية ١٠٩
تأثير الكتلة أو الجمهرة والرهوط ١١٤
الجنسي والاجتماعي ١١٧
الفصل السادس : البيولوجيا الاجتماعية للحشرات ١٢٤
المجتمعات لدى الأرض والنحل والنمل ١٢٦
المهمة الاجتماعية ١٣٠
الاتصال والتفاهم لدى الحشرات ١٣١
الرهط الداخلي والرهط الخارجي ١٣٢
الثقافة والتربية لدى الحشرات ١٣٣
الفصل السابع : السيكولوجيا الاجتماعية والحياة الاجتماعية لدى الفقريات ١٣٩
البقعة الأرضية ١٤٠
تنظيم الأرض والمجال ١٤٢
السلوك الجماعي ١٤٤
الرهط الداخلي والرهط الخارجي ١٤٦
الفاعلية المشتركة ١٤٨
اللغة والاتصال ١٥٠
الثقافة ١٥٤
الدراج الاجتماعي — السيطرة والخضوع ١٥٦
الزعامة ١٦٤

الصفحة

الرحالة الجغرافيون	٢٥
ابن خلدون	٢٦
الفلسفة الاجتماعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر والثالث عشر	٣٥
فيكو ـ	٣٧
هردر	٤٠
كوندورسي	٤١
الحقوق المقارنة	٤٣
الاقتصاد السياسي	٤٣
علم الاحصاء	٤٤
البيولوجيا	٤٥
الثورة الصناعية والثورة الفرنسية	٤٥
سن ـ سيمون	٤٧
برودون	٤٨
الفصل الثاني : مرحلة تأسيس السوسيولوجيا	٥٢
أوغست كونت	٥٢
الدراسات الاجتماعية بعد أوغست كونت	٦٥
عهد النظريات والمدارس	٧٠
« الاتجاهات التجريبية	٧٣

القسم الثاني : تعريف السوسيولوجيا وفروعها

الفصل الثالث : تعريف وموضوع السوسيولوجيا	٧٩
الفصل الرابع : فروع السوسيولوجيا	٩٥

ـ فهرست المواد ـ

	الصفحة
المقدمة	٣
تصدير للقسم الأول	٦

القسم الأول

مدخل : نظرة تاريخية عن ظهور السوسيولوجيا

الفصل الأول : دور التهيئة والتحضير	١١
الفلسفة الاجتماعية والسياسية في اليونان	١٢
السوفسطائيون	١٢
ابيوقراط	١٣
افلاطون	١٤
أرسطو	١٧
توسيديد	٢١
الفلسفة الاجتماعية والسياسية عند اليونان	٢٢
الفلسفه الاجتماعية في العالم المسيحي	٢٢
الفلسفة الاجتماعية في العصر الوسيط	٢٣
الفلسفة الاجتماعية والسياسية عند العرب	٢٤
الفارابي	٢٤

ومتغيرة ومتطورة بتبدل وتغير وتطور الواقع الاجتماعي ..

ويعتقد الماركسيون ان أهم عناصر التطبيق (pratique) تكمن في النشاط (أو الفاعلية) الثوري للطبقات والوهوط الاجتماعية ، التي تحاول تهديم الأنظمة العتيقة واستبدال أنظمة جديدة بها ملائمة لتطور المجتمع ، كما تكمن في التجارب العلمية التي (تعتبر أحد اشكال التطبيق) . والنظرية تقوم على أساس التطبيق ، اذ هي نتيجة لتعميم التجربة العملية أو التطبيقية للجماهير . فبدون تطبيق لايمكن ان توجد نظرية علمية . ذلك **لأن التطبيق يطرح مسائل ،** والنظرية مدعوة الى الاجابة عليها ... (٤)

هـ - **من حيث نظرية المعرفة** : اذ يعتقد الماركسيون ان الأفكار في علاقة وثيقة مع الطبقات الاجتماعية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، ولا يمكن فهم نظرية معينة أو مفاهيم معينة الا بعلاقتها مع الطبقة التي أوجدتها وتتمسك بها لصالحها ولتدعيم مصالحها والابقاء على تميزاتها وحظواتها .. (٥) وهذا ما يجب ان ينتبه اليه كل سوسيولوجي يحاول ان يضع نظرية للمعرفة أو يفهم تطور المعرفة البشرية خلال التاريخ وتبعاً لتبدل الأنماط الاجتماعية ...

هذا بعض ما يمكن ان يستفيده السوسيولوجيون من الماركسية في أبحاثهم العلمية ، مع العلم أن الماركسية نظرية فلسفية ، ولكن تقوم قيمتها الحقيقية على ارتكازها على الواقع والعلم والتجربة وبكلمة واحدة على **التطبيق والعمل** .

---

(٤) من أجل هذا الموضوع راجع : Ibid. pp. 606 — 608

(٥) راجع : Ibid. pp. 86 — 88 et pp. 222 — 224 et 375 ss.

ج — **من حيث وضع القوانين**: إذ يعتقد الماركسيون أن كل دراسة علمية للمجتمع تستلزم تعليل وشرح القوانين (التاريخية) الخاصة التي تنتظم ظهور تنظيم اجتماعي معين ووجوده وتطوره (أو نشوءه) وزواله والاستعاضة عنه بتنظيم آخر ارقى منه ، ويعتقدون ايضاً بأن هناك قوانين اقتصادية عامة تنطبق على جميع الاشكال والتنظيمات الاجتماعية ، يسمونها القوانين السوسيولوجية . تنطبق على جميع مراحل التطور الاجتماعي وتربط جميع الاشكال (أو الانماط) في عملية وحيدة ومنتظمة لتطور المجتمع ونشوئه ، من الادنى الى الاعلى ، ومن البسيط الى المعقد . . (٣)

واكتشاف مثل هذه القوانين يساعدنا على معرفة الحياة الاجتماعية معرفة علمية ، كما يساعدنا على **التنبؤ** (La prévision) .

د - **من حيث التزاوج بين النظرية والتطبيق** (Pratique) : اذ يرى الماركسيون ان لاقيمة لنظرية الا بتطبيقها وفعلها في المجتمع . وكل نظرية لا تساعد على التقدم الاجتماعي والانتقال من الاوضاع السيئة الى الاوضاع الحسنة والتقدمية ، هي نظرية **إما رجعية وإما هواء** وهذا يجب ان يستفيد منه كل سوسيولوجي في اتجاهاته ومناحيه . ويلح الماركسيون على تحقيق النظرية بالوقائع والتجارب والحوادث ، وعلى وجوب تعديلها حسب الظروف التاريخية والمراحل التي توصل اليها العلم في تجاربه وابحاثه ومعارفه ، وعلى وجوب اطراح المعتقدات والعقائد الثابتة التي يحاول معتنقوها ان تستمر الى الأزل ، مع أن ظروفها التاريخية قد مضت وانقضت . وهذا ما يجب ان ينتبه اليه السوسيولوجيون تماماً ، اذ عليهم ان يجتنبوا وضع نظريات **ثابتة وأمرية** ووثوقية (dogmatique) ، ذلك لأن الافكار والنظريات الاجتماعية متبدلة

---

(٣) راجع :

Rosentahl et youdine : Petit diction naike philosoplnque . pp . 541 - 542

العناصر والقطاعات (مع اعطاء الاهمية الاولى للعوامل المادية) ، واعتبار هذا الواقع في **حركة تطور دائمة** ، ودرس هذا الواقع من خلال هـذه الحركة التي ينتظمهـا **قانون التناقضات الداخلية الصميمة** الذي يسري ، حسب رأي الماركسيين ، على الواقع المادي ، وعلى الواقع الاجتماعي وعلى الواقع الروحي والفكري؛ والالحاح **على الطريقة التاريخية** في دراسة الواقع الاجتماعي والمادي، **وطريقة التحليل** التي تذهب من الابسط الى الاعقد ، ومن المفاهيم والمقولات البسيطة الى المفاهيم والمقولات المعقدة ، والتوصل في النهايـة الى ربطها في « الكل » واعادة تشكيلها في **الوحدة** الاصليـة والكل الدائم الحركة بواسطة طريقة **العرض التركيبي** (Exposition synthétique) (التي تقتضي إعادة تركيب وتشكيل **الكل** استناداً الى العناصر البسيطة التي توصلنا إليها بالتحليل) ، والالحاح ايضاً على الاصالة او الجدة (Originalité) (الكيفية المتعلقة بكل نوع من الاشياء التي ندرسها ، بل بكل شيء مدروس . اذ لكل شيء **صفته** ومميزه واختلافاته كذلك ، فعلينا ان نتوصل الى القانون الخاص بهذا الشيء : أي صيرورته (Son devenir) [٢] .

ب — **من حيث التعليل** : اذ لفتت المادة التاريخية الانظار الى وجوب الالحاح على العوامل المادية أو لشروط الحياة المادية (الاقتصادية والجغرافية والديموغرافية) ، كما لفتت الانتباه الى العوامل البيولوجية ؛ دون نسيان باقي العوامل النفسية والثقافية ووجوب الانتباه الى جميـع هذه العوامل ، وخاصة العوامل الاقتصادية ، في التعليل التاريخي والاجتماعي . . وهذا يساعد السوسيولوجيا على أن تصبح علماً بالمعنى الصحيـح .

---

(٢) من اجل دراسة مطولة راجع :

Henri Lefebrvre : Marxisme et Sociologie, in Cahiers internati--onaux de Sociologie. Vol. IV. 1948(Edit . du Seuil) .Paris . pp. 48-74

التاريخ وخلال المجتمعات المختلفة وأسبابه والقوانين التي تنتظمه (طبق الماركسيون هذه الطريقة بجذافيرها)[١] ، وطريقة الملاحظة ، وطريقة التجريبات او المسوح (Enquêtes) الجماعية التي تقوم بها مجموعة من الاختصاصيين في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية ، وخاصة ما يتعلق منها بمعرفة الرأي العام واتجاهاته .. (سنعود بالتفصيل الى كل هذه الطرق ..) .

ج - **تستفيد منه من حيث التقيد بوضع القوانين** التي تنتظم الحياة الاجتماعية عامة ، والحياة الاقتصادية خاصة ، كما تستمد منه بعض القوانين الاقتصادية : كقانون العرض والطلب ، وقانون العملة الجيدة والعملة السيئة ، **وقانون كل أسلوب انتاج** ، اذ للاقتصاد البدائي قانونه ، وللاقتصاد الاقطاعي قانونه ، وللاقتصاد الرأسمالي قانونه ، وللاقتصاد الاشتراكي قانونه ..

د - **تستفيد منه من حيث الاهتمام بدراسة الواقع** ، وخاصة الحياة الاقتصادية واهميتها بالنسبة للأفراد والمجتمع ، والابتعاد ما أمكن عن التجريدات الخيالية والفكرية ، واستمداد الافكار من **الوقائع المدروسة** والحوادث الملاحظة .

هـ - **تستفيد منه من حيث الاهتمام بحاجات الناس** وتأثيرها على الواقع الاجتماعي والاقتصادي .

٢ - امكان استفادة السوسيولوجيا من الماركسية وخاصة المادية التاريخية :

يمكن للسوسيولوجيا ان تستفيد من الماركسية من عدة وجوه :

أ - **من حيث الطريقة : اذ أن الماركسية ألحت على الطريقة الديالكتيكية** وعلاقة السبب بالنتيجة وتفاعلها ، واعتبار **الواقع كوحدة** تتفاعل فيها جميع

---

(١) من اجل فهم هذه الطريقة راجع :

Chepilov et autres : Manuel d' Economie politique . paris Edit . Sociales . 1956

خاتمة عامة

للفصلين الحادي عشر والثاني عشر

امكان استفادة السوسيولوجيا من الاقتصاد السياسي والماركسية

من كل ماتقدم يجوز القول بان السوسيولوجيا يمكن ان تستفيد من الاقتصاد السياسي والماركسية .

١) امكان استفادة السوسيولوجيا من الاقتصاد السياسي :

بين السوسيولوجيا، وخاصة السوسيولوجيا الاقتصادية، والاقتصاد السياسي علاقات وثيقة ، سنعود الى بحثها بالتفضيل في كتابنا المخصص للسوسيولوجيا الاقتصادية. أما الآن فنكتفي بتقرير بعض الأفكار العامة والسريعة :

أ ـ تستمد السوسيولوجيا الاقتصادية اغلب أبحاثها من الاقتصاد السياسي ، ولا تختلف عنه الا من حيث أنها لاتتعرض لبحث النظريات الاقتصادية لمجرد أنها نظريات ؛ كما انها تبحث في العلاقات المتبادلة بين الاقتصاد والدين والعادات والتقاليد والثقافة والحضارة ، بينما لايتعرض الاقتصاد السياسي لمثل هذه الابحاث وهو ، وان تعرض لها ، فيكون ذلك بشكل عرضي وعابر (سنعود الى هذا البحث بالتفصيل في كتابنا : السوسيولوجيا الاقتصادية) .

ب ـ تستفيد منه من حيث الطرق ، وخاصة **الطريقة الاحصائية ، والطريقة المونوغرافية** (التي عممها لوبلي Le paly كما سنرى في كتابنا الثاني) ، **والطريقة التاريخية** التي تتبع في دراستها تطور الانظمة الاقتصادية خلال

مصادر عامة

١ – ستالين : المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية . بيروت . دار الفارابي ١٩٥٥ (ترجمة ضعيفة . لذلك يحسن الرجوع الى الطبعة الفرنسية التي سنذكرها حالا) .

٢ – ماركس وانجلز : البيان الشيوعي (ترجمة خالد بكداش) . بيروت . دار الفكر الجديد ١٩٥٥ (ترجمة فيها ضعف ظاهر أحيانا) .

٣ – ماركس : رأس ـ المال . ترجمة غير تامة لفؤاد أيوب . دمشق . دار اليقظة العربية ١٩٥٨ .

4 — Marx : Préface à la Contribution à la Critique. de l-économie politique Paris. Edit. sociales. 1952

5 — Staline : Matérialisne dialectique, et Matérialisne historique. Paris Editions sociales. 1950

6 — Engels : dialectiqe de la nature. Paris Edit. sociales. 1952

7 — : Anti — Dühriong. Paris. Edit. sociales 1950

8 — : L'origine de la famille, de la propriété et de l' Etat. Paris. Edit. sosiales. 1954

9 — G. Palitzer, G. Besse et M. Caveing : Principes fondamentaux de philosophie. Paris. Edit. Sociales. 1954

10 — H. Lefebvre : Le Marxisme. Paris. P. U. F. (que sais-je) 1948

11 — M. Rosentahl et p. Youdine : Petit dictionnaire philosophique. Moscou. 1958

12 — Chepilov et autres : Manuel d. Économie politique. Paris. Edit. sociales. 1956

الاجتماعية والثقافية ، إذ نجد ، ولو نادراً في هذه التعليلات بعض الغلو في اعتبار العوامل الاقتصادية (سنظهر هذا في كتبنا القادمة) ، وعلى الرغم من هذه الانتقادات العابرة، وعلى الرغم مما وجه إلى الماركسية (وخاصة المادية التاريخية) من نقد، فإنها تبقى مع ذلك، أقوى نظرية سوسيولوجية بين النظريات التي مرت معنا في مقدمتنا التاريخية » ، وفي الفصل العاشر ، والتي سيمر بعضها معنا في الفصول القادمة .. وقد نبه الماركسيون انفسهم الى ان نظريتهم هذه ليست **بعقيدة** (dogme) وانها قابلة للتعديل والتصحيح والتنقيح (وقد وقع هذا فعلاً على يد ماركس وانجلز ولينين وستالين وسواهم) ؛ وانها يجب ان تخضع دائماً في خطوطها العريضة للمعلومات العلمية ونتائج الأبحاث العلمية الآخذة بالتطور والتعمق مع مجرى الزمن والتاريخ . ويصرح الماركسيون الحقيقيون بكل صراحة وتواضع «ليست النظرية الماركسية ـ اللينينية عقيدة، بل دليلاً للعمل.» ويكفي الماركسية فخراً ان تقدم للسياسيين والفلاسفة والعلماء والسوسيولوجيين هذا الدرس في التواضع الفكري والعلمي .

★ ★

والخلاصة : ليست المادية التاريخية ، كما يعتقد البعض من امثال سوروكين وجورفيتش ، نظرية ، او سوسيولوجيا ، وحيدة العامل (unifactorielle) في تعليلاتها للتطور التاريخي والاجتماعي وللظواهر الاجتماعية والثقافية والحضارية ، بل هي متعددة – العوامل في تعليلاتها ، لأننا رأينا كيف اعتبرت في تعليلاتها **العوامل الجغرافية والعوامل الديموغرافية** والبيولوجية والعوامل الاقتصادية (وخاصة اسلوب الانتاج ومظهريه: القوى المنتجة وعلاقات الانتاج) والعوامل **الفكرية والنفسية** ، وقد ألحت على **دور الناس** والنظريات في تسيير مجرى التاريخ والتطور الاجتماعي ، ولم تنس أثر التفاعل الاجتماعي وفعل الرهوط ، في كل هذه العملية المعقدة .

وبهذا ننفي الاعتقاد الباطل والوهم الفارغ العالقين في الأذهان والزاعمين ان المادية التاريخية نظرية وحيدة – العامل في تعليلاتها ، وانها تعلل كل شيء بالعوامل الاقتصادية . صحيح انها ألحت على شروط الحياة المادية في تعليلاتها وخاصة على أسلوب الانتاج ، ولكنها جعلت من أسلوب الانتاج العامل الرئيسي ، وليس العامل الوحيد كما رأينا . ولهذا وجب تمييزها عن المادية الاقتصادية التي تعتبر نظرية وحيدة العامل . اذ تعلل جميع الظواهر الاجتماعية بالعوامل الاقتصادية فقط . ويجب أن نلاحظ أخيراً ان الماركسية ككل نظرية وخاصة كل نظرية لاتزال تحمل بعضاً من المسحة الميتافيزيكية ، وككل سوسيولوجيا وككل تركيب فكري **بشري ، يمكن ان تتعرض لنقدنا ، ويمكن ان نأخذ عليها المآخذ ، ويمكن ان نظهر فيها بعض نقاط الضعف** ، اذ يمكن القول ان الطريقة الديالكتيكية ، مغالية في تفتيشها عن الأضداد والتناقضات في الكون بأسره وحتى في عالم الجماد ، وفي هذا كثير من الاصطناع ، وكذلك يمكن ان نوجه النقد إلى المادية الفلسفية الماركسية التي اعتبرت ان المادة أصل الحياة ، لأنها على قيمتها لاتزال نظرية غير محققة علمياً وبصورة أكيدة ، ويمكن ان نوجه شيئاً من النقد لبعض أتباع المادية التاريخية وخاصة في تعليلاتهم لبعض الظواهر

يعود فيؤثر في المجتمع . ذلك لان هذا التأثير ليس ضرورياً فقط لكي تتم التبدلات المادية ، بل يلعب ايضاً في زمن معين ، الدور الحاسم والفاصل .

فالبنية ــ الفوقية تؤثر اذن في التطور الاجتماعي والنشوء التاريخي ، فهي بتأثيرها على الاساس ، تعجل بالتطور الاجتماعي او تعوقه وتعرقل سيره وتبطئه . فالبورجوازية المعاصرة تستعمل كل وسائل الضغط السياسي والايديولوجي للدولة البورجوازية لتخنق وعي البروليتاريا السياسي لتجعل منها في النتيجة آلة طيعة بيد الطبقات الحاكمة . فهنا تلعب البنية ــ الفوقية دوراً رجعياً . لأنها تعوق سير البروليتاريا نحو تحقيق الاشتراكية وتهديم الرأسمالية .

وقد لعبت البنية ــ الفوقية البورجوازية ، في السابق ، دوراً تقدمياً عندما استعملتها البورجوازية لتهديم الاقطاعية واقامة الرأسمالية . وفي النظام الاشتراكي ، تلعب البنية الفوقية أيضاً دوراً تقدمياً وثورياً فاعلاً في نشوء المجتمع والاقتصاد والقوى المنتجة . (٦٧)

وهكذا نجد أن الماركسيين يعلقون أهمية قوية على العنصر **الفكري والذاتي** والروحي في تطور المجتمع والتاريخ وتعليل الحوادث الاجتماعية . من المؤكد ، ان اهمية هذا العنصر ، هي بصورة عامة ، أقل من اهمية **العنصر المادي** والاقتصادي ، ولكنها على كل حال معتبرة في تعليل سير التاريخ والحوادث الاجتماعية ، ومعتبرة في بعض الاحيان ، كالعامل الحاسم كما رأينا . وكان من الممكن أن نعطي القارىء بعض تعليلات ماركسية للدين والفن والسياسة والاسرة والدولة . . لنظهر له هذا الاتجاه في التعليل ؛ ولكننا اعرضنا عن ذلك لأننا سنعود الى هذه الابحاث في كتبنا المقبلة .

ونعتذر للقارىء لاننا لم نتعرض لابحاث الماركسيين في الاشتراكية والدولة والاقتصاد . . ذلك لاننا نبحث هنا في النواحي السوسيولوجية والفلسفية فقط .

---

(٦٧) راجع : 1) Rosentah et youdine : Opi . cit pp . 39 - 41.

2) Politzer et autres : Opi cit : 213 - 260 et pp. 363 - 377

وقد صرح ماركس « تصبح النظرية قوة مادية منذ دخولها الجماهير »(٦٣)

وقال انجلز بوضوح ، رداً على « الاقتصاديين » والمنشفيك الذين كانوا يعتقدون ان البنية ـ الفوقية منفعلة التأثير : « الوضع الاقتصادي هو الاساس ، ولكن مختلف عناصر البنية ـ الفوقية ـ الاشكال السياسية لصراع الطبقات ونتائجه ـ والدساتير التي تقام عندما تكسب الطبقة الظافرة المعركة الخ ، الاشكال الحقوقية وحتى انعكاسات كل هذه الصراعات الواقعية في دماغ المشتركين (فيها) والنظريات السياسية والحقوقية والفلسفية ، والمفاهيم الدينية وتطورها المقبل الى مذاهب عقائدية ، تؤثر ايضاً في مجرى الصراعات التاريخية وتعين بصورة مسيطرة ، وفي حالات عديدة ، **شكلها** . فهناك **فعل وتفاعل** بين كل هذه العوامل . . . »(٦٤)

ويلح انجلز على التفاعل بين **السبب والنتيجة** . كما يلح على فكرة النجوع (efficacité) الجدلي والتفاعل بين السبب والنتيجة .(٦٥)

ويقول في مكان آخر : « يرتكز النشوء السياسي والحقوقي والفلسفي والادبي والفني على النشوء الاقتصادي ، ولكن يؤثر كل منهما في الاخر وفي الاساس الاقتصادي . ليس الوضع الاقتصادي **السبب الفاعل**(active)الوحيد وكل ما تبقى ليس سوى نتيجة منفعلة (Passif) ، بل يوجد ، في نهاية التحليل . داخل مجال تسيطر فيه الضرورة الاقتصادية ، **تبادل** يؤكد ذاته دائماً . »(٦٦) وصحيح ان الوجود الاجتماعي يعين ويحدد الشعور الاجتماعي ، ولكن هذا

---

(٦٣) نقلا عن ستالين الهادية الديالكتيكية ... ص ٣٨

(٦٤) Engels : « Lettre à Joseph Bloch» 21 Septembre 1890,in
Marx Engls : Etudes philosophiques . P. 128

(٦٥) راجع : Ibid . PP . 140 ss .

(٦٦) نقلا عن : Gurvitch et Moore:La sociologie au XXe siécle
Tom . II P. 694 (Paris.P.U.F.1947)

المجتمع الرأسمالي الذي يتألم منها ملايين الكادحين مع نسائهم وأطفالهم [٦٠] .

ولكن لماذا تبقى الرواسب الفكرية بعد زوال الشروط الموضوعية التي سوغت (بررت) وجودها ؟

يقول الماركسيون : يعود هذا الى كون الشعور يعتبر تالياً (او متأخراً) الواقع المادي (الطبيعة والمجتمع) . فهناك تأخر من قبل الشعور عن الوضع الموضوعي. وكذلك تبقى بعض رواسب فكرية في أذهان الناس بعد زوال شروطها المادية،وتظل عائقاً للافكار الجديدة المتوافقة مع الشروط الموضوعية الجديدة ، ولكن تزول هذه الرواسب، مخلفات الماضي ، عندما يصبح الحاضر غير مقبول ولا يمكن تحمله ، وعندما يبحث الناس عن **حاضر جديد**،وعندئذ تذريها رياح المستقبل . [٦١]

التفاعل بين الاساس والبنية - الفوقية: بين الاساس والبنية الفوقية علاقة ديالكتيكية . اذ يكونان في الكل الاجتماعي ، وحدة عضوية ، ولهذا يحصل بينهما تأثير متبادل ، أي تفاعل مستمر ودائم . فالبنية - الفوقية متولدة من الاساس ، ولكن هذا لا يعني أنها تكتفي بأن تعكس الاساس ، أي انها تعتبر منفعلة ومعطلة الأثر وغير مكترثة لما يحدث في الاساس . انها على العكس من ذلك ، تصبح منذ ولادتها قوة ناشطة واسعة الأثر ، تساعد أساسها على الترسخ واثبات ذاته وفرضها ، ذلك لان الاساس ولدها لتدعمه وتثبته وتساعده على الكفاح ليهدم الاساس القديم الذي أصبح باطلا مع بنيته - الفوقية . فالبنية - الفوقية عبارة عن أداة ووسيلة بيد الطبقة المسيطرة . [٦٢]

---

(٦٠) راجع 1°) Politzer et autres P.P. 234 - 238.

2°) Marx : Préface à la contribution...PP . 73 - 74

(٦١) Politzer et autres : PP. 238 - 239

(٦٢) راجع Staline : Apropos du marxisme en linguistique . P.P 13 - 15

وستالين : المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية . ص ٣٦-٣٨

القائلة : ان الانتاج يحدد (او يعين) مباشرة البنية – الفوقية ، بينما يحدده ، بصورة غير مباشرة ، بواسطة الأساس الاقتصادي ، فالاساس تحدده مباشرة القوى المنتجة في المجتمع ، والبنية – الفوقية ليست مرتبطة **بالانتاج** ، بالقوى المنتجة ، الا بصورة غير مباشرة ، بواسطة **الاقتصاد**، او بواسطة **الاساس** . وتعكس البنية – الفوقية التبدلات التي تطرأ على مستوى نشوء (او تطور) القوى المنتجة ، ليس بصورة مباشرة ، ولكن على أثر تبدلات الاساس ، ومن خلال هذه التبدلات . وقد حلل ستالين بشكل عميق العلاقة بين البنية–الفوقية والاساس ، اذ يعتقد ان الاساس الاقتصادي عندما يتبدل يجر بصورة طبيعية الى تبدل في البنية – الفوقية ، التي ترتبط به ارتباطاً وثيقاً ، وهناك أمثلة تاريخية تدل بصورة واضحة لماذا تتغير الافكار السياسية والحقوقية ...حسب العصور التاريخية ... فالبنية – الفوقية عبارة عن نتاج عصر يعمل فيه اساس اقتصادي معين ، فهي لذلك لاتدوم ، نسبياً ، زمناً طويلا . فلكونها مرتبطة بأساس اقتصادي معين ، فهي تزول بزواله (وان بقيت بعض الاحيان منها بعض رواسب غير ذات قيمة) .[٥٩]

ولكن كيف تظهر الافكار الجديدة ؟ يقول الماركسيون : تظهر الافكار الجديدة كحل لتناقض موضوعي نشأ في المجتمع ،فعندما تنشأ تناقضات في مجتمع معين ، وعندما تبلغ هذه التناقضات **مبلغاً** كافياً من الحدة ، فانها تطرح عندئذ مشكلة حلها . فتظهر بهذا الافكار الجديدة كمحاولة لحل هذه التناقضات . فالنشوء الموضوعي للتناقضات الخاصة بالمجتمع الاقطاعي – عدم التوافق بين قوى الانتاج الهرمة والقوى المنتجة الجديدة – أثار في ذهن الطبقة الصاعدة (البورجوازية) الافكار الثورية من سياسية واجتماعية وفكرية وأخلاقية ... وعلى هذا الشكل ولدت الافكار الاشتراكية لتحل تناقضات

---

(٥٩) راجع : 1°) Rosentahl et youdine : opi . cit . PP. 223-240

2°)G.Politzer et autres : opi . cit . PP.223 - 240

الروحية للمجتمع هي انعكاس لهذا الواقع الموضوعي ، انعكاس للكينونة (L. être) »[٥٦]

ولكن الماركسيين اعطوا الاهمية الاساسية في الموجود الاجتماعي لأسلوب الانتاج ومظهريه : القوى المنتجة ، وعلاقات الانتاج . وأعطوا الاهمية المباشرة لعلاقات الانتاج في تعليل **الظواهر الاجتماعية والروحية** . وقد سموا البنية الاقتصادية للمجتمع في مرحلة معينة من مراحل تطوره : **الاساس**، أو القاعدة (La base) أو كما يدعوها السوسيولوجيون الغربيون البنية ـ التحتية ، بينما سموا الافكار السياسية والفلسفية والدينية والفنية ... البنية الفوقية .

ويعني الماركسيون بالاساس (أو القاعدة) مجموع علاقات الانتاج التي يحدد سمتها (أو طابعها) شكل الملكية . وقد قال ماركس : «يدخل الناس، في انتاجهم الاجتماعي لوجودهم ، في علاقات معينة ، ضرورية ومستقلة عن إرادتهم ، علاقات الانتاج التي تتوافق مع درجة تطور معينة لقواها الانتاجية المادية . »[٥٧] ويتابع ماركس قوله : « يشكل مجموع علاقات الانتاج هذه البنية الاجتماعية للمجتمع ، الاساس الواقعي الذي تقوم عليه بنيه ـ فوقية حقوقية وسياسية ، تتوافق مع اشكال معينة للشعور الاجتماعي فأسلوب الانتاج للحياة المادية يحدد قضية الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية عامة . فليس شعور الناس هو الذي يحدد (أو يعين) وجودهم ، بل على العكس من ذلك ، يحدد وجودهم الاجتماعي شعورهم . »[٥٨]

ويحذر الماركسيون من الوقوع في فكرة الخلط بين الأساس والانتاج ، فالأساس لايمكن ان يفصل عن الانتاج ، ولكن لايمكن مع ذلك ، أن يوحد بينهما . ذلك لأننا اذا وقعنا في هذا الخلط فمن الجائز أن نقع في الفكرة الخاطئة

---

(٥٦) Staline : Matérialisme dialectique .... P . 14

(٥٧) Marx : Préface à la contribution à la critique de l.éc - onomie politique . Edit . sociales.P.P.72 - 43

(٥٨) Ibid. P . 43

البنية — التحتية (infrastructure) **او الاساس** (la base) **والبنية الفوقية** (Superstructure) : لم تكتف الماركسية بأن تكون فلسفة تعلل التطور التاريخي والاجتماعي ، بل حاولت أيضاً ان تكون سوسيولوجيا تعلل الظواهر والمؤسسات الاجتماعية . وليتم لها هذا الغرض ، ولتكون متوافقة مع نظراتها الفلسفية المادية ، ميزت بين **الوجود الاجتماعي** (existence sociale) والشعور (أو الوعي) الاجتماعي (Conscience Sociale) . ويعني الواقع الاجتماعي ، لدى الماركسيين ، شروط الحياة المادية للمجتمع ، وخاصة اسلوب الانتاج والنظام الاقتصادي للمجتمع . ويعني الشعور الاجتماعي بالنسبة اليهم ، النظرات والأفكار الفلسفية والسياسية والعلمية والفنية والدينية والاخلاقية .. فما هي العلاقة بين هذين العنصرين ؟ بما ان الماركسية تعتبر الوجود معطى أول والشعور معطى ثانياً ، (الشعور أو الوعي عبارة عن نتاج الدماغ البشري) كذلك تعتبر الوجود الاجتماعي معطى أول ، والشعور الاجتماعي معطى ثانياً ، فالوجود الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي أي الحياة الروحية للمجتمع ، لا العكس .

يقول ماركس . «ليس شعور الناس هو الذي يحدد (أو يعين) وجودهم ، بل على العكس من ذلك ، يحدد وجودهم الاجتماعي شعورهم .»(٥٥)

ويقول ستالين : « اذا صح ان الطبيعة ، الكينونة ، العالم المادي ، هي المعطى الاول (donnée première) ، بينما الشعور ، الفكر ، هو المعطى الثاني ، المشتق ؛ واذا صح ان العالم المادي هو واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن شعور الناس ، بينما الشعور عبارة عن انعكاس لهذا الواقع الموضوعي ، نتج عن ذلك ان الحياة المادية للمجتمع ، كينونته (أو وجوده) هي ايضاً المعطى الاول . بينما حياته الروحية عبارة عن المعطى الثاني ، المشتق ، وان الحياة المادية للمجتمع موجودة بصورة مستقلة عن ارادة الناس ، بينما الحياة

---

(٥٥) Marx : Préface à la contribution ...P.43.

ولتنجح الطبقة الثائرة والمستغَلة ، يجب ان تنتظم داخل حزب أو تنظيم سياسي قوي ، وتتسلح بايديولوجيا ثورية تتعارض وايديولوجيا الطبقة المستغِلة ، وتعي وضعها السيء الذي تخضع له ، وتعي قيمتها كطليعة تناضل في سبيل مستقبل يتحرر فيه الناس ويتساوون بحقوقهم وواجباتهم ، وينقضي فيه الاستغلال البشع والمجتمع القائم على أساس الطبقات الوراثية أو القائمة على أساس المال والاستغلال ...

ويعتقد الماركسيون ان صراع الطبقات يطبع ، في المجتمع المنقسم إلى طبقات متنازعة ومتطاحنة ، الاقتصاد والسياسة والايديولوجيا . والاشكال الاساسية لصراع البروليتاريا هي الصراع الاقتصادي والصراع السياسي والصراع النظري . والصراع السياسي هو الشرط الاساسي لتحرير البروليتاريا والمجتمع القائم على الاستغلال بأسره . ويأتي الصراع الاقتصادي والصراع النظري كتابعين للصراع السياسي . (٥٣)

ويعتقد الماركسيون ان صراع الطبقات سيستمر في المجتمع الى الأبد . ولكنه سيتخذ في المجتمع الشيوعي شكلا آخر . لأن الماركسيين ميزوا بين تناقضات حادة تنازعية وتناحرية (antagoniques) ، وتناقضات غير تنازعية وغير تناحرية . فالأولى تظهر في المجتمعات الاستغلالية ، بينما تظهر الثانية في المجتمعات الشيوعية التي يزول فيها الاستغلال ، فهنا لن يبقى ، كما يقول الشيوعيون ، طبقات متناجرة ومتعادية ، لأن التناقضات الحادة ستزول بزوال التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . وقد يحدث في المجتمع الشيوعي تناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، ولكنه لن يؤدي الى صراع طبقي عنيف وثورات دموية ، ذلك لانه لن يبقى في هذا المجتمع طبقات تعاكس الحاجة الى تجديد علاقات الانتاج لتتوافق مع القوى المنتجة . (٥٤)

---

(٥٣) راجع Rosentahl et Ioudine : Opi . cit . P . 331 — 332

(٥٤) راجع Ibid : PP . 335 — 337

التناقض الا بالثورة المسلحة والدامية . ذلك لأن الطبقة المستغلة تتشبث بكل القوانين والأوضاع التي تحفظ امتيازاتها وحظواتها واستغلالها . وبهذا يصبح الصراع الطبقي القوة المحركة لتطور المجتمع المنقسم الى طبقات متناحرة ، وبهذا يطبق الماركسيون على المجتمع ، قانون صراع الاضداد الذي هو المحرك لكل تغير وتبدل في كل واقع ... ولذا قال انجلز في احدى مقدمات البيان الشيوعي : «ان الفكرة الرئيسية السائدة في البيان — وهي ان الانتاج الاقتصادي والبنية الاجتماعية ، التي تنشأ عنه بالضرورة ، يؤلفان في كل عهد تاريخي اساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد ، ولذا **كان التاريخ بأسره** (منذ انحلال الملكية البدائية المشتركة للارض) ، تاريخ صراع بين الطبقات : الطبقات المستغِلة والطبقات المستغَلة ، الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة ، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي ، ولكن هذا الصراع وصل في الوقت الحاضر الى مرحلة اصبحت فيها الطبقة المستغلة والمضطهدة ، البروليتاريا ، لا تستطيع أبداً أن تتحرر من نير الطبقة التي تستغلها وتضطهدها ، البورجوازية دون ان تحرر في الوقت نفسه ، والى الابد ، المجتمع بأسره من الاستغلال والاضطهاد دون صراع الطبقات . »[٥١]

وجاء في البيان الشيوعي على لسان ماركس وانجلز : « ان تاريخ كل مجتمع الى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات ، فالحر والعبد ، والنبيل والعامي ، والسيد والاقطاعي والقن ، ورئيس الحرفة والصانع ، وباختصار المضطهِدون والمضطهَدون ، كانوا في تعارض دائم ، وكانت بينهم حرب مستمرة ، تارة ظاهرة ، وتارة مستترة ، حرب كانت تنتهي دائماً إما بتغيير ثوري يشمل المجتمع بأسره ، وإما بانهيار الطبقتين المتطاحنتين معاً . »[٥٢]

---

(٥١) ماركس وانجلز : البيان الشيوعي (ترجمة بكداش) مع بعض التعديل والتصحيح ص ١٠ — ١١

(٥٢) المصدر السابق . ص ٢٣ — ٢٤

فعل الناس أو أثرهم يبقيان عقيمين في دفع عجلة التطور الاجتماعي اذا غفلوا عن هذا القانون الموضوعي. فالناس اذا عرفوا هذا القانون ، استطاعو بعملهم الواعي ان يخلقوا الشروط المناسبة والملائمة (أو غير المناسبة وغير الملائمة) لتحقيقه . فإدارة الناس ، **العامل الذاتي** ، لايمكن أن تصبح فاعلة ومجدية الا اذا هدفت الى تسهيل تطبيق القانون **الموضوعي** . لان الارادة تصبح كلمة فارغة عندما تجهل **سلطتها او قدرتها** (Son Pouvoir) . ولهذا يقول الماركسيون يصنع الناس تاريخهم الخاص بهم ، وفي شروط معينة يجب الانتباه اليها ، ولكن يقتضي صنع التاريخ مقاومة **الطبقات الرجعية** التي تقاوم التبدلات الضرورية في اسلوب الانتاج ، وصنع التاريخ هو ، اذن ، مهمة المستغلين والمضطهدين ، فالتاريخ هو تاريخ منتجي الخيرات المادية ، فالذي يصنعه اذن هي الجماهير المضطهدة والمستغَلة : فالشعب : هو **الخالق الحقيقي للتاريخ** .

— **صراع الطبقات** : في المجتمعات المقسومة الى طبقات متناحرة ومتنازعة ، يؤدي التناقض بين علاقة الانتاج القديمة والقوى المنتجة التقدمية ، الى نزاع أو تصارع حاد ، لاتحله الا **الثورة الاجتماعية** الدموية . والذي يقيم قانون التوافق بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة هي **الطبقة الاكثر تقدماً وتقدمية** ؛ لأن تهديم علاقات الانتاج القديمة وابدالها بعلاقات انتاج حديث — يتجاوبان مع مصالحها الحيوية . هذا مافعلته البورجوازية مع الاقطاعيين بثوراتها الحادة الثورة الفرنسية والثورة الانكليزية ... وهذا مافعلته الطبقة الكادحة في روسيا مع الارستوقراطيين والبورجوازيين الرأسماليين بثورة اكتوبر ١٩١٧ . والتناقضات الحادة التي تظهر الآن في البلاد الرأسمالية ، وعلائمها : الازمات الاقتصادية ، ستؤدي حتماً الى قلب النظام الرأسمالي فيها على يد الطبقة الكادحة ، الطبقة الاكثر تقدمية . ذلك لان الطبقة الكادحة تنتج ، والطبقة البورجوازية تستولي على حصة الاسد في ارباح الانتاج . فصراع الطبقات يعكس التناقض الأساسي القائم في علاقات الانتاج بين المستغلين والمستغَلين . ولا يحل هذا

بل تأخذ بالهرم وتدخل في تناقض مع النشوء المقبل او التالي (Ultérieur) للقوى المنتجة ؛ وتفقد شيئاً فشيئاً دورها كمحرك أساسي للقوى المنتجة وتصبح بالنسبة اليها عائقاً [٤٨] » ولكن تأخر علاقات الانتاج على القوى المنتجة لايدوم طويلا اذ يأخذ التناقض بينها بالحدة ، ويظهر نضال قوي بين الطبقات المستغلة والطبقات المستغلة ، يؤدي في النتيجة الى تغيير علاقات الانتاج بأخرى جديدة تتوافق مع القوى المنتجة . ومهما طال تأخر علاقات الانتاج فانها يجب في النهاية ان تقلب وتحل محلها علاقات جديدة تلائم التطور **الاجتماعي والتكني** والفكري والاقتصادي للقوى المنتجة ويتم هـذا بقلب وتغيير **اشكال الملكية** ، التي تشكل العنصر الاساسي في علاقات الانتاج . فاقامة نظام جديد للملكية يعادل اقامة علاقة جديدة للانتاج . وبهذا يمكن القول ان القوى المنتجة تثير وتبعث علاقات الانتاج التي تحتاجها لتحقيق التقدم المقبل .

وبهذا المعنى تعتبر القوى المنتجة العنصر المحدد في نشوء وتطور الانتاج وهذا هو قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج وسمة (او طابع) القوى المنتجة . ولهذا قال ستالين : « كما تكون القوى المنتجة ، يجب ان تكون علاقات الانتاج ». [٤٩]

ويعتقد الماركسيون بأن هذا القانون شامل وعام ، أي ينطبق على جميع أساليب الانتاج ، مهما كانت قوانينها الاقتصادية الخاصة بها . وهو يكمن في أساس تطور المجتمعات البشرية بكامله [٥٠].

— **دور الناس في هذا التطور** : لايتم هذا التطور من ذاته . ولايعني هذا القانون ان التطورات الاجتماعية تحصل بصورة عفوية دون **ارادة الناس** ولكن

---

(٤٨) Ibid : P . 151 .

(٤٩) Staline : Matérialisme dialectique ... P . 23

(٥٠) من اجل هذا القانون راجع :
Rosentahl et Ioudine : opi . cit . PP . 319 - 321 .

الانتاج ،اي نمط تحصيل العيش ، فانهم يغيرون جميع العلاقات الاجتماعيـة . ستعطيكم طاحونة الهواء المجتمع مع السيد (السيد الاقطاعي) ، وستعطيكم طاحونة الهواء المجتمع مع الرأسمالي الصناعي .

وبما أن بين الضدين علاقات ديالكتيكية ، فان علاقات الانتاج والقوى المنتجة تتبادل التأثير ، أي يحصل **بينها تفاعل** . لهذا تتأثر علاقات الانتاج بالقوى المنتجة ، ولكنها تعود بدورها فتؤثر في القوى المنتجة . فعلاقات الانتاج في النظام الاقطاعي ، مثلا ساعدت ، بتحويلها الرق الى قن ، على نمو ونشـوء القوى المنتجة أكثر منها في نظام الرق . وعلاقات الانتاج في النظام الاقطاعي كانت تعيق تقدم القوى المنتجة للبورجوازية ، **التجارية والمالية** والصناعية . وقد حجر الاقطاعيون هذه العلاقات بتنظيم وترسيخ نظام الاصناف ، ليعيقوا تقدم البورجوازية وقطع الطريق عليها كطبقة تريد ان تتوصل الى السيطرة والحـكم ، فعلاقات الانتاج تؤثر في القوى المنتجة :فإماأن **تعرقل** نموها، واما أن **تنشطه** . فهي تعرقله عندما لاتتوافق مع انطلاق القوى المنتجه ، وتنشطه عندما تتوافق مع حالة القوى المنتجة . وعندما تتوافق علاقات الانتاج مـع قوى الانتاج فانها تصبح بالنسبة اليها القـوة الرئيسية والمحرك الرئيسي اللذين يدفعانها الى الامام (٤٧) .

نتوصل الآن الى فهم الديالكتيك الداخلية لاسلوب الانتاج . تحقق القوى المنتجة في حقبة قد تطول وتقصر ، تقدماً ، وفي بدء هذه الحقبة تتوافق علاقات الانتاج مع القوى المنتجة ، ولكنها تأخذ مع الزمن بالتأخر عنها في التـقدم ، فتعاكسها **وتضادها** ويصبح بذلك عائقاً لها . ولهذا قال ستالين : « من المؤكد ان علاقات الانتاج الجديدة ، لايمكن ان تبقى ، ولاتبقى جديدة الى الأزل،

---

(٤٧) راجع :

Staline : Les problèmes économiques du Socialisme en U.R.S.S. P.150 ss.

وقد جردت البورجوازية من أكاليل نصرها جميع النشاطات التي كان ينظر اليها حتى ذلك الحين نظرة اجلال وتبجيل ، وتقابل باحترام قدسي . وجعلت من الطبيب والمشرع والكاهن والشاعر والعالم أجراء لأجورها .

ومزقت البورجوازية حجاب العاطفية التي كانت تلف العلاقات الأسروية ، وجعلت منها مجرد علاقات مال . » (٤٦)

وهكذا فالبورجوازية حاولت أن ترسخ بكل الوسائل أسلوب الانتاج الذي كانت هي نتاجا له .

قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج وسمة أو طابع القوى المنتجة : قلنا ان أساليب الانتاج تتبدل وتتغير خلال مجرى التاريخ . وتتعرض ككل واقع ، لتبدلات كمية ، أي لتطور ، تعقبها تبدلات كيفية يمكن ان تتخذ شكلاً ثوريا عندما تعاكس الطبقات ذات الامتيازات والحظوات ، والتي أخذت بالتدهور ، التبدلات الضرورية . ومحرك هذه التغيرات أو التبدلات هو ، كما في كل واقع ، **تناقض داخلي** صميم . فما هو التناقض الخاص بأساليب الانتاج ؟ إنه التناقض بين علاقات الانتاج وسمة القوى المنتجة .

اذ تعتبر القوى المنتجة العنصر الاكثر ثورية والاكثر حركية وتبدلا بين عناصر الانتاج . قلنا ان اولى خصائص الانتاج هي كون تبدلات أو تغيرات اسلوب الانتاج تسبب تبدلات سيماء المجتمع بكامله . والخاصة الثانية للانتاج هي كون القوى المنتجة تتبدل وتتغير قبل سواها في عناصر الانتاج ، والذي يتبدل فيها قبل سواها هي **أدوات الانتاج** . وتتبدل علاقات الانتاج تبعاً للتبدلات التي تحصل في القوى المنتجة ، وقد كتب ماركس في هذا الصدد : « ترتبط علاقات الانتاج بصورة وثيقة بالقوى المنتجة ، وعندما يتوصل الناس الى قوى منتجة جديدة فإنهم يبدلون اسلوب انتاجهم ، وبتغييرهم لاسلوب

---

(٤٦) Marx et Engels : Le Manifeste communiste (Edit . Sociales) . P . 31

الطويل . وعندما يتبدل اسلوب الانتاج فإن المجتمع بجميع نواحيه يتأثر بهذا التبدل . لهذا فإن أسلوب الانتاج وحده هو الذي يمكننا من تعليل لماذا يعقب نظام اجتماعي معين نظاماً اجتماعياً آخر ، ولماذا تتغير الأفكار الاجتماعية والآراء والمؤسسات السياسية ، ولماذا يجب نقض النظام الاجتماعي والسياسي من أساسه في مرحلة معينة . فعندما حلت البورجوازية محل الاقطاعية هدمت النظام الاجتماعي السائد ، وألغت الاصناف والتضييقات المفروضة على الانتاج ، وأقامت نظاماً سياسياً جديداً دعمته بالفلسفة والقانون ، وأسست البرلمانات وجعلت أخلاقها تسيطر ، وألغت رابطات العمال لتحمي نفسها من صراع وكفاح البروليتاريا المستغلة .

وبهذا فرضت على الناس « نمط الحياة » البورجوازي والأفكار الخاصة به. ولهذا قال ستالين: «(لكل) نمط معين من الحياة ، نمط معين من التفكير.»(٤٥)

وقال ماركس وانجلز في البيان الشيوعي يصفان اسلوب البورجوازية في تهديم المجتمع الاقطاعي : «لقد لعبت البورجوازية في التاريخ دوراً ثورياً بصورة أساسية . فحيثما استولت على السلطة سحقت تحت أقدامها العلاقات الاقطاعية والأبريسية (Patriarcales) والغرامية ، وحطمت دون رحمة ، العلاقات المعقدة والمنوعة التي تربط الانسان الاقطاعي بأسياده الطبيعيين ، ولم تبق على صلة بين الانسان والانسان ، سوى المصلحة الباردة والضرورات القاسية للدفع المباشر . واغرقت في مياه الحساب الأناني الجليدية الهزات المقدسة للوجد الديني ، والحماس الفروسي وعاطفية البورجوازية ـ الصغرى . وجعلت من الكرامة الشخصية مجرد قيمة مبادلة ، وأحلت محل الحريات العديدة ، التي كلف التوصل إليها غالياً ، حرية التجارة ، تلك الحرية الوحيدة ، فاقدة الرحمة . وباختصار ، أحلت استغلالا مفتوحاً ووقحاً ومباشراً وعنيفاً محل الاستغلال الذي كانت تحجبه الأوهام الدينية والسياسية .

---

(٤٥) Staline : Matérialisme dialectique ... 3 . b . 22.

المحدودة للتشغيل ـ وهو القن الذي لم يعد في استطاعة الاقطاعي قتله ، غير ان في إمكانه بيعه وشراءه ـ أساس علاقات الانتاج ...

وفي النظام الرأسمالي تؤلف الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج، أساس علاقات الانتاج . أما امتلاك المنتجين ، أي العمال الاجراء ، فليس له وجود ، ولا يستطيع الرأسمالي قتلهم ولا بيعهم ، لأنهم محررون من كل تبعية شخصية . غير أنهم محرومون من وسائل الانتاج ، وهم مضطرون ، لكي لا يموتوا جوعاً ، ان يبيعوا قوة عملهم للرأسمالي وان يعانوا نير الاستغلال . وهنالك الى جانب الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج ، ملكية الفلاح والحرفي الخاصة لادوات الانتاج بعدما تحررا من القنانة ....

أما في النظام الاشتراكي، في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاخرى، فتؤلف الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج أساس علاقات الانتاج . هنا لا يبقى مستغلون ولا مستغَلون ، وتوزع المنتجات حسب العمل الذي يقدمه كل انسان، وتبعاً للمبدأ القائل : « من لا يعمل لا يأكل » . أما العلاقات بين الناس في عملية الانتاج ، فهي علاقات تعاون أخوي وتعاضد اشتراكي بين شغيلة محررين من الاستغلال ... (٤٤)

فالماركسيون يجدون في **أسلوب الانتاج القوة الأساسية** في النشوء والتطور التاريخيين والاجتماعيين . **ولكن كيف يتم التطور الاجتماعي ؟**

تبدل أسلوب الانتاج هو مفتاح تاريخ المجتمعات : يقول الماركسيون : إحدى خصائص الانتاج الرئيسية هي في كونه خاضعاً لتبدل مستمر ودائم ، . ذلك لأن الناس يحاولون دائماً ان يحسنوا وسائل انتاجهم وبالتالي انتاجهم ليتوصلوا الى جني أقصى فائدة ممكنة من الطبيعة . ويرى الناس في الانتاج الوسيلة التي تمكنهم من استغلال الضرورة الطبيعية ، لهذا كان الانتاج متبدلا ليتوافق مع أوضاع الناس وحاجاتهم ومتطلباتهم في كل مرحلة تاريخية من تاريخهم

---

٤٤ – راجع : ستالين : المادية الديالكتيكية ... ص ٥٠ – ٥٥

الانتاج ؟ هل هو المجتمع بأسره ، ام افراد قلائل ،أم رهوط معينة ؟ فاذا كان في المجتمع فئة تعمل ، وفئة اخرى تستغل انتاج الفئة الاولى، كان هناك مجتمع منقسم الى طبقات **متنافرة** ومتخاصمة ومتنازعة . فهناك اذن ملكية خاصة لوسائل الانتاج .

ونتمكن الان من تحديد العناصر التي تشملها علاقات الانتاج . يقول ستالين تشتمل علاقات الانتاج على مايلي :

أ ـ اشكال ملكية وسائل الانتاج، ب ـ وضع مختلف الرهوط الاجتماعية في الانتاج وعلاقاتها المتبادلة (وعلى حد تعبير ماركس : تبادل فاعلياتهم) التي تتحدر من هذه الاشكال ؛ جـ ـ أشكال توزيع المنتجات التي تتعلق بها[٤٢]

فأشكال الملكية هي التي تؤلف العنصر الحاسم في علاقات الانتاج . وعلاقات الانتاج التي تثبت بنظام ملكية وسائل الانتاج تشكل الاساس والقاعدة (la base) **الاقتصادية للنظام الاجتماعي باسره**[٤٣]

وقد سجل التاريخ خمسة انماط اساسية لعلاقات الانتاج : المتحد البدائي (أو المشاعية البدائية) ، الرق ، الاقطاعية ، الرأسمالية والاشتراكية .

ففي نظام المشاعية البدائية ، تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، اساس علاقات الانتاج .

وفي نظام الرق تؤلف ملكية سيد العبيد لوسائل الانتاج وللشغيل ـ اي العبد الذي يستطيع بيعه وشراءه وقتله كالماشية ـ اساس علاقات الانتاج . وفي النظام الاقطاعي تؤلف ملكية النبيل الاقطاعي لوسائل الانتاج ،وملكيته

---

٤٢ ـ Staline : Les problémes économiques du Socialisme en U. R. S. S. p. 162 (Edit sociales).

٤٣ ـ من أجل علاقات الانتاج راجع :

1) Rosentahl et youdine: opi. cit. pp. 519 — 520

2) G. Politzer et autres : opi. cit pp. 239 — 304

هذه العلاقات اشكالا شتى : ـ اذ يمكن للناس ان يشتركوا بصورة حرة ويتعاونوا ويتآزروا لانجاز عمل مشترك . كأن يتعاونوا على انشاء بيت ، فهنا العلاقات قائمة على التعاون والتآزر ـ ويمكن للناس ان يجبروا فئة على انتاج عمل معين قائم على القسر ، كما يفعل الاسياد مع العبيد . فهنا اختلفت علاقات الانتاج اختلافاً جذرياً لانها قائمة على الخضوع والسيطرة وبالتالي على الاستغلال . . .

ولهذا قال ماركس : « في الانتاج ، لا يؤثر الناس في الطبيعة فقط ، ولكن في بعضهم البعض ايضاً . ولا ينتجون الا متآزرين حسب صورة معينة ، ومتبادلين فيما بينهم فاعلياتهم . ولينتجوا ، فانهم يدخلون فيما بينهم في علاقات معينة ، ولا يقوم فعلهم في الطبيعة ، أي الانتاج ، الا في حدود هذه الروابط وهذه العلاقات الاجتماعية . »[١]

ولهذا فلا يمكن ان نفصل بين **القوى المنتجة** وعلاقات الانتاج ، ذلك لانها تكوّن مظهري أسلوب الانتاج ، كما قلنا سابقاً .

وهكذا فالمادية التاريخية تنظر الى اسلوب الانتاج كوحدة وفي مظهريه : القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . ولكنها تشير الى اسلوب الانتاج بعلاقات الانتاج القائمة فيه ، ذلك لان القوى المنتجة لا يمكن ان تعمل الا ضمن هذه العلاقات .

ولكن ما هو العنصر الذي يحدد سمة علاقات الانتاج ؟ **انها ملكية وسائل الانتاج** . ووسائل الانتاج هي كل ما هو ضروري للانتاج . وتشتمل في المجتمع الحديث الثروات الطبيعية (الارض . الغابات ، المياه والمواد الاولية) وادوات الانتاج ، والمنشآت الصناعية (المعامل والمصانع) . .) ووسائط المواصلات ومنشآت المبادلة والتوزيع والمصارف . . ولكي نحدد سمة (أو طابع) علاقات الانتاج ، يجب ان نطرح السؤال التالي : من يملك وسائل

---

١ - K. Marx : Travail Salarié et capital... p. 31

تعبر القوى المنتجة عن « سلوك الناس ازاء الاشياء وقوى الطبيعة التي يستخدمونها لانتاج الخيرات المادية . »[١]

وتثير حالة القوى المنتجة ايضاً الى الادوات التي ينتج بها الناس الخيرات المادية . وانتاجية العمل الاجتماعي تابعة للمستوى التاريخي الذي بلغه نمو ونشوء القوى المنتجة ، وصفة الادوات ، وخبرة الناس وعاداتهم في العمل . ففي كل مرحلة تاريخية معينة ، نجد ان حياة المجتمع تحددها القوى المنتجة التي يملكها هذا المجتمع . وفي كل تحليل للمجتمع واسلوب الانتاج يجب أن نسأل قبل كل شيء عن : مستوى القوى المنتجة لان تطور القوى المنتجة هو أساس تطور أسلوب انتاج الخيرات المادية . وتطور اسلوب الانتاج يؤدي الى تطور النظام الاجتماعي بكامله[٢].

ب - **علاقات الانتاج** (rapports de production) : ولكن القوى المنتجة لا يمكن ان توجد خارج شكل **اجتماعي معين ، اي خارج علاقات الانتاج** . صحيح ان الانتاج عبارة عن صراع الانسان ضد الطبيعة ولكن الانسان لا يكافح ضد الطبيعة ويصارعها منعزلا ومنفرداً ، وقد كافح الناس ضد الطبيعة مشتركين ، وحصل هذا في كل زمان ومكان . إذ مهما كان شكل الانتاج ، **فهو يحصل بتعاون** عدد معين من الناس ، اي انه **انتاج اجتماعي** . فالمجتمع هو الذي جعل الانسان على ما هو عليه ، وقد **نقله الانتاج الاجتماعي من حال الحيوانية الى حال البشرية** . وبما ان الانتاج اجتماعي ، لذلك كان من الطبيعي ان ينشأ بين الناس ، اثناء عملية الانتاج ، علاقات معينة ، تفرضها طبيعة الانتاج نفسه . فهناك علاقات الناس مع الطبيعة (القوى المنتجة) وعلاقات بين الناس تنشأ اثناء عملية الانتاج وتدعى علاقات الانتاج . ويمكن ان تتخذ

---

١ - Ibid : p. 20

٢ - من أجل القوى المنتجة راجع :
Rosentahl et youdine : op. cit. pp. 211 — 212

المانيفكتوري فساعد هذا على توزيع العمل بين عمال عديدين ، كل فئة مختصة بانتاج جزء منه ؛ وظهرت بعد هذا الآلة (**الماكينة**) فساعدت على ظهور **المصنع الآلي والمعمل** والصناعة الكبرى القائمة على الآلات ، وظهرت أولاً الآلات البخارية ، وبعدها الآلات الكهربائية ، وفي أيامنا هذه بعض الآلات الذرية.. هذا بصورة اجمالية تطور الوسائل الانتاجية ، وبالتالي القوى المنتجة ، خلال تاريخ البشرية ..[١]

وتطوير وسائل الانتاج يؤدي الى تطور في جميع النواحي الاجتماعية تقريباً. لهذا يقول ستالين : « من البديهي ان تطوير وتحسين أدوات الانتاج حققها الناس ، الذين لهم علاقة بالانتاج ، ولم يتحققا مستقلين عن الناس . ونتيجة لهذا يتطور ويتبدل الناس ، الذين يعتبرون عنصراً جوهرياً أو اساسياً في القوى المنتجة ، في نفس الوقت الذي تتطور وتتبدل فيه أدوات الانتاج ، وتتبدل خبرتهم في الانتاج وكفاءتهم في استعمال أدوات الانتاج . »[٢]

فالأداة (او الوسيلة) عبارة عن الوسيط بين الانسان والطبيعة ، ووظيفتها تحويل الاشياء الطبيعية الى « اشياء » يمكن استخدامها من قبل الانسان تعكس الاداة (او الوسيلة) ، في نفس الوقت ، الضرورات التي تفرضها **المادة التي نصنعها** (لا نصنع النحاس بنفس الادوات التي نصنع بها الحديد ...) ، والضرورات الحيوية للانسان ، أي صفات « الشيء » الذي يجب ان يستخدمه (يستغله) ويصنعه (لمهام مختلفة أدوات مختلفة).

فاذا نظرنا الى الامر من جهة المظهر الاول ، فالاداة تعبر عن خضوع الانسان للضرورة الطبيعية ، واذا نظرنا الى الامر من جهة المظهر الثاني ، فهي تعبر عن اخضاع الطبيعة لحاجات الانسان وفعله ، اي **تعبر عن حرية الانسان**. فالآلة تعبر بصورة ديالكتيكية عميقة عن الصراع بين الانسان والطبيعة ، بينما

---

١ - أعطى ستالين لوحة لتطور هذه القوى ، راجع : ستالين : المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ص ٤٨ - ٩٤ (الترجمة العربية) .

٢ - Ibid : pp. 23 — 24 (en Français)

rapports de production بين الناس اثناء الانتاج الاجتماعي .

فلندرس كلاً من هذين المظهرين على حدة .

أ ـ **القوى المنتجة** : تشتمل القوى المنتجة على :

١ـ ـ آلات ووسائل الانتاج التي تنتج الخيرات المادية بواسطتها .

٢ـ ـ الناس الذين يصنعون ويبتكرون هذه الآلات ويستخدمونها في انتاجهم ونخص بالذكر عدد الناس المنتجين .

٣ـ ـ خبرة الانتاج التي اكتسبتها الاجيال المتعاقبة خلال مراحل وعصور عديدة وتشتمل على : تقاليد المهنة ، والمعلومات التكنية العلمية .

٤ ـ ـ عادات العمل المتعلقة بكل عامل ، وتعني اختصاصه وحذاقته وتفرغه للعمل . هذه القوى بمجموعها وتفاعلها تؤلف القوى المنتجة . ولا شك ان انشط وأفعل هذه القوى جميعاً هم الناس الذين يصنعون الآلات ويستخدمونها في وجوه شتى ، وهم الذين يكتسبون خيرات الانتاج وهم الذين يكوبون عادات العمل . ولكن العنصر المحدد الذي يساعد على تحديد وتعريف **القوى المنتجة هي آلات الانتاج** . لان طبقة هذه الآلات أو الوسائل هي التي تحدد عدد الناس الضروريين للقيام بعمل ما ، والمعلومات التكنية والعملية اللازمة ، وكذلك عادات العمل التي يكتسبها المنتج خلال استعماله لها . فمظهر العمل **اليدوي والفكري** مرتبطان بطبيعة وسائل الانتاج . ويعتقد الماركسيون **ان نمو ونشوء وتطور القوى المنتجة مشروطة** بنمو ونشوء وتطور وسائل الانتاج : بدأ الانسان بالوسائل الحجرية البدائية ؛ واستعمل بعدها القوس والنشاب ، فساعد هذا على الانتقال من الصيد الى تدجين الحيوانات وتربيتها البدائية ؛ واستعمل بعدها الوسائل المعدنية فساعد هذا على الانتقال الى الزراعة ، وحسن وسائل انتاجه بعد ذلك فساعد هذا على ظهور الصناعات وانفصالها عن الزراعة او ساعد هذا على ظهور التقسيم الاجتماعي للعمل الذي يعتبر من عناصر الانتاج الهامة التي تؤثر في تطور الحياة الاجتماعية ..) ؛ وظهر بعد هذا العمل

الحاسم والقوة الاساسية في التطور الاجتماعي، وتحديد سمات النظام الاجتماعي في اسلوب انتاج الخيرات المادية .

يعتقد الماركسيون ، انه لايوجد شيء اجتماعي خارج **الناس والطبيعة** ، وانه لايمكن لاي من هذين العنصرين اذا فصل عن الاخر ان يعلل تطور ونمو نشوء المجتمعات ، والذي يمكن ان يعلل هذا هو **وحدتهم (الناس والطبيعة) الديالكتيكية : العمل والانتاج** . اذ لايستطيع المجتمع ان يعيش وينشأ ويتطور بدون العمل والانتاج ، والعمل ليس لعنة ، كما يعتقد اتباع التوراة ، بل هو **الشرط الموضوعي والضروري لكل وجود بشري** ، ولكن يمكن للمجتمع ان يوفر وسائل عيشه الضروري بأشكال مختلفة ، فهو يوفرها باستخدام آلات الحرفيين ، او الماكينات او الحيوانات ، او **الارقاء** .. اذن يجب ان ندرس النمط الذي يتم بحسبه الانتاج ، اي اسلوب الانتاج . فماذا يقصد الماركسيون بأسلوب الانتاج ؟ يقول الماركسيون يريد الناس ان يعيشوا ، وليعيشوا يجب ان يشبعوا حاجاتهم المادية التي تحفظ حياتهم وهي الحاجة الى الغذاء والشرب حفظ الجسد من البرد والحرارة وغائلة الحيوانات .. لذلك وجب ان ينتجوا الخيرات المادية : الغذاء ، الماء ، الثياب ، الاحذية المسكن ، الوقود وفي كل مرحلة من مراحل التطور البشري يستخدم الناس اسلوباً معيناً مهيمناً وظاهراً لتأمين هذه الحاجات **المادية الضرورية للمحافظة على البقاء** . فأسلوب الانتاج هو النمط الذي يتبعه الناس للحصول على وسائل الوجود من غذاء ولباس ومسكن وآلات انتاج او عمل ... ويرى الماركسيون ان البشرية ، منذ نشأتها حتى ايامنا هذه ، عرفت عدة اساليب او انماط للانتاج هي . **المتحد البدائي** (او المشاعية الاولية او البدائية) ، والرق ، والاقطاعية ، والرأسمالية والاشتراكية . ويتمثل اسلوب الانتاج في مظهرين هما . أ ـ **القوى المنتجة** (forces productives) في المجتمع وتعبر عن سلوك الناس **تجاه الاشياء وقوى الطبيعة** التي يستخدمونها لانتاج الخيرات أو الحاجيات المادية الضرورية ، ب ـ **وعلاقات الانتاج**

الطبيعة قوي في الحالة الاجتماعية البدائية ، وضعيف في المجتمعات الراقية . وقد رأينا ان استغلال الثروات الطبيعية تابع لمدى تطور وتحضر المجتمع [٣٦].

٢ ـ **السكان** : ويعتبر السكان ونموهم وتكاثرهم وكثافتهم عوامل ضرورية وشروط هامة بين شروط الحياة المادية للمجتمع اذ لا مجتمع بدون سكان . ولا يتمكن اي مجتمع من ان يوفر حياته المادية ويقاوم قوى الطبيعة . وعدد السكان العاملين الفاعلين عبارة عن عامل من العوامل التي يجب ان نعتبرها عندما نحاول ان نقدر قيمة القوى المنتجة ويؤثر وتكاثر السكان في التطور الاجتماعي فهما يساعدان على تسارعه او ابطائه . اذ ساعد سيل الهجرة الى الولايات المتحدة على نشوء سريع لصناعة كبرى فيها . ويعتبر تناقص السكان القوي عامل تحجر **حضاري** وتأخر اقتصادي وتكنولوجي . ولكن أثر السكان في التطور الحضاري غير حاسم وغير محدد ، لان تكاثر السكان بذاته لا يمكن ان يعلل لنا لماذا يتلو نظام اجتماعي نظام آخر ، لماذا تلا النظام الرأسمالي او البورجوازي (النظام الاقطاعي مثلا) . واذا كان هذا صحيحاً فيجب ان تكون البلاد الاكثر كثافة أرقى حضارياً . وهذا غير صحيح في ذاته ، لأن بعض الدول الاسيوية (الصين ، الهند ؛ مصر . .) اعلى كثافة من بعض الدول الاوروبية ، ولكنها مع ذلك اقل حضارة منها . وعلى العكس من ذلك ، فالنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي عامل اساسي في **حركة السكان ونموهم** . . وهكذا فعلى الرغم من اهمية اثر السكان في التطور الحضاري والثقافي والاجتماعي فلا يمكن ان نعتبره عاملا حاسماً ومحدداً في هذا التطور [٣٧].

٣ ـ **اسلوب الانتاج** (Mode de production) : يرى الماركسيون العامل

---

٣٦ - راجع :

Rosentahl et youdine : opi. cit. p. 402 et p. 85

٣٧ - راجع :

G. Politzer et autres : opi. cit. pp. 288 — 289

والسياسية والثقافية ؟فأجابوا عليها اجابات مختلفة كما رأينا في المقدمة التاريخية لكتابنا هذا . أما الماركسيون فذهبوا الى القول بان ، **شروط الحياة المادية** هي التي تحدد ذلك . ماذا تعني ، من وجهة نظر المادية التاريخية **شروط الحياة المادية هذه** ؟

يعتبر الماركسيون هـذه الشروط المادية التي هي المحيط الطبيعي ، والسكان وكثافتهم واسلوب الانتاج ، شروطاً مستقلة عن ارادة البشر . ولكن ما هي القوة الاساسية التي تحدد في مجموعة الشروط هذه شكل المجتمع ، وطابع النظام الاجتماعي ، وتطور المجتمع من نظام الى آخر ؟ أجاب البعض من غير الماركسيين بأنها المحيط الجغرافي ، بينما أجاب اخرون بانها نمو السكان وتزايدهم ، فهنا حتمية بيولوجية ديموغرافية وهناك حتمية جغرافية طبيعية . اما الماركسيون فقالوا بتأثير جميع هذه العناصر ، ولكنهم اولوا العوامل العائدة الى اسلوب انتاج الخيرات المادية الاهمية الاولى والاساسية .

١ـ **المحيط (او البيئة) الجغرافي** : وهو الطبيعة التي تحف بالانسان **اي الشروط الخارجية** للحياة الاجتماعية : الاقليم او المناخ ، الارض ، ثروات الارض ... ويعتبر الماركسيون المحيط الجغرافي شرطاً **ضرورياً دائماً** من شروط الحياة المادية للمجتمع ، يؤثر على التطور والنشوء الاجتماعيين . فهو يعجل بالتطور الاجتماعي اذا كانت الشروط الجغرافية ملائمة (مناخ ملائم ، وثروات طبيعية ...) ويعيقه اذا نقصته الثروات والارض الخصبة . وكانت الطبيعة ، قبل ظهور مجتمع الطبقات الاجتماعية والملكية الخاصة ، هدف صراع الانسان والقوى المنتجة ، ولعبت دوراً لابأس به في تكوين بعض المؤسسات الاجتماعية والثقافية (كما رأينا سابقاً) . ولكن يعتبر الماركسيون ان العوامل الطبيعية على اهميتها لايمكن ان تلعب دوراً **حاسماً ورئيسياً** ومحدداً في التطور الاجتماعي اذ يحافظ المحيط الجغرافي على حالة معينة مدة طويلة ، بينما التطور يسير بسرعة أكثر . وتأثير الطبيعة في الانسان تابع لدرجة تقدم ونمو الانتاج المادي . وتأثير

حياة تطبيقية (pratique) (او عملية). وكل الاسرار التي تجر النظرية نحو الصوفية ، تجد حلها العقلي في **التطبيق البشري** وفي فهم هذا التطبيق ». [٣٤]

وهكذا **تعود الماركسية مرة اخرى فتوحد بين** النظرية **والتطبيق** .

ويطبق الماركسيون مبادئهم هذه على المجتمع ، ويستخلصون من هذا التطبيق نتائج **علمية وعملية** في آن واحد [٣٥].

ففي المجال الفلسفي نلاحظ ان الماركسية تعلل باسباب مادية.

فالمادة معطى اول والشعور معطى ثان مشتق . لقد طبق الماركسيون المادية الفلسفية الماركسية على المجتمع ، وهذا لا يعني لديهم ان **شروط الحياة المادية للمجتمع**، اي الحياة الاجتماعية، هي المعطى الاول، والافكار والشعور المعطى الثاني والمشتق .

واذا كان من الممكن معرفة العالم المادي وقوانينه، لذلك كان من الممكن معرفة العالم الاجتماعي وقوانينه وقوانين تطوره . أما توحيدهم بين العلم والعمل أو التطبيق ، فقد استفادوا منه في مجال التنظيم الحزبي والسياسي . فكل افكار سياسية وفكرية وعلمية واجتماعية غير ممكنة التطبيق في زمان معين ومكان معين ، هي افكار خيالية وطوباوية يجب اطراحها والتخلي عنها .

حـ ـ المادية التاريخية . او النظرية المادية للتاريخ : لجأ الماركسيون الى تطبيق **مبادىء المادية الديالكتيكة** . والمادية الفلسفية الماركسية على دراسة الحياة الاجتماعية . لذلك يسمى الماركسيون المادية التاريخية تطبيق هذه المبادىء على الظواهر الاجتماعية ، كما يدعونها **بقلم القوانين للتطور الاجتماعي** .

طرح كثير من الفلاسفة والسوسيولوجيين السؤال التالي : ماهي القوة الاساسية (او المحرك) أو الشروط التي تحدد الظواهر والمؤسسات الاجتماعية

---

٣٤ ـ نقلا عن : Rosentahl et youdine : opi. cit. p. 380

٣٥ ـ راجع :

Politzer et autres : opi. cit: Leçons, IX, X, et XI.

فماركس يقول : «لايمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة . (اذ) تعتبر هذه المادة قوام (substratum) جميع التغيرات التي تحدث »[٢٩]

ويقول انجلز نفسه : «ليس شعورنا وفكرنا ، مهما ظهر لنا متعاليين ، سوى نتاج عضو مادي وجسدي هو الدماغ»[٣٠]

أما لينين فيقول : «ان لوحة العالم عبارة عن لوحة تظهر كيف تتحرك المادة ، وكيف «تفكر المادة»[٣١]

هناك أقوال كثيرة أخرى ذكر بعضاً منها ستالين في كتابه «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية فليرجع القارىء اليه[٣٢] .

٣ – **يمكن التوصل الى معرفة العالم** : هل يمكن للفكر ان يتوصل الى معرفة العالم ؟ لقد انكر « كانت » والمثاليون امكان التوصل الى معرفة العالم « والاشياء بذاتها » . أما الماركسية الفلسفية فتعارض ذلك وتقول : انه من الممكن تماماً معرفة العالم وقوانينه ، وان معرفتنا لقوانين الطبيعة ، تلك المعرفة المحققة بالتجربة والتطبيق ، عبارة عن معرفة ذات قيمة ، ولها مدلول معرفة موضوعية ، وانه ليس في العالم اشياء لايمكن التوصل الى معرفتها وانما هناك فقط اشياء لاتزال مجهولة ، وستكتشف وتعرف ، بوسائل العلم والتطبيق »[٣٣]

وهكذا يعتبر الماركسيون التطبيق كحجة قاطعة ودليل مفحم على صحة معارفنا البشرية . ولذا قال ماركس : «ان الحياة الاجتماعية هي بصورة جوهرية ،

---

٢٩ – نقلاً عن :

Engels : Socialisme utopique et socialisme scientifique. Edit. Sociales. 1948. p. 17

٣٠ – Engels : Ludwig Feuerbach : P. 18

٣١ – نقلاً عن : G. Politzer et autres : opi. cit. P. 183

٣٢ – المصدر الذي ذكرناه فوق ص ١١ وما يليها ..

٣٣ – نفس المصدر السابق : ١٢

المادية الفلسفية الماركسية التي تتميز بالمبادىء الاساسية الآتية :

١ - **العالم مادي ويتطور حسب قوانين حركة المادة** : اذ يعتقد الماركسيون ان العالم مادي بطبيعته ، وان الحوادث المختلفة ليست سوى اشكال (أو صور (formes) متنوعة للماده المتحركة ، والمادية الماركسية تبرهن على ان جميع الاجسام ، من الذرات البسيطة الى الكواكب الكبيرة من البكتيريات الى الحيوانات العليا والانسان هي المادة بصورها المختلفة التي اتخذتها في سياق تطورها ومختلف مراحله . فهي على عكس المثالية التي تعتقد ان العالم عبارة عن تجسيد « للفكرة المطلقة » أو « **للروح الكلية** » أو «للشعور» ، تذهب الى القول بان المادة لم يخلقها اي «شخص» ، وبان العالم يتطور حسب القوانين الموضوعية لحركة المادة ، ولا يحتاج الى أيه «روح كلية»[٢٧]

٢ - **المادة متقدمة على الشعور (اوالوعي)** (conscience) **وسابقة له:**

تعتبر المادية الفلسفية الماركسية (خلافاً للمثالية التي تؤكد ان شعورنا وحده هو الموجود حقيقة ، وان العالم المادي والكينونة والطبيعة لاتوجد الا في **شعورنا واحساساتنا** وادراكنا ومفاهيمنا) ، ان الطبيعة (أو الكينونة) عبارة عن **واقع موضوعي** يوجد خارج الشعور ومستقلاعنه ، وان المادة عبارة عن **معطى اول** . وبينما يعتبر الشعور **معطي ثانيا** مشتقا لانه انعكاس (Réflet) المادة ، وان الفكر عبارة عن نتاج للمادة وقد توصلت في تطورها الى درجة عليا من الكمال ، أي انه عبارة عن نتاج للدماغ ، فالدماغ عبارة عن عضو التفكير او الفكر ، ولا يمكن بالتالي فصل الفكر عن المدة دون الوقوع في خطأ فاحش[٢٨]

وقد كتب ماركس وانجلز ولينين كثيراً في علاقة الواقع المادي بالروح أو الفكرة ، وعلاقة العالم الموضوعي بالفكر ، وعلاقة الشعور والفكر بالدماغ.

---

٢٧ - راجع : Staline : Matérialisme dialectique... p. 10

٢٨ - راجع : Ibid : pp. 10 — 11

أعماق النظام الاقتصادي ، أساس أو قاعدة المجتمع ، بدورها في النظام الاقتصادي ، أساس هذا **التأثير المتبادل أو التفاعل** . ويدل تتابع الانظمة (او الانماط) الاقتصادية والاجتماعية في تاريخ على حركة دائمة تهيمن على حياة المجتمع . وفي الطبيعة ، كما في المجتمع ، إن مالايمكن قهره ، هو مايولد وما ينشأ ويتكامل . وانتقال المجتمع من نظام اقتصادي واجتماعي الى آخر ، يمثل **قفزة وانتقالا ثوريا** ، ومن حالة كيفية للمجتمع الى أخرى ، على اثر تراكم تبدلات كمية ، وهكذا فتراكم أو تجمع قوى الكادحين التدريجي (زيادة عددهم ، تحسن تنظيمهم ، تقدم وعيهم الطبقي ، وتوثيق علاقاتهم مع جميع العمال المستغلين ..) يؤدي الى انتصار الثورة الاشتراكية ، وتحويل الكادحين من طبقة مستغلة ومظلومة الى طبقة مسيطرة توجه تطور المجتمع نحو الشيوعية . ويمثل كل نظام تاريخي **جديد تقدما** ، درجة عليا بالنسبة للنظام الاجتماعي السابق . فالرأسمالية نظام اجتماعي ارقى من الاقطاعية ، والاشتراكية درجة ارقى من الرأسمالية في التطور الاجتماعي . ومحرك هذه العملية التطورية هو صراع الطبقات الذي يستمر في جميع الانظمة الاجتماعية النزاعية antagonistes (التي تحوي نزاعاً حاداً بين مصالح الطبقات) ، ويترجم عن التناقض الموجود في أسلوب الانتاج نفسه ، التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . وهكذا فتاريخ المجتمع ، كتاريخ الطبيعة ، يدل على أن **الكل** (أو كلا) يتطور في العالم بصورة ديالكتيكية [٢٦]

ب ـ **المادية الفلسفية الماركسية** : والمرتكز الثاني للمادية التاريخية هو

---

٢٦ ـ من أجل دراسة هامة جداً لمبادىء الديالكتيك وتطبيقها على المجتمع والطبيعة راجع :

G. Politzer et autres : Principes fondamentaux de philosophie.

Paris. Edit. sociales 1954. Leçons I, II, III, IV, V, VI, et VII.

أي الى **الزمان والمكان** . اذلكل زمان **أفكاره** ونظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، التي لا يمكن تطبيقها بصورة مطلقة على كل زمان ومكان ..[٢٣]

وتبعاً لهذا تقرر الطريقة الديالكتيلية الماركسية بان الافكار متغيرة ، وترفض لذلك كل عقيدة dogn.e . ويعتقد الماركسيون ان النظريات العقائدية هي نظريات لاتجد لها سنداً في الواقع المتطور والمتغير . ويعتقدون أيضاً ان **العقائدية** تقوم على انفصام بين **النظرية** والتطبيق ، بينما تقوم الماركسية **الخالقة** على وحدتهما التي لاتنفصم . ولم يفتأ ماركس وانجلز يرددان بان نظريتهما ليست عقيدة ، وانما هي دليل (guide) للعمل ، يجب ان تغنى باستمرار من المعطيات الجديدة للتطور الاجتماعي ومن التجربة الثورية للجماهير .. [٢٤].

وقد جاء في تاريخ الحزب الشيوعي الروسي مايلي : « ليست النظرية الماركسية ـ اللينينية عقيدة بل دليلاً للعمل »[٢٥] .

وقد طبق الماركسيون جميع هذه المبادىء والأسس الديالكتيكية على المجتمع والحياة الاجتماعية وتطورهما . اذ يرى الماركسيون ان كل تنظيم (أو نظام) أو نمط اقتصادي واجتماعي (كالعبودية والاقطاعية والرأسمالية والاشتراكية) يكون كلاً ، تتعالق وتترابط فيه مختلف المظاهر والحوادث كالنظام السياسي والحياة الفكرية والادبية والروحية ، ويؤثر بعضها من بعضها الآخر .

وتؤثر الأفكار الاجتماعية والمؤسسات السياسية ، التي تغور جذورها في

---

٢٣ - راجع :

M. Rosentahl et P. youdine : Petit dictionnaire philosophique. pp. 379 — 400

٢٤ - راجع :

Ibid : pp. 157 — 158

٢٥ - Histoire du parti communiste (bolchévik) de L, U. R. S.S. Edit. Moscou 1949. P. 394

الاسباب الرئيسية لنشوئها »[٢٠] .

وهي تناقضات مجددة ، لانها صراع بين القديم والحديث في سبيل نصر الحديث ، وصراع بين مايموت وبين ما يولد في سبيل حياة مايولد ، وصراع بين الطبقة المستغِلة و والطبقة المستغَلة في سبيل نصر الطبيعة المستغلة .

وهي تنافضات توحد بين الاضداد : فالديالكتيك لاتفصل ابداً بين الاضداد ، بل تطرحها في وحدتها التي لاتنفصم . وكما قال ماوتسي ـ تونج : «لاموت بدون حياة» ولاحياة بدون موت . ولاتحت بدون فوق ولافوق بدون تحت . ولاسعادة بدون تعاسة ولاتعاسة بدون سعادة ، لاصعب بدون سهل ، ولاسهل بدون صعب ، ولا « مرابع » بدون مالك كبير ، ولا مالك كبير بدون « مرابع » . ولا بورجوازية بدون بروليتاريا ، ولابروليتاريا بدون بوراجوازية ... وهـذا ينطبق على كل الأضداد . ففي شروط معينة تتضاد (تتعاكس) من جهة ، وترتبط بصورة متبادلة ، وتتداخل وتتفاعل ، فهي مترابطة فيما بينها »[٢١] . ويعتبر الماركسيون قانون صراع **الاضداد القانون الاساسي** للديالكتيك . حتى ان لينين ذهب الى القول : « تعتبر الديالكتيك بمعناها المحض دراسة التناقضات في ماهية الاشياء نفسها »، « والنشوء هو صراع الأضداد »[٢٢] . وميزة الديالكتيك الماركسية التي يسميها لينين « روح الماركسية » هي في انها طريقة علمية محضة تدعو الى ضرورة تحقيق الحقائق التي نتوصل اليها بواسطة تطبيقها على الواقع ، والى الانتباه الى الشروط التـاريخية الجديدة ، والتغيرات التي تحصـــل من جراء الفاعلية التطبيقية للناس . وهي تدعونا الى الانتباه الى التاريخ والمرحلة التاريخية التي نجتازها ، والى الشعب الذي يحتاجها ،

---

(٢٠) Mao Tsé-Toung: « Apropos de la contradiction» in, les Cahiers du communisme, N° 7-8 août 1952, pp. 780-781

(٢١) Ibid. p. 807

(٢٢) نقلا عن ستالين : المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (مع بعض التصحيح والتعديل) ص ٢٢

كالعادة حصلنا على جسم جديد هو « الاوزون » الذي يختلف اختلافاً بيناً عن الاوكسجين العادي برائحته وتفاعلاته . وماذا نقول عن مختلف اتحادات الاوكسجين مع الآزوت او مع الكبريت . اذ ينتج كل اتحاد منها جسماً يختلف كيفياً (من حيث الكيف) عن سائر الاجسام التي تعطيها الاتحادات الاخرى »[١٨]

وينطبق هذا المبدأ على الطبيعة والمجتمع كما سنرى بعد قليل .

٤ - **ترى الطريقة الديالكتيكية الماركسية ان صراع الأضداد هو المحرك لكل تغير** : اذ ترى الماركسية في الاشياء والحوادث تناقضات (Contradictions) داخلية وضمنية صميمة ؛ فلكل شيء جانب موجب وآخر سالب ، ويحتوي على عناصر تضمحل وأخرى تولد وتنشأ ؛ ويشكل الصراع بين ما يضمحل وما ينشأ المحتوى الداخلي والصميمي للنشوء ، وتتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية . ولهذا فصراع **الأضداد مدعاة للتقدم** .

وقد قال ستالين : « خلافاً للميتافيزيا ، فان الديالكتيك تبدأ من وجهة النظر (القائلة) بأن الاشياء ، وظواهر الطبيعة تتضمن تناقضات داخلية ، لان لها جميعاً جانباً سالباً وآخر موجباً ، ماضياً ومستقبلا ، ولها جميعاً عناصر تضمحل او تنشأ ، فصراع هذه الاضداد ، الصراع بين القديم والحديث ، بين مايموت وما يولد ، وبين مايضمحل وما ينشأ ، هو عبارة عن المحتوى الداخلي لعملية النشوء ، وتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية »[١٩] .

فالتناقضات داخلية : لذا قال ماوتسي - تونج : «لايوجد السبب الرئيسي لنشوء الاشياء خارج الاشياء ، بل داخلها ، في الطبيعة المتناقضة اللازمة للاشياء نفسها . لكل شيء ، لكل حادثة ، تناقضاته ، او تناقضاتها ، الداخلية اللازمة . وهي التي تولد حركة ونشوء الاشياء . فالتناقضات الداخلية في الاشياء والظواهر هي

---

(١٨) نقلا عن المصدر السابق ، مع بعض التعديل والتنقيح . ص ٢٠ - ٢١

(١٩) Staline: Matérialisme dialectique... p. 7

تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية . فالنشوء (او التطور) ليس مجرد تكرار للماضي ، ولكنه حركة تقدمية من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا ، حركة منحنيها ليس **بدائري** ولكنه **تصاعدي** . ويقول ستالين في هذا الصدد : « تعتبر الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزياء ، عملية النشوء (او التطور) ، لا كعملية نمو بسيطة ، لاتؤول فيها التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، بل كنشوء ينتقل من تغيرات كمية تافهة وكامنة (او خفية) (Latents) ، الى تغيرات كيفية ظاهرة واساسية ، ولا تحدث فيها التغيرات الكيفية تدريجياً بل بسرعة وفجائية ، وتجري على قفزات من حالة الى اخرى : وليست هذه التغيرات احتمالية (او جائزة) بل ضرورية ، وهي نتيجة لتراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية . »[١٦] ويتم هذا في الطبيعة كما يتم في المجتمع .

ويبيّن انجلز ذلك في مجالات مختلفة اذ يقول « ففي الفيزياء .. كل تغير هو انتقال من الكمية الى الكيفية ، هو نتيجة التغير الكمي لكمية الحركة كيفما كان شكلها ـ سواء كانت ملازمة للجسم من داخله ام مضافة اليه من خارج . فإن حرارة الماء ، مثلاً ، ليس لها في بادىء الأمر ، تأثير في حالته من حيث هو سائل ، ولكن اذا زيدت او نقصت حرارة الماء ، جاءت لحظة تعدلت فيها حالة التماسك التي هو فيها ، وتحول الماء الى بخار في احدى الحالات ، والى جليد في الحالات الاخرى . . وكذلك نرى ان شريطاً من البلاتين يحتاج الى تيار ذي قوة معينة لكي يصبح مضيئاً ، ونرى ايضاً ان لكل معدن حرارة ذوبان ، وان لكل سائل موضوع تحت ضغط معين ، حداً معيناً للتجمد والغليان . »[١٧]

ووجد هذا في مجال الكيمياء . اذ يقول : « يمكن القول ان الكيمياء هي علم التغيرات الكيفية الناشئة في الاجسام عن تغيرات كمية .. لنأخذ الاوكسجين : فإذا جمعنا في جزيئة (molécule) ثلاث ذرات (atome) عوضاً عن اثنتين

---

(١٦) Staline : Matérialisme dialectique... p. 5

(١٧) نقلا عن المصدر السابق ، الترجمة العربية . ص ١٩–٢٠

٢ ـ **تعتبر الديالكتيك كلاً في حركة ، وكلاً في تبدل وتغير واستحالة :** إذ ترى ان الطبيعة في حالة **حركة دائمة ، وتبدل وتجديد** ، ويحدث فيها باستمرار ان **يولد شيء وينشأ ويتكامل** ، ويموت شيء ويزول . فكلٌ في تبدل . وهذا هو قانون التبدل الشامل والنشوء (او التطور) الدائم الذي لا ينقطع . وقد عبر ستالين عن هذه الفكرة الأساسية بقوله : « تعتبر الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزياء ، الطبيعة ، لا كحالة سكون وعطالة وتحجر وركود ، ولكن كحالة حركة وتبدلات دائمة ، وتجدد ونشوء (او تكامل développement) ففيها دائماً شيء يولد وينمو (او ينشأ) ، وشيء ينحل ويزول .

لهذا تريد الطريقة الديالكتيكية ان تعتبر الظواهر ، ليس فقط من وجهة نظر علاقاتها وتحاددها المتبادل ، وانما من وجهة نظر حركتها وتبدلها ونشوئها ومن وجهة نظر ظهورها وزوالها . »[١٤]

فالواقع وحدة وكل ، ولكنه ايضاً حركة ونشوء وتكامل وتطور . وليست الحركة مظهراً ثانوياً للواقع . اذ ليس هناك الطبيعة مضافة اليها الحركة ، والمجتمع مضافة اليه الحركة . ذلك لأن الواقع **حركة** وعملية (Processus) . وهذا ينطبق على الطبيعة والمجتمع سواء بسواء .

ولهذا قال انجلز « تضم الحركة بمعناها الأعم ، من حيث كونها **كنمط وجود** المادة ، وكصفة لازمة (صميمة inhérent) لها ، جميع التغيرات وكل العمليات التي تحدث في العالم ، من مجرد تغيير المكان الى الفكر . »[١٥]

٣ ـ **ترى الديالكتيك أن التغيرات الكمية تتحول إلى تغيرات كيفية :** يُعتبر نشوء (او تطور) الطبيعة عملية يتم فيها الانتقال الى تغيرات ظاهرة وجذرية وكيفية ، ابتداء من تراكم تدريجي لتغيرات بسيطة وكامنة وكمية ، ويجري ذلك بواسطة قفزات (bonds) . وهذا ما يسميه الماركسيون **قانون**

---

(١٤) Ibid, : pp. 4-5

(١٥) Engels: Dialectique de la nature, Edit Sociales. Paris 1952. p. 57

الي ، فليست حركة الفكر ، على العكس من ذلك ، سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة الى دماغ الانسان وموضوعة فيه »(١٢)

نلمح من هذا النص ان ماركس يعتقد ان طريقته الديالكتيكية تختلف عن طريقة هيجل ، فما هي مميزات الديالكتيك الماركسية ؟

تتصف الديالكتيكية الماركسية بالسمات الاساسية الآتية :

١ – **تعتبر الديالكتيك ان كلاً في ارتباط وتفاعل** : اذ تعتبر الطبيعة **ككل متماسك** (cohérent) ، تتعلق فيه الاشياء والكائنات والظواهر فيما بينها ، ويشرط (يحدد) بعضها بعضاً بصورة متبادلة .

وقد عبر ستالين عن هذه الفكرة الاساسية بقوله : « تعتبر الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزياء ، الطبيعة لا كتراكم عرضي لاشياء وظواهر منفصل بعضها عن بعض ، ومنعزلة ومستقلة فيما بينها ، وانما ككل موحد ومتماسك ، ترتبط فيه الاشياء والظواهر فيما بينها ارتباطاً عفوياً ، ويتعلق بعضها ببعضها الآخر ، وتتحدد (se conditionnent) بصورة متبادلة . لهذا تعتبر الطريقة الديالكتيكية بأنه لايمكن فهم ظاهرة من ظواهر الطبيعة اذا نظرنا اليها على انفراد بمعزل عن الظواهر المحيطة بها ، اذ ان أي ظاهرة ، وفي أي ميدان من ميادين الطبيعة ، يمكن ان تنقلب الى لغو (non - sens) اذا ما اعتبرت بمعزل عن الشروط التي تحف بها ، واذا ما فصلت عن هذه الشروط . وعلى العكس من ذلك ، يمكن فهم وتعليل أية حادثة اذا ما اعتبرت من زاوية ارتباطها غير المنفصم بالظواهر المحيطة بها ، واذا ما اعتبرناها كما هي **مشروطة** بالظواهر التي تحف بها . »(١٣) فليست الطبيعة ولا المجتمع عبارة عن عماء غير مفهوم ولا معقول ؛ وانما ترتبط جميع مظاهر الواقع فيما بينها بروابط ضرورية ومتبادلة .

---

(١٢) K. Marx: Le capital. Livre I, tom. I. (Edit sociales. Paris. 1948). p. 29

(١٣) Staline : Matérialisme dialectique et matérialisme historique. Edit. Sociales. Paris. 1950. p.4

المرحلة الاولى وينقضها ، وفي المرحلة الثالثة يدمج ويركب ويوحد بينهما. وفي هذه المرحلة يبدو التطور وقد عاد الى نقطة انطلاقه ولكن الى مستوى أعلى. فمثلاً تسري في المجتمع أفكار تصبح بعد مدة قديمة وعتيقة بالنسبة للمرحلة التي قطعها التقدم الاجتماعي والفكري ، فتنشأ أفكار جديدة تعاكسها وتناهضها وتصبح بهذا الأفكار الجديدة عكس ونقيض الافكار القديمة ، **وينشأ بينهما صراع** يؤدي في النهاية الى تركيبهما ودمجهما في وحدة تضم الجوانب الموجبة في كليهما[١١].

وبهذا يظل هيجل محافظاً على الماضي ومتطلعاً اليه اكثر منه نحو المستقبل، لان صراع الاضداد لايؤدي ، لديه ، الى غايته أو نهايته المنطقية، اي الى نصر **الجديد** والتقدمي على **القديم والباطل** ، بل الى التوفيق بينهما والتوصل في النهاية الى تسوية سياسية واجتماعية بين الطبقات المتضادة والمتصارعة تحت سلطة الدولة التي يحلها هيجل منزلة جد عليا !

لسنا هنا بصدد البحث في فلسفة هيجل وأفكاره السياسية والاجتماعية ، وانما تطرقنا الى طريقته الديالكتيكية فقط لأنها اثرت في طريقة **ماركس وانجلز** الديالكتيكية . ويصرح ماركس نفسه بانه تأثر بطريقة هيجل تأثراً قوياً ، ويقر بأنه أخذ طريقته واطرح مرتكزها الفلسفي : الفلسفة المثالية . أي انه اطرح « القشرة المثالية » لمذهب هيجل واحتفظ بنواته العقلية » : أي بالديالكتيك . اذ تبنى ماركس الفلسفة المادية : نقيض الفلسفة المثالية .

ولهذا يصرح بقوله : « ان طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيجلية من حيث الاساس فحسب ، بل هي عكسها تماماً . فبالنسبة لهيجل ، تعتبر حركة الفكر التي يشخصها تحت اسم الفكرة ، **صانع** (démiurge) **الواقع** ، هذا الواقع الذي لايعدو كونه الشكل الظاهري للفكرة. أما بالنسبة

---

(١١) من اجل افكار هيجل راجع : ١ـ G. Bouthoul: Traité de Sociologie. Tom. I. pp. 52-56. ٢ـ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة .

لايمكن أن نفهم المادية التاريخية الا اذا عرضنا ولو بشكل مبسط لمرتكزيها الأساسيين : **الطريقة الديالكتيكية الماركسية والمادية الفلسفية الماركسية.**

أ – الطريقة الديالكتيكية الماركسية : اعتمدت الفلسفة الماركسية على الديالكتيك في منحاها وأبحاثها . وعرفت **الديالكتيك** (dialectique) (الجدل) منذ العهد اليوناني. اذ اعتمد عليها فلاسفة اليونان لاكتشاف الحقيقة بفضل اظهار تناقضات الخصم وازالتها . ونجد في الفلسفة الحديثة بعض عناصر الديالكتيك لدى ديكارت وسبينوزا وديدرو Diderot ، والذي أبرزها واستغلها بشكل حديث هو هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) في نظريته عن التطور الديالكتيكي. اذ يرى هيجل ان العالم التاريخي والروحي بأسره هو عبارة عن عملية (Processus) واحدة خاضعة للحركة والتبدل والتغير والتطور المستمرة . وقد رأى هيجل ان هذا التطور يجد أصله في صراع **الاضداد** (Contraires) ، (أي ان التناقضات (Contradictions) الداخلية هي أصل هذه الحركة – الذاتية (auto mouvement) ويتم بالانتقال من **تبدلات كمية الى تبدلات كيفية.** وقد طبق هيجل الديالكتيك على دراسة المفاهيم والأحكام والمنطق علاوة على دراسته للطبيعة والمجتمع والتاريخ . ولكن ديالكتيكه كانت ترتكز على فلسفة مثالية : اذ يرى هيجل ان جوهر الكينونة يكمن في التطور – الذاتي لـ« **فكرة مطلقة** » صوفية يخرج من تطورها الطبيعة والمجتمع والانسان ؛ فأصبح الشعور أو الوعي لديه خالق الواقع والطبيعة ، ووحد بهذا بين العقلي والواقعي ، الكينونة والفكر اللذين يقومان على مبدأ وحيد هو الفكرة . ويتم هذا التطور على نسق ثالوثي : الأطروحة thèse ، ونقيض الأطروحة أو ضدها (antithèse) والتركيب (Synthèse) . فنقيض الأطروحة هو نفي للأطروحة ، والتركيب **نفي لنقيض الاطروحة** (نفي النفي négation de la négation)

ففي المرحلة الأولى يؤكد الفكر شيئاً مثلاً ، وفي المرحلة الثانية ينفي

في تهيئة الطبقة الكادحة والحركة العمالية الثورية (، ويتركون الامر للعفوية لان العوامل الاقتصادية ستؤدي بشكل حتمي الى انتصار الحركة العمالية وميلها نحو الاشتراكية)[٩] ، والمنشفيك في روسيا .

وقد حاول هؤلاء ان يفرضوا نظريتهم على أنها النظرية الماركسية الحقيقية للتاريخ . والواقع ، إن **المادية التاريخية تختلف اختلافاً جذرياً عن المادية الاقتصادية** ، لأن المادية التاريخية مع اعتبارها بان **الانتاج المادي** كالمحرك الأساسي للتطور الاجتماعي ، ومع انها تعلل أصل المؤسسات السياسية ، والأفكار والنظريات **بالنظام الاقتصادي ، وشروط الحياة المادية للمجتمع ، فهي تلح** ، بالمقابل ، على الأهمية القصوى للمؤسسات السياسية ، والأفكار والنظريات في التطور الاجتماعي ، لأن الماركسيين « **الأرثوذكس** » يعتبرون انه لولا ديكتاتورية البروليتاريا لما كان من الممكن ان يبنى المجتمع الاشتراكي ، ولولا النظرية الثورية التي هي الماركسية ـ اللينينية لما أمكن للبروليتاريا ان تنجح في روسيا وفي بلدان أخرى . فبالنسبة للماركسيين هؤلاء ، يعتبر **الحزب والفلسفة** أمرين أساسيين وضروريين لتقويض المجتمع الرأسمالي وإقامة المجتمع الاشتراكي ؛ أي ان **الوعي** الطبقي لدى البروليتاريا ضروري لنجاحها ، وسيظهر للقارىء الفرق الأساسي بين النظريتين عندما نعرض أفكار المادية التاريخية . ويعتبر الماركسيون الماديين الاقتصاديين كمنحرفين عن الماركسية ، وكمأجورين للبورجوازية ، هدفهم تخدير الطبقة الكادحة[١٠] .

٢) **المادية التاريخية** : سنستمد أفكار هذا البحث من كتب ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وانجلز (١٨٢٠ – ١٨٩٥) ولينين (١٨٧٠–١٩٢٤) وستالين (١٨٩٧–١٩٥٣) وسواهم من الماركسيين **الأرثوذكس** . ولكن

---

(٩) راجع : Ibid. : pp. 577-578

(١٠) من اجل المادية الاقتصادية راجع : Ibid, : pp. 577-578 ومن اجل نقدها من قبل الماركسيين راجع : Ibid. : pp. 577-578 et 353-354

الغلو والتعميم لما قاله مؤلفون آخرون من قبلهم »[٧].

لا يشك انساناً في تأثر ماركس وانجلز (خاصة) بمن سبقوهما ولكننا لا نوافق ، مع ذلك ، على مغالاة بلوف وموافقة سوروكين له . لأن اصالة ماركس ، خاصة ، لا تقوم ، كما سنرى حالاً ، على الغلو والتعميم وانما تقوم على **الابتكار والجدة** وقوة التفكير والبحث العلمي والجرأة في قول الحقائق .

وقبل ان نبحث في الماركسية يجدر بنا ان نميزها عن تيار آخر نشأ عنها وانحرف انحرافاً بشعاً هو تيار المادية الاقتصادية ، الذي يخلطه البعض بالمادية التاريخية كما اشرنا سابقاً .

١ً) — **المادية الاقتصادية** : Le matérialisme économiqne ، هي النظرية الموحدة (او وحيدة العامل)في تفسير التاريخ وسيره وتطور المجتمع ، اذ يعتقد معتنقوها بان **العوامل** الاقتصادية هي القوة الوحيدة التي تلعب دورها في التطور او التبدل الاجتماعي . وينكرون الدور الفعال الذي تلعبه السياسة والمؤسسات الاجتماعية ، والافكار ، والنظريات في عملية التطور التاريخي . ومن هؤلاءبرنشتاين Bernstien (١٨٥٠ - ١٩٣٢)في المانيا ، «والماركسيون الشرعيون او الرسميون » (Les Marxistes legaux) الذين ظهر تيارهم عام ١٨٩٠ في روسيا ، ومنهم ستروفي ، (P.Strouvé) ، وبولغاكوف (S.Boulgakov) ، وبيرديايف ، N·Berdiaev ، وتوغان بارنوفيسكي M.Togan-Baranovski وسواهم ، وكانو من الكتاب البورجوازيين ، ودعوا بالرسميين او الشرعيين لأنهم كانوا ينشرون مقالاتهم في المجلات والصحف الرسمية . . .)[٨] ، « والاقتصاديون » ، (الجناح الانتهازي من السوسيال - ديموقراطية(Social - démocratie)الذين كانوينكرون دورالوعي والفكر

---

(٧) نقلا عن : Ibid, : p. 384

(٨) راجع من أجلهم : M. Rosentahl et p. Youdine: Petit dictionnaire philosophique. Moscou. 1955. pp. 354-355.

في التعليل الاقتصادي للتاريخ تشبه كثيراً نظرية ماركس. اذ يقول : « ليست جميع التبدلات السياسية سوى نتيجة للتبدلات (التي تحصل) في شرط الانتاج وأسلوب العيش او الحياة، في الوضع الجديد لمختلف الطبقات ، وتثيرها التبدلات السياسية ، في نهاية التحليل، سوى نتائج ضرورية ، لشروط الشعب **الاجتماعية والاقتصادية** المتبدلة والتي تبدل ، ليس فقط الأخلاق والتقاليد وأساليب العيش والتفكير ، وانما ايضاً علاقات (أو روابط) مختلف الطبقات الاجتماعية فيما بينها ... ولا يعني هـذا ، بداهة ، نفي أهميـة وقوة الحركات الروحية (أو الفكرية) في شعب ما ، ولكن من الصحيح (ان نقول) ايضاً ان هـذه الحركات هي ، في أغلب الحالات ، اما مجلوبة بتبدلات اقتصادية ، واما متلوة ومتغذية من قبلها »[٦] .

ويمكن تلخيص نظرية رومر كما يلي: تعتبر صفة وشروط الانتاج العوامل الأولية ، انها تحدد جميع الظواهر الاجتماعية الأخرى : (اذ) يستدعي تبدل مافي شروط الانتاج تبدلاً مقابلا في توزيع الثروة والملكية : ويستدعي هذا تبدلاً في تمايز طبقات المجتمع ، وفي النظمة الأسروية ، وتحدد هذه التبدلات تبدلاً مقابلاً في العلاقات الاجتماعية والمؤسسات الحقوقية . ويتبع هذه تبدل مقابل في التقاليد والعادات والأعراف وأساليب العيش والايديولوجيات والمعتقدات والسيكولوجيا السائدة في المجتمع .

ولم تكن افكار رومر وماركس وانجلز فريدة من نوعها ، وانما كانت بعضاً من موجات تيار سرى بقوة في ألمانيا وفرنسا وانكلترا في القرن التاسع عشر . حتى ان فون بلون Von Belon ذهب الى القول : « كان ، رومر كماركس وانجلز ، في التيار ، ويتعلقون به الى درجة اكبر مما كان يفترض حتى اليوم . وتقوم أصالتهم Originalité ، فيما يتعلق بأفكارهم العامة ، على مجرد

---

(٦) نقلا عن : Ibid, : p. 383

وقد اقام ، في تصنيفه لانواع الحكومات ، ارتباطاً أو تعالقاً بين النظام الاقتصادي من جهة والنظام السياسي المتعلق به ، والصفات السيكولوجية والاخلاقية الظاهرة في الشعب من جهة أخرى [٣] .

أما ارسطو فقد اقام ايضاً ، في نظريته المتعلقة بأشكال الحكومات ، ارتباطاً وتعالقاً (Corrélation) بين الظواهر الاقتصادية من جهة والظواهر السياسية والاخلاقية من جهه ثانية . اما نظريته في التبدلات والتطورات الاجتماعية فتقرر بوضوح « ان ألاسباب التي تدفع الناس الى الفتن هي **الربح والشرف** واضدادهما: اذ ليتجنبوا الهوان او ضياع الثروة من جراء الضرائب فانهم يثيرون لصالحهم او لصالح اصدقائهم ، البلبلة في الدولة... وتأثير الرواتب السيئة والربح في هذا السبيل ، وكيف يمكن ان يكونا اسباباً للفتنة ؛ هما امور واضحة بذاتها . »[٤]

وقد عالج الكتاب الرومان تأثير العوامل الاقتصادية في الحياة الاجتماعية وجميع مظاهرها وظواهرها . كما عالج هذا الموضوع كثيرون من مؤلفي القرون الوسطى والقرنين السابع عشر والثامن عشر .[٥]

وحفل القرن التاسع عشر بالفلاسفة والسوسيولوجيين والكتاب الذين كتبوا قبل ماركس وانجلز ، في هذا الموضوع ، وأولو العوامل الاقتصادية اهمية كبرى . ونخص بالذكر منهم نيبوهر Niebuhr ، وبوخ Bockh ، وسافيني Savigny ، وهوبر V.A.Huber ، وسيبل Sybel ، وآدم موللر ومورر C.L.V Maurer ، ونومان Neumann ، ورومر Raumer ، وروج Rúge ، ولاسّال Lassale ، ونخص بالذكر منهم جورج ويلهلم رومر الذي كتب عامي ١٨٣٧ و ١٨٥١ وبشيء من السبق لماركس ، نظرية

---

(٣) راجع Ibib. : p. 379 والمقدمة التاريخية لكتابنا هذا

(٤) نقلا عن Ibid, : p. 378

(٥) من أجل بعض التفاصيل راجع : Ibid, : p.p. 349-381

الأساسي للتبدلات التي طرأت على الانتاج والثروة والتجارة وباقي الشروط الاقتصادية والسلوك والسيكولوجيا. إذ يقول : « أخذ عندئذ السكان الساحليون يهتمون بشكل أوثق باكتساب الثروة، واضحت حياتهم اكثر استقراراً ؛ حتى ان بعضهم ابتدأ في الواقع ، بانشاء الجدران (أو الأسوار) (صيانة) لثروتهم التي اكتسبوها مجدداً لأن حب الربح وفق بين الضعيف وسيطرة الأقوى ، ومكن امتلاك الرأسمال من سيطرة الأقوى منهم على المدن الصغرى . وقد قاموا على مراحل ، أتت بعد زمن قصير من هذا « التطور » ، بهجومهم على طروادة ... ومع تزايد سلطة اليونان ، وعندما اصبح جني الثروة **اكثر فأكثر هدفاً** ، تزايدت عائدات « الدول » (des Etats) ، وأقيمت ، بفضلها ، الحكومات المستبدة في كل مكان ، وأخذت اليونان تجهز أساطيلنا وتهتم بشكل أوثق بالبحر . »[٢]

يعتبر هذا النص من اقوى ما يعبر عن الاهمية التي يوليها **توسيديد** للعوامل الاقتصادية واثرها في التطور السياسي والاجتماعي لليونان وفي نشوء حرب البلوبونيز .

أما افلاطون فأعطى اهميه كبرى للعوامل الاقتصادية واثرها في السلوك البشري والظواهر الاجتماعية في كتابيه « الجمهورية » « والنواميس ». اذ عندما صنف الحاجات البشرية اعتبر الحاجة الى الغذاء والماء والحاجة الجنسية ، الحاجات الاساسية . وقد اظهر تأثير الفقر والغنى في السلوك والسيكولوجيا البشريتين . اذ تعتبران ، في رأيه ، مصدر الفساد « فالواحدة منهما تعتبر أم العيب والبلادة ، والاخرى أم البخل والرذيلة ، وكلاهما أم التذمر أو الاستياء » . انهما سببا الصراع الاجتماعي والصراع الطبقي . اذ يقول : « كل مدينة عادية ، مهما صغرت ، مقسومة الى مدينتين : الاولى مدينة الفقراء والاخرى مدينة الاغنياء ، وكلاهما في حرب الواحدة ضد الاخرى . » .

---

(٢) نقلا عن Ibid, : P.P. 378-379

الفصل الثاني عشر

بعض النظريات ذات النزعة الاقتصادية

لفتت أهمية العوامل الاقتصادية ، حتى منذ القديم ، نظر وتفكير كثير من المفكرين والفلاسفة والسوسولوجيين . لذا أولوها قيمة كبرى . ففي تعاليم حكماء الشرق ، ككونفوشيوس ومنشيوس (Mencius)، ومفكري الهند، نجد تأكيدات وأفكاراً تشير (تصريحاً وتلميحاً (أوضمنياً)الى أهمية العوامل الاقتصادية. فقد أشار كونفوشيوس الى ان الفقر يثير تذمر واستياء الشعب ، والاضطرابات الاجتماعية ، بينما اعتبرا الإرضاء (أو الاكتفاء) الاقتصادي المُرْضي للشعب كشرط ضروري للنظام الاجتماعي . وأكدا ان « العوامل الاقتصادية » تحدد الظواهر الدينية والسياسية . ولهذا اعتبرا ارضاء الحاجة الى الغذاء والحاجات الاقتصادية الاخرى كمهمة من مهام الدولة (او الحكومة) الصالحة . ونجد اقوالا مماثلة في الكتب المقدسة الهندية ولدى الحكماء الهنود . اذ يعزى الى بوذا هذا القول : « يوجد الجوع والحب في مركز التاريخ البشري بأسره » .[١]

أما في اليونان فنجد نفس الاهتمام لدى الفلاسفة والمؤرخين . فمثلا يشير توسيديد (Thucydide) في كتابه « تاريخ حرب البلوبونيز » الى الدور

---

(١) راجع : P. A. Sorokin: Les théories sociologiques contemporaines. Paris. Payot. PP. 377-378.

مصادر عامة

1) L. Contardarin: Eléments de Sociologie. Paris. Delagrave. 1937.

2) A. Joussain: Petit traité de Sociologie économique. Paris. J. La marre. 1931.

3) Maciver and Page: Society. London and N. Y. Macmillan 1948 and 1955

4) J. Haesaert : Sociologie générale. Paris-Bruxelles. E. Erasme. 1956.

5) Chepilov et autres : Manuel d'Économie politique. Paris. Edit. Sociales. 1956.

6) G. Politzer et autres: Principes fondamentaux de philosophie. Paris. Edit. Sociales. 1954

وسنرى في الفصل القادم ان هذا الخلط ادى الى كثير من سوء التفاهم والفهم والتجني على الحقائق العلمية .

الخلاصة :

نلاحظ من كل ماتقدم ان للعوامل الاقتصادية أثراً هاماً جداً في جميع النواحي الاجتماعية والثقافية والحضارية . ولا يمكن اطلاقاً ان نعلل الظواهر والمؤسسات والاوضاع والتطور الاجتماعية والثقافية والحضارية اذا لم ندخل في حسابنا العوامل الاقتصادية الى جانب العوامل الاخرى **الطبيعة والسيكولوجية والبيولوجية والاجتماعية المحضة** . وقد ذكرنا سابقاً ان للعوامل الاقتصادية أهمية كبرى لارتباطها المباشر الوثيق بالعوامل **البيولوجية** وهذا يؤدي بنا الى انكار الحتمية الاقتصادية كما انكرنا سابقاً الحتمية الطبيعية أو الجغرافية ؛ولا تسيطر الحتمية الاقتصادية الا في المجتمعات المتوحشة تماماً والبدائية المحض ، حيث تسيطر الحاجات المادية واشباعها المباشر ، وفي حالات الازمات الاقتصادية الكبرى والهبوط الاقتصادي المريع حيث تعم الفوضى وتستسلم النفوس للبطون في سبيل حفظ البقاء ؛ ولكن هذه الحتمية تضعف كلما ارتقت المجتمعات وتحررت من الازمات الاقتصادية والخوف من الجوع لان النفس الانسانية تستجيب عندئذ الى نداءات اخرى علاوة على نداءات الجسد . وكما قال سليجمان : « الاقتصاد الذي لايمكن اعتباره سبباً وحيداً واول قط ، يعتبر ، أحياناً سبباً فاصلا وقاطعاً : وحيث كان كذلك ، فانه لايمكن « لشيء » ان يكفل استمراره على هذا النحو ، ولو في ظروف متماثلة او عينية »[٧٢] . وسنرى في الفصل القادم النظريات التي غالت في قيمة واثر العوامل الاقتصادية .

---

(٧٢) E. R. A. Seligman: L'interprétation économique de l'histoire. trad. franç. Paris. 1911. p. 125.

المظاهر الحضارية **وتحسين اوضاعها**: كاللباس (اذ اللباس يتبع في كثير من نواحيه للعوامل الاقتصادية) ، والمسكن والتفنن في فن العمارة ، وتأثيث المنازل بأفخر **الأثاث وأفضل وسائل الراحة** والرفاه ، وخير أدوات الطبخ وحفظ المآكل ، والغسيل ووسائل **الانتاج الزراعي والصناعي** ...

٧) — العوامل الاقتصادية والتطور الاجتماعي والتاريخي:

ألح البعض على تأثير العوامل الاقتصادية ، فجعلوا منها **المحرك الاول والوحيد** للتطورات الاجتماعية والتاريخية. وذهبوا الى القول بالحتمية الاقتصادية وامكانية تفسير جميع المظاهر الاجتماعية والثقافية والحضارية على اساس العوامل والشروط الاقتصادية . أما نحن فلا يمكن ان ننكر أهمية العوامل الاقتصادية في التطور الاجتماعي ، وقد رأينا من خلال هذا الفصل الأهمية التي نعلقها على هذه العوامل في التطور التاريخي والحضاري وتعليل كثير من مظاهر الحوادث والمؤسسات والاوضاع الاجتماعية والثقافية والحضارية . حتى ان ألد خصوم القول بالحتمية الاقتصادية لاينكرون اطلاقاً أهمية العوامل الاقتصادية في جميع النواحي الانسانية . ومن هؤلاء **سوروكين** ، **وبيج ومكيفر** وأوجبرن ونيمكوف وسواهم (٧٠) .

وقد فند جميع هؤلاء السوسيولوجيين **القول بالحتمية الاقتصادية** وهاجموا القائلين بها هجوماً عنيفاً ، واظهروا تأثير عوامل اخرى هامة **كالعوامل الطبيعية والبيولوجية والديموغرافية والثقافية** ، ولكنهم خلطوا مع الاسف الشديد بين الماركسية والمادية الاقتصادية (٧١).

---

(٧٠) راجع : Maciver and Page: Society. London. Macmillan 1955 pp. 552-562.

(٧١) راجع : Ibid,. PP 562-573

أما القوانين والتشريعات والحقوق فتختلف باختلاف **الأنظمة الاقتصادية** والأوضاع الاقتصادية واسلوب انتاج الخيرات المادية . ومن يلاحظ قوانين العمل في عصرنا هذا ، بعد ظهور الثورة الصناعية ، يدرك مدى أهمية التطورات الاقتصادية في التطورات الحقوقية والتشريعية . اذ ظهرت قوانين وتشريعات كثيرة تتعلق بالرابطات والنقابات ، وعقود العمل ، والتأمينات والضمانات في حال الشيخوخة والعجز والعاهات التي تحدث اثناء العمل ، وعمل النساء والاحداث ، وساعات العمل ، وصحية المصنع والمعمل ، وعلاقة العمال بارباب العمل ....

ولولا العهد الصناعي ومفاسده ومظالمه التي ظهرت ، في القرن التاسع عشر خاصة ، لما رأينا تلك الاتجاهات الاشتراكية التي تدعو الى العدالة ، والمساواة الاقتصادية ، وتأمين فرص متساوية لجميع المواطنين ، والقضاء على الملكية الخاصة الواسعة وعلى الاحتكارات المالية الضخمة ، وسن القوانين العادلة التي تقضي على الامتيازات الطبقية العتيقة . ..

أما الاخلاق العامة فتتأثر أيضاً بالعوامل الاقتصادية . فمع ظهور الزراعة ، والصناعة ظهر ميل الى الرفاه والتنعم . وكل تطور أو تبدل اقتصادي يترك أثراً هاماً في الاخلاق والعادات العامة . ففي العهد الصناعي الذي يخيم الآن على البلدان الراقية ، حصل تبدل عميق في الاخلاق والاذواق . فلم تبق الاذواق بسيطة كما كانت ، ولم تبق الحاجات قليلة ومتواضعة ومتقشفة كما كانت سابقاً ، اذ خلقت التطورات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، أذواقاً وميولا جديدة ومعقدة . حيث نتج عن الانتاج الواسع الغنى ، وعن الغنى والثروات نتج الميل الى الرفاه ، والحاجة الى المتعة والتلذذ ، وعادة صرف المال في سبيل التنعم ، وروح المتاجرة والربح ، .. وتفشى بين الكثيرين الميل الى **السكر والفسق** والانعتاق **من الأخلاق الفاضلة** ....

(سنعود بالتفصيل الى هذه الاتجاهات في كتبنا المقبلة كما ذكرنا آنفاً) .

ونعلم جميعاً ماللعوامل الاقتصادية ، وخاصة الغنى والثروة من تأثير في

الانساني والذكاء البشري ومستوى العلم والمعرفة ، والميل الى المعرفة وخدمة الانسانية .. ومهما يكن من أمر فان الاختراعات تظهر في نهاية دوراقتصادي طويل ، اكثر منها في بدايته .

وقد اعتبر أحد المؤلفين ، من غير الماركسيين ، الغنى والثروة كشرط للثقافة . وذهب الى القول بان (الغنى أو الثروة) يجب أن يتقدم على الثقافة . أي يجب ان تظهر الثروة أولا لتظهر الثقافة ثانياً (٦٩).

ورأينا سابقاً ان الفن والادب والصحافة ترتبط ارتباطا وثيقاً بالعوامل الاقتصادية . لانها تزدهر بازدهار ورخاء الشعوب وتنحط بانحطاطها وفقرها . وأصبح الفن والادب في عصرنا هذا تجاريين تقريباً . فالنخبة من الادباء والفنانين تخضع لوضع تجاري . لانهم اصبحوا تابعين تقريباً للناشر والمجلة والصحيفة والجمهور ، اذ يهتم الناشر بالربح ولهذا يلح على المؤلف بوجوب تملق أذواق الجمهور الغالبة في حقبة (او زمان) معينة . وكم من فنان واديب وفيلسوف ذاقوا مرارة الحرمان وماتوا مغمورين لان الناشرين لم يقبلوا انتاجهم الفكري ، لعدم ملائمته لاذواقهم واتجاهاتهم التي قد تصطبغ أحياناً بالصبغة **السياسية او المادية او التملقية** .

اما الصحافة فحدث عنها ولا حرج ، لان الصحافة الحرة اصبحت نادرة جداً . ذلك لان الصحافة تحتاج الى اموال طائلة ، واولئك الذين يمولونها يفرضون عليها اتجاهاتهم الفكرية والسياسية والاقتصادية . وهكذا تصبح الصحافة مأجورة للمال وأصحابه وللسياسيين مالكيه ، وتخلق لهم بين عامة الشعب التيار الذي يريدونه ، وتزور من أجلهم الحقائق ، وتختلق الاخبار وتروج الاكاذيب والاشاعات .. وهذا يؤدي بالطبع الى انحطاط الفن والادب والصحافة ، ذلك لان الهدف الاساسي منه **التجارة والربح** ، وتوفير لقمة العيش .

---

(٦٩) راجع : A. Joussain: Petit traité de Sociologie économique. p. 331

الاغنياء ينتحرون كالفقراء ؛ وقد ينتحرون ، احياناً اكثر من هؤلاء . (٦٨)

(سنعود بالتفصيل الى بحث الجريمة والانتحار في كتابنا المخصص لسوسيولوجيا الجريمة) .

٦) - العوامل الاقتصادية والثقافة والحضارة :

في عهود الرخاء تنشط الحياة الثقافية والحضارية . واذا ألقينا نظرة على الثورة الثقافية والحضارية التي رافقت عهد الزراعة الراقية القائمة على العبودية والرق ، وعلى تلك التي رافقت العهد الصناعي الحديث تأكدنا ما للعوامل الاقتصادية من أثر هام في العلم والفلسفة والفن والتشريع ، والتكنيك وتحسين الملبس والمسكن ورفع مستوى الحياة الغذائية وتفننها .

وقد ظهر أثر العوامل الاقتصادية في ترقية العلوم النظرية والميل الى تطبيقها على المجالات الصناعية . ونعلم بوضوح كم أفاد تفرغ العلماء والاختصاصيين العلم والتكنيك ، ولكن لولا الأموال الطائلة التي تخصص لهم لما أمكن ذلك . ونعلم اليوم ان صنع القنبلة الذرية واستخدام الذرة للأغراض السلمية يكلفان أموالا لم يقو على تحملها حتى اليوم سوى ثلاث دول كبرى هي : الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي وانكلترا ، وقد تلحق بها بعد مدة قصيرة فرنسا .

ويحاول رأس المال الذي يهتم بالربح ان يحسن تكنيك الانتاج ، ويستثمرها ويوجهها لصالحه وفائدته . وأفضل التكنيك ظهرت في العصر الصناعي الحديث اذ شخصت كثيراً على تحسينها الاموال التي صرفت من أجل تحسين وسائل وآلات العمل ، للتوصل الى اكبر انتاج بأقل كلفة . ولكن تحسين التكنيك ليس بتابع للعوامل الاقتصادية فقط ، وانما لعوامل اخرى ايضا منها الابتكار

---

(٦٨) راجع M. Halbwachs: Les causes du Suicide. Paris. Alcan. 1930. pp. 133 ss.

د - أثرها في الجريمة والانتحار :

يقول توماس (D.S.Thomas) : حيث توجد الملكية الخاصة (أو الفردية) فإن الطبقات الفقيرة تقدم أغلب صغار السارقين ، بينما تقدم الطبقات الأخرى كبار المحتالين[٦٧] .

وفي الأحياء الفقيرة يكثر السارقون والمختلسون أكثر منهم في الأحياء الغنية . وقد لوحظ ان السرقات تتزايد في الريف ، تبعاً لغلاء الخبز . كما لوحظ أيضاً إن السرقات تتزايد في المدن الصناعية ، تبعاً للأزمات الاقتصادية . ويرتفع منحني السرقات والجرائم والجنح في أوقات البطالة والعطالة عن العمل ، ويظهر هذا في الشتاء أكثر منه في الصيف ، لأنها تكثران في الشتاء أكثر منها في الصيف . وتساعد العوامل الاقتصادية على تهديم الأسر الفقيرة ، وبالتالي تساعد على جنوح الأحداث فيها . وقد قيل : للفقراء جرائمهم : السرقة خاصة ، وللأغنياء جرائمهم : مخالفة **الآداب العامة والفسق والسكر** والاحتيال ...

ولكن الجريمة لاتعلل بالعوامل الاقتصادية ، لأنها تابعة لعوامل أخرى : نفسية وأخلاقية واجتماعية ودينية . لأن هناك فقراء كثيرون لايسرقون ، ولا يقتلون ، إذ يقال : « **فقير ولكنه شريف وعفيف** » ، وهناك كثيرون من الأغنياء لايتورطون بالفسق ولا السكر ولا يتعرفون على الاحتيال . فالمشكلة تابعة اذن لعوامل معقدة ومتشابكة .

أما تأثير العوامل الاقتصادية في الانتحار فظاهر . إذ قد ينتحر الذين تضيق بهم سبل العيش ، وينتحر اولئك الذين يفلسون ، وينتحر الناس أكثر في أزمنة الهبوط التي تلي الأزمات الاقتصادية . ولكن الانتحار تابع ايضاً لعوامل عديدة منها المرضية والنفسية والدينية والاجتماعية ، ولهذا برهن هالفاكس ان

---

(٦٧) راجع : D. Thomas : Sociolaspects of the Busness Cycle, 1925. pp. 433 ss

والعباسيين من أجل الخلافة . ولكن الطالبيين استغلوا فيها العوامل الفلسفية والدينية والاقتصادية (الطبقات الفقيرة) والقومية (بعض الفئات الشعوبية) .

وحدثت ثورات بدافع ديني محض تقريباً ، كثورة الأطهار أو المطهرين (Puritans) في انكلترا .

ومهما يكن من أمر أهمية العوامل الاقتصادية في أغلب الثورات التي تعتبر وسيلة العنف من قبل طبقة أو فئة ضد أخرى ، فهي تستخدم عوامل أخرى لاندلاعها وهبوبها ، هي العوامل الفكرية التي تهيئها ، والعوامل النفسية والسياسية من ميل الى **الحرية والمساواة** والتحرر من نظام الاستغلال **الاجتماعي والاقتصادي** التي تغذي أبداً ودائماً كل الثورات .[٦٥] (سنعود بالتفصيل الى بحث الحروب والثورات في كتابنا المخصص للسوسيولوجيا السياسية) .

ج – أثرها في نشأة الاضرابات :

ليس من حاجة الى الالحاح على أهمية العوامل الاقتصادية في ظهور أغلب الاضرابات لدى العمال والمستخدمين والموظفين .

وبدأت الاضرابات تأخذ أهمية في البلدان الديموقراطية ، حتى أصبحت حقاً من حقوق الجميع : حق الاضراب والتظاهر . وكثيراً ماتكون الاضرابات تمهيداً للثورات ، اذا لم تلب مطالب المضربين .

ولكن هذا لايعني ان جميع الاضرابات مردها الى عوامل اقتصادية ، إذ هناك اضرابات سياسية ، واضرابات طلابية ، واضرابات موظفين ، قدتكون بعيدة كل البعد عن العوامل الاقتصادية[٦٦] ..

---

(٦٥) من أجل بحث هام راجع :

A. Joussain : La Loi des révolutions. Paris. Flammarion. 1950

P. Sorokin : The Sociology of revolution. 1925 .

(٦٦) راجع : A. Doucy : Interdiction, liberté et organisation de la grève. in Revue de l. institut de Sociologie. Bruxelles. 1950 . pp. 35 - 69

والأهم . فالثورة الفرنسية كانت ثورة الطبقة البورجوازية على الاقطاعيين والنظام الاقطاعي ، وقد شارك فيها الشعب : من فلاحين وعمال . ولا يشك إنسان بأن العوامل الفكرية : أفكار الفلاسفة حول **الحرية والمساواة والاخاء** ، قد لعبت دوراً هاماً في اندلاع الثورة . والثورة الروسية الكبرى وما سبقها من ثورات كانت ثورة عمال وبورجوازيين على ارستوقراطيين واقطاعيين . وأغلب الثورات التي ظهرت في أوروبا بين ١٨٣٠ — ١٨٤٨ كانت ثورات مظلومين ومحرومين ضد ظالمين ومستغلين ، كانت ثورات سببها عدم تساوي الثروات الذي خلفته النهضة الصناعية الكبرى . وقد تنبه أحد مؤلفي الصين ، هونج مي Hong Mai منذ القرن الثاني عشر الى أهمية العوامل الاقتصادية في حدوث أو انقطاع الثورات في بلاده منذ القدم ؛ إذ يرى أن ظهور وانقطاع ثورات السلب والنهب ارتبطا بالمجاعات التي كانت تسببها الفيضانات والجفافات . وكان المضللون من السحرة يغررون بالشعب ويدفعونه الى الثورة . (٦٤)

وثورات الشعوب المستعمَرة على الشعوب المستعمِرة تلعب فيها العوامل الاقتصادية دوراً هاماً . إذ يريد الثائرون أن يستفيدوا من خيرات بلادهم وثرواتها بدلاً من المستعمرين الدخلاء . والثورات التي حدثت في سوريا ضد الفرنسيين ، وفي مصر ضد الانكليز ، غذتها بقوة الفئات الرأسمالية والصناعية لتضرب بها استيلاء المستعمرين على اقتصاد هذين البلدين قبل وحدتها . وثورة الجزائر اليوم ، ليست سوى تعبير الجزائريين **المحرومين** ضد الفرنسيين **المتخمين** ! ولكن هذا لا يعني أن العامل الأساسي لهذه الثورات هو العامل الاقتصادي ، بل قد يكون العامل السياسي : استقلال البلاد السياسي وسيادتها القومية ، هو الغالب ...

وحدثت ثورات سياسية محضة تقريباً : كثورات الطالبيين على الأمويين

---

(٦٤) راجع : R. Grousset : Histoire de la Chine. paris. 1942 . P. 114. note I .

فالحرب بجوهرها ليست ، في رأيهم ، سوى امتداد لسياسة طبقة بواسطة وسائل عنيفة وزجرية ودموية .

وتبعاً لهذا يفرق الماركسيون بين نوعين من الحرب : **حرب عادلة** تشن للدفاع عن النفس ، وللتحرر من الاستعمار . . ، **وحرب باغية ظالمة** ، تشن للفتح والاستعمار والاستغلال . . (٦٢)

من كل ماتقدم نرى أهمية العوامل الاقتصادية في نشأة الحروب ؛ ولكن هذا لايعني ان جميع الحروب التي شنت خلال التاريخ وفي جميع البلدان ، إنما شنت لأسباب اقتصادية واقتصادية فقط . اذ حصلت في العالم حروب شنت لأسباب دينية (كحرب المئة سنة في فرنسا) بين الكاثوليك والبروتستانت) ، وشنت حروب أخرى (ولاتزال تشن) ، وخاصة في العالم البدائي ، من أجل الحصول على النساء والغلمان ، . (٦٣)

وشنت حروب كثيرة من أجل الشهرة والغرور الشخصيين ؛ وبعض حروب نابليون وبعض الفراعنة أفضل مثال عليها .

ب — أثرها في نشأة الثورات :

لقد رأينا سابقاً أن أكثر الثورات كانت ثورات عمال على أرباب عمل ، وثورات فلاحين على مالكين ، وثورات عبيد على أسياد ، وثورات أقنان على اقطاعيين ، وبالاختصار ثورات مستغلين على مستغلين . أما الثورات الكبرى في العصور الحديثة فقد كانت العوامل الاقتصادية تكون فيها العامل الأساسي

---

(٦٢) راجع : M. Rosentabl et p. Ioudine : Petit dictionnaire philosophique (Moscou) . 1955. art. Guerre. pp. 228-230

(٦٣) من أجل دراسة هامة راجع :

Maurice M. Davie : La guerre dans les sociétés primitives. Paris. Payot 1931

التاريخية ، في هذا الفصل ، أن أغلب الحروب التي كانت تشن في الزمن القديم ، وخاصة بعد ظهور الزراعة الكبرى والملكية الخاصة والطبقات الاجتماعية ، كانت إما لغزو المواشي وسلب المواسم والاستيلاء على البلدان الغنية بالمواد الأولية والاستيلاء على العبيد ، وإما لمطامع خاصة لبعض القادة والملوك والأباطرة وإما لكسب شهرة تاريخية . أما الحروب في الزمن الحديث فقد اشتعلت بكاملها إما من أجل توسيع المجال الحيوي ، وإما للنزاع على مناطق غنية بالحديد والمعادن والفحم (الحروب بين فرنسا وألمانيا) ، وإما للإستيلاء على بلدان متأخرة غنية بالمواد الأولية تصبح مستعمرات ، وإما للسيطرة على بلدان تصبح أسواقاً تجارية للبلدان الصناعية الرأسمالية . واغلب الحروب الاستعمارية كانت لهذه الغاية . وخير أمثلة على هذه الحروب الحديثة الحربان العالميتان الاولى والثانية ، وحروب المستعمرين الفرنسيين والانكليز والهولنديين في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين (٦١) .

والحرب الباردة الدائرة رحاها في الشرق الأوسط ليست سوى مظهر من الصراع والتطاحن الاقتصاديين بين الغرب « والشرق » على منابع النفط والأسواق التجارية . . ولهذا ذهب أفلاطون الى القول في كتابه « الفدون » : « لاتتأتى جميع الحروب سوى عن الرغبة في تجميع أو تكديس الثروات » .

ويعتقد الماركسيون اللينينيون أن الحرب ليست ظاهرة طبيعية وضرورية في حياة الشعوب والدول ، ولكنها حادثة تاريخية ظهرت بظهور مجتمعات الطبقات الاجتماعية ؛ لأن هذه المجتمعات تولد الحرب والصراع المسلح والمنظم بين الطبقات الاجتماعية أو بين الدول والشعوب من أجل أهداف اقتصادية وسياسية . ويعتقدون بأن الحرب لم تصبح « صناعة دائمة » ووسيلة للسيطرة والاستغلال والاستعمار ، إلا بعد أن ظهرت الملكية الخاصة والطبقات الاجتماعية والدولة .

---

(٦١) راجع : Q. Wright : A study of War.

النزعة الفاشيستية ، كحزب بوجاد في فرنسا ، والقومي السوري في بعض البلدان العربية ، وتميل الطبقة الدنيا الكادحة من العمال خاصة ، إلى الأحزاب اليسارية الثورية ، كالحزب الشيوعي في جميع أنحاء العالم ، بينما ينتسب كثير من الفلاحين والموظفين الى الاحزاب المعتدلة سواء منها اليساري أم اليميني كاتجاه بعض الفلاحين في بلادنا الى الحزب العربي الاشتراكي سابقاً ، وكحزب المعتدلين (Les modérés) في فرنسا(٥٩) .

وساعد ظهور المدن على تمركز أصحاب الحرف والعمال الصناعيين فيها . كما ساعد النظام الاقتصادي الحديث على تمركز العمال في المدن الصناعية الكبرى ، مما أدى الى نشوء طبقة كادحة ثائرة ، أخذت تلعب دورها في سياسة بعض البلدان الرأسمالية الديموقراطية كفرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا . بواسطة أحزابها ونقاباتها العمالية طوراً بالقسر والضغط ، وتارة بالتأثير في نتائج الانتخابات . وقد قال أحد المؤلفين : « لولا التجمع العمالي الناتج عن التمركز الصناعي ، لما كانت هناك نقابية ثورية ولا حركة اشتراكية . »(٦٠) ... كما أخذت تلعب الدور المسيطر في البلدان الاشتراكية وخاصة في الاتحاد السوفيتي ..

٥) العوامل الاقتصادية والحروب والثورات والاضرابات والجرائم

أ — أثرها في نشأة الحروب :

أكثر الحروب التي نشأت في العالم كانت أسبابها اقتصادية . اذ رأينا في لمحتنا

---

(٥٩) من أجل الاحزاب السياسية وعلاقتها بالطبقات الاجتماعية راجع :

M. Duverger et autres : Partis politiques et classes sociales en France Partis A. Colin. 1955

G. E. Lavau : Partis politiques et réalités sociales. Paris. A. Colin. 1953 .

(٦٠) L. Contardarin : Notions de Sociologie. Paris Delagrave. (1937) . P. 134.

بكل ضروريانه ، ودعم حلفائها مادياً ومالياً ، وشراء بعض رجال الحكم في البلاد الأجنبية ، لتجعلهم يتبعون سياستها، ويقيمون العراقيل في وجه الحكومات التي تعاكسها .. ونرى في أيامنا هذه ان مانقول ينطبق إلى حد بعيد على سياسة وقوة الولايات المتحدة الأميركية التي تسيطر على كثير من الشعوب الراقية وغير الراقية بفضل اقتصادها المزدهر وقوتها العسكرية الهائلة ؛ كما ينطبق، نوعاً ما على ، الاتحاد السوفياتي الذي بدأ ينافس الولايات المتحدة الأميركية في كثير من النواحي الاقتصادية والسياسية ويتفوق عليها في كثير من النواحي الحربية والعسكرية ..

وقد قال غوستاف لوبون منذ زمن ليس بقصير (بعد الحرب العالمية الأولى) « ان غناها (الولايات المتحدة) ساعد على اخضاع اوروبا لقنانة مالية سوف تنحدر منها قريباً قنانة سياسية »[٥٨] وقد صدق « تنبؤه » وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية !

جـ — العوامل الاقتصادية والأحزاب والتيارات السياسية :

يميل المالكون الكبار والبورجوازية المالية والصناعية الكبرى ، عامة ، إلى الأحزاب الرجعية واليمينية (كحزبي الشعب والوطني في بلادنا سابقاً).

ويميل قسم لابأس به من الطبقة الوسطى إلى الأحزاب الاشتراكية المعتدلة النازعة الى التسوية في اصلاحها ، كالحزب الاشتراكي في فرنسا وايطاليا وكحزب البعث العربي في بعض البلدان العربية ، ويميل قسم آخر منها ، مع قسم لابأس به من الطبقة العليا أو الغنية ، إلى الاحزاب الاشتراكية المحافظة ذات الصبغة الدينية ، كالأحزاب الاشتراكية في فرنسا وايطاليا وبلجيكا ، « والاخوان المسلمين » في بعض البلدان العربية ، ويميل القسم المتزمر والناقم من هذه الطبقة على الاوضاع العامة وخاصة الاقتصادية ، إلى الاحزاب اليمينية المتطرفة ذات

---

(٥٨) G. Le Bon : L' évolution actuelle du monde. p. 134

السيكولوجي والاجتماعي والديني والثقافي والحضاري ... وسنعود إلى هذا البحث بالتفصيل في كتابنا المخصص للسوسيولوجيا السياسية .

ب - العوامل الاقتصادية وسياسة الأمم والشعوب بصورة عامة :

تؤثر العوامل الاقتصادية على السياسة الخارجية للشعوب ، فالنظام الرأسمالي **الصناعي والمالي الحصري** في بلد ما يوجه سياسة هذا البلد الخارجية نحو الاستعمار أو نحو الاستيلاء على الأسواق التجارية في بلدان مختلفة من أنحاء العالم ، والسيطرة على منابع النفط ومصادر المواد الاولية والخام سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم معدنية . ويعتقد رايت (Q. Wright) إن السياسة الخارجية للقبائل والأمم ترد غالباً إلى السلب أو النهب : إذ يغزو الفقراءُ الاغنياءَ حسب دور أزلي(٥٧).

وتختلف الثروات التي تجتذب القبائل والأمم ، اذ كانت فيما مضى الصوف والشعر والذهب والعنبر والحبوب ؛ فاصبحت في أيامنا الفحم والنفط والحديد والمعادن الأخرى ، والبلاد التي تضم أرضها هذه الثروات ، ولا تملك الجيوش الكافية لحماية نفسها ، تكون عدفاً لغزوات الاستعماريين الطامعين ، إذ الاستيلاء على المواد الأولية يعتبر في أيامنا شرطاً من أهم شروط الرخاء والتقدم .

وقد سببت وتسبب الحاجات الاقتصادية كثيراً من علاقات الصداقة والكراهية بين الأمم والشعوب ، فحاجة الألمانيين الى حبوب **البوسفور الشيموي** ، دفعتهم إلى الاستيلاء على البوسفور ، (كما كان يفعل الانكليز بالنسبة لطريق الهند) . وتحول انكلترا إلى بلد صناعي دفعها الى الاستعمار والسيطرة على كثير من البحار ، وعندما تزداد ثروة دولة من الدول فإن قوتها السياسية تزداد تبعاً لذلك ، لأن هذه الثروة تساعدها على تكوين جيش بري وبحري أقوى ، وتزويده بمعدات وزخائر أفضل ، واقامة مصانع حربية لتزويده

---

(٥٧) راجع : Q. Wright : A Study of War. N. Y. 1942. Vol. I. pp. 284 - 285 ot vol. II. pp. 1172 ss.

أما في المانيا فظهور النـازية عائد الى خوف البورجوازية الكبرى (من أرباب الصناعة الكبرى الى أصحاب البنوك والتروستات) من الحركات العمالية الثورية . لذلك شجعت على ظهور النـازية من عناصر مختلفة رجعية وشوفينية ورأسمالية وانتهازية وعسكرية .

فالفاشيستية عبارة عن حركة رجعية وارهـابية تعبر عن ديكتاتورية رأس المال التجاري ، أقامتها البورجوازية الامبريالية بقصد القضاء على مقاومة الطبقة العاملة وكل العناصر التقدمية في المجتمع (٥٥) .

والنزعة التحررية في الحكم لاتوافق سوى اقتصاد قوي لايخشى معه الاقتصاديون على تبدد ثرواتهم . وتساعد الأزمات الاقتصادية على تقوية صلاحيات السلطة التنفيذية التي يمكن ان تتغلب الى ديكتاتورية ، أو الى حكومة تتدخل في أمور كثيرة . ففي المانيا مثلاً ، كان يطلب من الراغب في الزواج شهادة تثبت ان دخل الزوجين المقبلين كاف لاعالتها وإعالة أولادهما ، خوفاً من أن يقعوا على عبء الدولة في المستقبل (٥٦) .

وفي حالة الهبوط الاقتصادي يجد من حرية العمل وحرية السلطة التشريعية ويحل التقنين ، وتطبق العقلانية بتعديلاتها وعينية أنماط السلوك للجميع ، وسبب سوء حال الأموال العامة قوة البرلمان الانـكليزي في القرن السادس عشر ، والبرلمان الفرنسي في القرن الثامن عشر ، وساعد في أيامنا هذه ، المشرع الانـكليزي على ان يقوم بتوزيع جديد للثروات .

من كل ماتقدم نرى ماللعوامل الاقتصادية من أثر هام في تكوين الدولة وشكلها ومحتواها . ولكن هذا لايعني ان العوامل الاقتصادية تعلل وحدها مؤسسة كالدولة لأن الدولة ونظام الحكم يرتبطان بعوامل أخرى منها :

---

(٥٥) راجع : Les origines du Fascisme. in Pecherches. internationales. No 1. Mars - avril. 1957. (Paris).

(٥٦) نقلا عن : P. Reboud : Précis d, Economie Politique. tom. I (1932). p. 127.

وفي العهد الاقطاعي ظهرت الاشكال المونارکية ؛ وقد اتخذت الدولة أحياناً شكلا جمهورياً أرستوقراطياً (ينتخب الملك أو الامبراطور من قبل الاقطاعيين) واتخذت أحيانا أخرى شكلا مونارکياً وراثياً ...

وعندما سيطرت البورجوازية اتخذت الدولة أشكالا منهـا : المونارکية الدستورية (أي ان المونارکية أصبحت محدودة بشكل جمهوري غير ديموقراطي : يعني ان الانتخـاب كان مقصوراً على دافعي الضرائب من درجة معينة) ، والجمهورية المشروطة (الانتخاب مقصور على الاغنياء أو المالكين)، والجمهورية الديموقراطية (الانتخاب حق للجميع) . فالشكل الاول اتخذته البورجوازية كتسوية مع الماضي ، والشكل الثاني تبنته البورجوازية لانه يتوافق مع القاعدة الاقتصادية للنظام السائد : انه جمهورية المالكين .

أما الشكل الثالث فقد تبنته البورجوازية عندما قويت الطبقة **الكادحة** ، وعندما عنف الصراع الطبقي وبلغ ذروة الحدة ، وقصدها من ذلك «التخفيف من حدة صراع الطبقات » ، وتحذير ثورة الكادحين ...

أما في النظام الاشتراكي فشكل الدولة مستمد من قاعدة النظام الاقتصادي الذي يعود الى الملكية الجماعية ، والى سلطة الاكثرية المنتجة : **دولة الكادحين**(٥٤)

وقـد ظهرت ، في القرن الحـالي ، بعض أنظمة ديكتاتورية **كالنازية والفاشيستية** استمدت أصولها من عوامل اقتصادية ، وخاصة من صراع الطبقات الحاد في بعض البلدان الرأسمالية كالمانيـا وايطاليا .. ويعتقد الماركسيون بان الفاشيستية استمدت أصولهـا في ايطاليا من الصراع بين البورجوازية والطبقة الحاكمة من جهة ، والطبقة الكادحة من جهة ثانية . لذلك شكلت الطبقة الحاكمة الحزب الفاشيستي والنظام الفاشيستي لتقضي على حركة نهوض وانعتاق البروليتاريا وامكان وصولها الى الحكم .

---

(٥٤) من أجل بحث هام راجع :

G. Politzer et autres : Principes fondamentaux de Philosophie Edit. soliales. (1954). pp. 429 - 469.

ووجدت الدولة لترسخ وتـديم الهيمنة والسيطرة الاجتماعيتين للمستغلين ، ونظام الملكية الذي يؤمن ويحفظ امتيازاتهم وحظواتهم .

ولهذا يقول ماركس : « الدولة آلة سيطرة طبقة ، واضطهاد (أو قهر) طبقة من قبل طبقة أخرى »(٥٣) .

ويظهر أثر الحياة الاقتصادية وأثر الصراع الطبقي في **محتوى وشكل الدولة** .

محتوى الدولة : فصفة الدولة يقدمهـا المحتوى الاجتماعي الواقعي للدولة ، أي محتواها الطبقي . فالدولة تكون إما عبودية ، وإما إقطاعية ، وإما بورجوازية ورأسمالية ، وإما بروليتـارية واشتراكية . **ولهذا كانت الدولة ديكتاتورية طبقة** . وتنتقي كل طبقة حاكمة أو مسيطرة شكل الحكم الذي يتناسب أكثر من سواه مع ديكتاتوريتها الطبقية . فالدولة العبودية كانت دولة تجـار واغنياء وملاكين كبار ، ولم تكن قط دولة العبيد ، لان العبيد لم يكونوا فيها معتبرين كمواطنين إطلاقاً . والدولة الاقطاعية كانت دولة الاسيـاد والمالكين الكبار ولم تكن دولة الاقنان الذين لم يكونوا يتمتعون بأي حق من الحقوق السياسية . . .

شكل الدولة :

يعتبر شكل الدولة تعبيراً عن محتواها الاجتماعي الواقعي . وشكل الدولة يحدده نمو صراع الطبقات . وهناك أشكال للدولة : اذ قـد تكون موناركية (حكم الفرد) ، وجمهورية (السلطة تقوم على الانتخـاب) ، وأرستوقراطية (حكم الاقلية) ، وديموقراطية (حكومة الشعب . .) . . . ففي القديم كانت جميع أشكال الدولة ذات محتوى عبودي . وعندمـا ينتقل الحكم من شكل إلى آخر ، فمعنى هذا ان طبقة جديدة استولت على الحكم . فمثلاً انتقال الدولة ، في روما ، من الشكل الجمهوري الارستوقراطي الى الجمهوري الديموقراطي كان يعكس مرحلة جديدة من صراع الطبقات بين **المالكين الكبار** والتجار .

---

(٥٣) نقلا عن :
Ibid. P. 13

الاقتصادية فقط ، ذلك لأنه يدخل في تركيبها أحيانا عوامل السن (في الشعوب البدائية) ، وعوامل سياسية (الفتح - والغلبة) ، وعوامل اجتماعية (الارث والعائلة التي قد تكون ارستوقراطية وفقيرة في ذات الوقت : أسر تاريخية . . .) ، وعوامل دينية كما رأينا ، وعوامل عرقية (بيض وسود ، أحرار وعبيد . . .)[٥١]

وتؤثر الثروة والملكية في ثورية الطبقات الاجتماعية ومحافظتها . فالطبقات الغنية محافظة ، والطبقات الوسطى أقل محافظة ، أما الطبقات الفقيرة فتعتبر ، في أساسها ، ثورية . والطبقة العمالية الكادحة في البلاد الصناعية الحديثة تعتبر أكثر الطبقات ثورية لأنها فقيرة ولا تملك . . . (سنعود إلى الطبقات الاجتماعية بالتفصيل في كتابنا المخصص للسوسيولوجيا الاقتصادية . .) .

٤) العوامل الاقتصادية ونموذج الحكم والحياة السياسية عامة :

بين السياسة والعوامل الاقتصادية صلة وثيقة . إذ تتأثر السياسة بالاقتصاد تأثراً عميقاً . وتعود السياسة فتؤثر بدورها في الاقتصاد . ولا نبحث هنا في التأثير المتبادل بينهما بل في تأثير الاقتصاد بالسياسة فقط . فالحياة الاقتصادية تنعكس في نموذج الحكم والدولة ، وفي الحياة السياسية والقومية عامة .

أ - تأثير العوامل الاقتصادية في الدولة :

رأينا في عرضنا التاريخي السابق ان أصل الدول يعود في أساسه الى العوامل الاقتصادية وتطاحن الطبقات بعد ظهور الملكية الخاصة وتفاوت الثروات بين الناس . ولهذا قال لينين : « الدولة عبارة عن نتاج وظهور تطاحنات الطبقات التي لا يمكن التوفيق بينها »[٥٢] .

---

(٥١) راجع :
A. Joussain : Les Classes Sociales. Paris. P. U. F. 19 .

(٥٢) Lenine : L, Etat et la révolution. P. 12

واصحاب لاموال (أصحاب البنوك). فنشأ عن هذا التمركز البورجوازية الكبرى التي قضت شيئاً فشيئاً على الملاك الكبار. وحلول العهد الصناعي في العصور الحديثة أعطى البورجوازية أهمية كبرى، سيطرت معها على الحياة السياسية. ونشأ معها كذلك طبقة أخرى ناشطة هي طبقة العمال وصغار الحرفيين والعمال الزراعيين دعاها ماركس بالبروليناريا (Le prolétariat).[٤٨]

وقد كان العامل الاقتصادي : المهنة والدخل وشكل ارضاء الحاجات المادية، العامل المسيطر والرئيسي في نشوء الطبقات الاجتماعية · حتى في الهند القديمة حيث نشأ نظام الطوائف (castes) (الطبقات المغلقة) والذي يظنه البعض قائماً على الدين، فإن العوامل الاقتصادية هي اساس هذا الدارج الاجتماعي لان هذه الطوائف قسمت على اساس المهنة : ملاك، محاربون، كهان، صناع زراع، فلاحون .. واستعمل الاساس الديني لترسيخها وادامتها لصالح طائفتين منها أو اكثر[٤٩]

ووجد نظام الطوائف في بلاد قديمة كفارس ومصر واليونان وروما، ولدى العبريين، ويوجد في شعوب حالية متأخرة في جزر الفيدجي وفي ساموا وتونجا.[٥٠] قامت هذه الطوائف دوماً على اساس اقتصادي ورسختها عوامل دينية.

ولكن هذا لا يعني إننا نستطيع تعليل الطبقات الاجتماعية بالعوامل

---

(٤٨) من أجل نشوء البورجوازية راجع :

1) Manuel d, Economie politique (Edit. Sociales.) Chap. III et IV

2) هذه هي البورجوازية في شتى مراحلها : تأليف ريجين برنو – تعريب انعام الجندي منشورات حمد – بيروت

(٤٩) من أجل نظام الطوائف في الهند راجع :

1) C. Bouglé : Essai sur le régime des castes.

2) E. Senart : Les castes dans l' Inde. Geuthner. Paris. 1928.

(٥٠) راجع :

A. M. Hocart : Les Castes. Paris. Geuthner. 1938

الدين :

اما فيما يتعلق بالدين فقد لمسنا تأثير العوامل الاقتصادية العميق فيه. ولكن الدين مرتبط بعوامل اخرى هامة **عاطفية وفكرية وسياسية وطبيعية** واجتماعية سنعود اليها بالتفصيل في كتابنا المخصص لسوسيولوجيا الدين. (٤٦)

الرق :

ورأينا ايضاً ان العوامل الاقتصادية كانت العوامل الرئيسية المباشرة في نشوء الرق (أو العبودية) والطبقات الاجتماعية .

العوامل الاقتصادية والطبقات الاجتماعية

رأينا ما للعوامل الاقتصادية من أثر في نشوء الطبقات . واذا رجعنا الى التاريخ وجدنا فيه امثلة موضحة . ففي **اليونان الامبراطورية** التي كانت غنية بالحبوب والكروم والزيتون والخراف والثيران ، يعلل تحسن ونمو الزراعة الاهمية التي احتلتها الارستوقراطية **المالكة** للملكيات الواسعة : اذ كان الملاك الكبار اسياد الدولة .

وفي اليونان القديمة نرى نفس الظاهرة . ففي **كورنت** Corinthe حيث السهول مجدبة لاتساعد على اقامة زراعة ، نشأت ارستوقراطية المال المكونة من التجار وصانعي الاسلحة.. (٤٧)

وكذلك يعلل نشوء البورجوازية في اوروبا خلال القرون الوسطى بتمركز الثروات والاموال بين ايدي التجار الكبار ، ورجال الصناعة الكبار ،

---

(٤٦) من أجل تفاصيل هامة راجع :

Munir M. Mousssa : opi. cit. Chap : III, IV et V.

(٤٧) راجع: J. Jardé : La formation du peuple grec. p. 197 ss.

احوال المرأة وأوضاعها ، وقويت شخصيتها ، استقلت عن الرجل وتحررت من عبوديته . ولكن نزول المرأة الى الحياة الاقتصادية واستقلالها المادي عن الرجل شجع على الطلاق ، كما ساعد الرفاه والتحرر وبعد كل من الزوجين العاملين عن الاسرة على ظهور تفسخ وانحلال في بعض الاسر ، ونقص في المواليد وتحديد للنسل (٤٥) . (سنعود الى بحث الاسرة بالتفصيل في كتابنا المخصص سوسيولوجيا الاسرة) . ومهما يكن من امر اهمية العوامل الاقتصادية فلا يمكن القول انها العوامل الوحيدة في تسبيب هذا التطور التاريخي وهذا التبدل والتغير في انماط المجتمع ونماذج مؤسساته . اذ ان هناك عوامل اخرى لاتقل اهمية عن العوامل الاقتصادية هي العوامل **الفكرية الابداعية** التي تميز الانسان عن سائر الحيوانات وتجعل تطور حياته الاجتماعية اسرع واعمق واكثر استمراراً في التجدد والابداع ، **والعوامل البيولوجية** التي تدفع الانسان الى تأسيس المؤسسات والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لارضائها . ونخص بالذكر من هذه العوامل الحاجات الى الطعام والشراب واللباس والحماية من البرد والحر وغائلة الوحوش والحاجة الى الراحة والرفاه والتنعم ... وهناك عوامل اخرى نفسية وثقافية ...

وقد رأينا تأثير العوامل الاقتصادية في تحسين اللباس والمسكن ونشأة الفن والعلم والفلسفة ، ورأينا كيف كانت تنعكس الاحوال والمؤثرات الاقتصادية في الفنون والآداب والافكار والمعتقدات والاخلاق ، ولكن هذه الامور ليست تابعة فقط للعوامل الاقتصادية وانما هي تابعة ايضاً **لعوامل بيولوجية وسيكولوجية وسياسية واجتماعية محضة** سنعود الى ذكرها في كتبنا المخصصة لسوسيولوجيا الفن وسوسيولوجيا المعرفة وسوسيولوجيا الاخلاق .

---

(٤٥) : راجع المصدر السابق ص ٣٣٤

البلاد الواطئة (Pays-bas) مدن كثيرة : جاندو بروجز ، وبروكسل وفالنسين ... على أثر النشاط التجاري الذي عرفته بعد الغزوات النورمندية ، فتكون سكان المدن من اناس جاؤوا اليها للعمل بالتجارة ، وجر هذا الصناع واصحاب الحرف . وكثير من المدن الحديثة في اميركا واوروبا كنيويورك وواشنطن .. أنشئت لاهداف تجارية وصناعية .[٤٣]

ولكن هذا لايعني ان كل المدن انشئت لاسباب اقتصادية، اذ هناك مدن انشئت لاهداف سياسية ، واخرى **لاهداف دفاعية** كالمدن التي تبنى على حدود الاعداء (لجوء العرب الى انشاء مراكز كهذه على ثغور الروم) ، وثالثة لاهداف اصطيافية (كمدن **الكوت — دازور** على البحر في فرنسا) ... (سنعود الى هذا البحث بالتفصيل في كتابنا المخصص للسوسيولوجيا الاقتصادية).

ولعبت نفس الدور في تبدل اشكال الاسرة واوضاعها وتقاليدها. ولاحظ بعض المؤلفين ان ضرورة التعاون في السلوك المتعلق بنفس المزروعات اسست في الصين (في قرى مناطق اللوس (Loess) تكوين او تشكيل اسر متحدة بأصل مشترك أو على الاقل بطقوس مشتركة ويعود تماسك الاسرة القديمة كالزادروجا (Zadruga) السلافية والمير (Mir) الروسي أيضاً الى ضرورات من نسق اقتصادي .[٤٤] وقد تحولت الاسرة في العصر الحديث وفي الامم الصناعية الى اسرة زوجية تقوم على اساس التفاهم والمساواة وحرية الزوجين في فصم عقد الزوجية . وتحسنت

---

(٤٣) راجع : 1) H. Pirenne : Les villes au moyen âge. 1927.

— Les anciennes démocraties des pays-bas.

2) J. Haesaert: Sociologie générale. PP. 356-358

3) A. Joussain: Petit traité de Sociologie économique. P.P. 321-324

(٤٤) راجع : A. Joussain : Petit traité de Sociologie économique· P. 325

اذ كان من الواجب ان نمر على العهد الاقطاعي ، والعهد الصناعي الرأسمالي ، والعهد الاشتراكي الجديد . ذلك لاننا سنعود الى هذا البحث بالتفصيل في كتابنا المخصص للسوسيولوجيا الاقتصادية .

ويجب ان ننبه القارىء الى عدم الاعتقاد بأننا نقول بتطور تاريخي واجتماعي واحد وعيني مرت به جميع الشعوب والدول والمجموعات البشرية . وانما نعتقد بان هذه المراحل التي عددناها مر بها التاريخ البشري العام في مجرى تطوره تاركاً لنا انظمة سياسية واقتصادية واجتماعية متزايدة التعقيد تبعاً لتقدمها في سلم التطور الصاعد والنشوء المتقدم أبداً الى الامام .

فهذه المراحل عرفتها البشرية عامة ولم يعرفها كل شعب من الشعوب وكل مجموعة بشرية .

ما قدمناه يكفي لاعطاء القارىء فكرة واضحة عن التأثير الهام للعوامل الاقتصادية في التطور التاريخي والحضاري . وقد برز ذلك واضحاً في تغير اشكال المجتمع من حال الى حال ومن نموذج الى آخر : من العشير الى الفخذ والبطن والقبيلة الى القرية ومن القرية الى المدينة ، ومن المدينة الى الدولة أو الشعب ، فالى الامبراطورية ..

القرية :

كان سبب نشوء القرية لجوء قبائل الرعاة الى الزراعة . فدعاهم هذا لان يستقروا في بقعة أرضية وينشئوا القرية والمجتمع القروي . ولكننا لانستطيع ان نعلل نشوء كل قرية بالعوامل الاقتصادية ، اذ انشئت بعض القرى فيما بعد لاهداف دفاعية وستراتيجية وأهداف سياسية ، واهداف ترفيهية (**مصايف ومشاف**) .

المدينة :

وكذلك كان نشوء المدن القديمة وفي القرون الوسطى والحديثة تابعاً عامة لعوامل اقتصادية : تجارية وصناعية . فمثلا في القرون الوسطى ، نشأت في

وسرت ديانة تعدد الآلهة (أو الاشراك) . وتصورت احياناً الآلهة متدرجة . وعلى رأسها إله قاهر ومسيطر على غرار الامبراطور . وظهر في هذا العهد الآلهة الكبار أو العظماء . وقد أودع الناس في آلهتهم صفاتهم ، خيرها وسيئها، أما في عهد الامبراطوريات فقد ظهر الرسل والانبياء ، تلك الشخصيات التاريخية الفذة التي غيرت مجرى التاريخ بمبادئها وتعاليمها ومن هؤلاء موسى والمسيح وزرادشت وكونفوشيوس ومحمد .. وقد مالت الاديان في هذا العهد الى **التوحيد** . وظهرت صورة الإله الواحد أب الجميع ، خالق الناس والاكوان ، الملك العادل ، الرحمن الرحيم ، الشفوق ، المحب ، حاكم السماء والارض والذي يحكم فيها بالعدل والقسطاس . وظهرت بهذا **الديانة الموحدة الشاملة** (٤١)

وظهر في بعض هذه الديانات أثر لصراع الطبقات ، وسوء الاوضاع الاقتصادية . اذ انتشرت البوذية في الهند (في القرن السادس قبل الميلاد) مبشرة بالرضوخ والخضوع للطبقات المسيطرة وعدم مقابلة عنفها واهاناتها بالعنف . وقد استخدمتها الطبقة الارستوقراطية المستعبدة لتخدير العبيد والمستغلين والترسيخ سيطرتها عليهم.

أما المسيحية فقد ظهرت في عهد تهدم الامبراطورية الرومانية ، وكانت ديانة الطبقات الفقيرة من عبيد وصناع وفلاحين، وكانت بالنسبة اليهم ايديولوجيا تهاجم الطبقات الغنية والمستغلة . ولهذا كان اكثر تلاميذ المسيح من الصيادين وبائعي الاسماك والفلاحين والحرفيين الصغار اليائسين من اصلاح حالهم (٤٢) .

تعليق على هذا البحث : لانستطيع ان نمضي في دراستنا أكثر من هذا ،

---

(٤١) راجع : 1) Munir M. Moussa: opi. cit: PP. 289-299

2) J. Murphy : opi; cit : Chap : XIII et XIV.

(٤٢) من اجل دراسة هامة جداً راجع :

Ch. Hainchelin : Les origines de la religion. Edit. Sociales Paris. 1955.

كما حلل افلاطون وارسطو (خاصة) الرق وعمله واستغلاله . وهاجم افلاطون نوعاً ما الاستغلال ودعا في جمهوريته الى الغاء النقد والملكية الخاصة والاسرة لانها مدعاة للطمع والمفاسد الاجتماعية ، ودعا ارسطو الى الاقتصاد الطبيعي وحارب الربا والمبادلة القائمة على سرقة الناس وابتذاذ اموالهم... ولم يكن مفكرو الرومان بأرأف قلباً بالعبيد ، اذ كانوا يعتبرونهم آلة من آلات الانتاج سواء بسواء كالحيوانات ، والمحراث وبقية الوسائل الجامدة . وبعد ان استفحلت ثورات العبيد على اسيادهم في نهاية عهد الامبراطورية الرومانية ارتفعت اصوات كثيرة تنادي بالمساواة الطبيعية للناس . كما ارتفعت اصوات أخرى بين الفلاحين تطالب بتحديد الملكية وتوزيع الملكيات الكبرى على الفلاحين (٤٠) .

الدين :

اما الدين في هذا العهد فعرف تطورات عميقة جداً ، اذ تطورت مفاهيم الارواح الى مفاهيم الآلهة . وتعددت الآلهة وعلى غرار المجتمع البشري كانت تتصور متنازعة ومتصارعة ومتدرجة على نسق الطبقات الاجتماعية . وقد أثرت الزراعة في ديانة هذا العهد فظهرت عبادة إلهة الارض – الام التي تشخص خصب الارض والمياه واخصاب المزروعات والمواشي والجنس البشري . وقد انتبه الزراع الى السماء وحوادثها واثرها في زراعتهم لذلك عبدوا السماء والشمس والقمر والنجوم والمطر كآلهة .

وظهرت في منتصف هذا العهد فئة الكهان كفئة منظمة تماماً . ورسخت العواطف الدينية في معتقدات وطقوس ، ولهذا أقيمت المعابد الفخمة ووضعت الطقوس والعبادات ، وعم استعمال الذبائح والاضاحي والقرابين والبخور لاستدرار عطف ورحمة الآلهة .

---

(٤٠) راجع : Ibid. P.P, 44-46.

المائية . وتحسنت المزروعات والمواشي بالانتخاب الاصطناعي المروج ..

ومدت الجسور ، وشيدت المباني الفخمة ، وارتفعت مباني ضخمة جداً كالاهرام مثلا. وكان كل ذلك بفضل استخدام العبيد والارقاء . وظهر تفنن في الثياب والازياء والحلي والاثاث وكل وسائل الراحة والتنعم بفضل الثروات ورؤوس الاموال ونشاط التجارة والمبادلة . وقامت كل هذه الحضارة تقريباً على رفاة وعظام العبيد والفلاحين المستغلين .

وظهرت في هذا العهد بوادر قوية جداً في الفن وفن البناء والفلسفة والعلم والرياضيات والفلك ، والميكانيك . كما ظهرت الحضارات الفرعونية والفينيقية والآشورية والفارسية واليونانية والرومانية .. ويكفي ان نذكر فلاسفة كسقراط وافلاطون وارسطو ، ومشرعين كصولون ، وحمورابي ، ومانو (هندي) ليدرك القارىء أهمية هذا العهد بالنسبة للحضارة البشرية ، اذ كان الجسر الاول الذي انطلقت منه البشرية من عهد البدائية الى عهد الحضارة والثقافة والنور .

وقد انعكست بعض الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في فلسفات وتشريعات هذا العهد . فظهر احتقار للعمل اليدوي والجسدي في كتابات كثيرة . حتى ان العمل الجسدي اعتبر في التوراة لعنة وقصاصاً .

وقانون (او تشريع) حمورابي يعطي بعض افكار كانت سائدة في العهد العبودي البابلي . لان هذا القانون يحمي الملكية وحقوق الاغنياء والنبلاء ، ومالكي العبيد والارض . اذ يقرر هذا التشريع : كل من يخفي عبداً هارباً من سيده يقتل . كل فلاح لايدفع دينه للدائن ، او اجرة الارض لصاحبها ، فان عليه ان يقدم زوجته وابنه وابنته كعبيد الى ان يوفوا الدين بعملهم . وتشريعات مانو Manou ، التي تعتبر اوامر ونواهي اجتماعية ودينية واخلاقية ، تمجد الرق ، وتحرم الرقيق من الملكية ، وتعاقب بالموت كل من يخبىء عبداً هارباً من سيده .

وخاصة في روما .[٣٨]

وكذلك كان قضاء المتمولين والملاكين الكبار على الحرفيين والفلاحين ، قضاء على قوة الامبراطوريات العسكرية . لان الجيوش كانت تتألف منهم . وتاريخ روما وسقوطها خير مثال على مانقول . وهكذا فان علاقات الانتاج السيئة اقتضت علاقات اخرى يكون فيها المنتج أو العامل اكثر حرية واكثر رغبة في عمله واكثر مردوداً وفائدة من انتاجه . ولهذا قامت في نهاية الامبراطورية الرومانية مثلا حركة ديموقراطية كانت تهدف الى الغاء الديون ، وتقسيم الاراضي ، وازالة تميزات وحظوات الارستوقراطية ، وتسليم السلطة للشعب . ولهذا زادت ثورات وانتفاضات العبيد والفلاحين المستغلين وكذلك ثورات المستعمرات ، وكان في هذا قضاء على الامبراطورية الرومانية . وبزوال الامبراطورية الرومانية انتهى عهد الرق ، **وتبعه عهد الاقطاع** .[٣٩]

الاسرة في هذا العهد :

ضعفت روابط الاسرة في هذا العهد وخاصة بين الطبقات الغنية حيث كثر تعدد **الزوجات والسراري والاماء** وفسدت الاخلاق وانحطت منزلة المرأة الى منزلة العبيد .

الحضارة والثقافة :

وقد عرفت الحضارة في هذا العهد تقدماً قويا . اذ تحسنت وسائل الزراعة ، وعرف الري **الاصطناعي** ، واقيمت السدود وشقت الترع ، وانشئت الخزانات

---

(٣٨) راجع : F. de Coulanges : La Cité antique. Paris. Hachette. 1864

(٣٩) راجع : Manuel d. Economie politique (Edit. Sociales). Chap. II.

ويعتقد موري ودافي Moret el Davy (مع العلم انهما متأثران بدوركهايم وبالتأثير المغالي للدين في نشأة المؤسسات الاجتماعية) ان تأثير المصالح الاقتصادية كان أكبر قسطاً من طموح الملوك أو الأباطرة ، في تشكيل الامبراطوريات. اذ ان مناجم النحاس في سينا ، ومناجم الذهب في النوبة ، وأرز لبنان ، والسيطرة على الخطوط البحرية ، كانت هدف حروب وغزوات الفراعنة . وقد هدف سارغون ، في آشور ، الى الوصول للبحر المتوسط ليتوصل بذلك الى أسواق جديدة يصرف فيها الثروات الصناعية والزراعية في سينيار ، ومن اجل هذا الهدف مد أطراف امبراطوريته الى آسيا السامية المتحضرة . وكانت الحروب او الغزوات الظافرة للبابليين في الاناضول ، تهدف الى الاستيلاء على مناجم **عيلام والاناضول وطوروس** ، تلك المناجم التي كان يعتبرها البابليون ضرورية جدا لاقتصادهم [٣٦] .

ويقول كوفوليسي (A.Cuvillier) بنفس الافكار . [٣٧]

وكما كانت العوامل الاقتصادية عاملا أساسياً جداً في تكوين الامبراطوريات فانها كانت ايضاً عاملا هاماً جداً في زوالها واندثارها . اذان هذه الامبرطوريات كانت تحمل في طياتها بذور تهديمها . لأن شكل الاستثمار الذي هو العبودية أو السرق كان يقضي على القوة الرئيسية في الانتاج : **اي العبيد** . لهذا كان العبيد يتململون ويتذمرون وينقمون . وكثيراً ماعبروا عن نقمتهم هذه بالثورات العنيفة اللاهبة . ومن يقرأ كتاب فوستل دوكولانج (Fustel de Coulanges) « المدينة القديمة » يجد فيه أخباراً كثيرة وهامة جداً عن مثل هذه الثورات

---

(٣٦) راجع : Moret et Davay : Des clans aux Empires. P. 240 et 410.

(٣٧) راجع : A. Guvillier : Manuel de Sociologie Tom . II.P. 626

البعيدة ، وانشاء خزانات المياه ، كل هذا يحتاج الى تمركز الانشاء والاستثمار في ايدي الدولة ، لانها الوحيدة التي تستطيع ان تقوم بمشاريع ضخمة كهذه، ومع الزمن انتقلت ملكية الارض الى الملك . وهذا ماحدث في مصر الفرعونية وبابل والهند والصين ونشأ في هذا العبد **الرأسمال التجاري والرأسمال المرابي**: الاول يستخدم في المبادلة التجارية ، والثاني يستخدم كدين او كاعارة بربا فاحش لاستغلال الفلاحين والصناع او الحرفيين ، ولمشاركة الارستوقراطية بارباحها الفاحشة .

وهكذا نشطت التجارة والمبادلة ، ومالت بعض الدول الى توسيع رقعتها لايجاد أسواق اجنبية لسلعها وبضائعها ، وايجاد مراكز تستثمر منها المواد الخام (أو الأولية) لصناعاتها ، وايجاد بلدان متأخرة لتوفير **اليد العاملة** بخسة الاثمان : أي العبيد . وبهذا نشأت الامبراطوريات الشرقية على ضفاف المتوسط كالامبراطورية البابلية في القرن (٢٧ - ٢٠ قبل الميلاد) ، والامبراطورية الفرعونية من القرن (١٦ - ١٣ ق.م) ، والامبراطورية الحثية من القرن (١٤ - ١٣ ق.م) ، والامبراطورية الآشورية من القرن (٩ - ٧ ق.م) ، والامبراطورية الاخمينيدية من القرن (٦ - ٤ ق.ق) ، والامبراطوريات اليونانية من القرن (٥ - ٤ ق.م) ، والامبراطورية الرومانية من القرن (الثالث ق.م - ٣ بعد الميلاد) .[٣٤]

ويتفق جميع المؤلفين على ان العوامل الاقتصادية هي العامل الاساسي في تشكيل هذه الامبراطوريات . اذ يرده بعض المؤلفين إلى **العطش** للذهب وكبرياء السلطة ، اي الى شهوة الفتح والسلطان والى التوسعية (أو الامبريالية) الرأسمالية أو التجارية .[٣٥]

---

(٣٤) من اجل هذه الامبراطوريات راجع :

Jean -Rémy Palanque : Les impérialismes antiques. P. U. F. (que sais-je)1948

(٣٥) راجع نفس المصدر السابق ص ٧

المستغلة لصالح الأقلية المستغلة [٣٣].

وأصبحت ملكية السيد الحر لوسائل الانتاج والمنتجين (أي العبيد) تشكل أساس علاقات الانتاج في هذا المجتمع العبودي. فكان العبد يعتبر كشيء، لسيده عليه سلطة مطلقة، اذ يتمكن من بيعه وشرائه كالماشية، وهو حر التصرف في روحه وأرواح أطفاله. وكان العبيد يدفعون الى العمل دفعاً بالقهر والسياط، وكان نصيبهم من مردود عملهم ضئيلاً جداً، يكفي فقط لتجنيبهم الموت. وأصبح العمل الجسدي من اختصاصهم. لذا أضحى منذ ذلك العهد حتى ايامنا هذه، رمزاً للاحتقار والهوان. وبهذا ظهر التضارب بين العمل اليدوي والعمل الفكري.

ظهور الامبراطوريات :

حصرت الاراضي شيئاً فشيئاً بين ايدي الملاكين الكبار، فتكونت ملكيات كبرى هائلة كاللاتيفوندیا Latifundia في ايطاليا، حيث انحصرت في ايدي الارستوقراطيين الذين كانوا يستخدمون فيها مئات وألوف العبيد. وطبق هذا على المهن اذ حصرها التجار الكبار والاغنياء بين أيديهم واستغلوا انتاجها لصالحهم. وتحسن الانتاج تحسناً قوياً عن ذي قبل. وأصبحت كلفته رخيصة جداً. ولهذا أخذت الدول تشن الحروب على جيرانها لغزو العبيد. وأصبحت بعض الدول الشرقية مالكة للأرض عندما لجأت الى تطبيق الري الاصطناعي. لان اقامة السدود على الانهار وحفر الترع لجر المياه الى الاراضي

---

(٣٣) من اجل نشوء الدولة راجع :

1) V. Lenine : De l, Etat, in, l, Etat et la révolution. Editions sociales. 1947.

٢ - فريدريك انجلز : أصل الاسرة والدولة والملكية الخاصة (هناك ترجمتان : الاولى لفؤاد ايوب والثانية لاديب يوسف (طبع دمشق)

الدائنين . وقد تحولت الأرض الى ملكية خاصة . وبهذا أصبحت تباع . وهكذا أصبح المدين يتمكن من سد ديونه للدائن بالتنازل عن أرضه . وان لم تف الأرض ، أو في حال فقدانها وعدم وجودها، فما عليه الا أن يبيع أولاده وأمرأته ونفسه للدائنين والمرابين . وهكذا بدأت الملكيات والمال والعبيد تنحصر شيئاً فشيئاً بين أيدي **الملاك الكبار** . وأخذ **العمل العبودي** يمتد الى **جميع نواحي الانتاج والعمل** . وبهذا انقسم المجتمع الى طبقتين متناحرتين متصارعتين هما : **العبيد ومالكو العبيد** . وتحت هذا النظام العبودي انقسم الناس الى **احرار وعبيد**. وكان الأحرار يتمتعون بكل الحقوق المدنية والسياسية ، والملكية ، عدا النساء اللواتي كانت منزلتهن بمنزلة العبيد تقريباً . وكانوا يقسمون الى فئتين : الملاك الكبار وملاك الأرض والعبيد) ، وصغار المنتجين (**فلاحين وصناع**) ، وكان الكهان يتصلون عامة بفئة الملاك الكبار .

وكان العبيد محرومين من جميع هذه الحقوق ولا يجوز لهم الارتقاء الى طبقة الأحرار . وانتقل التناقض بين الأحرار والعبيد ، الى الملاك الكبار والفلاحين . فتحول هؤلاء بعد مدة ، بطرق شتى منها الربا والقسر والعنف ، الى عبيد أيضاً . فأجبر ظهور الطبقات ، وحدة الصراع بينها، الناس على **إنشاء الدولة** . وهكذا تحولت الاجهزة السياسية القبلية الشعبية الى أجهزة للسيطرة والاستعباد . **وهكذا تحول عمد القبائل وشيوخها ورؤساؤها العسكريون الى امراء وملوك** . وكانوا سابقاً يستمدون سلطتهم من كونهم منتخبي القبيلة للادارة والزعامة ، أما الآن فأصبحوا يستمدون سلطتهم من قوتهم وغناهم وسيطرتهم . وكانوا سابقاً ينتخبون ليخدموا الجميع ، أما الآن فأصبحوا يخدمون مصالح **الفئات المالكة** ، ويمسكون زمام الفئات الفقيرة والمستعبدة بالقسر والقهر . وقد استخدمت الجيوش والمحاكم **والمؤسسات العقابية** لهذا الغرض. **وهكذا ولدت سلطة الدولة** . **فظهرت الدولة لتسيطر على الأكثرية**

الصناعات نشطت المبادلة والتجارة؛ وأثرت هاتان بدورهما في الصناعات والزراعة. فظهر ميل الأسر الغنية الى استخدام اليد العاملة على نطاق واسع لانتاج أكبر ما يمكن من الانتاج بأقل ما يمكن من الكلفة. لهذا لجأت هذه الأسر الى الاسترقاق والاستعباد. وسمي هذا الدور الزراعي الراقي **بدور اسلوب العمل القائم على العبودية والرق**. وأدى استغلال العبيد الى انتاج فائض كبير للمبادلة، وبهذا ظهرت السلع (Les marchandises) ، وظهر معها الاقتصاد السلعي، الذي ينتج السلع لا لتستهلك محلياً ، أو في الأسرة ، أو في القرية ... بل لتصدر أو تباع في الاسواق. وكانت المبادلة تجري على أساس تبادل السلع. ولكن لجأ التجار الى استخدام سلعة عامة يمكن ان تقدر على أساسها جميع السلع: هي النقد. وبدأت بعض أسواق عامة تظهر في بعض المناطق المحفوفة بالقرى. ومع الزمن ، تحولت كثير من هذه الأسواق الى مدن تنتج السلع وتبيعها الى الفلاحين المحيطين بها أو تصدرها الى مناطق أخرى بعيدة. وهكذا كان لنمو المهن وتحسن المبادلة الفضل في نشوء المدن. وعندما انحصرت المهن والتجارة في المدن تقريباً ظهر التمايز والاختلاف بين المدينة والقرية. وبهذا ظهر الانفصال بين المدينة والقرية أو الريف وظهر بالتالي **تعارضهما** وخلافهما. وهكذا بدأت المدن تظهر شيئاً فشيئاً ، وخاصة عندما تحسنت وسائل المواصلات وبالأخص عندما اخترعت السفن ، فظهرت هنا وهنالك مدن كثيرة على شواطىء البحار، وضفاف الأنهار ، وطرق التجارة الهامة بين البلدان المختلفة ، من هذه المدن مدن سومر وآشور وبابل ومصر الفرعونية وفينيقيا ...

وهكذا تضخم الانتاج واتسعت المبادلات ، فأدى ذلك الى عدم التساوي في الثروات. اذ أخذت الثروات والمال ووسائل الانتاج والمواشي وحيوانات الحراثة والبذار ... تنحصر شيئاً فشيئاً بين أيدي الأغنياء. وبهذا أخذ الفقراء يلجأون إليهم **للاستدانة**. وأخذ الربا يظهر ويأخذ شكلاً فاحشاً ، أدى الى خسران الفلاحين لبيوتهم وأرضهم ، وبالتالي الى استعبادهم من قبل الأغنياء

الخاصة . **وكان اكثرها متعلقاً بالملكية الخاصة**. وظلت هذه المحرمات مسيطرة حتى في العهد الذي تلاه ، ويظهر هذا في قانون حمورابي والوصايا العشر لدى موسى . لان وصايا موسى العشر تحصر أكثرها في الملكية : لا تزن (أي لا تعتد على امرأة جارك التي هي ملكه) ، لا تسرق ، لا تشته امرأة جارك ولا عبده ولا عبدته ولا ثوره ولا حماره ولا شيء يخصه ...[٣١] .

وكان للمحرمات أثرها القوي في حياة القبيلة حتى ان جون مورفي اعتبرها قانون القبيلة[٣٢] .

العهد الزراعي الحقيقي وظهور المدن والدولة والامبراطوريات :

بعد حلول المجتمع المستقر محل المجتمع القبلي لدى كثير من القبائل، وحلول القرية الثابتة محل القبيلة المتنقلة والمتحركة، حدث تطور عميق في الحياة الزراعية. اذ أخذ الانسان الزارع يحسن وسائل انتاجه فانتقل من الآلات الحجرية والخشبية الى الآلات الحديدية والمعدنية عامة. وعندما توصل الانسان الى اختراع المحراث ذي السكة الحديدية توصل بذلك الى احداث ثورة عميقة في الزراعة ، وأصبح يتمكن من زراعة مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة . ولجأ بعد هذا الى تحسين مزروعاته فزرع الكرمة والكتان والنباتات الزيتية أو الزيتونية (Oléagineuses) . وقد أدى ذلك الى تكاثر السكان ونشوء حاجات اجتماعية جديدة وميل الى الرفاه وتحسين وسائل العيش . فتحسنت بهذا صناعات النسيج والصناعات المعدنية والخزفية. وأدى هذا الى انفصال المهنة أو الحرفة عن الزراعة بعد أن كانت ملحقة بها . وكان هذا ثاني تقسيم اجتماعي كبير للعمل . وبظهور

---

(٣١) راجع (التوراة بالعربية) La Bible: Exode : 20 (3-17).

(٣٢) من اجل دراسة موسعة عن المحرمات راجع :

Y. Murphy : opi. cit. chap. xII.

الثقافة والدين في العهد القبلي :

كانت الثقافة بدائية في العهد القبلي . اذ كان الانسان لايزال مهتما بتأمين حاجاته الضرورية من غذاء ولباس ومسكن وكل مايحفظ حياته وحياة نسله . وكان الانسان مندمجاً في قبيلته ، ولا يستطيع ان يتصور نفسه عائشاً خارجها.

ولم يكن قد ظهر بشكل واضح مفهوم « أنا » (moi) ومفهوم « لي » (mon) وظهرا بشكل واضح بظهور الملكية الخاصة وبتحرر الفرد من الاندماج الكلي بالقبيلة . كما ظهر في هذا العهد **عبادة الاجداد** وتقديسهم . وبقيا ظاهرين مثلاحتى في الأسر الأبوية لدى الرومان واليونان في اول عهد حضارتهم .**واثرت الزراعة والاستقرار على بقعة ارضية** في نفسية الناس .اذ جعلهم يتأملون الطبيعة من حولهم ويحاولون تفسيرها . وهكذا ولتفسير الكثير من حوادث الطبيعة اخترع الناس مفهوم **الارواح** les esprits ، ونشأت بعد ذلك ديانة الأرواح l,animisme . وكانت في الأصل نوعاً من التفكير التأملي والتعليل الفلسفي للطبيعة وحوادثها . فالنبات ينتش لأن فيه روحاً منتشة ، والمطر يسقط لأن روحاً تسقطه . وقد نشأ في النهاية نوع من الخشية الاجلالية نحو هذه الأرواح انتهت بتقديسها ، واضفاء صفة الشخصانية عليها والاعتقاد بأنها تعيش في عالم خاص بها منفصلة عن الأجساد . وكان الناس في هذا العهد يصنفونها الى ارواح صديقة وخيرة ، وارواح شريرة وضارة . ولكن لم يظهر مفهوم الدارج الاجتماعي بين هذه الأرواح الا بعد أن ظهرت الملكية الخاصة وتهدم التحد البدائي .(٣٠)

وقد ظهرت في هذا العهد محرمات كثيرة تتعلق بالنبات والحيوان والملكية

---

(٣٠) من اجل ديانة وثقافة هذا العهد راجع :

1) Munir M. Moussa : Opi . cit. pp . 286 - 288

2) J. Mur phy : opi. Cit : Chap : X1 .

العائلي أو الأسروي ، ومواشيها . وبقيت الغابات والمياه والمراعي وممتلكات أخرى ملكية جماعية مشتركة . حتى ان الأرض القابلة للحراثة ظلت مدة طويلة ملكية مشتركة . اذ كان يعاد توزيعها سنوياً بين الأسر . ولكنها تحولت مع الزمن الى ملكية خاصة .(٢٨)

وكان ظهور الملكية الخاصة والمبادلة بداية عهد جديد . اذ ظهر بظهورهما مصالح مختلفة في المجتمع الواحد . وبهذا طمح **رؤساء العشائر** والقواد العسكريون ورجال الدين والسحرة الى الثروة والرفاه والاستغلال . فأخذوا يستغلون الاراضي والمواشي ويقتنون **العبيد والارقاء لزيادة الانتاج والثروة**. وباستخدام الأرقاء (الذين كانوا يغنمونهم من الحروب والغزوات) تضاعف انتاجهم ، واخذ التفاوت في الثروات يظهر بين ابناء المجتمع الواحد . وأخذت تتكون أسر **ارستوقراطية** تظهر وتتعالى على عامة الشعب ؛ ومع ظهور الفقر بين هؤلاء العامة اخذت الأسر الارستوقراطية تستغلهم كأرقاء وعبيد. وبهذا ظهر أول تقسيم للمجتمع الى « طبقات » : التقسيم الى **اسياد وعبيد** أو أرقاء وكان هذا بداية استغلال الانسان من قبل الانسان : اي استغلال فئة من الناس لانتاج فئة اخرى من الناس .

وهكذا ومع الزمن ، حلت روابط انتاج جديدة محل روابط انتاج المتحد البدائي . وحل العمل الفردي محل العمل الجماعي ، والملكية الخاصة محل الملكية الجماعية ، والمجتمع الطبقي محل المجتمع القبلي .(٢٩)

---

(٢٨) من اجل ظهور المجتمع القروي راجع :

1) A Cuvillier : Manuel de Sociologie. Tom. II. pp. 606 - 607

2) G . Davy : Eléments de Sociologie. Chap. III

3) R. Hubert : Manuel élémentaire de Sociologie. Chap. XIX

(٢٩) من اجل المتحد البدائي راجع :

Manuel d, économie politque. (Editions sociales). pp. 21 -32

بفردها من حرث أرض كان يقتضي سابقاً تعاون عشيرة كاملة . وهكذا أخذ **الاستثمار الفردي** يقوى ، ويحل شيئاً فشيئاً محل **الاستثمار الجماعي** . وكما كان العمل الجماعي يقتضي بالضرورة الملكية المشتركة أو الجماعية لوسائل الانتاج ، فإن العمل الفردي كان **يستلزم الملكية الخاصة** . وهكذا فإن ظهور الملكية الفردية كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتقسيم الاجتماعي للعمل وتقدم المبادلة . وكان الذي يقوم بالمبادلة في البدء **شيوخ ورؤساء** القبائل ؛ وكانوا يقومون بهذا باسم القبيلة . وما كانوا يتبادلونه مع الآخرين كان ملكاً للجماعة أو المتحد . ومع تقدم ونمو التقسيم الاجتماعي للعمل أخذ رؤساء القبائل يعتبرون شيئاً فشيئاً خيرات القبيلة كخيرات خاصة بهم . وكانت المواشي اول سلع المبادلة . وقد استولى رؤساء القبائل على مواشي القبيلة ، وكانت هذه أول **ملكية خاصة** . واخذت **الملكية الخاصة** تشمل شيئاً فشيئاً جميع وسائل الانتاج . وجاءت الملكية الخاصة للأرض في النهاية .

تفكك القبيلة الدموية وظهور القرية او المتحد القروي :

اقتضى نمو القوى المنتجة (**البشرية والتكنية**) وظهور الملكية الخاصة (propriété pri vée) من الناس ان يستعيضوا عن النظام القبلي الدموي بنظام آخر أكثر ملاءمة للتقدم الاجتماعي والحضاري . فنشأت القرية ، حيث استقر **الزارعون البدائيون** في بقعة ارضية يحرثونها ويرعون فيها مواشيهم ويصطادون فيها . وحدث ذلك بعد أن تفككت بعض القبائل الى أسر أبريسية (patriarcales) كبيرة . وخرج من هذه الأسر الكبيرة أسر **اقل شمولا** ملكت وسائل انتاجها ، وأدواتها وأثاثها المنزلية ومواشيها . وبهذا ومع الزمن ومع تقدم وسائل الانتاج واتساع الملكية الخاصة ، حلت الجماعة القروية محل الجماعة القبلية . واصبحت القرية ، على عكس القبيلة الدموية ، تضم أفراداً لايرتبطون بالضرورة برابطة الدم . واصبحت الاسرة تملك مسكنها ، واستثمارها

المجتمع إلى طبقات ، ولا استغلال انسان لانسان ، وهذا جعل من المحال ظهور الدولة في هذا العهد البشري الأول .

بدء ظهور التقسيم الاجتماعي للعمل ، والمبادلة :

ظهر بالانتقال إلى عهد الرعي وعهد الزراعة ، التقسيم الاجتماعي للعمل (division sociale du travail). وقد بدأ هذا ببدء اختصاص بعض القبائل ، وباختصاص بعض أفراد نفس القبيلة ، بانتاجات مختلفة . وقدم تشكيل قبائل الرعاة أول أكبر تقسيم اجتماعي للعمل ، وقبل هذه المرحلة ، كانت المبادلة مستحيلة . اذ لم يكن هناك أي فائض انتاجي . ولكن ظهرت ، بظهور قبائل الرعاة ، المبادلة . إذ أصبحت هذه القبائل تملك شيئاً فشيئاً بعض الفائض أو الزائد من المواشي ، والمنتجات الحليبية ، واللحم ، والجلود ، والصوف والشعر .. وقد ابتدأت المبادلة ونمت أولاً بين أفراد القبيلة الواحدة على شكل هدايا يجب ردها ، وأخيراً بين القبائل . اذ كان بعضها يحتاج الى هذه الحاجيات التي ذكرناها بينما كان بعضها الآخر يحتاج الى المنتجات الزراعية التي اختصت بها بعض القبائل . وكانت القبائل الأولى والاخيرة محتاجة الى حاجيات لا تستطيع انتاجها بنفسها ومن هنا ظهرت ضرورة المبادلة[٢٧] ومع الزمن ، وتقدم الحضارة ، وظهور القرى والمدن ، ظهرت فئة الصناع : الحدادون والخزافون وصانعو الاسلحة ، والحذائون ..

ظهور الملكية الخاصة والطبقات الاجتماعية :

عندما اخترع الانسان الآلات والوسائل الحديدية ، ظهرت خطوة واسعة في التطور الاجتماعي . اذ أصبحت بفضل المحراث الحديدي ، تتمكن أسرة

---

(٢٧) من أجل المبادلة راجع :

Joseph Lajugie : Les systèmes économiques. P. U. F. (1957) pp. 15 — 16

البدائية وتدبير شؤون الأسرة من اختصاص المرأة . فأدى هـذا إلى زيادة ملموسة في الانتاج .

القبيلة الدموية (gens) ، **والحقوق الأمومية ، والحقوق الأبوية :**

ظل البشر يعيشون في **عشيرات** (hordes) وقطعان إلى ان حسنوا وسائل انتاجهم ، وأقاموا اقتصاداً بدائياً ، فأدى هذا إلى تـكاثرهم **وبالتالي الى تكوين المجتمع على أساس القبيلة الدموية** (gens) وهكذا أصبح المتحدرون من **صلب واحد** أو دم واحد ، يشتركون وحدهم في العمل المشترك والجماعي . وكانوا يعتبرون عدواً لهم ، كل من لايرتبط معهم برباط الدم . وكانت القبيلة الدموية تتألف في البدء من بضع عشرات من الأفراد ، فأصبحت ،بعد تحسن الانتاج تضم عدة مئات من الناس ...

وفي المرحلة الاولى من نظام القبيلة الدموية ، كانت المرأة تحتل مركز الصدارة والتفوق على الرجل ، وكان هذا متأتياً عن شروط الحياة المـادية آنذاك . واذ كان الصيد من اختصاص الرجال ، وكان غير كاف لسد حاجات القبيلة بكاملها . لذلك اعتمد افرادها على تربية الماشية والزراعة الأولية اللتين كانتا من اختصاص النساء اللواتي يبقين في « المسكن » اثناء غياب الرجال في الصيد . فلعبت المرأة دوراً مسيطراً في المجتمع ولزمان طويل . وكان الأولاد ينسبون إلى أمهـاتهم ، وهذا ماسمي بالقبيلة الدموية الامريسية (gens matriarcale) ،ودعاه المؤلفون بنظام الأسرة الامريسية (matriarcat). وهيمنت في هذا العهد الحقوق الأمومية . ولكن عندما **تقدمت الزراعة** وحل نظام **رعي الماشية** أصبحت الزراعة والرعي من اختصاص الرجـال . وبهذا عاد الرجال إلى السيطرة وأصبح الأولاد ينسبون إلى آبائهم . وهكذا حلت القبيلة الأمريسية محـل القبيلة الأمريسية ، والأسرة الأمريسية patriarcat محل الأسرة الأمريسية . وحصل هذا في آخر مراحل المتحد البدائي .

لم يكن في القبيلة الدموية ملكية خـاصة بالمعنى الصحيح ، ولا انقسام

السكان السريع وتحويل العشيرات والأفخاذ (clans)الى بطون(phratries)، وتبعاً لتقدم الزراعة وتحسن محاصيلها كانت العشائر تميل أكثر فأكثر نحو الاستقرار والتثبت في بقعة أرضية معينة .

وتؤلف جميع هذه العهود السالفة مرحلة المتحد البدائي (communauté primitive) ، أو المشاعية البدائية على حد تعبير بعض المؤلفين .

علاقات الانتاج والتقسيم الطبيعي للعمل في المتحد البدائي :

كانت قوى الانتاج بدائية ، ونعني المنتجين والآلات . ولهذا كانت **الملكية المشتركة** تؤلف أساس علاقات الانتاج ، إذ كانت الآلات والوسائل المستعملة في الانتاج أولية ، مما دفع الى العمل الجماعي والمشترك ، وهذا أدى بدوره إلى الملكية المشتركة للأرض وسائر وسائل الانتاج وبالتالي الى **مردود أو محصول العمل** . ولم يكن هناك أي **فائض في المردود** (أي لم تكن تبقى أي زيادة من المحصول بعد كفاية المنتجين) . وكان العمل يستند الى التعاون البسيط الذي يقتضي الاستعمال الجمعي لكمية قليلة أو كثيرة من قوة العمل ، **لتحقيق أعمال** من نوع واحد . ولهذا كانت المحاصيل أو المردودات توزع بالتساوي على المنتجين المتعاونين . ومن هنا انتفى كل نوع من انواع استغلال الانسان للانسان .

وكان القانون الاقتصادي الاساسي لنظام المتحد البدائي يقتضي تأمين حاجيات الناس الضرورية بواسطة وسائل انتاج بدائية وعلى أساس الملكية المشتركة لهذه الوسائل ، وبواسطة العمل الجماعي وبالتوزيع المتساوي للمحاصيل أو المردودات .

وأدى تحسن وسائل الانتاج إلى تقسيم العمل الذي يعتبر أبسط اشكاله : **التقسيم الطبيعي للعمل** القائم على أساس الجنس والعمر : أي بين الرجال والنساء وبين **الأحداث والراشدين** (أو البالغين) والشيوخ . ففي عهد الزراعة الأولية مثلاً ، أصبح الصيد من اختصاص الرجال ، وجمع المحاصيل النباتية والزراعة

وقد ظهرت الطوطمية (le totémisme) ، في نهاية هذا العهد ، ليس كديانة ، ولكن كتدبير اقتصادي لحفظ الحيوانات الضرورية للمحافظة على بقاء الناس ؛ واحيط هذا التدبير بمفاهيم ومحرمات دينية مما دعا الى احترام الحيوانات الاليفة ؛ وامتد هذا الشعور الى الحيوانات الاخرى تحت سيطرة عوامل غير اقتصادية ، منها ما هو نفسي : خوف ، رهبة ، شعور بالاسرار والخفايا التي تلف بعض الحيوانات ؛ ومنها ما هو طبيعي : مهارة وحيلة وقوة بعض الحيوانات كالاسد والافعى والذئب ... واعتقد بعض المؤلفين من أمثال هـ . سبنسر ودوركهايم وجيلتين وفرازر ... بأن الطوطمية عبارة عن ديانة وهذا خطأ فاحش تراجع عنه فرازر (Frazer) نفسه بعد أن كان أقوى المتحمسين له (٢٦) .

ولا تزال بعض فئات من السكان تماثل ، في أيامنا هذه ، **دور الرعي** ، ومن هؤلاء البدو في جميع انحاء العالم ونخص بالذكر منهم بدو الجزيرة العربية ، والمنغوليين والبشكيريين (Bachkirs) والطوارق (Les Touareg) وكثيرين من شعوب افريقيا ، وان كانت الحضارة قد غيرت كثيراً في نمط حياتهم الأول والأولي .

عهد الزراعة البدائية :

ساعدت تربية المواشي على شيء من الاستقرار الموقت على بقعة أرضية . ومكن هذا إنسان العشير من اللجوء إلى الزراعة البدائية في الأراضي الخصبة . وكان الانسان يستعمل في البدء أبسط الآلات : العصا وبعد ذلك المِقلب أو المسحاة (la houe) . وقد ساعدت الزراعة البدائية وتربية المواشي على نمو

---

(٢٦) راجع : 1) Munir. M. MOUSSA : opi. cit. pp. 278- 286 et 55 — 72 et 166 — 197

2) J. Murdhy : opi. cit pp 69 — 104

وجعلتهم حياتهم هذه يتعرفون على بعض مريحات الحياة ، اذ ساهمت حياتهم هذه في تمكنهم من اللعب والحب والغزل والهجمات الحربية المنظمة . وقد استمر فيهم حب العدوانية الذي عرفناه في « الصيادين » اسلافهم ؛ ولذا كانوا يلجؤون الى **الغزو** ، المنظم ويتبعون في ذلك طرقاً وقواعد . وظهر بينهم شيء من التنظيم **السياسي الأولي** ، اذ كان يترأس القبيلة أحياناً **عميد** أو **شيخ** أو رئيس يساعده في حل الامور وتدبير الغارات ورد الغارات ، مجلس من كبار العشير او العشيرة .

وهم يتأثرون بالسحر أكثر من الدين . اذ حيث كانت تخونهم وسائلهم الواقعية **في الحرب والصيد** ورد غائلات الحر والجفاف والجدب والجوع عنهم وعن مواشيهم ، كانوا يلجؤون الى **الوسائل السحرية** . ولذا فإن ديانتهم مليئة **بالأسرار** (Mystères) . فالاسرار تحيط بالاشياء والحيوانات والكون والحياة الجنسية . ومن هنا ظهرت محرمات (tabous) عديدة متعلقة بالحيوانات والمرأة والحياة الجنسية ، والكائنات الاخرى .

وقد أسقطوا ما في نفوسهم من **رغبات وارادات وحياة** على الكائنات . حتى اصبحت الكائنات مغمورة **بقوة سحرية** تتمتع **بالحياة والارادة** والسلطان أو السلطة (Pouvoir) . واقترب مفهوم هذه القوة لديهم من مفهوم الارواح (Esprits) الذي سنراه في مرحلة تالية . وقد اعتقد الناس بأن هذه القوى السحرية تتأثر ببعض أساليب فنية معينة . ومن هنا كان التجاؤهم الى السحر والحاحهم عليه . اذ كانوا يلجؤون اليه لانهاء الجدب ، واسقاط المطر بعد جفاف طويل ، والقضاء على نقص الحيوانات والنباتات ، ورد هجمات الاعداء والقضاء عليهم . .

وهكذا اتخذ الساحر أهمية كبرى في هذا الدور . ومهما يكن من أمر فقد انتقل الناس من ديانة الخوف من الطبيعة واسرارها ونكباتها الى ديانة الاحترام والتبجيل للقوى السحرية المبثوثة في الطبيعة وكائناتها .

الذي كان له أثر كبير في نمو جسدهم ، ونمو دماغهم خاصة .

واستمر الناس مدة طويلة على استعمال الآلات الحجرية وأطلق على هذه الحقبة من الزمن اسم **العهد الحجري** ، وقد حسنوا بعد مئات الالوف من السنين صنع وسائلهم وآلاتهم ، فصنعوها أولاً من البرونز (اتحاد النحاس والقصدير) وثانياً من الحديد ؛ وسمي العهد الاول بعهد البرونز ، والثاني بعهد الحديد .

وعندما اخترع الانسان القوس والنشاب ، دخل مرحلة هامة في تحسين وتطوير وسائل العمل . وبهذا اصبح الصيد مورد رزق عظيم . وأدى تقدم الصيد الى ولادة عهد التدجين الأولي (أو تربية الحيوانات) ولا يزال حتى أيامنا هذه بعض شعوب (او فئات من سكان العالم) يعيشون على الصيد خاصة ، نذكر منهم : الاوماها (Omaha)، والاسكيمو والنيجريتو (Les Négritos) والهوتنتو (les Hottentots) ، وأغلب القبائل الكاليفورنية ، والأونا (Les Ona) [٢٥] .

عهد الرعي :

أخذ الانسان بعد ذلك بتدجين الحيوانات . فدجن الكلب اولاً ، ودجن بعده الماعز والخروف والبقر والخنزير والحصان .

ودخل الانسان بالتدجين عهداً جديداً يعتبر خطوة الى الامام بالنسبة لعهد الصيد . اذ أصبح بإمكان أفراد الفخذ (Clan) خزن فائض من الغذاء الحي . فساعد هذا على زيادة عددهم وحفظ نسلهم ؛ وتغيرت هجراتهم وتنقلاتهم . حيث أصبحت هذه تابعة للامطار والمراعي . ولذا أضحت تنقلاتهم بطيئة ، ودفعتهم الى الاستقرار الجزئي في بعض المناطق والامكنة . واجبرتهم تنقلاتهم هذه مع مواشيهم على حمل خيامهم وأثاثهم ، واستصحاب «أسرهم» أو أولادهم ونسائهم .

---

(٢٥) من اجل هذه الشعوب راجع :

J. Haesaert : Sociologie générale. P. 42.

تحت لواء أحذقهم وأذكاهم وأقواهم وليس تحت إمرة أعمرهم . ويعتقدون ، ككل المغامرين ، **بالحظ والسحر** . ويلحون على السحر ويستخدمونه كوسيلة للاستيلاء على الحيوانات العاصية والشريدة . ويظهر في **ديانتهم الاعتقاد بقوة سحرية فعّالة** لنسميها المانا « Le Mana » ، وبعالم غير منظور وسحري وغير ملموس ، تستمر فيه الحياة البشرية بحاجاتها وفاعلياتها ولذائذها ، والاعتقاد ببقاء الميت في هذا العالم غير المنظور (٢٤) .

وبما ان الأم كانت مجبرة على البقاء في « المسكن » ، بينما الأب غائب ، فإن سلطتها عظمت ، وظهر شيء من **نظام الاسرة الأمريسية** (Matriarcat) وبهذا ظهر شيء من **التقسيم الطبيعي للعمل** (division naturelle du travail) **الرجال للصيد ، والنساء للبيت و « الجمع »** .

وكان أفراد العشير يتبعون طرائدهم ويصطادون على بقعة محدودة من الارض يدفعون عنها غارات كل معتد ، ولا تعتبر هذه «الأرض» بعد **الملكية** أو **ملكيه** ؛ وانما كانت أقرب إلى البقعة الأرضية لدى الحيوانات الفقرية التي درسناها في الفصل السابع .

واستخدموا في البدء لصيد الحيوانات قضيباً (أو عصا) مروساً (أو حاد الرأس) ، وثبتوا بعد ذلك في رأس هذه العصا حربة من الحجر ، واستخدموا بعد ذلك رماحاً ذات رؤوس حجرية ، وفراعات وسكاكين ومجارف وكلاليب من حجر وسنارات ، هذه الوسائل التي ساعدتهم على صيد الطرائد الكبيرة وتحسين الصيد المائي .

وبقي الناس زماناً طويلاً يعيشون على الصيد الذي كان يقدم لهم جلود الحيوانات للباسهم ، وعظامها لآلاتهم ووسائلهم ، ولحومها لغذائهم ، هذا الغذاء

---

(٢٤) من اجل دياتة هذا العهد راجع :

1) Munir Mushabik MOUSSA : Théorie de l'origine de la religion d'après Durkheim, pp. 277 — 278

2) J. Murphy : origines et histoire des religions. pp. 45-50

في أفريقيا الجنوبية ، وعشائر تعيش في أرخبيل مالي (Malais ، والهنود الذين يعيشون في (Montagnes Rocheuses)، وبدائي البراغوي (Paraguay) ...

شهد الصيد ..

ومع تطور الزمن ، وتحسين وسائلهم التي كانوا يصنعونها من الخشب وأغصان الاشجار والحجارة (وخاصة الظران) ، لجأوا إلى الصيد ، واعتمدوا عليه إلى جانب اعتمادهم على « **القطف** » والجمع و « **التعشيب** » . وعندما اخترع الانسان النار حسن وسائل عمله وصنعها من المعادن . وقد غير اكتشاف النار مجرى حياة الانسان تغييرا عميقاً . إذ أصبح يقوى على **أن** يغتذي بالاسماك واللحوم ، والاعشاب ... بعد أن يطهيها . وقد ساعدته النار فيما بعد على صنع وسائل العمل والانتاج ، كما ساعدته على قهر البرد ، وبالتالي مكنته من الانتشار في أجزاء واسعة من المعمورة ، كما ساعدته على الدفاع ضد الحيوانات المفترسة . وفي هذه المرحلة سيطر الصيد على « القطف » ، وأصبح الناس **صيادين** (chasseurs) أكثر منهم « **قاطفين** » و « جامعين » (collecteurs). وقد غير هذا في اتجاه حياتهم ومنحاها . اذ أصبح الناس يقوون على حفظ المآكل ، ويتمكنون من ان يلبسوا ويحتموا أو يسكنوا بصورة أفضل . وقد ابتعد عنهم خطر الموت جوعاً ، لهذا كثر عددهم وزادت كثافتهم . ونمت فيهم ملاحقة الحيوانات صفات الشجاعة والتفكير وامتلاك الاعصاب ، كما علمتهم احتمال المخاطر ، وربت فيهم التنبؤ واستشفاف حجب المستقبل . وأجبرهم الصيد على **العمل المشترك والجماعي** . وهكذا بدأ الناس الاوائل العمل ، سواء في الجمع أم في الصيد ، على شكل مشترك وجماعي . وكانوا يستهلكون نتاج عملهم هذا بصورة جماعية ومشتركة أيضاً . فكان أفراد العشير يدافعون عن أنفسهم ضد المغيرين بصورة مشتركة ، ويشنون الغارات على سواهم بصورة مشتركة .

ومن هنا ظهر بينهم شيء من التنظيم دفعت اليه الضرورة والحاجة : فكانوا

ومن هذه إلى الدولة والأمبراطورية والأمة ... وخلال هـذا التطور الطويل والعميق لعبت العوامل الاقتصادية ، وخاصة اسلوب انتاج الخيرات المـادية ، أو نمط حياة الناس في انتاجهم ، دوراً هاماً جداً . ومن العرض الموجز الآتي لمراحل هذا التطور تتبين لنا أهمية العوامل الاقتصادية .

أ - العشير (La horde) . هو الطور الأول الذي مرت به البشرية . وكان الناس يعيشون فيه على شكل **قطعان** ، حيـاتهم محصورة بارضاء أبسط وأهم الحاجات العضوية والحيوية : **الجوع** ، **والعطش** ، والغريزة الجنسية، وحماية النفس والنسل (٢٣) .

عهد الالتقاط والجمع :

وكانت حياة الناس ، من حيث تحصيل المعاش ، أقرب إلى حيـاة القرود العليا . اذ كانوا يعيشون على قطف والتقاط الأثمـار ورعي الأعشاب واصطياد بعض الحيوانات . ولم يكونوا يعرفون النار ، لهذا كانوا يأكلون « المآكل » « نيئة » (أي غير مشوية ولا مطبوخة) . وكانت حياتهم لا تعرف الادخار ولا وسائل الادخار . ولكونهم مجبرين على التنقل في مساحات شاسعة ، ليحصلوا على غذائهم ، فإنهم لم يكونوا يملكون شيئاً ، حتى ولا مسكنـاً ، حتى ولو ملكوا الأواني والوسائل فانهم لا يقوون على حملها في ترحالهم . وكانوا يعملون ويأكلون بصورة مشتركة . ولم يكن لديهم زعماء ولا تنظيم سيـاسي ، ولا أفكار فلسفية ، ولا ثقافة بالمعنى الصحيح ولا ديانة حقيقية سوى عواطف معقدة هي مزيج من الخوف والرهبة والضعف والجهل أمام الطبيعة وظواهرها وكائناتها .

ولا تزال بعض عشيرات تتمثل حتى أيامنا هذه ببعض فئات تعيش على الجمع والالتقاط (Collecteurs) منتشرة في أنحاء مختلفة من العالم : مثل البوشيمان

---

(٢٣) راجع : L. Gumplowicz : Précis de Sociologie. trad : C. Baye. Paris. 1896. pp. 181 ss

وعندما ازدهرت الصناعة في هذين البلدين خفت الهجرة منهما . ونرجو ان تزدهر الصناعة في بلادنا ، وتتحسن أحوال الفلاحين ، لتخف الهجرة من هذا الوطن الحبيب ، وكي لانخسر بعد خيرة شبابنا الفاعلين والناشطين ...

وعندما يتعرض البلد المهاجر اليه الى أزمة اقتصادية فان الهجرة اليه تضعف تماماً . هذا ماحصل في الولايات المتحدة الامريكية خلال أزماتها الاقتصادية في أعوام ١٨٧٣ و ١٩٠٧ و ١٩٢٩ .(٢٢)

نلاحظ من كل هذا العرض السريع تأثير العوامل الاقتصادية الفعال في السكان وتزايدهم وكثافتهم وولاداتهم ووفياتهم وهجرتهم . وهذا لايعني إطلاقاً انها العوامل الوحيدة التي تحدد جميع المظاهر السكانية والديمغرافية . ذلك لاننا لايمكن ان ننكر ماتلعبه فيها عوامل أخرى **كالعوامل السياسية والدينية والثقافية** والنفسية والطبيعية .

٢) العوامل الاقتصادية ونموذج المجتمع أو شكله (Sociotype) وبعض الظواهر الثقافية والاجتماعية :

عرف المجتمع البشري نماذج وأشكالاً مختلفة . إذ بدأ بالعشير (horde) والمتحد البدائي (communauté primitive) ومر بالمجتمع الزراعي الأول والمجتمع الزراعي القائم على العبودية والرق ، والمجتمع الاقطاعي والمجتمع الرأسمالي ، ويتعرف ، في أيامنا هذه ، على المجتمع الإشتراكي . واذا شئنا تصنيفاً آخر سياسياً لتطور نماذج المجتمع البشري قلنا : مر المجتمع من العشير والمتحد البدائي إلى العشيرة والقبيلة ، ومنها إلى القرية ، ومن هذه إلى المدينة

---

(٢٢) من أجل تفاصيل هامة عن الهجرة راجع :

A. Landry : Traité de démographie. chap. VI.

L. Dollot : Les grandes migrations humaines. Paris.P.U.F. (que sais - je) 1946.

طلباً للرزق ، ويعودون بعدها الى مناطقهم . كهجرة العلويين في شهر ايار الى السهول الساحلية والداخلية لحصاد الحبوب فيها والعودة بعد ذلك الى جبالهم لحصاد محاصيلهم ، وهجرة العلويين والحوارنة في الشتاء الى المدن السورية واللبنانية طلباً للرزق بعد أن يكونوا قد حرثوا وزرعوا أراضيهم ، فيعودون من المدن بالمال والملابس والحاجيات الضرورية لاعالة أسرهم التي لاتكفيها أعمالهم ومحاصيلهم الزراعية .

الهجرة المنطقية :

وهناك هجرة بين منطقة (أو محافظة) وأخرى : يقوم بها المهاجرون طلباً للرزق والوظيفة والعمل ، كهجرة الموارنة والدروز الى محافظة دمشق وخاصة الى دمشق .

وقد تكون الهجرة خارجية بين بلد وآخر طلباً للعمل والرزق : كهجرة الحوارنة والعلويين والمسيحيين إلى لبنان أو الكويت مثلا ، أو هجرة الدمشقيين الى الكويت والسعودية ... وهجرة العمال الجزائريين والايطاليين والاسبانيين الى فرنسا طلباً للعمل في مصانعها ولنقص اليد العاملة فيها .

وقد تكون الهجرة خارجية بين قارة واخرى ويكون العامل الرئيسي والغالب فيها الفقر ، وطلب الثروة . فمثلاً أغلب المهاجرين من سوريا ولبنان الى الاميريكتين كانوا يتوجهون إليها إما بدافع الفقر ، وإما بدافع الثروة . ويشبه ذلك هجرة غالبية الاوربيين الذين كانوا يهاجرون لاسباب اقتصادية محضة . فهجرة البريطانيين كانت ناشئة عن سوء توزيع الاراضي الزراعية ، وانتشار المراعي مكان المزارع ، وضعف الزراعة . وكذلك هاجر الايرلنديون هرباً من الضرائب وطلباً للثروة . وكذلك اكثر الالمان الذين هاجروا الى إلى أمريكا في القرن التاسع عشر كانوا يهاجرون بسبب النظام الزراعي الاقطاعي الذي كان يسود في ألمانيا حتى منتصف هذا القرن (أو أكثر) .

الثرية (٢١) .

وقام البعض بدراسات أخرى لمعرفة علاقة الطلاق بالمهن والحرف . وقد ظهر في هذه الدراسات ان نسبة الطلاق مرتفعة بين الممثلين والممثلات والفنانين عامة وكذلك بين البحارة ، ويأتي بعدهم العمال بالنسبة ، حيث تقترب هذه لديهم من المتوسط ، وتنخفض هذه النسبة بشكل ظاهر بين رجال الدين والمدرسين والتجار .

وقد لوحظ ان الطلاق في البيئات الزراعية والريفية هو أقل منه في البيئات الصناعية والمدنية . وهذا يعود الى عوامل كثيرة يلعب فيها العامل الاقتصادي دوراً هاماً .

و - **الهجرة** : تساعد الازمات الاقتصادية والفقر على الهجرة من مكان الى آخر ومن قارة الى أخرى .

الهجرة الريفية :

ففي البلد الواحد يهاجر عادة الريفيون إلى المدن بحثاً عن العمل والحياة المرفهة . وتقوى هذه الهجرة في البلدان الصناعية . فبينما كان سكان المدن لايتجاوزون عشر السكان قبل حلول العهد الصناعي ، أصبحوا الآن في البلدان الصناعية الراقية يشكلون ٧٥٪ من مجموع السكان ، (إذا لم نقل أكثر) . ونشاهد ان هذه الهجرة ناشطة في بلادنا ، وتتمشى مع نمو الصناعة في المدن . والهجرة في الريف على اقواها بين العلويين والحوارنة والمسيحيين من مختلف أنحاء الاقليم السوري .

الهجرة الموسمية :

وهناك هجرة موسمية موقتة يقوم بها الفلاحون من بعض المناطق الى أخرى

(٢١) راجع : J. Desforges : Le divorce en France. 1947 P. 200

فأظهر أن تأثير القمح كان كبير الأهمية بالنسبة للزواج ، قبل عام ١٨٦٠ ، ولكن هذه الأهمية تضاءلت جداً بعد عام ١٨٧٠ ، وحلت محله عوامل اقتصادية أخرى كالاسعار والتجارة والبطالة [١٨] .

كما درس Yule التغيرات التي تطرأ على نسبة الزواج في انكلترا بين عامي ١٨٥١ و ١٩٠٠ . وقد درس تأثير التجارة الداخلية والخارجية ، والبطالة والثقافة ، وحركة الاسعار ، وعمليات غرف التعويض او الاجور والدخل ، درس تأثير كل هذه العوامل في الزواج حسب طريقة الترابط (Corrélation) فوجد أن التذبذبات السنوية لنسب الزواج كانت مرتبطة إلى حد بعيد بتبدلات هذه العوامل [١٩] . وفي بلادنا أشهر ، تبلغ فيها نسبة الزواج أقصاها : هي الاشهر التي تأتي بعد انتهاء موسم الحصاد وبيع المحاصيل الزراعية في القرى (وحاصة آب وايلول) ، وتقع فيها العطلة السنوية للعمال في المدن (وتكون خاصة في شهر آب (هذا ظاهر تماماً وخاصة في فرنسا) .

هـ - **الطلاق** : وتؤثر العوامل الاقتصادية في نسبة الطلاق . وقد أظهر جود (W.Y.Goode) ان نقص دخل الزوج يدخل عامة ، الخصام في المنزل ، ويساعد على حدوث الطلاق . [٢٠]

وقد قام دي فورج (J. Des forges) بدراسة في فرنسا فاظهر ان الطلاق منتشر في المدن بين الطبقات الشعبية الفقيرة اكثر منه بين الطبقات

---

(١٨) راجع : Bunle : in Journal de la société de statistique de Paris. (1911) P. 80

(١٩) راجع : Yule : Journal of royal statistical Société Mars 1906

(٢٠) راجع : W. J. Goode : Economic factors and Marital stabibity; in American Sociological review. XVI. 1951 pp. 802 — 812

ومهما يكن من امر فان الرخاء والتقدم الاقتصادي يعتبران من أهم عوامل تزايد السكان .

د - الزواج وسن عقد الزواج :

يتأثر الزواج بالعوامل الاقتصادية من حيث السن ومن حيث إبرام العقد. ففي البلاد الزراعية المتأخرة أو الخاضعة لنظام الاقطاع يبكر ، عادة ، في الزواج لأن المرأة والاولاد يستخدمون كوسائل للانتاج . وخير مثال على هذا الزواج مايحصل في ارياف حوران واللاذقية وحماه وحلب. وقدمنا بدراسة في ريف اللاذقية فوجدنا ان سن الزواج لايتجاوز لدى المرأة العلوية الخامسة عشرة أو السادسة عشرة[١٦] . أما في البلدان الصناعية الراقية فيتأخر سن الزواج أكثر من ذلك بكثير وخير مثال على ذلك فرنسا . ففي فرنسا يعتبر سن الزواج الوسطي للمرأة ٢٤ عاماً ، وللرجل ٢٨ عاماً .[١٧]

وقد أخذ سن الزواج يتأخر في بلادنا بفضل الثقافة والعلم والحركة الصناعية في المدن . ولكن العوامل الاقتصادية تلعب دورها الهام في هذا التأخير . لان تكاليف الحياة العصرية ورفاهها أثرت في الزواج، اذ يجب على الراغب في في الزواج أن يؤثث بيتاً على الطراز الحديث فيشتري الاثاث الثمين **والبراد والغسالة** والبوتوغاز ... وتتجلى أزمة الزواج لدى المسلمين، وخاصة في المدن، على اقصاها بسبب عجز الشبان الراغبين في الزواج عن دفع الصداق مرتفع **القيمة** وعن تأثيث المنزل كما يجب ...

وتتأثر عقود الزواج بالعوامل الاقتصادية. فرداءة المحاصيل في المراكز الزراعية وجمود الاسعار وضعف المبيع في المناطق الصناعية تجبر الناس على تأجيل عقود الزواج راجين تحسن الاحوال في المستقبل فتصبح أكثر ملاءمة لمثل هذه العقود. وقد قام **بنل** Bunle بدراسة في فرنسا ليظهر تأثير العوامل الاقتصادية في الزواج

---

(١٦) راجع : M. Mushabik Moussa : Etude Sociologique des A laouites. Tom. II.

(١٧) راجع : Landry : Traité de démographie. P. 374

عمر الوفاة

المهن	٢٥-٣٤	٣٥-٤٤	٤٥-٥٤	٥٥-٦٤
رجال التعليم الرسمي والخاص	٤٧	٥٦	١٤٠	٢٤٤
الخدمات العامة (التعليم فقط)	٦٠	٨١	١٤٩	٢٧٧
الخدم	٧٢	٩٦	١٦٢	٣٢١
الإناث				
السكان الكليون	٧٤	٨٤	١٢٠	٢٣٢
السكان الفاعلون (العاملون)	٦٨	٨٧	١١٨	٢٢٠
المالكات ، المزارعات ، المرابعات	٦٠	٦٤	٩٩	٢١٥
العاملات ، الخادمات الزراعيات	٤٧	٧١	١٠٦	١٩١
معلمات الخياطة	٨٢	٧٤	١٠٠	١٧٤
عاملات الخياطة	١٥٧	١٨٠	٢٢٥	٣٦٢
البائعات	٨٠	٨٥	١٣٤	٢٢٨
مستخدمات في التجارة	٦٠	٨٦	١٢٦	٢١٤
الخادمات	٤٢	٤٧	٧١	١١٤

فرنسا : الوفيات بالنسبة للمهن . عام ١٩٠٧ — ١٩٠٨ .

العدد السنوي **الوسطي** للوفيات **لكل ١٠٠٠٠** حي من كل فئة . [١٤]

نلاحظ من هذه القائمة ان نسبة الوفيات مرتفعة بين عمال المطابع . وعمال الخياطة ، وصناع اللحامين ، وصناع المقاهي والفنادق والمطاعم .

ونلاحظ أن اضعف نسبة توجد بين رجا التعليم ورجال الدين ومستخدمي سكك الحديد والخدم .

ولكن نسبة الوفيات العامة لاتتأثر دائماً بالضائقات والازمات الاقتصادية فمثلاً بين ١٩٢١ — ١٩٢٣ مرت أوروبا مثلا بأزمة اقتصاد وجدب ، ومع ذلك لم يحصل خلال هذه السنوات سوى نسبة وفيات منخفضة [١٥] .

(١٤) نقلا عن : Landry : Traité de démographie. P.274

(١٥) راجع : D. S Thomas : Social aspects of the business cycle. 1925. pp. 147 ss

عمر الوفاة

المهن	٢٥-٣٤	٣٥-٤٤	٤٥-٥٤	٥٥-٦٤
المالكون ، المزارعون ، المرابعون	٦٥	٦٩	١٠٤	٢٩٦
العمال ، الخدم الزراعيون	٤٨	٧٩	١٥٠	٢٣٠
المعدنون	٦٨	١٠١	٢٠٤	٤٢٠
المقلعجية (قالعو الحجارة)	٩٢	١٥٢	٢٧١	٤٥٨
عمال المطاحن	٥٢	٩٩	٢٣٣	٤٣٠
ارباب العمل ، الخبازة ، الحلوانيون	٦٤	١١٠	١٩١	٣٧٣
العمال	٩٧	١٨٣	٣٠٦	٥٧٧
عمال المطابع ، المجلدون	١٣٤	٢٢٢	٢٨٠	٥٨٦
عمال صناعة النسيج	٧١	١٠٩	١٩٤	٤٠٦
الخياطون (المعلمون)	٤٥	٩٢	١٣٢	٢٩٠
عمال الخياطة	١٥٨	١٨٥	٣٣٥	٦٩٥
عمال الدباغة	١٢١	١٧١	٣ ٥	٥٦٠
عمال الحطب	١٠٠	١٤٤	٢٦٧	٤٦٤
عمال النجارة	١٠٨	١٨٢	٢٧٧	٥٥٤
عمال الصناعات المعدنية	٩٥	١٤٨	٢٤١	٥٠٠
عمال البناء	١٠٠	١٦٤	٢٨٢	٤٨٨
عمال الزجاج	١٠٦	١٤٤	٢٥٦	٥١٠
الحامون (معلمون)	٧٦	١١٦	٢١١	٤٠٨
صناع (اللحامين)	١٢٠	٢٩٠	٥١١	٨٦٠
تجار ، اصحاب مطاعم ، اصحاب فنادق	٩٢	١٤٢	٢٣٠	٣٩٣
خدم المقاهي والمطاعم والفنادق	١٢١	٢٢٦	٣٤٣	٥٠٢
مستخدمو وعمال سكك الحديد	٦٦	٨٧	١٣١	٢٨٣
مستخدمو المكاتب	٨٦	١٢٧	١٩٨	٣٩٣
رجال الدين	٦٨	٧٤	١٤٧	٣٢٧
الاطباء والصيادلة	٧٠	١١١	١٩٤	٤٤٢

لكل مئة رجل متزوج كان العدد الوسطي للاولاد كما يلي :
٢٩٢ ولداً لدى أرباب العمل ، و ٢٨١ لدى العمال ، و ١٩٧ لدى المستخدمين [١٣] .

ج – الوفيات :

أما الوفيات فترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعوامل الاقتصادية . فكما أن الطبقات الفقيرة تعرف أكبر نسبة في الولادات ، فهي تعرف أيضاً أكبر نسبة في الوفيات وتنقص هذه النسبة لدى الطبقات العليا والوسطى . ونخص بالذكر وفيات الاطفال اذ تعزي الوفيات لدى الاطفال الى سوء التغذية ، ورداءة المسكن ، وقلة العناية الصحية والطبية ، وجهل الوالدين ، واغلب هذه تعود الى عوامل هي من أصل اقتصادي .

وقد درست العلاقة بين نسبة الوفيات والمهنة والوضع الاجتماعي أو الطبقة الاجتماعية . وكما هو معلوم ، تلعب العوامل الاقتصادية دوراً هاماً في **المهن ومستوى الحياة** ودوراً غالباً في تشكيل الطبقات الاجتماعية .

وقد قام هوبر Huber بدراسة في فرنسا حول هذه المشكلة . ونقدم للقارىء نتائج دراسته :

عمر الوفاة

المهن	٢٥-٣٤	٣٥-٤٤	٤٥-٥٤	٥٥-٦٤
الذكور				
السكان الكليون (Population totale)	٨٠	١١٢	١٧٨	٣٢٠
السكان الفاعلون (العاملون) (P. active)	٧٧	١٠٩	١٧١	٣٠٧

١٣ – راجع : Landry : Traité de démographie p. 369 .

الولادات تتناسب عكسياً مع مستوى الحياة ، فكلما ارتفع مستوى الحياة انخفضت نسبة الولادات . وهكذا فالطبقات الفقيرة تملك أعلى نسبة ولادات .

ولكن النتائج التي ظهرت في برلين وستوكهولم دلت على خطل تعميم مثل هذا الرأي [٩]

يعطينا هذا فكرة عن خطل تعميم القوانين الاجتماعية على كل المجتمعات دون اعتبار الزمان والمكان . وقد حاول البعض ان يعلل ارتفاع نسبة الولادات لدى الفقراء بقلة التفكير والجهل وعدم التبصر بالعواقب ، ومن هؤلاء **لاندري** (Landry) [١٠] .

كما حاول البعض الآخر ان يعلل ذلك **بالرفاه** ؛ إذ يعتقد جوسن Joussain أن ازدياد الرفاه يؤثر عادة في السكان نفس تأثير نقص الثروة . ويعتقد أن ضعف نسبة الولادات يلاحظ اكثر مايلاحظ لدى الامم الاكثر تحضراً ورقياً ، لأن الحياة الروحية تميل عندئذ الى النمو على حساب الحياة العضوية . [١١]

وهكذا نلاحظ ان ازدياد السكان وعدم ازديادهليسا تابعين بصورة مطلقة للعوامل الاقتصادية فقط دون سواها . اذ هناك عوامل أخرى تلعب دورها ، منها : العوامل **الدينية والسياسية والحضارية** والنفسية (كالانانية وحب التمتع بالحياة لدى بعض الآباء) [١٢] .

ودرس حجم الاسرة وعدد الاطفال بعلاقتها مع المستوى المادي والمهنة . ففي عام ١٩٠٦ أجريت دراسات في فرنسا ، فاعطت النتائج التالية :

---

٩ – راجع : Edin and Hutchinson : Studies of differential fertility in Cweden (1935) .

١٠ – راجع : A. Landry : La révolution démographie Paris : 1934 pp. 180 ss.

١١ – راجع : A. Joussain : Petit traité de Sociologie économique. Paris. Lamarre. 1933. p. 320.

١٢ – راجع : Landry: La révolution démographique pp. 169ss.

يعتبر الفلاحون أعلى نسبة ولادات من العمال ، والعمال أعلى نسبة ولادات من أرباب العمل والموظفين وأجريت دراسة في باريس بين عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٧ على الولادات بين مستويات مختلفة ، فوجد الدارسون مايلي :

مستوى الحياة	الولادات بالنسبة لـ ١٠٠٠٠ نسمة
مرتفع	٨٢
مرتفع بعض الشيء	٧٤
وسط	١١٩
متواضع	١٢٧
ضعيف	١٣٥ (٧)

نلاحظ أن اكبر نسبة للولادات توجد لدى الفئات الفقيرة الحال .

وقد أجريت دراسات مماثلة في برلين بين عامي ١٩٣٥ — ١٩٣٧ فدلت النتائج على مايلي :

مستوى الحياة	الولادات بالنسبة لـ ١٠٠٠٠ نسمة
مرتفع	١٠٥
مرتفع بعض الشيء	١١٣
وسط	١٤٧
متواضع	١١٧
ضعيف	١١٦ (٨)

نلاحظ أن اكبر نسبة للولادات توجد بين الفئات ذات المستوى الوسط.

أما في السويد فقد دلت الدراسات على ان نسبة الولادات تتناسب طردياً، لاعكسياً ، مع مستوى الحياة . وقد قضي بهذا على التعميم القائل إن نسبة

---

٧ — راجع : A. Landry : Traité de démographie. Paris Payot 1945. p.307

٨ — راجع : Ibid; : p. 307 .

وإذا لاحظنا العائلات الاقطاعية الكبرى في دمشق وحمص وحلب ودير الزور واللاذقية وجدنا انها تؤلف نوعاً من العشائر او القبائل المتمركزة في المدن أو في بعض القرى الكبرى . وكان تعدد الزوجات مشجعاً جداً في هذه العائلات .

أما في النظام الرأسمالي فليس من مصلحة الرأسماليين تزايد العمال غير المحدود لان في هذا خطراً عليهم ، وتزيد خطورة تزايد العمال في البلاد الرأسمالية الديموقراطية حيث يؤثر العدد من الناحية السياسية ، فاذا اصبح العمال قوة ساحقة نجحت أحزابهم في الانتخابات وقلبوا بالتالي نظام الحكم . ولهذا تتمسك البورجوازية الاوروبية بنظرية مالتوس في وجوب تحديد النسل . بينما يحارب الشيوعيون والاشتراكيون العلميون هذه النظرية محاربة فعالة ويعتبرونها نتيجة للخبث البورجوازي ومؤامرة على الطبقة الكادحة ؛ اما في النظام الاشتراكي والشيوعي فمن مصلحة العهد أن يتزايد العمال والفلاحون زيادة قوية وطبقية غير خاضعة للتحديد ، وفي هذا قوة له ومنعة .[٥]

ب — **الولادات :**

تتأثر الولادات الى حد بعيد بالعوامل الاقتصادية : اذ تنشط الولادات في احوال **الرخاء** ، وتضعف وتقل في زمن الضائقات والجدب : ويلاحظ هذا اكثر مايلاحظ بعد سنتين من مرور حال الرخاء أو حال الضيق أو الضائقة .[٦]

واذا لاحظنا علاقة الولادة **بالمهنة والطبقات الاجتماعية** ومستوى الحياة وجدنا النتائج التالية :

---

(٥) راجع : A. Sauvy : Théorie générale de la population. Tom. I. chap. XI et XII
M. Rosentahl et P. Joudine : Petit dictionnaire philosophique. art. Malthusianisme.

(٦) راجع : P. Fromont : Les rapports de l'économie et de la poulation dans le monde. Paris 1947 pp. 7155.

وعهد الصيد. وعندما بدأ العهد الصناعي أخذ الناس يتمركزون اكثر ما يتمركزون في المدن الصناعية . ووصلت كثافة السكان الى ذروتها في المدن الصناعية الحديثة الكبرى كنيويورك ولندن وباريس وموسكو . والسبب الاساسي والاول الدافع الى هذا التمركز يعود الى العوامل الاقتصادية .

وكم من «مركز» بشري قام على اكتاف بعض الصناع أو نشأ بفضل المناجم المعدنية والحقول النفطية ، وعندما هاجر هؤلاء الصناع بتأثير البطالة والفقر .. أو خلت حقول المناجم من المعادن ، أو نضب معين البترول ، أقفر «المركز» من اهله . وفي كلا الحالين ، حال التمركز ، وحال التفرق ، يعود السبب الى العوامل الاقتصادية .

وكم من أمة زادت كثافتها ازدياداً قوياً بفضل العوامل الاقتصادية .

فمصائد اليابان الكثيرة والغنية والصناعة الحديثة التي انتشرت فيها بعد الحرب العالمية الاولى وهبت اليابان كثافة سكان قوية نسبياً . وما قامت به المانيا ، بعد الحرب العالمية الاولى ، من اصلاحات زراعية وصناعية ساعد على ازدياد سكانها ازديادا مدهشا . ويؤثر النظام الاقتصادي على تزايد السكان . ففي النظام الاقطاعي ، ليس من مصلحة الاقطاعيين ان يتزايد الفلاحون عن نسبة معينة ، لان محاصيل الارض لن تكفي في مثل هذه الحال السكان ، وسيثور الفلاحون عندئذ من أجل رفع نسبة الدخل من المحاصيل . ولهذا لايهتم الاقطاعيون بالتدابير الصحية اللازمة لصحة الفلاحين . ومن يعد منا بذاكرته الى الوراء بضع سنوات ، حيث كان الاقطاعيون ، يسيطرون في بلادنا ، ير ان نسبة التزايد بين الفلاحين كانت ضعيفة ؛ وقد حافظت سورية مدة طويلة ، يوم كانت بلاداً زراعية باغلبية سكانها ، على عدد ثابت تقريباً من السكان .. أما الاقطاعيون فمن مصلحتهم أن يتزايدوا هم ويتكاثروا ، لان الزيادة تعتبر بالنسبة اليهم ، قوة ومنعة يستخدمونها لقمع حركات وانتفاضات الفلاحين والأقنان .

الاشتراكي . .) ، **والتوزيع** والمبادلة (على اساس النقد أو التبادل) ، **ونظام النقد** ، والاستهلاك (أي استهلاك السلع) ، **والفقر والغنى والثروة** .[٥]

تأثير العوامل الاقتصادية في المجتمع والحوادث الاجتماعية والثقافية والحضارية

للعوامل الاقتصادية تأثير هام جداً في الحياة الاجتماعية بجميع مظاهرها الاجتماعية المحضة والديموغرافية والسياسية والثقافية والحضارية . وسنحاول ان نعالج بايجاز تأثير هذه العوامل في جميع هذه النواحي ، لان التفصيل فيها يحتاج الى كتب وليس الى فصل أو فصلين.

أ) العوامل الاقتصادية والديموغرافية :

تلعب العوامل الاقتصادية دوراً هاماً في المظاهر الديموغرافية : ككثافة السكان و **الولادات والوفيات وسن الزواج والطلاق والهجرة** . . اذتؤثر في:

أ — تمركز وكثافة السكان :

يتأثر تمركز السكان وكثافتهم بالعوامل الاقتصادية . . فمنذ فجر التاريخ البشري حاول الناس ان يتمركزوا حول البحيرات والانهار وفي الغابات واماكن الصيد ، كما حاولوا فيما بعد ، ان يتمركزوا في قرى مبثوثة حول الانهار والسهول الخصبة ليتمكنوا من الزراعة وتربية الماشية . وزادت كثافة السكان في العهد الزراعي عنها في عهد «قطف» و «جمع» الفواكه والاعشاب ،

---

(٥) من أجل مفهوم العوامل الاقتصادية راجع :

1°) Manuel d'économie politique (Moscou). Edit. Sociales Paris 1959. pp. 9 — 17.

2°) J. Haesaert : Sociologie générale. pp. 344 — 364 et pp. 218 — 226.

ويرى ر. بار (R.Barre) ان **الخيرات الاقتصادية** تنتج لارضاء الحاجات البشرية. ويلح على اطار العلاقة بين الانتاج والحياة الاقتصادية والحاجات[٣]

ويذهب اندري جوسن (A. Joussain) إلى القول : « ان غاية الحياة الاقتصادية هي إرضاء الحاجات الطبيعية للانسان ، وكل الحاجات الاخرى التي تشتق منها ، سواء كشروط ، أم كنتائج ضرورية لهذا الارضاء نفسه . »[٤]

نستطيع ان نعدد للقارىء آراء مؤلفين كثيرين آخرين حول العلاقة بين **الحاجات** والحياة الاقتصادية ، ولكن ماقدمناه يعتبر كافياً لايضاح هذه النقطة الهامة . ومن هنا جاءت أهمية العوامل الاقتصادية . ذلك لأنها ضرورية لبقاء الانسان والجماعة أو المجتمع .

تحديد العوامل الاقتصادية :

ونتساءل الآن : **ماهي العوامل الاقتصادية** ؟ وما هي « الامور » و « الاشياء » التي تشتمل عليها ؟ نقصد بالعوامل الاقتصادية **المواد الخام** التي نصنع منها الاشياء (أو **الحاجيات**) (أو السلع) ، **والعمل والانتاج** اللذين نحول بهما المواد الأولية إلى سلع او (حاجيات) ، **والقوى المنتجة** (المنتجين واليد العاملة **ووسائل الانتاج** : أي الآلات التي ننتج بواسطتها ..) ، **وعلاقات الانتاج** (أي هل الانتاج فردي أم جماعي ..) ، **واسلوب الانتاج** (ويحتوي على **علاقات الانتاج والقوى المنتجة** ، ويشكل النظام الاقتصادي القائم في مرحلة تاريخية ، أو في بلد من البلدان كالنظام الاقطاعي والنظام الرأسمالي والنظام

---

(٣) راجع : Raymond Barre : Economie politique. Tom. I. Paris P. U. F. pp. 5 – 11

(٤) André Joussain : Petit traité de Sociologie économique. Paris. J. Lamarre. 1931. p. 29

اليه ويشعر بالألم والحرمان والنقص إذا لم يشبعها ويرضها . نعد من هذه الميول المكتسبة الميل الى القراءة والمطالعة والسينما وشرب الخمر وجميع انواع المسكرات وتدخين التبغ ، واستعمال العطور والزينة وسواها من «الكماليات» .. واذا كانت الميول الطبيعية أو الحاجات الطبيعية الاساسية محدودة العدد وقابلة للإرضاء ، فإن الميول المكتسبة والاصطناعية غير محدودة ولا حد لاشباعها . فكمية الطعام التي يحتاجها الانسان للشبع تعتبر محدودة ، ويحس بالشبع عند امتلاء «معدته» أما فيما يخص الزينة والعطور والمجوهرات ... فلا نجد حداً لرغباتنا . ومهما يكن من أمر هذه وتلك الحاجات ، فإنها تحتاج جميعاً للإرضاء . وغاية الحياة الاقتصادية هي تأمين ارضاء هذه الحاجات والميول . فالحاجة الى الغذاء ترضى مثلا إما بقطف الثمار من الاشجار واقتلاع الاعشاب من الارض مباشرة ، واما **بتربية الماشية وزراعة الحبوب وصناعة المواد الغذائية** وينطبق هذا على الحاجات الاخرى .

ويجمع كافة مؤلفي الاقتصاد السياسي على ان غاية الفاعلية الاقتصادية هي تأمين مايرضي حاجات الناس . فالاستاذ ريبو (Reboud) يرى ان الحياة الاقتصادية تظهر بفضل الفاعلية الاقتصادية . ويرى أن «هذه الحياة تختصر بكاملها بثلاثة ألفاظ : **حاجات** (bésoins) (تولد رغبات) ، — وجهود أو مجهودات (efforts) (لتؤمن غرض الرغبة) ، وارضاء (statisfaction) (يسببه تحقق الرغبة) »[١].

ويرى المؤلفون الاقتصاديون السوفيتيون « ان الناس ليعيشوا ، يجب ان يتوفر لهم الغذاء والكساء وخيرات مادية أخرى . وليحصلوا على هذه الخيرات فانهم مجبرون على انتاجها ومقسورون على العمل »[٢].

---

(١) P. Reboud : Précis d'Economie politique. Tom. I. Paris. Dalloz, 1939. P. 2

(٢) Manuel d'Economie politique. paris Editions sociales, 1956. P. 9

الفصل الحادي عشر

ـ العوامل الاقتصادية واثرها في المجتمع ـ

قلنا في تصديرنا لهذا القسم اننا سنولي العوامل الاقتصادية **اهتماما** خاصاً لما لها من علاقة وثيقة ومباشرة **بحاجاتنا العضوية** الضرورية لحفظ بقائنا . ومن هنا جاءت أهمية العوامل الاقتصادية .

الحاجات كمحرك لكل فاعلية اقتصادية :

فالانسان يعتبر ، من الوجهة الجسدية **والبيولوجية** ، حيواناً كسائر الحيوانات . اذ تسيطر على **حياته غرائز وحاجات اولية** يعد ارضاؤها واشباعها ضروريين لحفظ بقائه .

ومن المعلوم ان كل كائن حي يعمل على حفظ بقائه وبقاء نوعه وذريته وعلى زيادة **رفاهه وامنه** بقدر ماتسمح له الظروف . ولايشذ الانسان عن هذا القانون العام .

الحاجات الطبيعية : اذ للانسان **حاجات طبيعية** أساسية : كالتنفس ، والتغذية ، والحماية من البرد والحر والاخطار والاحداث وتقلباتها ، والراحة عندما يتعب ، والنوم عندما يدركه النعاس ... فهو مضطر ان يرضيها والا انقرض كفرد وكمجتمع .

الحاجات المكتسبة والاجتماعية : وبما ان الانسان يعيش في مجتمع ، لذلك يكتسب بعض **الميول الاصطناعية** ويصبح لها أهمية كبرى بالنسبة

مراجع هامة

1 — M. Rencontres de la Géographie et de la Sociologie. Paris Lib. M. Rivière. 1957.

2 — Amos H. HaWley : Humon Ecology. N. Y. Ronald Phess. 1950 .

3 — G. Gurvitchand W. E. Moore : Twentith century Sociology. N. Y. 1945 : La Soliologie au XXe siècle. tom. I. Paris. P. u. F. 1947.

4 — Howard W. Odum : understing Society. N. Y. Macmillan. 1947 .

وانفصالهم بحدود معينة ، والمظهر الزماني (ويشمل الايقاع rythme ، الذي هو ظاهرة التكرارات أو العودات المنتظمة لبعض الحوادث الاجتماعية ، **ونسبة التكرار** (tempo) ، والميل نحو التكيف المتبادل بين الايقاعات (timing) ... [٢٨]

٧) وأخيراً تستفيد السوسيولوجيا من الاكولوجيا عامة ، من حيث النزعة الواقعية والموضوعية ، والتعلق **بالطرق العلمية الواقعية** ، والاتجاه نحو التعاريف والتصنيفات أو **التصانيف** العلمية الدقيقة . [٢٩]

والخلاصة : لايستغني السوسيولوجي في تأليفه وعمله عن التعرف على الجغرافيا وفروعها (وخاصة الجغرافيا البشرية) وعلى الاكولوجيا وفروعها (وخاصة الاكولوجيا البشرية) **والروح الواقعية والطرق العلمية** والمفاهيم الدقيقة المستمدة من التجربة والواقع . وقد انتهى عهد التأليف السوسيولوجي القائم على مجرد الاستنتاجات الفكرية والمنطقية والمحاكمات العقلية المجردة .

---

٢٨ - راجع : Hawley : opi. cit. Chap. 14 and 15 .

٢٩ - راجع : Odum : opi. cit. pp. 83 — 84 .

٤ً) في فهم **ظواهر اجتماعية هامة** ، منها الظواهر الآتية :

٥١ ـ توضع وتوزع وحجم وتنظيم **المتحدات** والعوامل التي تلعب دورها في مثل هذه الظواهر . (٢٢)

٥٢ ـ التمايز (differentiation) الجسدي **والتمايز الارضي** أو **المكاني** والسكاني ، وحتى الثقافي بين المجتمعات ، وتأثير **التنافس** Competition الذي يعتبره هاولي (Hawley) السبب الرئيسي للتمايز والتنظيم الوظيفي للمتحدات والرهوط . (٢٣) .

٥٣ ـ التغير وديناميكيته والحراك (mobility) الاجتماعي والثقافي اللذان **تتعرض** لهما الجماعات والمتحدات خلال مراحلها التاريخية (٢٤) .

٥٤ ـ تمركز السكان وهجرتهم وغاراتهم وتنافسهم وتناصرهم ، وتزايدهم وانتشارهم وتوسعهم ونموهم في المكان والزمان . (٢٥)

٥٥ ـ تلاؤم وتكيف الجماعات والمتحدات ، **والتزاحم** الحيوي الذي يحصل فيما بينها وفيها . (٢٦) ؛ **وكذلك الكفاح من اجل البقاء** مع أفراد الجنس والنوع ومع الطبيعة وعواملها . (٢٧)

٥ً) في فهم قيمة المكان والبيئة الطبيعية والمجال الحيوي لاستمرار بقاء السكان والمتحدات .

٦ً) في فهم المظهر المكاني (توزع السكان في المكان وتمركزهم فيه ،

---

٢٢ ـ راجع : Ybid. : P. 481

٢٣ ـ راجع : Amos H. Hawley : Human Ecology. N. Y. Ronald Press. PP. 201 — 204

٢٤ ـ راجع : Ybid. : PP. 32i — 347

٢٥ ـ راجع : 1) Ybid. : Chap 18, 19, and 20 .
2) Gurvitch au l Moore : opi : cit. pp. 487 — 494.

٢٦ راجع : H. W. Odum : understing Society. N. Y. Macmillan. (1947) pp. 84 — 85 .

٢٧ ـ راجع : M. Sorre : opi. cit. pp. 144 — 174 .

٢° – ويعتبر **التزاحم** Concurrence) كأحد **الظهورات** الاساسية او التجليات لحاجة **هؤلاء الافراد** الى الرزق او المعاش subsistance) ، كما يعتبر التعاون احدى الوسائط التي يتوصل بها الى **التلاؤم** المتبادل مع هذه الحاجة المشتركة . وقد سميت هاتان العمليتان (**الالتزام والتعاون**) ، اللتان تقوم بها الكائنات الحية في سبيل توفير ماهو ضروري جسديا ، المعايشة والتكافل (Symbiose).

٣° – كل التبـدلات الجسدية **والتحت – اجتماعية** (Subsociales) التي يعانيها الافراد في سبيل تلاؤمهم فيما بينهم والتي لاتستوجب تدخل التفكير ، نقول كل هذه تسمى بالتبدلات الاحيائية (البيوتية) (biotiques) .

٤° – وتشكل سلاسل (او مجموعات) العلاقات والتلاؤمات المتبادلة بين الافراد (فيما بينهم) بقصد كسب (أو توفير) وتوزيع **الغذاء** «نسيج الحياة» .

٥° – يحدد الدور الذي يلعبه الفرد لكسب وتوزيع **الغذاء وضعه** (أو مركزه) في دوامة تقسيم ، العمل وبتعبير آخر **وظيفته** .

٦° – تحقق هذه الجماعات من الافراد توازناً مع البيئة ، توازناً تتلاءم معه الحاجات مع الموارد الطبيعية .

٧° – وعندما يتهدم هذا التوازن القائم بين الجماعة والبيئة ، وعندما تدخل عوامل جديدة لتقضي على **الوضع القائم** (statu quo) ، فان حالة عدم التوازن (أو اختلال التوازن) التي تحصل عن ذلك تشاهد ولادة عمليات جديدة من التلاؤم والدفاع [٢٠] .

٣ً – في فهم الفروق بين الجماعة (أو المتحد) Cmmunauté او المجتمع (société) [٢١] .

---

٢٠ – راجع : 1) F. E. Clements : a, Plant Succession. Washington. 1916. b : Research Methods in Ecology. 1905.

2) G. Gurvitch and Moore : La Soliologie au XXX siècle. Tom. I. PP. 482 — 483.

٢١ – راجع من أجل هذه الفروق : Gurvitch and Moore : opi. cit. P 481

جـ - استفادة السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية :

ويمكن لفرعين آخرين من فروع السوسيولوجيا : السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية، ان يستفيدا من الدراسات الاكولوجية. لأن الاكولوجيا ألحت على دراسة المتحدات (أو الجماعات) (Communautés). وقد ظهرت هذه الاستفادة لدى سوسيولوجيين أميركيين عديدين . وخاصة لدى ت. لاين سميث في كتابه « سوسيولوجيا حياة الريف »[١٧] ، وفي مؤلفات أتباع مدرسة شيكاغو في الدراسات المدنية . اذ ظهر أثر بارك (Park) ، وماكنزي (Makenzie) ، وبورجس (Burgess) واضحاً فيها .[١٨] ، كما استفادت السوسيولوجيا عامة منها في الأمور والظواهر الآتية :

١ً) **في دراسة البيئة المحلية** ، أو المقاطعة ، أو المتحد المحلي .(واستفادت من هذه الدراسات السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية) .

٢ً) **في دراسة المتحد بصورة عامة** . اذ حاول بارك ان يستفيد من دراسته للتجمعات النباتية والحيوانية في فهم التجمعات والجماعات والمتحدات البشرية .[١٩] وقد وضع بعض المفاهيم والأفكار التي تنطبق على الجماعات النباتية والحيوانية والبشرية. واستخرج كليمنتز (Clements) من الاكولوجيا النباتية مفاهيم لها اهمية كبرى في دراسة المجتمعات البشرية :

١ً - يعتبر الجماعة أو المتحد (Communauté) كمجموعة من الأفراد **مستقرين** (أو متوضعين) **في المكان** .

---

١٧ - راجع : T. Lynn Smith : The Soliology of rural life. N. Y. 1940

١٨ - راجع : M. Sorre : opi. cit PP. 150 — 156 et Surtout P. 152.

١٩ - راجع : Park : Human Ecology. in Amer. J. of Sociology. Vol. 42 (1935). PP 1 — 15

التطور الذي يهيء التجمع (أو المجموعة) النهائية بالتتابع أو التتالي (Succession) وتسمى المراحل التي يمر بها النبات الدرجات (Stages) ، ويسمى مجموع هذه الدرجات السلسلة (Série) . ويلح السوسيولوجيون النباتيون على فكرة التجمعات (أو الرهوط) (Groupements) النباتية . والوحدة السوسيولوجية الاساسية هي ، بالنسبة اليهم ، « الرابطة » او الجمعية (Assotiation) وتتميز كل رابطة وتعرف بالامور التالية : **الثبات والامانة والتسلط والسلوك الديناميكي ...**

أما « التشكل » فيعرف بانه مجموعة نباتية متشابهة السيماء تقتضي اشكالاً بيولوجية شديدة التنوع موزعة على « فئات » أو « طبقات » (Strates) متعددة [١٤] .

وقد قرر م . سور بأن الاكولوجيا لم تحذف (أو تلغ) من السوسيولوجيا النباتية . وتحتل مكانة معينة فيها . ولو أن مؤسسي هذا العلم الجديد كانوا يحتفظون بالنسبة الى مكانتها هذه (أو مكانها) بموقف متحفظ [١٥] . وقد لاحظ نفس المؤلف ان السوسيولوجيا النباتية الاوربية لم تهمل البحث الاكولوجي ، وكذلك الجغرافيا البشرية تأثرت تماماً بالروح الاكولوجية [١٦] .

ب - **استفادة السوسيولوجيا الحيوانية :**

وتستفيد السوسيولوجيا الحيوانية منها في دراسة **التجمعات الحيوانية وتشكلاتها** وتأخير المكان او الموطن فيها . كما تفيدنا في فهم الدارج الاجتماعي لدى الحيوانات ، وفي فهم تلاؤمها مع المكان والمناخ أو البيئة الطبيعية بصورة عامة .

---

١٤ - للتوسع راجع . M. Sorre : opi. cit. PP. 122 - 130

١٥ - راجع : Ibid. : P. 127

١٦ - راجع : Ibid. : P.P. 142 — 143.

تلاؤم او تكيف الثقافات البشرية مع بيئاتها الطبيعية [١٢] » .

انواعها : للاكولوجيا انواع هي :

١ً - **الاكولوجيا العامة (او الحيوانية والنباتية) وتدرس** تكيف الكائنات الحية مع بيئاتها الطبيعية بصورة عامة .

٢ً - **الاكولوجيا البشرية** :وتدرس العلاقات المتبادلة بين الانسان والبيئة الطبيعية ، وبين المجتمعات البشرية والبيئة الطبيعية .

٣ً - **الاكولوجيا الاجتماعية** : وتدرس البنية المكانية - الوظيفية لبقاع السكن البشري ، والتوزع المكاني **للصفات** أو **المعقدات** الاجتماعية والثقافية التي تظهر فيها الظواهر وتتبدل كنتيجة لعمليات التفاعل الاجتماعي والاكولوجي [١٣] .

امكان استفادةالسوسيولوجيا منها : يمكن ان تستفيد السوسيولوجيا في كثير من فروعها من الاكولوجيا :

أ - استفادة السوسيولوجيا النباتية :

تستفيد السوسيولوجيا النباتية منها في فهم التجمعات النباتية وتلاؤمها مع البيئة التي تنمو فيها فتستفيد منها في تعريف الموطن (أو البيئة)(Habitat) وفي دراسة سلوك النبتة ،وفي دراسة تشكل « التجمع » (أو المجموعة) النباتي. اذ لاحظ الاكولوجيون ان النبات عندما يحتل أرضاً عذراء فإنه يمر بسلسلة من الحالات تؤدي الى اقامة تشكل(Formation)ثابت ،من حيث التوازن التكيفي أوالتلاؤمي (Equilibre épharmoniqne) مع المناخ العام والأرض ويدعى هذا الحد النهائي او المجموعة النهائية بالكلياكس (Climax) ويدعى

---

١٢ - H. Pratt Fairchild : Dictionaryof Sociology. N.Y.1944

١٣- راجع : Ibid. : P. 101 et p. p. 281 — 282

الطقوس مفهومة بالنسبة الينا: فللشرق والغرب مناخها وشروطها المادية للحياة، وآفاقها. وتساعدنا خريطة الأنهار والطرق والمحيطات على معرفة سير المسيحية والبوذية ... »[٩].

كما يمكن ان تفيد السوسيولوجيا السياسية في فهم العلاقة بين المكان الجغرافي والمكان السياسي وفهم بعض افكار قومية ووطنية وسياسية مرتبطة بالوطن وحدوده والمجال الحيوي ...[١٠]

وهكذا نجد ان وحدة الموضوع (اي دراسة المجتمعات البشرية) تدفع السوسيولوجيا والجغرافيا الى الاحتكاك الوثيق والى التعاون التام والى الاستفادة المتبادلة من حيث نمط الدراسة وطريقتها وتفهم بعض المفاهيم الخاصة بكل منهما.

ثانياً — استفادة السوسيولوجيا من الاكولوجيا Ecologie

ويمكن ان تستفيد السوسيولوجيا من الاكولوجيا. وقبل ان نبحث في هذا الامر يجب ان نعرف الاكولوجيا ونتعرف على انواعها.

تعريف الاكولوجيا : عرف احد مؤتمرات « الجمعية البيو - جغرافية في باريس » الاكولوجيا كما يلي : « هي علم شروط الوجود والتفاعل بين الكائنات الحية والبيئة »[١١]. وجاء في قاموس فرتشايلد (Fairchild) مايلي : « الاكولوجيا.. هي دراسة العلاقات بين الاجساد الحية وبيئاتها. وتعني في الانتروبولوجيا خاصة،

---

٩ - G. Lebras : L. explication en Sociologie. in Cah. intern. de Sociologie. 1956. vol. XXI. P. 73.

١٠ - من أجل تفاصيل هامة عن هذا الموضوع راجع :
M.Sorre : Rencontres de la Géographie et de la Sociologie pp. 93 - 98.

١١ - Société de biogéographie de Paris. E. B. Séances 1950 etaussi Centre National de la recherche Scientifique colle. XXXIII. Ecology.

من الطرق الجغرافية بمراجعة كتب لوبري (L. z. Lebret) المخصصة للتحريات السوسيولوجية الريفية والمدنية [٨] .

أما القارىء باللغة الانكليزية فيجد مجموعة من الكتب القيمة جداً لمؤلفين أميركيين عديدين ، نذكر منهم : لوميس (L.h.P. Loomis) ، وبيجلي (z.A. Beegle) ، وسوروكين ، وزيمرمن (zimmerman) وغالبن (Lb. Galpin) ، وبرجل (E.E. Bergel) ...

هـ - الاستفادة منها من حيث الاتجاه العام والطريقة العامة :

كما يمكن ان تستفيد السوسيولوجيا من الجغرافيا من حيث المنهج العام والطريقة العامة . ذلك لان الجغرافيا تعتبر ، كالعلوم الطبيعية ، علماً وصفياً وتحليلياً وتعليلياً . ولا يمكن للسوسيولوجيا ان تصبح علماً بالمعنى الصحيح الا اذا أتبعت هذه الطريقة . وكان أغلب السوسيولوجيين الاميركيين يرون ان مهمة السوسيولوجيا تقتصر على الوصف ، ولكنهم عدلوا عن هذا الاتجاه ومالوا الى قرن **الوصف بالتعليل والتحليل** .

و - استفادة السوسيولوجيات الفنية والدينية والسياسية :

لقد رأينا في الفصلين السابقين أهمية العوامل الطبيعة في بعض الظواهر الدينية والفنية والسياسية . لهذا كان على هذه السوسيولوجيات ان تستفيد من الجغرافيات البشرية والطبيعية والسياسية في وصف وتعليل هذه الظواهر .

وقد قال غابرييل لوبرا (L. Lebras) بصدد التعليل في السوسيولوجيا الدينية : « تجعل الجغرافيا بعض حركات الفكر وبعض خصائص (أو مميزات)

---

٨ - L. Y. Lebret: Manuel de l. Enquêteur. Paris P.U.F.1952
L, Enquête rugale. P. U. F. Paris. 1951.
: L, Enquête urbaine. P. U. F. Paris. 1955.

د ـ **استفادة السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية منها :**

والذي استفاد أكثر من سواه بين فروع السوسيولوجيا من الجغرافيا ، هما السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية وهذان العلمان مزدهران تماماً في الولايات المتحدة الاميركية . وأبحاثها تشبه الى حد بعيد أبحاث الجغرافيا البشرية والابحاث الجغرافية المنطقية في أوروبا . وقد أشار م . سور الى هذا بقوله : « ويمكن القول ، بصورة عامة ، إن السوسيولوجيين ، في اميركا ، يقومون بنفس المهام التي يقوم بها عندنا الجغرافيون المرتكزون على مؤرخي الحوادث الاجتماعية ... واذا ما فتح جغرافي فرنسي ، اوجغرافي أنكليزي أو جغرافي ألماني متناً من متون السوسيولوجيا الريفية الاميركية ، فإنه واجد معالجات مألوفة بالنسبة إليه عن منطقة السكن الريفية ، والتنظيمات (او البنى) الارضية ، وتوزيع الملكية ، وانماط التعلق بالملكية (او الاقطاعية) ، والديموغرافيا والهجرات الريفية . فإذا ما أُخذ باستعمال الطرق الاحصائية ، التي بقيت حتى الآن أقل ألفة بالنسبة إليه ، فإنه يذكر ايضاً كثرة ، واحياناً ، براعة ودقة التعبيرات **الخرائطية** التي هي الوسائل المألوفة للتحليل بالنسبة للجغرافي . » [٦] .

ويقول ايضاً : « ومهما يكن من أمر فالجغرافيون الاوربيون سيستفيدون من تمثيل (وهضم) المادة المدهشة (او الغزيرة) التي جمعها السوسيولوجيون الاميركيون في مجال السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية . وأرى أن الاقتراح المعاكس لن يكون اقل صحة (من هذا الاقتراح السابق) [٧] .

ويمكن للقارىء باللغة الفرنسية ان يعلم مدى استفادة هذين العلمين الحديثين

---

(٦) M. Sorre : Fondements de la géographie humaine. in Cahiers internationaux de Sociologie. 1948. Vol. V. P. 25

(٧) Ibid; : P. 25-26

ج - **استفادتها منها من حيث الطرق الواقعية :**

من أقوى أبحاث الجغرافيا البشرية ، الدراسات **المنطقية** (Régionales) **والمحلية** . وقد تأثرت السوسيولوجيا بهذا الاتجاه ومالت ميلاً قوياً ، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية ، إلى **التحريات والاستقصاءات** الواقعية التي تدرس البيئات المحلية **دراسة في المكان** أو الميدان (Surplace) (لا في المكتب . .) . وقد استفادت السوسيولوجيا من الجغرافيا بالتقيد بوضع **الخرائط والمصورات** . وقد أخذ السوسيولوجيون ، متأثرين بالجغرافيا ، بوضع خرائط ومصورات توضح مثلاً توزع الاحزاب السياسية ، ونسبة الاجرام ، ونسبة الوفيات ، ولون أو منحى الانتخابات ، . . والفقر والغنى والبطالة . . حسب المناطق المختلفة في وطن معين . . [٤] .

وتؤلف في البلدان الراقية ، للدراسات السوسيولوجية المحلية والمنطقية ، مجموعات وزمر (Equipes) تضم جغرافياً بين مختلف **اختصاصيها** . وقد ذكر م . سور (Sorre) ان جميع المجموعات الباحثة في نواحي السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية التي يديرها « المركز الوطني للأبحاث العلمية » (في فرنسا) ، منذ سنوات ، قد عملت بالتعاون مع جغرافي . وقد كان لهذا التعاون نتائج طيبة [٥] .

وعممت الطرق الخرائطية في جميع العلوم الانسانية . وهذا دليل على شمول وتعميم الحاجة إلى **التحديد والتوضع** (Localisation) ؛ ولهذا كان من المستحيل أن تغفل السوسيولوجيا هذه الطرق .

---

(٤) من أجل أمثلة هامة راجع :

H. W. Odum: Understing Society. N. Y. Macmillan. 1947.

(٥) راجع : M. Sorre: Opi. cit. P. 52.

الصناعة ، العلاقات ، الحياة المدنية ، الحياة الريفية ، التنظيم الاداري لبلد معين . .)
فإذا أخذنا مثلاً القرية ، وجدنا أن النشاط (أو الفاعلية) الزراعي يضعنا أمام عناصر متعددة ومختلفة : العناصر الطبيعية (الارض ، والمناخ ، والتضاريس . .) ، والعناصر البيولوجية (النباتات المزروعة . .) ، **والعناصر البشرية** (الرهط المتجمع في القرية ، وتنظيم « الارض » والعناصر التكنية والاقتصادية (الآلات والوسائل المستعملة في الزراعة ، وتنظيم العمل . .) ، (واخيراً) **العناصر العائدة الى البنية الاجتماعية** للرهط الذي يتفق مع تنظيم الارض والنسق الذي يحسبه وزع العمل [٢] .

ومن المستحيل أن نجرد الرهوط من البيئة التي يكونون جزءاً منها . ومفهوم البيئة ، كما تعتبره الجغرافيا ، يعني بيئة محددة تماماً ومنظمة ومختصة بشكل واضح ، وهي محددة **بتركيبات** العناصر التي تؤثر في إقليم (أو مقاطعة) معين على سطح الكرة الارضية . ولها بنية خاصة (تنظيم) تتناسب مع جنس التركيبات المحققة . كما تقتضي امتداداً بالمساحة تعتبر حدودها نفسها حدود التركيب ، أو مجموعات التركيبات . وتتمثل البيئة الطبيعية بمظهرين . مظهر طبيعي (تركيبات طبيعية : (كالمناخ وسواه) ، وتركيبات بيولوجية (كالغابات . .) .) ، ومظهر بشري أو مطبوع بالطابع البشري (الزراعة ، الصناعة ، المدن ، القرى ، . .) [٣] .

وهكذا يمكن أن تفيد الجغرافيا السوسيولوجيا بجعلها تدرك بشكل واضح أحد حدودها الاساسية ، أي أهمية البيئة بالنسبة لأغلب المجتمعات البشرية ، كما تساعدها على تبني خير الطرق لوصف البيئتين الثقافية والطبيعية للشعوب .

---

(٢) راجع من أجل مفهوم التركيبات : A. Cholley : Géographie et sociologie; in Caliers internationaux de sociologie. 1948. Vol. V. pp. 4-13

(٣) من أجل فكرة البيئة راجع : Ibid; : P. 10-12

ولنعالج الآن إمكان استفادة السوسيولوجيا من الجغرافيا والإكولوجيا فقط .

أولاً — استفادة السوسيولوجيا من الجغرافيا :

يمكن أن تستفيد السوسيولوجيا من الجغرافيا في النواحي الآتية .

أ — استفادتها من حيث الواقعية :

تعتبر الجغرافيا من العلوم التي تتصف بالموضوعية والواقعية . فهي علم يبحث في البيئة الطبيعية ويبحث في المجتمعات البشرية بشكل موضوعي مبتعدة ما أمكن عن التفكير الميتافيزيائي والتجريدات الفلسفية المحضة . فإذا ما أرادت السوسيولوجيا ان تبحث بشكل موضوعي في العلاقة بين المجتمع وبيئته الطبيعية وفي طبيعة هذه البيئة وتأثيرها في الثقافة ، فإنها تجد اكبر عون لها في علم الجغرافيا . ذلك لان الجغرافيا ، ذلك العلم المعلل والمفسر ، تقدم لها المعلومات اللازمة في بحثها عن الاسس الفيزيوغرافية Physiographiques للمجتمع والرهوط . هذا ما تستفيده السوسيولوجيا من الجغرافية الطبيعية ؛ ولكنها تستطيع أيضاً أن تستفيد من فروع أخرى للجغرافيا ، **كالجغرافيا البشرية ، والجغرافيا الاقتصادية ، والجغرافيا السياسية** ، . . في فهم ووصف البيئة الطبيعية والبيئة الثقافية للبشر .

ب — استفادتها منها في فهم البيئة :

يمكن أن تستفيد السوسيولوجيا من الجغرافيا في فهم البيئة ، لان مفهوم البيئة يمكن أن يعتبر المفهوم الاكثر أهمية في الجغرافيا . ولهذا تلح عليه وتتعمق في فهمه ووصفه . والبيئة هي ، بصورة أساسية ، الإطار الذي تتحقق فيه فاعلية الرهوط (أو التجمعات) البشرية على شكل تركيبات (Combinaisons) (الزراعة ،

الفصل العاشر

(تابع)

— السوسيولوجيا والجغرافيا والاكولوجيا —

لانريد أن نبحث هنا في العلاقات المتبادلة والفروق والمشابهات القائمة بين السوسيولوجيا من جهة والجغرافيا والإكولوجيا من جهة أخرى وكل مانفعله هنا هو تبيان إمكان استفادة السوسيولوجيا من الجغرافيا والإكولوجيا ؛ كما سنبحث في فصول قادمة في امكان استفادتها من علوم اخرى . ونلاحظ منذ الآن ان على السوسيولوجي ان يلم بعلوم كثيرة لها علاقة باختصاصه ، ليصبح سوسيولوجياً بالمعنى الصحيح . وعليه ، خاصة ، أن يلم بالعلوم الاجتماعية .

ولهذا ذهب ماكسيمليان سور M. Sorre الى القول بمبدأ **توحيد** العلوم البشرية حيث انها تعبرعن وحدة الانسان غير **المجزأ** (أوغير ممكن التجزيء) الذي يوجد بكله في كل فعل من أفعاله . وحيث ان جميع هذه العلوم تعيش على نفس المعطى ، وان عالجه كل منها بشكل مختلف عن الآخر . وينتهي الى تقرير ما يلي . « لتستخدم السوسيولوجيا في مجال علوم الانسان ، لتعريف القوام (Substrat) ، عناصر تعرفها علوم اخرى ، ولتعطها قيمتها (وذلك) بوضعها إياها في أساس انشائها . وليس هناك من شيء اكثر شرعية من هذا » (١) .

---

(١) M. Sorre: Rencontres de la Géographie et de la sociologie. L. Marcel Rivière. 1957. p. 51.

مراجع عامة

1 — H. Elmer Barnes and H. Becker and F. B. Becker : Contomporary social theory. N. Y. 1940, chap. 7

2 — P. A. Sorokin: Contemporary sociological theories. N. Y. 1928. chap. II et III
trad, franc. : Les théories sociologiques contemporaines. Paris ayat. 1938.

3 — A. H. Koller : The theory of environment. The collegiate press. N. Y. 1918

4 — F. Thomas : The environmental basis of society. N. Y. 1925

5 — H. E. Barnes : The new history and the social studies. Chap. II. N Y. 1925

البدائية بينما تقل أهميته في الحضارات المتقدمة التي تتميز بتزايد أهمية العوامل النفسية والثقافية وتفوقها على العوامل الجغرافية (٤٩)

الخلاصة :

تلاحظون من كل هذا العرض مغالاة اتباع المدرسة الجغرافية في تقدير أهمية العوامل الجغرافية والمحيط الجغرافي والطبيعي في تعليل مختلف الظواهر الاجتماعية . وأصبحت نظرياتهم في ايامنا هذه ، بعيدة عن أن تستهوي عقول **السوسيولوجيين والجغرافيين** والباحثين في مختلف العلوم الاجتماعية . ويجب ان نلاحظ ان أغلب هذه النظريات ظهر في القرن التاسع عشر وفي الربع الاول من القرن العشرين . ولهذا اصبحت لاتتفق وعقلية ومناحي السوسيولوجيون التجريبية الحديثة . ولانريد هنا أن نناقش آراء أتباعها ذلك لاننا قمنا بهذا في الفصل السابق .. وكل مانحب ان نشير اليه هنا هو أنه لايمكن اغفال العوامل الجغرافية في تعليل كثير من الظواهر الاجتماعية ولهذا وجب ان تعتمد السوسيولوجيا في تعليلاتها على الجغرافيا والاكولوجيا ، كما تعتمد على السيكولوجيا والانتربولوجيا والبيولوجيا والتاريخ سواء بسواء . وسيظهر لنا البحث القادم أهمية هذين العلمين بالنسبة للسوسيولوجيا .

---

(٤٩) راجع : Ibid; : pp. 112-113

ان الصحراء تعرض الفرد للجوع والعطش وهكذا تولد فيه حالة ذهنية غيرسوية وتخيلاً حساساً جداً . فالصحاري صافية وجافة وخالية من الخضرة أو الطوبوغرافيا المنوعة لتلهي عقل الساكن فيها . وليدلل على العلاقة بين الصحراء والديانة التوحيدية لفت الانتباه الى أن موسى ، وايليا ويوحنا المعمدان والمسيح ومحمد قد تهيأوا جميعاً لدعواتهم الدينية في الصحراء (٤٧)

وألح بكلي (انكليزي) على « مظهر (أو مظاهر) الطبيعة العام » وتأثيره في العقل والتخيل . ويدخل في عداد هذه « المظاهر » الطبيعية التي أثرت في تخيل وطرق تفكير الانسان : المناظر الجميلة والجبال والزلازل والثورات البركانية والاعاصير والزوابع . ويقسمها الى زمرتين : ١) الزمرة التي تؤثر في التخيل وتثيره ، والزمرة التي تؤثر في التفكير . وعندما تكون « المظاهر » فائقة ومخيفة فانها تلهب التخيل ويسيطر هذا على التفكير . وعندما تكون أقل هولا ومهابة ، فان اطمئنان الانسان يعود اليه ويعمل تفكيره بصورة أفضل ويسيطر على تخيله . وهنا يقارن بين حضارة الهند ذات المظاهر الطبيعية الهائلة والمرعبة وحضارة اليونان ذات المظاهر التي هي أقل منها هولا ورعبا . ولهذا يضع مقابل استهتار وتهتك ديانة الهند المرعب ، مفهوم اليونانيين الجميل حيث كانت الآلهة في ديانتهم قريبة من الانسان . فالانسان في الهند محقر ومهان ، بينما هو في اليونان سام ومعزز . وأهل الهند خياليون وشعراء ، بينما أهل اليونان ناقدون ، وقد قدموا أرسطو أحد كبار المفكرين في كل الازمان (٤٨)

ولكن باكلي يعتقد ان تأثير المحيط الجغرافي يكون قويا في الشعوب

---

(٤٧) راجع : a) Oscar Peschel: Races of man. N. Y. 1376. pp. 315-318

b) H. E. Barnes and others: Contemporary social theory pp. 147-149

(٤٨) راجع : Henry Thomas Buckle: The history of civilization of England. 2 vol. London. 1875 vol. I. pp. 85-94

ويعتقد ان للطوبوغرافيا أثراً هاما ايضاً . ويرى ان الجبال تؤلف عامل عزلة بالنسبة للشعوب التي تسكنها ، وتكون سببا في تأخرها الحضاري لعزلهم عن باقي العالم . وهذا صحيح بالنسبة لمواطن الغابات والجزر والبحيرات والمستنقعات التي تعزل سكانها عن سواهم وتسبب تأخرهم الحضاري والثقافي . وكل من هذه المواطن ، الذي يكون في البدء عاملا دفاعياً ووقائياً ، يصبح في النهاية عامل تحجر وجمود . والجبال التي تعتبر صالحة للحماية من اغارة الاعداء من جهة ، تعتبر من جهة ثانية غير ملائمة للتقدم البشري [٤٥] ...

ويرى في الانهار خير موطن لنشوء الحضارات التقدمية ، لانها تعلم الانسان فن الملاحة وتقدم له الطرق الكبرى للتجارة . وبينما كانت الانهار تشكل سابقا عامل عزلة بين الشعوب ، اصبحت الآن ، وبفضل التقدم الحضاري ، الوسائل العظمى ، للاتصال ـ المتبادل بين الشعوب . وهذا يصح على البحار والاوقيانوسات التي كانت فيما مضى عامل انفصال بين الشعوب فأصبحت في أيامنا الوسائل العظمى للاحتكاك الاجتماعي وتبادل الافكار . وقد تقدم التاريخ تبعاً لسيطرة الانسان على البحار [٤٦] .

أما بشل (Peschel) **(استاذ الماني للجغرافيا)** فيعتقد ان المحيط الطبيعي أو الجغرافي يعتبر كشرط لنمو ونشوء الاديان . وقد عالج هذا في رسالته : « منطقة مؤسسي الديانة » . ويتبع في تعليله هذا آراء الجغرافيين العرب ، اذ يقرر ان كل الفلاسفة العظماء و « الانبياء » أو « المعلمين الدينيين » (على حد تعبيره) ولدوا بين ٢٩° و٣٣,٤٩° من خط العرض الشمالي . ويقول : هنا ولد زورستر (زرادشت) وموسى وبوذا والمسيح ومحمد . ويؤكد ان الصحراء موافقة وملائمة لنمو الدين ، وخاصة الدين التوحيدي ؛ كما يقرر ان المحيط الحار للصحراء هو ، بصورة عامة ، خير مكان لنمو الاشكال الدينية العليا . ويقول :

---

(٤٥) راجع : Ibid; : pp. 68-80

(٤٦) راجع : Ibid; : pp. 80-104

التاريخ ، كجغرافيا ديناميكية، أرقى وادق العلوم كافة [٤١]. وعندما يتحدث عن مختلف الطرق (أو الدروب) وعن محصلاتها الاجتماعية ، فانه يتكلم دوماً عن النماذج (types) لا عن العروق (races) . فهو يقول : «نموذج »السهب بدلا من العرق المنغولي » . و «نموذج » الصقع الجليدي (tundra) بدلا من العرق الاسكيمي . وتكلم عن غابات امريكا وافريقيا وصحاري البلاد العربية... وفي رأيه قولبت وشكلت هذه الطرق اما النموذج التتاري ـ المنغولي، والاسكيمي ـ اللابوني ، واما الاسود ... وفي أوروبا يعتبر النماذج الآتية : السكندينافي والانجلو ـ سكسوني والفرنسي والالماني واليوناني والايطالي والاسباني كنتيجة للطرق (أو الدروب) التي سلكها أجدادهم قبل ان يستقروا في مواطنهم الحالية . وينتهي الى القول : غيروا هذا أو ذاك من هذه الطرق فتغيروا بهذا النموذج الاجتماعي والعرق » [٤٢] .

ويحاول ان يظهر الطريق (أو الدرب) الذي ولد حضارة البحر المتوسط. كما يظهر الطرق التي نقلت مركز الحضارة من آسيا الى أوروبا اي طرق شرقي ووسط وغربي أوروبا . وبقوله ان نفس الدروب ستنتج دائما نفس النماذج العرقية والاجتماعية ، وان التاريخ اذا عاد فابتدأ تحت نفس الشروط البشرية والجغرافية فانه يعود فيكرر نفسه بخطوطه الاساسية ، يجعل نفسه في زمرة الحتميين [٤٣] .

أما ركلوس Reclus (جغرافي فرنسي) فيرى ان للمناخ تأثيراً كبيراً على كثافة السكان . وفي رأيه كلما زاد الارتفاع أو هبطت درجة الحرارة قلت كثافة السكان . حتى ان الكثافة تبلغ الصفر في الاقاليم القطبية . وليس الامر على هذه الصورة في المناطق الحارة [٤٤] ..

---

(٤١) راجع : Ibid; : pp. VII-X

(٤٢) راجع : Ibid; : voir toute la préface

(٤٣) راجع كتاب هذا المؤلف الذي ذكرناه سابقا وخاصة المقدمة فتجد فيه كثيراً من الطرافة .

(٤٤) راجع : Reclus: l'homme et la terre (6 vol.) Paris. 1905-1908 vol. I. pp. 41-68

ولكنه تحول فيما بعد الى اليونان وبعدها الى روما وفي النهاية الى أوروبا الشمالية وأميركا الشمالية ، هذه التي ستصبح مركز الحضارة الراقية للمستقبل [٣٨] .

ويرى كيرشهوف، الذي بلغت لديه الحتمية الجغرافية ذروتها، ان حضارات أوروبا متشابهة ذلك لأن أراضيها متشابهة ولأن جبالها وخلجانها قابلة لان تجتاز، بينما آسيا ، التي تخضع لشروط جغرافية مخالفة، لا تملك حضارة مشتركة أو واحدة. وبين الامم ، يحصل تجانس الثقافة من تكيف الناس مع محيط جغرافي أو فيزيائي مشترك واحد [٣٩] .

أما دومولن فقد أراد ان يجيب على السؤال : « ما هو سبب تنوع البشر الى جماعات وما هو سبب اختلاف الحضارات »، هذا السؤال الذي علله غوبينو بعوامل عرقية . **عاكس دومولن غوبينو** ورأى ان العامل العرقي لا يعلل شيئاً اطلاقا ، ذلك لاننا سنضطر في النهاية الى تعليل التنوع العرقي نفسه. ولهذا قال ان العرق ليس السبب وانما النتيجة . أما السبب الاولي والحاسم لتنوع الشعوب والعروق والحضارات فيرد الى الطريق الذي اتبعته الشعوب. **فالطريق خلق العرق والنموذج الاجتماعي** . ولا يعني بالطريق (la route) المناطق التي اتبعتها الشعوب في هجراتها بل يعني أيضا المواطن التي سكنتها وأقامت فيها، وهكذا يصبح الطريق لديه مرادفا للمحيط الطبيعي بكامله [٤٠] . يبدل الطريق الشعوب التي تستخدمه ويميل الى تكوين نماذج بشرية محدودة ومعينة . وكل تبدل في الطريق يؤدي الى تغير في النموذج العرقي والاجتماعي وهكذا تصبح الجغرافيا لديه المحدد الاساسي لبنية ونمو المجتمعات البشرية . وفي رأيه يعتبر

---

(٣٨) راجع : Ibid; : pp. 305-312 and p. 321 ss.

(٣٩) راجع : A. Kirchhoff: Man and earth. London. 1914. pp. 8-14

(٤٠) راجع : Edmund Demolins: Comment la route crée le type social. 2 vol. Paris. 1901-1903 tom. I. preface. pp. V-VII

نظرية هذا المؤلف مرتبطة بفرضياته الثلاث التي رأيناها سابقا والقائلة : ١) ان المناخ عامل حاسم في الصحة ، ٢) وانه يحدد الانتاجين الجسدي والفكري ، ٣) **وان المناخ يتغير باستمرار خلال الزمان** . ومن هذه المقدمات الثلاث يستنتج ان المناخ يحدد نمو وازدهار الحضارات وتقهقرها ، وتوزعها على سطح الارض ، والمقادير التاريخية للأمم والشعوب . فاذا سلمنا بأن الحضارة هي محصلة أو نتيجة لطاقة وانتاج (أو المردود) ، وذكاء وعبقرية الشعب (أو السكان) واذا سلمنا بان هذه **الصفات** يحددها المناخ ، عندئذ يمكن ان نقول كنتيجة : ان المناخ هو العامل المحدد لتقدم وازدهار الحضارات وتقهقرها وأفولها[٣٤].

لقد عرض سوروكين جميع هذه النظريات وناقشها بشكل مطول وموفق ومن المستحسن ان يراجع القارىء كتابه القيم الذي ذكرناه مراراً[٣٥]. **اما غويو** Guyot فيرى ان المناخات الحارة موافقة لنمو الحيوانات والنباتات لالنمو البشر . وذهب الى القول بأن المناخات المعتدلة أفضل من سواها لانتاج البشر وتقدمهم الحضاري . ذلك لأنها بتعاقب فصولها التي تحمل الجدب أحيانا والخصب أحيانا اخرى ، تدفع البشر الى الكفاح وتقدم لهم تعويضا غنيا عن اتعابهم[٣٦].

وقد أعطى نظرية سماها : « السير الجغرافي للتاريخ »[٣٧] .

اذ يرى ان مركز الحضارة والثقافة بدأ في مصر القديمة وبابل وبلاد فارس ،

---

(٣٤) راجع كتبه : Civilisation and climate-World - power and evolution-the character of races

(٣٥) راجع : P. Sorokin : Contomporary sociological theories. trad. franc. théories sociologiques contemporaines. chap. II et III

(٣٦) راجع : A. H. Guyot : Earth and man. Boston 1857. p p. 251-271

(٣٧) راجع : Ibid; : p. 329

وتسلمت الاتجاه بعد ذلك بابل وكريت وفينيقيا وآشور ... وظلت الحضارة تنزع وتتجه نحو الشمال ... وقد أشاروا الى ان هنالك أربع حركات توجهت من الجنوب الى الشمال عندما تأخرت الحضارة وأفلت .

وهكذا فعندما تجزأت الامبراطورية الرومانية فان الحضارة تمركزت في قرطاجة والاسكندرية وفي القسطنطينية وبعد ذلك في دمشق وبغداد . ولكنها عادت فاتجهت نحو الشمال اثناء القرون الوسطى ، الى بلدان اكثر برودة . وهكذا توجهت الحضارة من المدن السابقة نحو فينيسيا وميلانو وآنفرز ولندن وباريس وبرلين ونيويورك وشيكاغو .. ونرى في ايامنا هذه التقدم الحضاري الناشىء في البلاد الاسكندينافية وروسيا .. (أيام كتب المؤلف أي في عام ١٩٢٠).

ويذهب جيلفيللان : (Gilfillan) الى القول : في عام ٢٠٠٠ (للميلاد) قد يصبح فن البناء الاكثر شدة ، ليس في برلين ، ولكن في دترويت وكوبنهاغ وفي عام ٢١٠٠ في مونتريال وكريستيانا ومل (Memel) .. (في كندا والنروج وروسيا على البلطيق).

ويعتقد أيضا ان الحضارة عندما تتقدم وتزدهر تتجه في نفس البلد نحو المناطق الباردة . اذ ان الحضارة اليونانية نشأت في كريت وانتهت في القسطنطينية وحضارة ايطاليا مرت من سيسيليا الى روما فالى ميلانو ، وحضارة اسبانيا مرت من قادس الى مدريد فالى برشلونة[٣٣].

ازدهار الحضارات وأفولها :

أما هنتجنتون فيربط ازدهار الحضارات وتقهقرها وأفولها بالمناخ . ان

---

(٣٣) S. C. Gilfillan : The cold ward cors of progress in political science quarterly. Vol. XXXV, (1920) pp. 393-399

وقد انتقلت افكار ماتوزي الى كثير من كتب علم الاجتماع كما رأيتم سابقا . واعتبار النيل كسبب للنظمة السياسية المصرية اصبح بالنسبة لكثيرين دليلا تقليديا . حتى ان حسن سعفان نقله حرفيا تقريبا كما رأيتم في الفصل السابق .

الغلبة :

ويعتقد بعض المؤلفين ان الغلبة الحربية والسياسية بين الشعوب تابعة للعوامل الجغرافية . اذ يقررون ان الشعوب التي تعيش في السهول الحارة برخاء وسهولة قد سحقت من قبل الشعوب الخشنة التي نشأت في المناخات القاسية في أقصى الشمال أو في المرتفعات (أي الجبال والتلال) . وقد دعوا هذا بالاتجاه الاستوائي (direction équatoriale) . وأيدوا نظريتهم باحتلال الهند من قبل الآريين ، والصين من قبل المونغوليين ، واليونان وروما من قبل البرابرة ، او سير وزحف التولتكيين والآزتكيين في المكسيك نحو الجنوب[٣٢] ..

الشروط الجغرافية والحضارة والثقافة :

وحاول مؤلفون آخرون ان يعللوا الحضارة والثقافة بالعوامل الجغرافية .

ميل الحضارة نحو الشمال :

يعتقد بعض المؤلفين ان الحضارة العالمية كانت مرتبطة في نشأتها الاولى بالمناخ . اذ نشأت في مناخات حارة في الجنوب . ومع تقدم الثقافة فانها أخذت تنتقل منها الى **أقاليم اكثر برودة** . وعندما تأخرت الثقافة في البلاد الباردة عادت الى الجنوب . وهكذا فالحضارة عندما كانت تتقدم كانت تتجه نحو الشمال وعندما كانت تتأخر فانها كانت ، بالعكس ، تتجه نحو الجنوب ..

ودليلهم على ذلك هو ان الحضارة بدأت في مصر وسومر ، بلدين حارين ،

---

(٣٢) راجع : R. Ward : Climate. pp. 234-255 et Vallaux le sol et l'Etat. pp. 41ss

وتنقصهم روح الرجولة (الفتوة) . هذه هي نظرية راتزل عن المكان أو المجال (Raum)[٣٠] .

تعليل بعض تنظيمات سياسية :

حاول ماتوزي (Matteuzi) ان يعلل بالشروط الجغرافية النظمة السياسية في مصر القديمة وآشور وفارس واليونان وايطاليا ... فمثلا يعتقد ان النظام السياسي الاستبدادي والمركزي في مصر يعود الى سهول النيل والفيضانات غير المنتظمة لهذا النهر . فكل مقاطعة كانت في حاجة الى الماء وكانت تحاول ان تجره الى أرضها . وبهذا الشكل كانت تحصل خلافات عديدة بين المقاطعات وكان الضعفاء يتحملون الظلامات . « فلتأمين حقوق المقاطعات الضعيفة ولتنسيق شبكة توزيع مياه النيل بين المقاطعات ، لجأت مصر القديمة الى خلق **سلطة** سياسية تمكنت من احلال النظام فيها . وعلى هذه الصورة ، حدد النيل ليس فقط البنية الفيزيائية لمصر ولكن بنيتها السياسية أيضا .

وعلل بنفس العامل ظهور الطوائف (castes) في مصر . وعلل ظهور تمركز السلطة في يد مستبد واحد في آشور وبلاد الكلدان بطوفانات دجلة والفرات غير المنتظمة .

أما في بلاد فارس فليس هناك من أنهار يعلل على أساسها النظام السياسي الامبراطوري المطلق ، ولهذا علله بجبال هذه البلاد .

أما في فينيقيا فيعود النظام الديموقراطي الى تكوين الساحل والجبال التي سهلت عزلة الاجزاء المختلفة فيها .

أما في اليونان فعلل النظام السياسي بالبحر والارض والجبال[٣١] ..

---

(٣٠) راجع : Ibid; : pp. 135-136 et Ratzel: Politische geographie Chap. XII-XIV

(٣١) راجع : Matteuzi: Les facteurs de l'évolution des peuples. p. 45ss

والغزوات ، وبين الوديان العميقة والجمعيات التعاقدية .[٢٨]

الوحدة السياسية:

حاول راتزل وسواه ان يجدوا علاقة بين الشروط الجغرافية والوحدة السياسية . اذ يرون ان هذه الشروط تحدد حجم الوحدة السياسية والاجتماعية والحدود العرقية والقومية والثقافية . فالمواطن المعزولة بجبال أو بحار تملك رهوطاً (أو تجمعات) سياسية وعرقية وقومية وثقافية منعزلة ، بينما يؤلف السكان في موطن واسع السهول وحدة سياسية عظمى .

وقد أكدوا نفس الترابط بين الشروط الجغرافية والعرق واللغة والثقافة[٢٩] .

صفات الوحدة السياسية :

كما حاول راتزل ان يجد ترابطاً بين المحيط الطبيعي أو الجغرافي وكثير من الصفات الاجتماعية للوحدات السياسية ... فهو يعتقد ان سكان الدول ذات المواطن المتسعة يتمتعون بفضل اتساع أرض سكنهم ، بروح توسعية وعسكرية (أو حربية) وبالتفاؤل والشباب والحيوية وسيكولوجيا تزايد . ويحصل في هذه الوحدات السياسية الواسعة تصادمات اثنية واجتماعية أقل منها في الوحدات السياسية ذات الارض الضيقة . وفي هذه الوحدات الاخيرة يكون السكان اكثر تشاؤما ، ويتوصلون الى نضج الروح القومية قبل تلك ، ويتحلون بسكيولوجية موسومة بروح التفرد ، ويتصفون بالمحافظة والاستقرار

---

(٢٨) راجع : Sorokin: Théories sociologiques contemporaines. p. 81

(٢٩) راجع : Ibid; : p. 134

تغير في درجة الحرارة . وينشط قليلا بتدفيء خفيف او بسيط للهواء ، ويبدو أنه يهبط عندما ترتفع حرارة الهواء بسرعة .[٢٧] .

الشروط الجغرافية والنظم الاجتماعية والسياسي في المجتمع :

لقد حاولت بعض النظريات الجغرافية تعليل المؤسسات الاجتماعية والسياسية على ضوء العوامل الجغرافية . فلندرس كل من هذه النظريات على حدة .

الاسرة :

منذ زمن مونتسكيو حاول كثير من المؤلفين ان يعللوا بعض صفات الاسرة كوحدانية الزوجية ، وتعدد الزوجات او الازواج بالمحيط الجغرافي وقد حاولت مدرسة لوبلي (Le play) ان تعلل النماذج الاساسية للاسرة باختلاف امكنة سكن السكان .

فربط مؤلفوها بين السهوب والاسرة الابريسية ، وبين التوندرا (البراري الصقيعية) والاسرة الابريسية المخففة ، وبين الغابة والاسرة غير المستقرة ، وبين الوديان (fjords) والاسرة المتخصصة (او المتفردة) .

الملكية :

كما حاولت هذه المدرسة ان تجد ترابطاً بين المكان وأشكال الملكية : ربطت بين السهوب والملكية الأسروية الجماعية ، وبين البراري الجليدية والملكية الاسروية الجماعية ، وبين الوديان العميقة والملكية الفردية .

بعض المؤسسات والظواهر الاجتماعية : كما وجدت ترابطاً بين المكان وبعض المؤسسات والرابطات فوق الاسروية : ربطت بين السهوب والقوافل

---

(٢٧) Climate and civilisation. p. 142 et pp. 14-15

الحرارة يرافقها نسبة وفيات تبلغ ١٥٫٥٪ اكثر في الشهور الحارة منها في الشهور «الباردة» ، بينما في تموز بلغت الوفيات في الاشهر الثمانية الحارة ١٤٫٢٪ اكثر منها في الاشهر الثمانية (الباردة) مع ان الفرق في درجة الحرارة بين الاشهر الاولى والثانية كان ٢٫٨° فقط.» (٢٥) .

المناخ والطاقة والمردود (او الانتاج) البشريان :

وحاول أيضاً ان يظهر بأن لدرجة الحرارة والطقس العاطفي والرطوبة والنور تأثيراً قوياً في الطاقة والمردود (أو الانتاج) البشريين. ويقرر ان أفضل درجة حرارة خارجية بالنسبة للعمل اليدوي الناجع أو المجدي هي في حدود ٦٤° ف (٧٠°ف تقريباً عند الظهر و ٥٥° في الليل)، وهي ، بالنسبة للعمل الفكري ، في حدود ٣٨° و ٤٠° ف. كما قرر ان الرطوبة تؤثر في نجوع أو (جدوى) العمل ، فالجفاف والرطوبة الشديدان معيقان له، بينما تعتبر الرطوبة في حدود ٨٠٪ شرطاً ملائماً . وتعتبر تغيرات الطقس (كالعواصف ، والرياح ودرجة الحرارة ..)، عندما لاتكون شديدة ، ملائمة للعمل . وقد رأى ان النور لا يؤثر كثيراً على المردود (٢٦).

المناخ والمردود الفكري :

ويرى ان المناخ يؤثر في المردود الفكري .وقرر ان درجة الحرارة الملائمة لهذا العمل هي ٣٠° ف . بينما كانت ٦٤° للعمل اليدوي . وعلاوة على ذلك فان درجة الحرارة عندما تهبط كثيراً فيبدو ان العمل الفكري يتأثر بذلك اكثر من العمل اليدوي ، كما ان مردوده يتناقص كثيراً عندما لايحصل اي

---

(٢٥) Hutington: Civilisation and climate. p. 205

(٢٦) Ibid; : pp. 14-15 et chap. VI; et World power. p. 17, 85ss et 98-99 chap. V et VI

الهامة التي تؤثر في الحضارة . ويحاول ان يبرهن على قوله هذا بايجاد سلسلة من الترابطات بين **المناخ والصحة** وبين المناخ والطاقة الجسدية وجدوى ونجوع العمل اليدوي ، وبين المناخ والمردود الفكري ، وأخيراً بين المناخ وصفة (أو نوع) وتقدم وأفول الحضارات .

المناخ والصحة :

يرى هنتجنتون ان المناخ يؤثر تأثيراً قوياً في الصحة . وقد اخذ نسبة الوفيات كدلالة على الصحة . وقد ربط بين هذه النسبة والمناخ . وقرر ان المناخ (المثالي) هو مناخ تبلغ درجة حرارته ٦٤°ف ، وتبلغ رطوبته ٨٠٪ [٢٤] وقد ربط بين المناخ وارتفاع نسبة الوفيات في كانون الثاني مثلاً .

وقد درس هنتجنتون الوفيات الشهرية بين عامي ١٩٠٠–١٩١٥ في ٣٢ مدينة من مدن الولايات وبلغ عدد سكانها اكثر من ١٠٠٠٠٠ نسمة . واخذ ١٦ شهراً من كل سنة من هذه السنوات ، قسمها الى ٨ أشهر اكثر دفئاً أو حرارة و ٨ أشهر اكثر برودة ، وقد حسب الفرق بين الوفيات في كل من هاتين الزمرتين من الاشهر . وكانت النتائج كما يلي : «الاشهر الثمانية الاكثر دفئا لشهر كانون الثاني تفوق في نيويورك درجة حرارتها الوسطية ٦°ف ، على درجة حرارة ثمانية الاشهر الاكثر برودة ، ولهذا كانت نسبة الوفيات أقل بـ ٠,٦٪.

وفي شباط كانت زيادة درجة الحرارة في ثمانية الاشهر الاكثر دفئاً ٦,٥°، وهكذا بلغت نسبة الوفيات فيها ٤٪ أقل منها في الاشهر الثمانية الاكثر برودة.

وفي آذار كانت النتائج : ٦,٤°ف و ٩,٧٪ نسبة الوفيات.

وفي نيسان كانت النتائج : ٣,٨°ف و ٤,٥٪ نسبة الوفيات .

بينما كانت النتائج في ايار بعكس السابقة . اذ ان زيادة ٣,٥° ف في درجة

---

(٢٤) راجع : Huntington: World power, p. 71ss, 85 et 98-99 et civilisation and climate. pp. 14-15

وعندما يزداد الانتاج ، يزداد (تبعاً لذلك) حجم التجارة ونشاط الصناعة وعدد الاعمال (أو الوظائف). ويرتفع طلب السلع المنتجة ، وترتفع أيضا منتجات طلب المحاصيل الزراعية . وتكون النتيجة النهائية لهذا ارتفاع الاسعار العامة . وتتبع التبدلات المعاكسة في حال هبوط انتاج المحاصيل في الآكر .. وقد وجد ان معامل الارتباط أو الترابط بين تغيرات المحاصيل وحركة الاسعار العامة يبلغ : ر = ٠٫٨٠٠[٢٢].

وهكذا تجدون ان التغيرات التي تطرأ على الاسعار من ارتفاع وهبوط تعود الى التغيرات المناخية وخاصة المطر .

أما بفريدج (Beveridge) فيرى أن السبب الاساسي لهذه التغيرات هو الطقس أو تغيرات الطقس .

اما هنتجنتون فينظر الى المشكلة من وجهة نظر اخرى . لانه يعتقد ان المناخ وتغيراته تحدث تغيرات في الصحة وفي نجوع أو جدوى العمل اليدوى والعمل الفكري . وتؤدي هذه التغيرات الاخيرة الى تغيرات مطابقة في الشؤون والشروط الاقتصادية في المجتمع . ولهذا يقرر «ان النسبة المرتفعة للوفيات (معتبرة هنا كدلالة على الحالة الصحية) تسبق ، بصورة منتظمة، اوقات الضيق (الضائقات) بينما تتقدم النسبة الضعيفة للوفيات على الرخاء . فالصحة عبارة عن سبب اكثر منها نتيجة (لازدهار او رخاء الشؤون الاقتصادية) ونحدد الصحة بدورها ، من قبل الطقس »[٢٣].

الشروط الجغرافية والصحة :

حاول هنتجتون في بعض مؤلفاته ان يظهر بأن المناخ هو أحد العوامل

---

(٢٢) Ibid; : p. 147 ss.

(٢٣) راجع : Huntington: World power and evolution. pp. 29-31 et chap. III, IV

الاعمال والشؤون الاقتصادية . وتزعم هذه النظريات ان الحياة الاقتصادية في مجتمع ما تحدد في النهاية بالعوامل الجغرافية . وقد قال افلاطون بان العمليات الجغرافية الكبرى ، كالزلازل والطوفانات ، تسبب أفول الرخاء أو الازدهار والحضارات في مجتمعات عديدة . وقد ألح عديدون على العلاقة بين ديناميك المناخ والادوار الاقتصادية لمختلف المجتمعات.

أما في العصر الحاضر فقد ظهرت نظريات مختلفة . منها نظرية ستنالي جفونز W. S. Jevons عن العلاقة بين البقع الشمسية وأدوار الشؤون الاقتصادية[٢٠]. ونظرية W. H.Shaw وبروكنر (Brukner) عن الترابط بين التغيرات المناخية وذبذبة الحياة الاقتصادية في مجتمع معين .

ونظرية الدكتور مور (H. L. Moore) القائلة : « تمر الشروط الجوية الممثلة بالمطر في القسم الاوسط من الولايات المتحدة (الاميركية) ، ومن المحتمل في اجزاء قارية اخرى ، بأدوار تدوم تقريبا ٣٣ سنة و٨ سنوات ، فتحدد أدواراً مماثلة في انتاج محاصيل «الفدان» (acre) = (٤٠ آراً ونصف) ، تؤلف ادوار المحاصيل هذه التيار المادي الطبيعي الذي يظهر القيم والاسعار المتغيرة والمتبدلة بصورة دورية ، والتي تهم مباشرة الاقتصادي. [٢١]

وقد وجد مور ان العلاقة بين ذبذبة (او تغيير) المحاصيل واسس هبوط الامطار الوسطي في وادي أوهيو اثناء الايام الحاسمة بالنسبة للمحاصيل (تموز — آب) تبلغ : ر = ٠,٥٨٤ . وبعد ان وجد هذه العلاقة بحث عن علاقة مكملة بين تغير المحاصيل ودور الشؤون الاقتصادية . واليكم نظريته : « يعتبر انتاج كل فدان من المحاصيل ، وهو متغير بصورة دورية ، سبب الادوار الاقتصادية

---

(٢٠) راجع : W. S. Jevons. Investigations in currency and finance. 188 pp. 194-243

(٢١) راجع : H. L. Moore: Economic cycles; their lauw and cause. N. Y. p. 53

ف . لوبلي (F.Leplay) الى القول بأن هناك ترابطاً بين « المكان » او « المحيط الطبيعي » ونوع الحياة الاقتصادية وانماط العمل ، اذ ربط اتباعها بين السهوب في روسيا وسواها (steppe) وتربية الماشية ، وبين البراري الصقيعية (كما في سيبيريا) (Toundras) والصيد وصيد السمك، وبين الساحل وصيد الطرائد ، وبين السهل والزراعة . (١٦)

ويذهب دو مولن وآخرون الى القول بأن مجرد معرفة الشروط الطبيعية في موطن من المواطن يعتبر كافياً للتنبؤ بصفة (اوشكل) الصناعات اوالنشاطات الصناعية الرئيسية لشعب هذا الموطن (١٧) .

ويذهب آخرون الى ان الموقع الجغرافي البحري لليونانيين والفينيقيين كان السبب في جعلهم بحارة وتجارا بحريين (١٨).

وذهب كيرشهوف الى ان للبحار أثرا هاماً في حياة الامم والشعوب. اذ كان البحر في القرون الاولى البدائية كحاجز ، فأصبح بعدنشوء السفن، وسيلة هامة في تقدم الثقافة. فأثار الاكتشاف والتجارة وساعد بهذا على نشوءالعوامل المادية للحضارة (١٩) .

الشروط الجغرافية وادوار الشؤون الاقتصادية وايقاع الحياة الاقتصادية

وهناك نمط آخر من النظريات الجغرافية حاول ان يوجد تعالقاً او ترابطا بين الشروط الجغرافية وموجات الازدهار الاقتصادي والفقر وانتشار وتردي

---

(١٦) راجع : P. Sorokin: Théories sociologiques contemporaines Payot. Paris (1938) pp. 81 et 79

(١٧) نقلا عن: Ibid; : p. 101

(١٨) راجع : Vallaud : La mer, chap. 7

(١٩) راجع : A. Kirchoff: Man and Earth. (London. 1914) pp. 29-48

التقدم البشري يتصف بأهمية متناقصة للعوامل الجغرافية وبأهمية متزايدة للعقل والثقافة (١٤).

ونقدم الآن بعضاً من نظريات هؤلاء الانتروبوجغرافيين عن تأثير الطبيعة والجغرافيا في حياة الناس الفردية والاجتماعية والاقتصادية .

الشروط الجغرافية والحياة الاقتصادية :

يذهب بعض هؤلاء المؤلفين الى ان الشروط الجغرافية حددت تقريبا كامل **كمية الثروات المنتجة** والمملوكة من قبل المجتمع (وخاصة في المراحل الاولى من الحياة الاجتماعية . اذ يذهب باكلي الى القول : « بين النتائج التي انتجت في شعب من الشعوب بفضل المناخ والتغذية والارض ، فان تجمع الثروة يعتبر الاول ، ويعتبر ، من نواح عديدة ، الاهم ... وتاريخ الثروة في مراحله الاولى يظهر انه مرتبط تماماً (بصورة مطلقة) بالارض والمناخ . » (١٥) .

ويؤكدون ايضاً ان جميع الحضارات **الزاهرة والثرية** التي ظهرت في القرون الاولى ظهرت في بيئة طبيعية « ملائمة ».

الشروط الجغرافية وصفة الصناعات في المجتمع :

وهناك نظريات جغرافية ثانية حاولت ان تظهر وجود تعالق او ترابط (Corrélation) وثيق بين الشروط الجغرافية والنشاط (او الفاعلية) الاقتصادي او الصناعي في مجتمع معين . والحت على **الدور المحدد** للعوامل الجغرافية في هذا الشأن . اذ يعتبر البعض ان البيئة الطبيعية تحدد طريقة الحصول على وسائل العيش في المجتمع وصفة نشاطه الاقتصادي . فقد ذهبت مدرسة

---

(١٤) راجع : Ibid; : pp. 25-258

(١٥) راجع : H. T. Bukle : Introduction to the history of civilization of England. Londres. pp. 24-28

وحركة الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وباختصار كل الظواهر الاجتماعية ، علت على أساس العوامل الجغرافية .

الانتروبوجغرافيا : (Anthropogeography)

ويهمنا هنا أن نعرض أفكار **الانتروبوجغرافيين** الذين ظهرت **لديهم الحتمية** في التعليل على أساس جغرافي . وزعيم هذه المدرسة ومؤسس الانتروبوجغرافيا (العلم الذي يدرس العلاقات بين الانسان والمجتمع والبيئة الطبيعية) هو الجغرافي الالماني الكبير كارل ريتر (K.Ritter) وشايعه في افكاره راتزل وبشل وغوبو وكوهل وركلس وهنتجنتون وكيرشهوف .

كارل ريتر ١٧٧٩ — ١٨٥٩

عرض ريتر آراءه في كتابه (... Erdkunde) (١٨١٨) . يعتقد ريتر ان **هناك علاقة متبادلة** بين الجغرافيا والتاريخ وان مجرى التاريخ في اي بلد من البلدان يقرأ في شروطه الطبيعية . »[١٢] .

وقد علق أهمية كبرى على تأثير شكل وتكوين البلدان والمواطن في تواريخها . ولكن ريتر لم يذهب الى حد القول بالحتمية في التعليل . بل ذهب الى القول ان **للامم والافراد صفات فطرية** . ولكن نمو وكمال هذه الصفات مرتبطان بالعوامل الجغرافية . فالطبيعة تقولب ، الخلق الوطني ، ويطبع المحيط الطبيعي الافراد بطابعه ...[١٣]

ويعتقد ريتر ان المؤثرات الجغرافية اقوى فعلا في الشعوب البدائية ، وان

---

(١٢) راجع : W. L. Gage : Ritter's Geographical studies. N. Y. 1861. p. 307

(١٣) راجع : Ibid; : pp. 56-60 et p. 287

ويعرف اكثر مما في سواها » . أما خاصة الدول الوسطى فهي في كونها تخضع للملك ، وخاصة الامبراطوريات الكبرى هي في كونها تخضع لمستبد [١١] » . كما أشار تورغو وهرد وكوفيي (Cuvier) وفيكو الى تأثير العوامل الجغرافية في الحياة البشرية والاجتماعية .

أما في القرنين التاسع عشر والعشرين ، فقد درس كثير من المؤرخين والجغرافيين والفلاسفة الاجتماعيين والاقتصاديين السياسيين والسوسيولوجيين والانتربولوجيين والاتنوغرافيين والبيولوجيين ، أهمية الشروط والعوامل الجغرافية في نشأة الظواهر الانسانية الفردية والاجتماعية .

نذكر من هؤلاء لامارك ، وكارل ريتر (Ritter) ، وغويو (A.H.Guyot) وكوهل (A.kohl) ، وفون باير (K.E. Von Baer) ، واوسكار بشل (O.Peschel) ، وباكلي (H·T·Bucle) ، ولوبلي (Leplay) ، ودومولن (E.Demolins) ، ومتشنيكوف (L.Metchinkoff) ، وماكندر ، وراتزل ، وش . كونت (CH. Comte) وموجول (P.Mougeolle) ، وماتوزي (A.Matteuzi) ، وفيدال دو لابلاش (V.de la Blache) ، وجان برنس (J. Brunhes) ، وهنتجنتون (Huntington) وفاللو (G.Vallaux) . ومن يقرأ آراء هؤلاء المؤلفين وامثالهم يلاحظ ان كل صفة جسدية ونفسية وكل خاصة من خواص النظمة الاجتماعية للرهط وكل عملية اجتماعية او تاريخية قد علمت على اساس عامل من العوامل الجغرافية تبعاً لرأي هذا المؤلف او ذاك منهم .

فتوزيع السكان على سطح الارض ، وكثافتهم والفروق العرقية وخاصة النظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وتقدم الامم وازدهارها ونكوصها ، وخصائص العقائد الدينية واشكال الاسرة والزواج ، والصحة والخصب والذكاء والجرائم والانتحار وخصائص الانتاج الثقافي والادبي والفني والحضارة

---

(١١) راجع : Ibid; : Liv. XVIII

١) المناخ :

يعتقد مونتسكيو ان كثيراً من الصفات الاخلاقية كالثقة بالنفس والشجاعة والاعتدال والصراحة . . . تعود الى المزاج، والمزاج يعود الى المناخ . وتتأثر القوانين والشرائع بالمناخ والاخلاق التي يسببها . لذلك يقول : « يجب ألا يدهش من أن جبن شعوب المناخات الحارة جعل منهم جميعاً عبيداً تقريباً . وان شجاعة المناخات الباردة جعلتهم دائماً أحراراً تقريباً »(٩) .

ويعتقد أن المناخ شديد الحرارة ينتج أيضاً نظام **الرق** ، وتعدد الزوجات وتظهير النساء . وبسبب تحجر الشرائع والقوانين والدين والاخلاق (**كما في الشرق**) .

٢) طبيعة الأرض :

يعتقد مونتسكيو ان جدب الارض « يجعل الناس جدين وقنوعين ومتحملين للعمل وشجعاناً ومهيئين للحرب » . بينما يجعل خصب الارض الناس رخوي الاجسام ومسالمين ويهيئهم للاستقلال . ويؤكد « ان جدب أراضي **الاتيك** l'Attiques » أقام فيها الحكم الشعبي . وخصب أراضي اللاسدمون (la cédémone) أقام فيها الحكم الاستقراطي (١٠) » .

ويقوم الحكم **الاستبدادي** أيضاً في السهول المتسعة بصورة أسهل منها في البلاد التي تصبح فيها الجبال والجزر كحصون وقلاع للحرية .

ولاتساع الموطن أهمية كبرى أيضا ، لان « الخاصة الطبيعية للدول الصغرى هي في أنها تحكم حكما جمهوريا » . لان في هذه الدول يشعر بالصالح العام

---

(٩) Monte squieu: Esprit des lois. Liv. XVII, Chap. II

(١٠) Ibid; : Liv. XVIII et surtout chap. I et II

الفرنسي (١٥٣٠ - ١٥٩٦) . تكلم هذا المؤلف عن أثر المناخ في الجنس البشري وتأثر بأفكار **ابيوقراط وعلم التنجيم** . وقال كما قال ابيوقراط وسواه بأن أهل الجنوب حكماء ولكنهم ضعفاء ، وسكان الشمال شرسون ولكنهم حمقى ، وأهل المناخات المعتدلة أقوياء وحكماء . ولكنه اتخذ من أفكاره هذه ذريعة ليجعل من فرنسا الزعيمة السياسية والثقافية بدلاً من اليونان وايطاليا [٧] .

العصور الحديثة :

أما في العصور الحديثة فنجد بعض المؤلفين يلحون على تأثير المنـــاخ في الاكتشافات العلمية . ومن هؤلاء العالمان الفيزيائيان البريطانيان رتشارد ميد (R. Mead) وجون أربثنات (J. Arbuthnot) اللـذان ظهرا في النصف الاول من القرن الثامن عشر [٨] .

مونتسكيو : (١٦٨٩ - ١٧٥٥)

ومن أشهر الذين حاولوا ان يعللوا كثيراً من الظواهر الاجتماعية والاخلاقية والخلقية وخاصه القوانين على أساس المناخ وبعض العوامل الطبيعية الاخرى هو مونتسكيو . وقد خصص لهذا البحث خمسة كتب من مؤلفه المشهور « روح الشرائع » (liv. XIV - XVIII) وينبه المشرع الى العوامل الطبيعية التي يمكن أن تؤثر في الحياة السياسية فيراها في :

---

(٧) راجع : Harry Elmer Barnes: An introduction to the history of sociology. pp. 24-25

(٨) H. E. Barnes and Oth: Contemporary social theory. p. 188

في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ... »[٦] .

لا يأتي ابن خلدون في أقواله هذه بجديد ، اذ قال بها من قبله ابيوقراط وأرسطو وكثيرون سواهما . وهي أقوال بعيدة عن روح العلم لأن الاخلاق والحضارة والثقافة تابعة في جوهرها الى عوامل ابداعية فكرية وعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية اكثر منها بكثير الى عوامل جغرافية طبيعية .

أما تأثير المناخ على الفرح والحزن فلا ينكره أحد . أما أن نرجع الفرح والحزن الى المناخ وحده فهذا أمر يناقض نتائج علم النفس الحديث ، الذي يبرهن على أنهما تابعان لعوامل **فيزيولوجية وعضوية ونفسية واجتماعيه** اكثر بكثير منها للعوامل المناخية أو الجغرافية ...

أما أن نرجع قلة التبصر **بالعواقب والحمق** الى المناخ فهذا أيضاً أمر عجيب ولا يتفق وموضوعية العلوم الاجتماعية الحديثة .

وهل يمكن ان يفسر لنا ابن خلدون على ضوء نظريته المناخية و« **الاقليمية** » لماذا تأخرت وعادت تقريباً الى الحالة البدائية بلاد يعتبرها هو مهبط النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار ... والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة ... مثل العرب **والفرس وأهل السند والهند** والصين ، ما دام مناخ هذه البلاد لم يتبدل ولا تزال واقعة في الاقليم الذي رسمه لها ؟ ولماذا فقدت بلاد كاليونان حضارتها العظيمة مع أن مناخها لا يزال هو هو ؟ ؟ لا نريد أن نسهب في نقد ابن خلدون ذلك لأننا فندنا مثل هذه النظريات في الفصل السابق فليرجع القارىء اليه .

ومن أشهر الذين أتوا بعد ابن خلدون في نهاية القرون الوسطى ومستهل العصور الحديثة وأحوا على تأثير البيئة الطبيعية على السكان هو **جان بودن** (Jean Bodin)

---

(٦) راجع نفس المصدر السابق ص ٩ ؛

الحجاز واليمامة وما اليهامن جزيرة العرب في الاقليم الاول والثاني . فان جزيرة العرب كلها احاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر »[٥] .

وهكذا تلاحظون ضعف النظرية

اذ عندما يخرج عنها بعض المناطق يعلل ابن خلدون ذلك أيضاً بوجود عوامل جغرافية كالرطوبة مثلا !!

ويرى ابن خلدون أن للهواء أثرا هاماً جدا على البشر . اذ هو الذي يحدد أخلاقهم وخلقهم ومزاجهم . يقول : « قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قطر . والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس هو انقباضه وتكاثفه . وتقرر ان الحرارة مفشية للهواء والبخار ، مخلخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد في المنتشين من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه . وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها ثورة الخمر في الروح من مزاجه فينتشي الروح وتجيء طبيعة الفرح . . ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على امزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس الى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حراً فتكون اكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً واكثر انبساطاً ويجيء الطيش على أثر هذه . . . واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف **غلب الفرج عليهم والخفة** والغفلة عن العواقب . . . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها

---

(٥) راجع نفس المصدر السابق : ص ٤٨ .

والاقوات والفواكه والحيوانات وجميع مايتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال . وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً **وأخلاقا وادياناً حتى النبوات** . حتى النبوات فانما توجد في الاكثر فيها . ولم نقف على خبر بعثة في الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الانبياء والرسل انما يختص بهم اكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ... وأهل هذه الاقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم واقواتهم وصنائعهم ... وهؤلاء أهل المغرب والشأم والحجاز واليمن والعراقيين والهند والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين... اما الاقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الاول والثاني والثاني والسادس والسابع فأهلها ابعد من الاعتدال في جميع احوالهم فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر ... واكثرهم عرايا من اللباس ... والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم . ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك . وكذلك احوالهم في الديانة ايضاً . فلايعرفون نبوة ولايدينون بشريعة الا من قرب منهم جوانب الاعتدال وهو في الاقل النادر ... وأما أهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتدال لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة ... مثل العرب والروم وفارس وبني اسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين.»[٤]

وقد حاول ان يرد على اعتراض اولئك الذين سيقولون له كيف ظهرت الديانة الاسلامية والنبوة المحمدية في الجزيرة العربية وهي ذات مناخ غير معتدل، فقال : « ولايعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والاحقاف وبلاد

---

(٤) راجع نفس المصدر السابق : ص ٤٧ - ٤٩ .

ورأينا في مقدمتنا التاريخية **أفكار ايبوقراط** حول هذا الموضوع وقد تابعه في آرائه افلاطون وأرسطو وآخرون لدى اليونان ، وشيشرون وسواه لدى الرومان .

في القرون الوسطى :

ومن أشهر الذين بحثوا في هذا التأثير ، في القرون الوسطى ، القديس **توما الاكويني** والجغرافيون والرحالة العرب **وابن خلدون** . ونعرض بعض الشيء لآراء ابن خلدون في هذه الناحية لأهميتها لبحثنا هذا[١].

ابن خلدون :

تأثر ابن خلدون بأفكاره هذه بالمسعودي ويعقوب بن اسحق الكندي وجالينوس الذين يذكر بعض آرائهم .[٢] كما تأثر بآراء ايبوقراط وأرسطو .

يقسم ابن خلدون الأرض الى سبعة أقاليم يتميز كل منها بمناخ خاص وأرض وعوامل طبيعية خاصة[٣].

يقول ابن خلدون : « قد بينا ان المعمور من هذا المنكشف من الارض انما هو واسطة لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب ان تتدرج الكيفية من الوسط فيكون معتدلا . فالاقليم الرابع أعدل العمران ، والذي حفا فيه من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال ، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير . **فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني**

---

(١) راجع مقدمتنا التاريخية ...

(٢) راجع : ابن خلدون : المقدمة . (طبعة المطبعة الخيرة . القاهرة . الطبعة الاولى) ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) راجع المصدر السابق: ص ٢٥ - ٤٧ .

الفصل التاسع

النظريات الجغرافية أو الانتروبوجغرافية

عرضنا في الفصل السابق تأثير العوامل الجغرافية في البشر وثقافتهم وحضارتهم وشؤون معاشهم ، وندرس في هذا الفصل النظرية الجغرافية وآراء أتباعها ومؤلفيها الذين غالوا في قيمة العوامل الجغرافية في تعليل الظواهر الاجتماعية . . .

من الصعب أن نتكلم هنا عن جميع المؤلفين الذين بحثوا ، منذ الازمنة القديمة الى أيامنا هذه ، في تأثير العوامل الجغرافية ؛ ذلك لأن عددهم كبير جداً ، ويحتاج الى رسالة ضخمة لتستنفد كل ماقالوه حول هذا الموضوع . لهذا فسنتقي بعض المؤلفين المعاصرين ونلح على أفكارهم لانها أكثر شمولا وعلمية من أفكار من سبقوهم .

فى الازمنة القديمة :

حاول بعض المفكرين ، منذ الازمنة القديمة ، اظهار تأثير العوامل الجغرافية في أحوال السكان . **فالاعتقادات التنجيمية** ليست في جوهرها سوى تشخيص للفكرة القائلة بأن **حظوظ الناس** ومقاديرهم تديرها وتتحكم بها النجوم والكواكب وسائر العوامل الجغرافية . والامثلة السائرة أو الشعبية والعلوم السحرية القديمة كانت ملأى بنفس الاعتبارات والافكار .

وقد أشار الى تأثير العوامل الجغرافية بعض مفكري الهند وايران القديمتين ، وكهان وأطباء مصر القديمة ، وعلماء الفلك في بلاد متعددة كأشور وبابل . . . وأنبياء اليهود .

ـ مصادر عامة ـ

١ ـ الدكتور مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدارسه. الجزء الثاني والثالث

٢ ـ الدكتور حسن شحاته سعفان : مبادىء علم الاجتماع . الطبعة الرابعة القاهرة مكتبة النهضة المصرية . ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ .

٣ ـ مكايفر وبيج : المجتمع (الترجمة المسرية) الجزء الاول. القاهرة ١٩٥٧

٤ ـ مكايفر : المجتمع الجزء الاول .ترجمة الدكتور عبد المجيد عباس بغداد مطبعة الصباح ١٩٤٤ .

5) - Jaan Haesaert . Sociologie générale . (Paris-Bruxelles.1956)

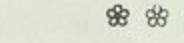
6) - P.Sorokin : Théories sociologiques contemporaines .Payot Paris . 1938

» Contemporary sociological theories. N.Y 1928

7) - Richard T. Lapiere : Sociology .N. Y .Mcgraw - Hill .1946

8) - R.E.Dickinson and O.J.R Howorth : The making of — goography . N.Y. 1933

الا نادراً . وبدلا من ان يكون سبباً ، فهو لايقدم سوى فرصة مؤاتية ، وبدلا من ان يكون القالب فهو لايعطي سوى **اللون** او الطلاء . ويقدم حظاً وفرصة للفرد والجماعة وما عليهما سوى ان يستفيدا منهما أو أن يهملاهما . ويملي عليهما مقاومة وما عليهما الا ان يبطلا مفعولها أو أن يتخلصا منها . فهو **امكانية واحتمالية** ، وليس بحتمية ولا أتوماتية (آلية) كما يعتقد أصحاب النظرية الجغرافية الذين سنعرض آراءهم ونظرياتهم في الفصل القادم .



الحياة الاجتماعية . وكل مانريد أن نقول هو ان تجانس أبناء الشعب الواحد فيما بينهم ، واختضفهم عن سواهم يعودان الى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية اكثر منها الى عوامل طبيعية ... ويجب ان ننبه القاديء الى عدم الوقوع في شباك مثل هذه النظرية الاستعمارية التي يقصد منها الاستعماريون التوسع على حساب البلدان المتخلفة اقتصادياً وثقافياً وحضارياً وحربياً . والجدير بالذكر أن تبنى النظرية الجغرافية في تعليل حوادث التاريخ والحضارة والثقافة من قبل مسؤولين في دولة ما يرتبط بالحكم الديكتاتوري والنظام الفاشيستي (كما حدث في المانيا النازية مثلا ...)

والخلاصة :

لايمكن نكران تأثير البيئة الطبيعية على حياة الافراد لأن هذا أمر مسلم به . فالانسان كحيوان لايستطيع ان يعيش بدون البيئة الطبيعية التي يستمد منها هواءه وماءه وغذاءه ومواده الخام لكسائه وصناعته ، ولكننا ننكر تمام **النكران القول بالحتمية** (déterminismo) الطبيعية في تفسير الظواهر الاجتماعية والتاريخ البشري ، مع اعتقادنا بأن العوامل الطبيعية والجغرافية تلعب دوراً لابأس به في تعليل كثير من الظواهر الاجتماعية . ولكنها تدخل مع عوامل اخرى ، هي أهم منها بكثير ، (سنعرض لها في ابحاثنا القادمة) في نشوء وتطور هذه الظواهر . ذلك لان الانسان **يعيش في بيئة** اجتماعية دخلت كطرف ثالث بينه وبين البيئة الطبيعية . ولهذا كان من الواجب ان يحسب حساب هذه البيئة الاجتماعية ومافيها من عوامل ثقافية وبيولوجية ونفسية وتفاعلية متبادلة واقتصادية ... في تعليل الحوادث والظواهر الاجتماعية والحضارية والثقافية .

وأخيراً يمكن القول ان العامل الجغرافي لايسيطر على السلوك البشري

يسيطر على الدنيا[٥٤] .

ويضم قلب العالم سيبريا وحوض الفولغا ويمتد حتى حدود منغوليا وايران وتركستان وبالوتشيستان ، وجزيرة العالم تشمل كتلة قارية محددة باوروبا وآسيا الشرقية والهند والصين ، وارتكز على آرائه هذه فدعا لتحقيق هذا الامر الى معاهدة بين بريطانيا وروسيا ولكنه ادخل على آرائه بعض التعديل في عام ١٩٤٤ على اثر الحرب العالمية الثانية .

أما هوشوفر (ضابط سابق في الجيش وجغرافي ، أسس في مونيخ معهداً وجريدة للجيوسياسة) فقد قال بمثل هذه الآراء . ولكنه وضع مركز الثقل السياسي لكتلته بين الرين والينج - تسي (Yang - tsé) (نهر في الصين) . ودعا لتحقيق هذه السيطرة على العالم الى معاهدة المانية - روسية . وعندما عقدت المعاهدة بين الروس والالمان في عام ١٩٣٩ اعتبر الامر نصراً لنظريته ولتحقيقها ولكنه عدل عن آرائه عندما الغيت هذه المعاهدة عام ١٩٤١[٥٥] .

وقد تأثر بآراء راتزل سوسيولوجيون وجغرافيون وسياسيون كثيرون في فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة وسائر بلدان العالم المتمدن . وسنرى هذا في الفصل القادم) .

ولانحب ان نناقش آراء راتزل واتباعه في تأثير البيئة الطبيعية على شخصية البشر وحضاراتهم ونظمهم السياسية وتفرقهم شعوباً وأمماً ... ذلك لاننا اسهبنا سابقاً في تفنيد مثل هذه الاراء خلال بحثنا الطويل عن مؤثرات البيئة الطبيعية في

---

(٥٤) راجع : H. S. Mackinder: Democratic ideals and reality. 1919. p. 65 ss

(٥٥) من اجل التوسع في آراء هذه المدرسة راجع :

a) N. Spykman: The geography of peace. N. Y. 1944

b) R. Strauez-Hupé : Geopolitics. Putnam N.Y. 1942

واعتبر ان المناخات والحدود المتشابهة تنتج تطورات او نموات تاريخيـة متشابهة . وقرر ان الشعوب التي تسكن المناطق المعتدلة المناخ تتفوق سياسيا وحربيا على الشعوب التي تسكن المناطق الباردة والحارة . وألح على قيمة « الصراع من اجل المجال الحيوي » واعتبره عاملا فعالا في التطور الاجتماعي ويقابله « الصراع من اجل الحياة » في التطور البيولوجي .

وهكذا كثيراً ما هاجمت الشعوب فقيرة الارض الشعوب غنية الارض . ونتج عن هذا الفتوحات القديمة التي حل محلها الاستعمار والنفوذ الاقتصادي في العصر الحديث . وساعدت هذه العملية ، بنشر نمط حياة مختلف عن نمط حياة السكان الاصليين ، عملية **التمايز** (differenciation) التي تعتبر العامل الرئيسي في النمو العضوي . ويرى ان صلاحية سطح الارض هامة من الناحيتين السياسية والثقافية . فالوطن (او الارض) المتشابه التركيب والذي يسهل فيـه التنقل يؤسس وحدة سياسية ، بينما الموطن متنوع التشكيل (جبال وسهول ...) يعتبر عامل تفريق ، والحدود الطبيعيـة ضرورية لكل دولة ليس فقط لانها تحميها من غارات الاعداء ، بل لانها تعطيها تحديداً وتميزاً وتلاحماً ووحدة نموها السياسي . فالطوبوغرافيا وتكوين الارض يوفران **العزلة والحماية** للشعب ويجعلان من الممكن ظهور التخصص الثقافي في المناطق المختلفة . ويعتبر في النهاية الموقع الجغرافي اهم عامل بين العوامل الجغرافية[٥٣] (سنعود الى آراء راتزل في الفصل القادم ...) .

وتأثر براتزل ، وغالى في تأثره ، هـ . س ماكيند Mackinde (في انكلترا) و (ك . هوشوفر Haushofer) (في المانيا) . فذهب الاول الى القول : من يسيطر على الشرق الاوروبي يسيطر على قلب العالم(Coeur Desterres)ومن يسيطر على قلب العالم ، يسيطر على جزيرة الدنيا ، ومن يسيطرعلى جزيرة الدنيا

---

(٥٣) راجع: H. B. Barnes, H. Becker and B. Becker: Contemporary social thery pp, 149-151

الجغرافيا الاجتماعية والجيوسياسة (Géopolitique ou geopolitics)

ألح بعض الجغرافيين على أهمية البيئة الطبيعية بالنسبة للانسان وثقافته وحضارته . وحاول كل حسب اختصاصه أن يعلل ظواهر وحوادث مادته بالعوامل الجغرافية الطبيعية ويعطي لهذه العوامل قيمة كبرى في الحياة الاجتماعية . وعلى هذا الشكل حاول بعض مؤلفي الجغرافيا البشرية أن يعللوا توزيع السكان في المكان على ضوء العوامل الجغرافية . كما حاول مؤلفوا الجغرافيا الاقتصادية أن يفسروا الحياة الاقتصادية والاعمال التجارية والعلاقات المتبادلة بين الشعوب المختلفة على ضوء هذه العوامل .

ومن أبرز هذه الاتجاهات المغالية هي تلك **التي ظهرت في الجغرافيا السياسية أو الجيوسياسة** (géopolitique) ، اذ ربط بعض المؤلفين الالمان بين السياسة والجغرافيا أو الارض . وكان لافكارهم نزعة توسعية . فرأوا أن انقسام البشر الى وحدات سياسية منفصلة ، والعلاقات المتبادلة المتعلقة بالحرب والسلم بين هذه الوحدات لايمكن أن تعلل إلا على ضوء العوامل الطوبوغرافية أو المناخية أو على ضوء وجود أو فقدان بعض الموارد الطبيعية . وقد ألف واضعو هذه الافكار بين الاطماع القومية والتوسعية والستراتيجيا الحربية والدراسات الجغرافية . وتأثرت هذه الافكار بآراء **فريدريك راتزل** خاصة . ذهب هذا المفكر الى القول : ان الدولة عبارة عن جسد حي يحتاج الى مجال حيوي ليتمكن من الاستمرار في العيش . وقرر ان مظاهر الاختلاف بين الشعوب في ثقافتها وفنونها ومستويات تفكيرها وخلقها القومي تعود الى ظروفها الجغرافية . وفي رأيه ان الارض هي أساس الحياة الاجتماعية وأساس الدولة وهي التي ترسم نطاق الحياة الاجتماعية . وتشمل الارض في نظرته : الموقع والمساحة والحدود (التي يعتبرها منطقة ارضية قابلة للانكماش والاتساع وفق حيوية ونشاط الشعب الذي يسكنها) .

على ذلك الثروات الطبيعية الاميركية التي بقيت دفينة وغير نافعة للجماعات الاميركية الاصلية الى أن جاء انسان أوروبا المتحضر والعصري فاستغلها وجعل بجهوده وابتكاراته أميركا الشمالية أغنى بلاد العالم .

الخوف من نفاد الثروات المعدنية : لقد بددت الحضارة الحديثة والاختراع الحديث **مخاوف الناس** من امكانية نفاد الموارد الطبيعية . لقد خافوا من نفاد الفحم الحجري ولكن اكتشاف **الطاقة المائية الكهربائية** بدد هذا الخوف . وخشوا نفاد النفط ولكن اكتشاف الطاقة الذرية أخذ يزيل هذه الخشية . وخافوا نفاد الحديد ولكن اكتشاف معادن اخرى هامة (المسماة المعادن الخفيفة) كالالمنيوم وسواه ، سوف يجعلها ، اذا ما ركبت مع سواها من المواد ، تحل محل الحديد في كثير من الصناعات .

اذن لا يمكن أن نقول أن المواد الخام التي ترتكز عليها الصناعة ستنفد يوماً وهكذا فستتهدم الصناعة ويقضي عصر الآلة على نفسه بنفسه . .

فأولئك الذين ينظرون فقط الى العامل الاول في الصناعة : أي الموارد الطبيعية ويخافون من نفاده ، يجب أن ينظروا الى العامل الثاني في الصناعة : أي الى **الثقافة والانسان الخلاق مبدع هذه الثقافة** . فعندما ينفد مورد من الموارد فان الانسان المبدع يستبدله بمورد آخر أكثر فعالية منه . فعندما شعر الانسان الصناعي في أوروبا بقرب نفاد الحطب الذي كان مادة أساسية لتذويب المعادن ، اكتشف الفحم الحجري وأحله محله .

والآن وقبل جفاف منابع النفط ونفاد مناجم الفحم الحجري بزمن طويل ، اكتشف الانسان منبعاً للطاقة لا ينفد وجده في الذرة . وسيكون لاستعمال هذه الطاقة آثار هامة وتغيرات عميقة في المجال الصناعي وفي الحياة الاجتماعية ، كما كان لها آثار هامة وتبدلات عميقة في المجال الحربي ، هذا اذا لم ينخلع الانسان في المستقبل من عقله وأخلاقه وحكمته الانسانية فيستعملها لتهديم الحضارة البشرية بكاملها ! ! .

وقد اصبحت الموارد الطبيعية نافعة اجتماعياً بفضل التكنولوجيا الحديثة ، فمثلا بالنسبة لشعب زراعي تعتبر خصوبة الارض المورد الطبيعي الاساسي . ولكن هـذه الخصوبة ليست هامة بالنسبة لشعب يعيش على الصيد . وهكذا فالموارد الطبيعية تتخذ اهمية تابعة لثقافة الشعب وحضارته . ولهذا تختلف هـذه الاهمية بين شعب وآخر ، وبين عصر وعصر في الشعب الواحد . وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، لم يكن لتوزع مناجم الفحم الحجري في الارض من أثر في توزع السكان او في خصائص ومميزات مجتمعاتهم . ذلك لان الفحم الحجري لم يكن قد اتخذ بعد قيمة كمورد طبيعي .

وهكذا فدلالة (او معنى) **وجود او فقدان** اي من الموارد الطبيعية بالنسبة للانسان تعتبر مرتبطة تماماً بثقافته . ويمكن القول ان كل تكنولوجيا تنمى بالضرورة بالاستناد الى الموارد الطبيعية المتوفرة لدى مستعملي هـذه التكنولوجيا . فالتكنيكات (او الوسائل) الزراعيـة تتمكن من التطور والتحسن بصعوبة عندما تكون الارض جديبة وقاحلة تماما . ولم يكن من الممكن ان تنمى وتتطور التكنولوجيات الصناعية الحديثة في بلاد ليس فيها فحم حجري ولا حديد خام .

والشعب الذي كان بامـكانه أن يتوصل الى طريقة لتحطيم الذرة والحصول على الطاقة الذرية هو فقط ذلك الشعب الذي حصل على الاورانيوم . ولذلك فان وجود ثروة ارضية خاصة يساعد على نمو تكنولوجيا تستغلها .

ولكن هذا لا يعني ان وجود مادة خام في منطقة يجب أن يؤدي بالضرورة الى نشوء تكنولوجيا مرتبطة بها . ذلك لأن هذا تابع أيضاً لعوامل ثقافية وفكرية ... فالثروات الطبيعية والارض تقدم للانسان امكانية فقط ، والذي يستغل هذه الامـكانية هو الذكاء البشري والرقي الحضاري والثقافي . فـكم من ثروات طبيعية بقيت مهملة ودفينة في بلاد بدائية الحضارة الى أن جاء الانسان المتحضر المعاصر فاستغلها لغاياته الصناعية والحضارية . وخير مثال

من الوقاية ، فكل كارثة تعالج وكأنها مفردة . **فسان فرنسيسكو** مثلاً هي في ايامنا هذه ، مهيأة قليلاً للصمود أمام هزة أرضية (أو زلزال) أقسى من تلك التي تعرضت لها عام ١٩٠٦

وتستخدم المجتمعات الحديثة ، في عصرنا ، بعض وسائل منظمية كالصليب الاحمر والهلال الاحمر تستعين بها بعد حدوث الكارثة . ولكن المجتمعات الحديثة ليست ، بصورة عامة ، افضل تهيئة من المجتمعات السالفة لتجنب النتائج الاجتماعية التي تسببها الكوارث الطبيعية ، حتى ان الانسان المعاصر أقام كثيراً من المنشآت التي ترتبط بالمحيط الطبيعي ولذلك فان الكوارث الطبيعية تسبب له خسائر اجتماعية اكثر من تلك التي كانت تسببها للانسان القديم .

الموارد الطبيعية :

اصبحت الموارد الطبيعية ، بالنسبة للانسان المعاصر ، اكثر أهمية من الطوبوغرافيا . اذ مهما كانت وعورة مقاطعة بالغة في الاهمية ، فمجرد ظهور معادن كالحديد والاورانيوم .. يستدعي اليها الناس من الخارج وبهذا تزول عزلة سكانها .

وقد اتخذت الموارد الطبيعية أهمية بالغة بفضل الصناعة الحديثة . وأخذت المصانع والمعامل في الدول الصناعية تتمركز حول مناجم الفحم الحجري والحديد، وأحيانا حول منابع النفط .. وقد أثرت الموارد الطبيعية في الحضارة الحديثة في توزيع السكان على سطح الارض . اذ اخذ الناس يتمركزون في **المناطق الصناعية** والتي أصبحت كذلك بفضل مواردها الطبيعية . وهكذا بدأ الناس يتوجهون في الامم الصناعية نحو المراكز الصناعية تاركين ماامكن المراكز الزراعية القديمة . وهذا ماحصل في انكلترا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة الاميركية وسواها من دول العالم الصناعية .

هذا الى انفصال وعزل قويين بين سورية والعراق . مما جعل بعض السياسيين يعتقدون — وبسبب هذه الصحراء : بأن العراق منفصلة عن سورية ولا يشكل معها وطنا واحدا .

وهكذا ترون ان التغيرات الطوبوغرافية الطبيعية هي ، بصورة عامة ، ضعيفة وبطيئة الاثر في الحياة الاجتماعية اذا قيست بالتغييرات الطوبوغرافية التي يسببها الانسان عن قصد أو عن غير قصد .

الكارثة الطبيعية :

وقبل ان ننتقل من هذا البحث يجب علينا أن تشير الى تأثير الكوارث الطبيعية في الحياة الاجتماعية . هناك بعض تغيرات غير منتظمة ونادرة الوقوع كالزلزال والطوفان والجذب والجفاف وغيرها من الكوارث الطبيعية ، يجب ان يحسب حسابها في الثقافة . وكل مقاطعة (أو اقليم) معرضة لبعض كوارث طبيعية . ولكن هذه الكوارث تأتي بصورة متباعدة ونادرة ولهذا فقل ما يستفيد الناس من كارثة عندما تحل أخرى . ونتيجة لذلك فان **الكارثة الطبيعية هي غالبا ، كارثة اجتماعية** : فالموج القوي المد يكتسح أو يمحو القرية الصيادة ، ويهدم الزلزال المدينة ، ويسبب الجدب (أو الجفاف) المجاعة ، ويعني الطوفان النكبة والخراب وبالتالي المجاعات .. فمنذ اكثر من ألفي سنة مثلاً ، كان **النهر الاصفر في الصين** يطوف بين زمان وآخر ، فيغرق مساحات زراعية شاسعة ويهدم البيوت والحقول ويغرق عشرات الالوف من الناس . وبعد كل طوفان كان الناجون منه يعودون فيعمرون حقولهم ويبنون بيوتهم ويعاودون حياتهم السابقة . وهذا ما كان يحصل في وادي المسيسيبي . (٥٢)

وفي بعض المناطق التي يتكرر فيها الزلزال ، يبني السكان بيوتهم سلفاً للهزات الارضية . وللتباعد بين الزلزال والآخر فان الناس لا يهيئون أي نوع

---

(٥٢) راجع : Lapiere: Opi. Cit. p. 103

التغيرات الطوبوغرافية والتاريخ الاجتماعي :

اذا استثنينا بعض الحالات والمناطق (كالمناطق التي يوجد فيها براكين ناشطة وفاعلة وزلازل متكررة .. فان التغيرات الجيولوجية التي تطرأ على الطوبوغرافيا ، كالتغيرات المناخية ، تعتبر بطيئة المفعول والاثر من الناحية الاجتماعية . ولكن الانسان أصبح ، بواسطة وسائله الحديثة ، يتمكن من ادخال تغيرات عميقة على الطوبوغرافيا يكون لها اثر كبير من الناحية الاجتماعية والثقافية . اذ اصبح يمكن ان يحول النهر غير الصالح للملاحة الى نهر صالح الملاحة والصحراء القاحلة الى أرض خصبة ، والمستنقعات الى واحات وجنات ، والجبل الى مزارع وأراض سالحة للأشجار المثمرة ، وحتى الصخور الى أحواض صالحة لغرس الكرمة (كما في لبنان) مثلاً . هذه التبديلات الارادية والواعية تدخل كما ترون أقوى التغيرات الحضارية والاجتماعية على حياة السكان . ويجب الاشارة الى ان هناك تغيرات انسانية **غير ارادية وغير قصدية** يكون لها أحياناً نفس المفعول ، لكن من حيث الضرر لا من حيث النفع . فمثلاً قطع الغابات وأعمال بشرية أخرى أدت ، في المقاطعات الغربية من الصين ، الى تآكل التربة . ومن المحتمل ان يكون خراب الارض في المقاطعات الغربية هو الذي أدى الى تحويل ونقل مراكز الحضارة الصينية من الغرب الى الشرق. وعلى كل حال فان تجريد الارض في المقاطعات الغربية من ترابها كان يزود الانهار بالطمي (أو الغرين) فتنقله هذه الى الاراضي (أو المجاري) الواطئة ، ويؤدي الى فيضانات دورية واتلاف الحقول وتسبيب المجاعات ..[٥١]

وقد أدى اهمال المنطقة الواقعة بين سورية والعراق الى جفافها وتحولها الى صحراء بينما كانت حتى زمن العباسيين مغطاة بالخضرة والاشجار المثمرة ، فأدى

---

(٥١) من اجل امثلة اخرى راجع : Lapiere: Sociology.pp. 106-107

بعوامل ثقافية . وقد بدلت الاختراعات والمتعلقة بالمواصلات ، بطريقة أو بأخرى ، من أهمية وخطورة ودلالة الجبال والانهار والبحار والصحاري ، وعوامل طوبوغرافية أخرى . اذ ذلل الانسان تلك المواضع التي كانت تقف عقبة كأداء في سبيل طرق مواصلاته . فمثلاً عزل المحيط الاطلنطيكي حتى نهاية القرن الخامس عشر شعوب أميركا الاصليين عن اوروبا. ولكن التحسينات التي ادخلت على صناعة السفن والبواخر ، واكتشاف أميركا من قبل كريستوف كولومبس جعل من الاسهل تقريبا على الاسبان ان يصلوا الى أميركا من أن يصلوا الى سويسرا مثلا.

وهكذا أصبحت الطوبوغرافيا ، بعكس المناخ حتى الآن ، خاضعة لتبدلات ثقافية عميقة . وقبل الحضارة الحديثة كان أثر الانسان في الطوبوغرافيا محدوداً جداً . اذ كان يستطيع ان يبدل بواسطة التطورات الثقافية ، من معناها بالنسبة اليه ، ولكن تغييراته للطوبوغرافيا نفسها كانت ضئيلة . أما الانسان المتمدن المعاصر فقد أصبح بواسطة وسائله الحديثة ، يتمكن من ادخال تعديلات عميقة على الطوبوغرافيا واخضاعها لكثير من رغباته ومتطلباته . فاذا كانت دولة واقعة على البحر وليس لها مرفأ مثلاً شقت وبنت لنفسها المرفأ الذي تريد . واذا اعترض جبل خط حديد يمده شعب من الشعوب لجأ هذا الشعب الى حفر نفق في هذا الجبل يساعد على مواصلة الخط الحديدي . واذا كان هناك تل مرتفع قائم في مكان يراد ان يحول الى مطار ، تمكن الانسان من نسفه وازالته من عالم الوجود بواسطة آلاته الحديثة . واذا عاق نهر عريض مد طريق في مدينة أو في بلاد ما مدت يد الانسان فوقه **الجسور** الضخمة التي لم يكن في استطاعة الانسان الاول أن يتصورها .. ولم يعد للصحاري من قيمة في فصل الشعوب فيما بينها بعد ظهور الطيارات والسيارات والقطارات..

والبخارية والنفطية . وكانت بعض الانهار الكبرى تكون حدوداً فاصلة بين شعب وشعب وأقسام واحدة من وطن واحد. ولكن الحضارة الحديثة تغلبت على هذه العقبة وذللتها باقامة الجسور. وقد استفاد الانسان الاول من اسماك البحيرات ومياهها وأملاحها .

ولا يخفى عليكم ما للبحار من أهمية في الملاحة والتجارة العالميتين وما لموانئها أهمية في تسهيل هذه التجارة وتلك الملاحة . وكان للفينيقيين الفضل في استخدام البحر كطريق للسفن والتجارة على نطاق واسع . ويقدم البحر للناس الاسماك وحيوانات البحر الاخرى والاملاح كمواد غذائية. وقد يصبح للبحر في المستقبل أهمية عظمى من حيث استغلال الطاقة المائية .

وتؤلف البحار حدوداً فاصلة بين الشعوب وقد تكون أحياناً أحد العوامل الهامة في رد هجمات وغزوات الطامعين عن بعض الجزر . وهكذا كان البحر حصناً واقياً لبريطانيا العظمى من غزو نابليون وهتلر وسواهما . . كما كان للارخبيل الياباني دور لا بأس به في الجهاز الدفاعي عن اليابان . وقد استعمل الاميركان في الحرب الكبرى الاخيرة القنبلة الذرية لانهاء الحرب مع اليابان بسرعة . اذ علموا ان احتلال اليابان بالحرب العادية يحتاج الى وقت طويل ويكلف خسائر جسيمة بالارواح والعتاد والمال .

وكل ما يجب ان يعلم هنا ان الانهار البحيرات والبحار تقدم **للانسان امكانية** ولا يستطيع ان يستغل هذه الامكانية استغلالاً مفيداً وناجعاً سوى الانسان **المبدع** والخلاق ..

الثقافة والطوبوغرافيا :

لقد رأينا فيما مضى تأثير الطوبوغرافيا في الثقافة . وندرس الآن تأثير الثقافة في الطوبوغرافيا . منذ ان اخترع الانسان السفن وعربات النقل والسيارات والطيارات تبدلت تبعاً لذلك العزلة الطبيعية وأصبحت في جزء منها محددة

الريف . ومن زار باريس مثلاً فسيضطر ، كسائح أو كمقيم ، أن يزور غابة بولونيا وغابة **فنسين** (Vincennes) .

وقد تؤخذ الغابات كحدود فاصلة بين شعب وشعب . وقد تكون عاملاً دفاعياً يرد غارات الاعداء . وقد تكون **أحياناً عامل عزلة يؤلف شرطاً من** شروط عديدة تباعدبين شعب ماوالحضارة أو فئة سكانية عن الفئات أو المجموعات أو الرهوط المجاورة لها . وقد ذكر الاستاذ (لابير) حالة بعض بدائيين لايزالون يعيشون في أميركا الشمالية بعيدين عن الحضارة الاوروبية بسبب الغابات والادغال التي تعزلهم عن جيرانهم المتمدنين من الاميركيين .

ولكننا نأخذ على الاستاذ لابير قوله ان هذه الغابات كانت السبب في عزلهم عن الاستفادة من الاحتكاك بالثقافة الاوربية [٥٠] . اذلماذا لا نقول ان السبب الرئيسي يكمن في ميل الاميركان المتحضرين الى اهمال هؤلاء المساكين وتركهم في عزلة ليسهل استغلالهم واستعبادهم وليتخذوا منهم مواضيع لافلامهم وقصصهم ودراساتهم الانتروبولوجية والسوسيولوجية ..؟؟

النهر والبحيرة والبحر :

لا نريد أن نلح على أهميتها . ونوجز فنقول : كان للأنهار أهمية كبرى في حياة الانسان الاول والشعوب المتحضرة الاولى . اذ تركز الناس حولها وأقاموا على ضفافها قراهم ومدنهم . وحول هذه الانهار ظهرت الزراعة والحضارات التاريخية الاولى . وقد عرف هؤلاء الناس كيف يستغلون بذكائهم وجهدهم وابداعهم الامكانيات التي كانت تقدمها لهم هذه الانهار . وكانت ، ولا تزال الانهار امكانية للري والشرب والتغذية (باسماكها ..) والتجارة وادارة الطواحين المائية . . وقد أصبحت الآن هامة جداً حيث أخذ الانسان المتمدن يستمد منها الطاقة الكهربائية التي أخذت شيئاً فشيئاً تحل محل الطاقة الفحمية

---

(٥٠) راجع : Lapiere ; Sociology. p 97

وقد ربط بعض المؤلفين البيئة الجبلية بنوع معين من الحكم السياسي هو النظام الديمقراطي خاصة . وهذا ما يقوله مصطفى الخشاب: « ونلاحظ كذلك ان نوع الحكومة يكون في كثير من الاحيان خاضعاً لمقتضيات البيئة . فقيام الديموقراطية في البلاد اليونانية يرجع بعض أسبابه الى سلاسل الجبال التي تقسم البيئة أقساماً صغيرة تستطيع ان تباشر حكم نفسها بنفسها... وقيام الحكومات القبلية يرجع الى ظروف البيئة الجبلية أو الواحات المنعزلة »(٤٩) .

والنقد الذي وجهناه آنفاً للربط بين نوع الحكم والسهول ينطبق على الربط بين نوع الحكم والجبال . ونزيد فنقول : لم تمنع سلاسل جبال اليونان من قيام ديكتاتورية اسبارطة الى جانب ديموقراطية أثينا . ولم تمنع هذه السلاسل قيام الديكتاتورية الشاملة عندما تكونت الامبراطورية اليونانية . . فاذن المسألة مرتبطة بعوامل أخرى غير العوامل المتأتية عن البيئة الجبلية ..

الغابة :

كانت الغابة في العهود البشرية الاولية الاولى الغاذية الوحيدة تقريباً للناس، اذ كانوا يعيشون على أطرافها . وقد كانت القبائل النوليتيكية تغتذى بالدوام. وقد اغتذى الايطاليون القدماء بالكستناء . وفي جميع انحاء العالم حيث توجد غابات واحراج قدمت هذه للناس الحطب للحرق والخشب لبناء البيوت وصنع الاثاث والسماد للأرض والعلف للدواب والماشية والادم والتابل والزيت والعسل والطرائد لتغذيتهم والثياب لرد غائلة البرد عن جسدهم . وهكذا كانت ، ولا تزال لدى بعض الشعوب البدائية ، ترضي الحاجات الاساسية .

وقد اتخذت الغابات في أيامنا هذه وسيلة لتثبيت التربة وتجنيبها جرف السيول، ولتلطيف المناخ الحار ، وقد لجىء اليها في المدن الاوروبية حيث تغرس خارج هذه المدن وتستخدم كأمكنة للنزهة وتعوض على أهل المدن حرمانهم من برية

---

(٤٩) مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه. الجزء الثاني ص ١١١

واجتماعية وسياسية منها أن الحكومات المتعاقبة في لبنان كانت تهتم بتثقيف المسيحيين وتجهيل هؤلاء المسلمين ! أترك لكم الخيار في اختيار الفكرة الصحيحة !

واذا كانت الجبال هي السبب في جهل وفقر وتأخر العلويين والدروز الجبليين في سورية فلماذا نعمل اذن وندعو للاشتراكية التي ستنقذ الفلاحين الجبليين (وسواهم من الفلاحين والعمال والكادحين) من هذا الوضع الزري ؟؟؟

وتؤثر الجبال على السكان وتكاثرهم . اذ يعتقد ج . بلاش (J · Blache) ان كثافة السكان تقل تبعاً للارتفاع [٤٧].

ويذهب الى القول انه في الارزجبيرج (Erzgebirge) (جبال في المانيا) يوجد ٤٨٩ نسمة في الكيلو متر مربع على علو ٣٠٠ - ٤٠٠ م ، ويوجد ١٩١ نسمة على ارتفاع ٤٠٠ - ٥٠٠ م و ١٢٣ نسمة على ارتفاع ٥٠٠ - ٦٠٠ م [٤٨].

وكانت الجبال (ولا تزال الى حد ما) حواجز طبيعية قد تحدد الاوطان وتقيم بينها الحواجز . وقد ردت الجبال عن بعض البلدان كثيراً من الغزوات البربرية والاستعمارية : كجبال البيريني بالنسبة لايطاليا ... وكذلك تساعد الجبال المكسوة بالغابات في الجزائر الابطال الجزائريين على مقاومة وحشية المستعمرين الفرنسيين وبربريتهم . وتؤلف بالنسبة اليهم حصوناً منيعة يدافعون عنها بأرواحهم ودمائهم .

ومهما يكن من أمر الجبال ومناعتها فانها أصبحت اليوم قليلة الشأن أمام **القنبلة الهيدروجنية والقنبلة الذرية** والصواريخ الموجهة ...

وقد كانت الجبال قديماً ملجأ للأقليات العرقية والدينية المضطهدة . وخير مثال على هذا الاقليات الدرزية والعلوية والاسماعيلية والمسيحية التي كانت في زمن الاتراك والمماليك تتمسك برؤوس الجبال التي تحتلها حتى اليوم والتي نسبت اليها : **جبل الدروز** ، **وجبال العلويين** أو النصيريين ...

---

(٤٧) راجع : J. Blache: L'homme et la montagne. 1933. p. 60

(٤٨) راجع : Ibid,. p. 74

الاتجاهات والتيارات التقدمية الحديثة » .[٤٤] ويعتقد الاستاذ هزرت بنفس الفكرة[٤٥] .

ومن أكثر المؤلفين تحمساً لهذا الرأي الدكتور حسن شحاته سعفان اذ يقول : « والجماعات الجبلية تمتاز بانها محافظة ، فالدين يكون دائماً أصلياً او ارثوذكسياً وتسود اللهجات الخاصة بهم والتي تستمر مئات الاعوام ، كما تسود الخرافات والاقاصيص ، حتى لقد قيل ان المناطق الجبلية تمثل « متاحف الآثار » والجبليون عادة قصار النظر ويعيشون في عالم محدود »[٤٦] .

هذه الآراء اصبحت في ايامنا خاطئة لان الجبال تحولت الى مصايف ومراكز للتزحلق على الثلوج واصبحت مراكز اهلة بالسكان والحضارة والثقافة . وقد قتلت عزلتها طرق **المواصلات الحديثة** التي اخذت تعج بالسيارات وتقرب بين السهول والجبال . وقد قضى الراديو والهاتف والتلفزيون على العزلة الفكرية التي يتحدث عنها هؤلاء المؤلفون . وخير مثال على مانقول لبنان وسويسرا اللذان حولتهما الحضارة الحديثة والثقافة المعاصرة الى بلدين راقيين على الرغم من كونهما جبليين . . . فالمشكلة تابعة للرقي الثقافي والحضاري والنظام الاجتماعي والسياسي اكثر منها للجبال وبيئتها . والجبليون المسيحيون في لبنان ارقى عامة واكثر تقدماً وثقافة بمرات ومرات من غالبية المسلمين الذين يسكنون سهول عكار والبقاع وسهول صيدا وصور . فهنا سهول وهناك جبال . فلو كانت النظرية صحيحة لوجب ان يكون سكان السهول ارقى واكثر تقدماً من سكان الجبال . فما هو التعليل اذن ؟ الأن المسلمين كسولون واسيحيين مجدون كما يدعي بعض الجهلاء ؟ ام لان هناك عوامل كثيرة عالمية واستعمارية

---

(٤٤) مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه . الجزء الثاني ص ١١٠

(٤٥) راجع : J. Haesaert : Sociologie générale. p. 571

(٤٦) حسن شحاتة سعفان : أسس علم الاجتماع . ص ١٥٧ .

وكثيراً ما اعتبرت الصحاري كحدود فاصلة بين دولة وأخرى وشعب وآخر . وكثيراً ما اعتبرت كوسيلة دفاعية تدفع عن سكانها أو السكان الذين يعيشون على امتدادها هجمات المعتدين .. وستتخذ الصحاري العربية أهمية كبرى في المستقبل لظهور منابع النفط فيها سواء في الجزائر أم في العراق وسورية والعربية السعودية (وخاصة الظهران فيها) والكويت .. وقد تتحول الصحاري حول آبار النفط الى مراكز صناعية وتجارية زاهرة ...

الجبل :

وللجبال تأثير في الحياة الاجتماعية . واذا جردنا الجبال من المناخ والرياح والغابات فلا يبقى فيها سوى التضاريس. فاذا اعتبرنا الجبال على هذا النحو رأينا أنها كانت في السابق ، ولا تزال في كثير من الشعوب غير المتحضرة ، عاملاً من عوامل العزلة من الثقافة والحضارة والتقدم . لأن التسلق اليها يعتبر صعباً والهبوط منها وهكذا تعزل بعض الوقت عن العالم . وتكون الاعمال الزراعية فيها شاقة ومتركزة في البطاح وقليلة المحاصيل والمردود ، **ويكون الاقتصاد** رعيانياً قائماً على الماشية قليلة العدد ومنتجاتها ، ولا تدر الخراف والماعز والابقار الا قليلا . وتعود هذه الحياة التي هي في صراع دائم مع الطبيعة على الخشونة الجسدية والقوة ...

وقد اعتبر بعض المؤلفين الجبال عامل تأخر وانفصال عن المدينة . وقد عمموا آراءهم بشكل شمولي . فمنهم من يقول ان الجبال تمنع **التقدم** اذ تحول دون وصول الآراء الجديدة وما يستحدث من التحسينات والمخترعات وهي كذلك تعوق السكان عن الاتصال بالغير وتنشىء روح الريبة في نفوس أهلها نحو الاجانب .

ويذهب الدكتور مصطفى الخشاب الى القول : « وكما ان الجبال تمنع الغزو وترد العدو على اعقابه ، فهي كذلك تمنع التقدم وتحول دون وصول

بها موجات مستمرة من الهجرات البشرية يسببها الجفاف وقلة الامطار وبالتالي انعدام الكلأ والمراعي للمواشي والابل . وتطبع سكانها بطابع الخشونة والقناعة لقلة مواردها وخيراتها . ولكن يجب أن لانعتقد ان أهل الصحاري هم **رحل** ، وهم بدو ، وهم متأخرون ،وهم بدائيون لأنهم يعيشون في الصحراء بل يجب ان نقول هم يعيشون في الصحراء لأنهم كذلك . وهم يحافظون مدة طويلة على **بداوتهم** وتنقلهم وترحالهم حتى ولو نقلو الى أراضي خصبة . ودليلنا على ذلك البدو العائشون في سورية . اذ حاولت السلطات الحكومية مرات ان تحضرهم وتجعلهم يستقرون ففشلت مع الكثيرين منهم . فنحن أمام نظام اجتماعي فيه للبادية وحياتها بعض آثار ظاهرة في **المأكل والملبس والمسكن والاغارة والغزو والشعر والقصص** . ذلك لان هؤلاء الناس عندما يستسلمون لحياة الصحراء فان هذه تطبعهم بطابعها وتفرض عليهم بعض محتماتها . ولكن الصحاري تفرض **محتماتها على هؤلاء البدو** ولأنهم يعيشون عيشة **بدائية وأولية**. وتضعف محتمات الصحاري أمام جهود الانسان المبدع الجبار ، وتتحول تحت أضواء ابداعه الى جنات تجري من تحتها الانهار وتغرد فيها العصافير ويعيش فيها الانسان في رغد وهناء . وخير مثال على ذلك هي اسرائيل عدونا الاكبر . اذ بدأت تحول الصحاري الى اراض خصبة بمشاريع ريها وتسميدها التي تكلفها الملايين من الدولارات والملايين والملايين من الجهود الجبارة الخلاقة ، وما بنته شركة نفط العراق من محطات في الصحراء مشرورة بين العراق وحمص : تعتبر « مدناً » مصغرة زاهرة فيها كل وسائل الراحة والانتاج والبيع والشراء ،نقول ان هذه المحطات تعتبر نصراً للانسان على الصحراء وجدبها ومناخها ... فليس الانسان الذي يعيش في الصحراء يجبر على عيش الترحال والغزو والفقر والشظف . اذ قد يحول الصحراء الى أرض خصبة زراعية ،وقد يحولها الى **مراكز صناعية** آهلة بالسكان وعامرة بالحضارة . والمشاريع التي طبقت في الولايات المتحدة في مناطق صحراوية متعددة أفضل مثال على مانقول ...

الدول التي انضمت مختلف اجزائها **طوعا ورضاوعن شعور** بالمصلحة الواحدة، فان هذه الدول لاتحتاج الى مثل هذا النظام الديكتاتوري . ودليلنا على ذلك الولايات المتحدة الاميركية التي يسود فيها النظام الديمقراطي على الرغم من امتداد رقعتها امتداداً واسعاً جداً وعلى الرغم من وجود شعوب وفئات مختلفة فيها. فالامر مرتبط كما ترون بعوامل **اجتماعية واقتصادية ومصلحية** اكثر منه بعوامل أرضية أو سهلية... واذا ماأقيم النظام الديكتاتوري في بلد مافقد يعود هذا الى تطاحن طبقي يهدد سلامة البلاد كما لجيء الى ذلك في عهد الشيشكلي في سورية، وفي مصر بعد الانقلاب على فاروق وفي العراق وفي الاردن في ايامنا هذه. ومهما يكن من أمر فنظام الحكم أبعد مايكون ارتباطاً بالبيئة الطبيعية ولكن **بالبيئة الاجتماعية والبشرية**.. وقد ربط بعض هؤلاء المؤلفين بين عقلية الشعب وامتداد السهول او ضيقها : « فالجماعات التي تسكن مساحات محدودة ، معروفة دائماً بقصر التفكير ...كما لوحظ ان أفراد مثل هذه الجماعة (اي الجماعات التي تسكن مناطق مترامية الاطراف) في الغالب ذوو نفسية فردية .. »[٤٣] وهذا الرأي يجانب الصواب **وواقعية العلم وموضوعيته** .

وقد تكون البيئة السهلية نكبة على الدول الصغرى أو الضعيفة . اذ قد تكون هدفاً للهجرات وللغزو التجاري لسهولة المرور فيها . وقد يؤثر هذا على استقرار البلد . لان كثرة الهجمات والحروب والغزوات والاحتلالات تورث هذه الدول **عدم استقرار** اجتماعي وفكري وسياسي وسكاني ...كما قد يكون اتساع رقعة الدولة، كروسيا مثلا، ميزة من ناحية صيانتها من الاحتلال والغزو..

الصحراء :

وللصحاري أثر في الحياة الاجتماعية . فالصحاري تقدم للمناطق التي تحيط

---

(٤٣) راجع : حسن سعفان . أسس علم الاجتماع ص ١٥١ — ١٥٢ .

السهول المنتجة تتوفر على زعمهم ، العوامل الداعية الى وحدة الحكومة والقانون كما ان لها اثراً كبيراً في جميع نواحي النشاط الانساني . ومن خصائص السهول ان تندمج فيها القوميات واللغات والتقاليد ، بحيث يصبح الكل وحدة منسجمة وليس فيها فرصة للعزلة او للفردية : فروسيا اشد وحدة من سائر الامم تقريباً . »

وهكذا ذهب الدكتور حسن شحاته سعفان الى القول : « وتختلف الجماعة التي تسكن منطقة طبيعية واسعة عن تلك التي تسكن منطقة محدودة ضيقة ، فالجماعات التي تسكن مناطق ضيقة تمتاز بأن الصلة بين افرادها قوية ، شديدة وهم في العادة ذوو نفسية اشتراكية ويقاسي الافراد من عدم تنوع النشاط الاجتماعي . »[٤١]

ويؤكد الدكتور مصطفى الخشاب ان « قيام النظم الملكية والامبراطورية انما يرجع الى امتداد السهول والبطاح كما نلاحظ ذلك في الامبراطوريات القديمة التي سادت مصر وفارس وآشور والهند . »[٤٢]

وهكذا نجد ان هؤلاء المؤلفين يتفقون على اقامة صلة وثقى بين النظام السياسي والسهول وطبيعة الارض . وردنا عليهم لايختلف عن ردنا السابق على قولهم باقامة الصلة بين نظام الحكم والمناخ ، لان النظام السياسي في بلد من البلدان تابع لرقي السكان ونظامهم الاقتصادي ورقيهم الثقافي والحضاري وللمرحلة التاريخية التي يجتازونها ولعلاقاتهم مع جيرانهم ولعلاقاتهم فيما بينهم داخلياً ...

ويعتقد هؤلاء ، مع كثيرين ، أن اتساع البلاد والسهول يدفع الى الحكم الاستبدادي . وهذا خطأ ، لأن مثل هذه الدولة اذا لجأت الى الحكم الاستبدادي . فلأن كثيراً من اجزائها وفئات من سكانها ضمت **بالقوة والغلبة** . ولكن في

---

(٤١) حسن سعفان : أسس علم الاجتماع ص ١٥١ .

(٤٢) مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه . الجزء الثاني ص ١١١ .

السهل :

للسهول اثر قوي في حياة الناس . اذ تساعد على اقامة **الزراعة والصناعة** وتربية الماشية . وقد نشأت الحضارات الاولى في **بابل وآشور ومصر** في السهول الممتدة حول الانهار . ولكن السهول تقدم بذاتها امكانية فقط ؛ والذي يحول هذه الامكانية الى **قوة بالفعل** هو ذكاء الناس ورقيهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فكم في آسيا وافريقيا من سهول واسعة وخصبة ولكن سكانها لايزالون يعيشون عيشة بدائية ويموت الكثير منهم جوعاً وفقراً . ودليلنا على ذلك ان سورية والعراق كانتا ايام الرومان تكفيان لاعاشة ٤٠ مليونا من البشر . اما الآن فلاتكفيان لاعالة ١٠ ملايين . والسبب في ذلك هو الاهتمام بالري ايام الحكم الروماني واهماله في ايامنا .

وقد ذهب بعض الكتاب الى القول بأن السهول الضيقة تقوي الصلة والالتحام بين سكانها وتدفعهم الى الاقامة والاستقرار . كما ذهبوا الى القول بان السهول تدفع اكثر ماتدفع الى حياة **البداوة** : اذ يطبق السكان فيها الزراعة الامتدادية (التي تعتمد على الامتداد هرباً من الاكلاف الباهظة) **وهجرة الماشية** اونقلها حسب الفصول من مكان الى آخر : من السهل الى الجبل او على العكس مثلا ..)(٤٠) .

كما ذهب بعض المؤلفين الآخرين الى ايجاد صلة وثقى بين طبيعة السهول وطبيعة النظام السياسي . اذ يرون ان البلاد : اذا كانت واسعة منعزلة بعض الشيء عن غيرها ، استطاع الحكم ان يتخذ فيها الشكل الملكي او الامبراطوري كما كان الامر في آشور وفارس والروسيا والصين .

ويلحون على توحيد السهول — « لنمط حياة الذين يعيشون عليها اذ في

---

(٤٠) راجع : J. Haesaert : Sociologie géné rale p. 371

ولا يبتعدون عن بعضهم البعض . وقد كان للأرض أثر لابأس به في نشوء وتكوين بعض البنيات الاجتماعية . اذ ان التجاور أثر في حياة هذه البنيات . فكان **للقرية حياتها** (كما يقول ريني مونيي) وللمقاطعة وحدتها . وقد كان لها أثر في تكوين عشائر روما . . . ولكن كانت تدخل مع الارض عوامل اخرى اجتماعية ودينية واقتصادية (خاصة) ودفاعية . وفي أيامنا هـذه أصبح لاقيمة كبرى للقرب أو الجوار . اذقهر الانسان (وخاصة المتحضر) الابعاد بالسرعة . باستعماله الطائرة والقطار والسيارة . . ولهذا فقدتقاربت اجزاء الأرض وأصبحت شعوب كثيرة متقاربة بينما كانت في الماضي يجهل كل منها الآخر . وهذا ما ساعد على وحدة شعوب ودول كانت في الماضي صعبة . واذا علمناان المسافة بين القاهره ودمشق تقطع في ساعتين بطائرات ركاب عادية ادركنا كم سيكون لعامل السرعة هذه من أثر في تثبيت الوحدة بين القطرين .

وقد طرأ على العلاقات الدولية تغيرات عميقة وأصبحت الحضارة اكثر عمومية وأميل الى **التوحيد** والتشابه . وأصبحت الشعوب يلاحظ الواحد منها الآخر وينقل عنه مايراه صالحاً وملائماً . وقد لعب الراديو دوراً هاماً في **تقويب الاذواق** وتقوية التعارف ومعرفة مايجري وراء حدود كل شعب ..

المكان :

اذا جردنا المكان من المسافة والمحتوى (الموارد الطبيعية) فان أثره يصبح ضئيلا . فاذا تصورناه على هذه الصورة فانه يؤثر خاصة في المسكن . وعندما يضيق المكان يرتفع ثمن الارض يميل فن البناء الى التلاؤم والتكيف . وهكذا يلجأ الناس الى اقامة البنايات ذات الطوابق المتعددة (ناطحات السحاب في الولايات المتحدة مثلا) ويؤثر هذا على الشوارع وعلى ضيقها واتساعها ، كما يؤثر على المواصلات ، فيلجأ الناس الى خطوط المواصلات تحت الارضية . وعندما يضيق المكان تماماً فانه يكون عاملا على الهجرة .

تحول هذه المدينة الى مركز اقتصادي وسياسي واجتماعي لهضبة الميسيسيبي الوسطى . »[٣٩] .

وتشكل البرازخ عقد مواصلات طبيعية ، كما تعتبر الجزر مواقع ستراتيجية تساعد على **السيطرة على الخطوط الجوية** ، وتستخدم كنقاط ارتكاز للسيطرة على الدول الضعيفة . فمثلا يتخذ الانكليز قبرص كنقطة انطلاق للسيطرة على كثير من الطرق البحرية في البحر المتوسط وكمركز للسيطرة على الشرق الاوسط . وقد اتخذت قبرص حديثاً كنقطة انطلاق للهجوم على مصر عندما تم العدوان الثلاثي الغاشم عليها منذ سنتين تقريباً .

والذي يجعل للموقع أهمية **هو الاهداف والغايات** البشرية من اقتصادية وسياسية . والدليل على ذلك هو أن موقعاً معيناً بذاته قد يتخذ أهميات مختلفة حسب الازمنة وتقلبات السياسة والحضارة البشرية . فمثلا كانت سورية تعتبر كجسر للفاتحين الذين يمرون من الغرب الى الشرق أو من الشرق الى الغرب . ولكنها الآن أخذت قيمة أخرى في نظر الدول الصناعية . اذ أصبحت بالنسبة اليها ممراً للنفط الذي يأتي عبر الصحراء ويصب في موانئها : في سورية الحالية وفي جزئيها الجنوبيين : لبنان وفلسطين . وعندما كانت انكلترا تحتل الهند كانت قناة السويس تتخذ كقاعدة للسيطرة على التجارة البحرية من الهند الى أوروبا . أما الآن وقد أصبحت القناة تحت سيطرة الجمهورية العربية المتحدة فقد فقدت بالنسبة للانكليز تلك الاهمية . وأصبحت بالنسبة اليهم والى أوروبا ممراً للبترول الذي يمر من البلاد العربية والشرقين الاوسط والادنى . وهكذا تحولت أهمية الموقع ، كما نرى ، حسب الظروف السياسية والاقتصادية ...

اما المسافة او الوضع:

(Distance ou position) : للمسافة أثر أيضاً . اذ هي في ذاتها **فاصل** اذن هي ملجأ أو مانع . وفي الماضي البعيد كان الناس لايتفرقون كثيراً

---

(٣٩) Ibid, : p. 98

والاستيراد . وكان لموقع بعض المدن العالمية الكبرى أثر لا بأس به في اتساعها وتفوقها الصناعي ففي الولايات المتحدة الاميركية يوجد بين احدى وعشرين مدينة كبيرة تسع منها : بوستن ، وبروفيدنس ، ونيويورك ، ونيوآرك ، وجيرزي ستي ، وفيلادلفيا ، وبالتيمور ، ونيواورليانز ، وسان فرانسيسكو ، واقعة على الساحل وخمس منها : بفلو ، وكليفلند ، وديترويت ، وشيكاغو ، وميلوكي ، واقعة على حدود البحيرات الشمالية ، وخمس منها : بتسبرغ وسنسيناتي ولويسفيل وسنت لويس ومينيابولس واقعة على نهري المسيسيبي وأوهايو [٣٧] .

اذا لاحظنا أغلب مدن العالم الكبرى رأيناها واقعة إما على أنهار كبرى : باريس وروما ولندن ، والقاهرة وبغداد ... ، وإما على مرافىء بحرية مشهورة : نيويورك وسان فرانسيسكو والاسكندرية ومرسيليا ...

وقد أكد الاستاذ (لابير Lapiere) « ان المرفأين الطبيعيين الممتازين والموقعين الستراتيجيين لنيويورك وسان فرانسيسكو على السواحل الشرقية والغربية لاميركا الشمالية ساهمت بشكل ظاهر في نمو هاتين المدينتين . » [٣٨] .

وكذلك يؤثر الموقع في مناطق هامة كوقوع المدينة على مفرق طرق مدن متعددة ، أو في وسط منطقة تحيط بها المدن والقرى . ونحن نلاحظ في سوريا الاهمية التي بدأت تاخذها مدينة حمص لوقوعها في وسط سورية ، ولوقوعها على مفرق الطرق التي تصل شمالي وغربي وشرقي سورية بالعاصمة : دمشق ... وقد أكد الاستاذ (لابير) « وكذلك كان موقع شيكاغو على الطريق المؤدي الى منطقة (الشمال الغربي Northwes) القديمة دافعاً على نموها البدئي . ومنذ بضع عشرات من السنين غدى موقع سنت لويس (St, Louis) كنقطة انطلاق من الغرب الاقصى (Far west) (منطقة في أميركا الشمالية)

---

(٣٧) راجع : E. C. Semple : Amarican history and its geographic conditions. N, Y. 1933. Chap. 16

(٣٨) Lapiere : Sociology. pp. 97 - 98

الجغرافيا والانتروبوجغرافيا والسوسيولوجيا . وكل فريق منهم يعرف الطوبوغرافيا كما يريد . فقد جعل لابير (Lapiere) مثلا : الطوبوغرافيا تضم موقع المرافىء والخلجان والانهار والبحيرات والتلال والجبال والسهول والوديان **والبراكين والزلازل** . . . ويرتبط بالطوبوغرافيا ارتفاع منطقة السكن ووعورتها وامكان التوصل لها وقربها من مناطق السكن الاخرى .

ويرتبط بالطوبوغرافيا أيضاً توزيع الثروات **الطبيعية** للمنطقة كخصب الارض والمعادن والفحم الحجري والنفط والقوى المائية ... [٣٦] .

وسنبحث في بعض هذه الظواهر وتأثيرها فقط دون التعرض لجميعها خوفاً من أن ينقلب بحثنا الى بحث جغرافي .

الثقافة والحضارة والطوبوغرافيا أو الظواهر الارضية عامة :

للظواهر الارضية عامة وللطوبوغرافيا خاصة تأثير على الحياة الفردية والحياة الاجتماعية . ولكن علينا هنا أن نحذر من الغلو في تقدير هذا التأثير ودوره في تعليل الظواهر الاجتماعية . .

١ — الموقع والمسافة أو الوضع :

لموقع القرية أو المدينة أو الشعب أو الدولة أثر في حياتها . وأهمية الموقع تتأتى عن الغايات والاهداف البشرية . فلمراقبة السهل الممتد وأخذ الجزية والفريضة من القوافل المارة فيه ، ألم يكن يلجأ البعض الى **المرتفعات والروابي** والجبال التي تشرف عليه ؟ ألا يفسر هذا شيئاً من تاريخ نظام الفروسية في القرون الوسطى ؟ ومن يزر منكم القلاع التي بناها فرسان الصليبيين في سورية : **كقلعة المرقب وقلعة الحصن** . . . يدرك صحة هذا الرأي . وقد أنشئت المدن الاولى حيث يمكن أن تدافع عن نفسها كأفضل ما يمكن . وقد أسست بعض المدن في مواقع مائية ونهرية وكان الهدف من ذلك التجارة : التصدير

---

(٣٦) راجع : Lapiere : op. cit. p. 91

والخلاصة :

نرى من كل هذا العرض أن للمناخ تأثيراً على حياتنا الفردية وحياتنا الاجتماعية ولكننا لانستطيع أن نعلل جميع مظاهر الحضارة والثقافة البشريتين بالمناخ كما فعل بعض المؤلفين . وقد تمكن الانسان بفضل حضارته النامية من أن يتحرر الى حد لا بأس به من محتمات المناخ ولكنه لا يزال خاضعاً ، في كثير من مظاهر حياته ، لهذه المحتمات . فهل يأتي يوم يستطيع الانسان معه أن يكيف الطقس والمناخ على هواه ؟ ان الابحاث التي تجري الآن في الولايات المتحدة الاميركية وفي الاتحاد السوفياتي تبشر بالأمل ، حيث أنها تنزع لأن تسيطر على كثير من الظواهر الجوية وخاصة فيما يخص المطر والزوبعة والجفاف والحرارة والطقس عامة . ويتنبأ العلماء في هاتين الدولتين بأن العلم سيتوصل الى معرفة تقلبات الطقس قبل تسعين يوماً من حدوثها والتحكم فيها وتوجيهها كما يريد ، والتحكم في الزوابع والأعاصير والمطر ... وقد كتبت مجلة فورتشون (Fortune) وصحيفة النيويورك تايمز الاميركيتان مقالين عن هذا الموضوع ، ولخصتهما جريدة النصر الدمشقية [٣٥] .

ثانياً ، تأثير الظواهر الارضية :

درسنا بالتفصيل تأثير الظواهر الجوية على الحياتين الفردية والاجتماعية ونبحث الان في تأثير الظواهر الارضية فيهما . ولكننا لن نلح هنا كما ألححنا سابقاً لان كثيراً من الانتقادات التي وجهناها الى النظريات المتعلقة بالتاثير الغالب للمناخ والظواهر الجوية تنطبق على النظريات المغالية في تأثير الارض وطوبوغرافياها ومواردها الطبيعية . وقد لفتت **الطوبوغرافيا الارضية** انتباه كثيرين من الباحثين في

---

(٣٥) راجع : جريدة النصر (دمشق) . العدد ٤٢٢٠ ، في ٥ اذار ١٩٥٩ والعدد ٤٢١٦ ، في ٢١ شباط ١٩٥٩ .

ليليون وآخرون نهاريون. وعندما يريد الفلاح ان يثابر على حراثة أرضه فانه يعمل ليلاً كما يعمل نهاراً . وأصبح بالامكان اقامة الحرب والقتال على أساس **أربع وعشرين ساعة** .. وهكذا تحرر الانسان الراقي ، الى حد بعيد ، من سيطرة الليل والظلام .

وكذلك كان الانسان في المجتمعات القديمة يخضع في الكثير من فعالياته الاجتماعية لتغيرات وتقلبات الطقس حسب الفصول المتتالية . فالمزاكب البخارية تابعة لسيرها للرياح التي تتبدل في كل مكان حسب الفصول. **وكذلك كانت عربات نقل البضائع** لا تستطيع أن تسير إلا عندما تجف الارض . ولكن الانسان الراقي تحرر من سيطرة الطبيعة هذه. وذلك باختراع **السيارات والقطارات والطيارات والمراكب البخارية** . وهكذا أصبح يتمكن من السفر متى شاء . وكذلك كان عمل الشعوب الزراعية مرتبطاً ومتعلقاً بالفصول ، والحياة الريفية تبقى كذلك مرتبطة بدورات الفصول . وكانت برامج مدارس القرى توضع بشكل يتمكن معه التلاميذ أن يساعدوا ذويهم في الاعمال الزراعية . ولكن القرية الحديثة بدأت تعيش كما تعيش المدن ، من حيث المسكن والمأكل ونمط الحياة من جميع نواحيها . وقد قضى التقدم المعاصر على عزلة الريف أثناء الشتاء القارس في الامم والشعوب المتحضرة . وذلك بواسطة **خطوط المواصلات والهاتف والراديو** ... وهكذا نرى أن الانسان لم يستطع حتى الآن السيطرة على دورة الفصول ولكنه تمكن مع ذلك من تخفيف أثر تغيراتها على حياته[٣٤] .

ومهما يكن من أمر فان ثيابنا تخضع حتى الآن في كثير من تبدلاتها للتبدلات الفصلية . فثيابنا في الصيف تختلف عنها في الشتاء وفي الربيع والخريف . . وكذلك تختلف أحياناً تغذيتنا حسب الفصول : من مآكل للصيف واخرى للشتاء . .

---

(٣٤) راجع : R, Lapiere : Sociology, pp, 102—103

تابعة لذكاء الشعب ورقيه وابداع أفراده المتفوقين . وقد حول شعبا النيل ودجلة القديمين **الاراضي القاحلة** الجديبة في واديهما الى أراض زراعية خصبة بفضل وسائلهما الزراعية **وانشاءاتهما الراقية** في الري الصناعي وتطبيقها الموفق في المجال الزراعي .. وعندما اضطرب النظام الاجتماعي والثقافي في هذين البلدين بسبب الحروب الخارجية والثورات الداخلية (بين الطبقات المستغلة الارستوقراطية وبين العبيد والطبقات المستغلة...) تهدمت تلك الوسائل والانشاءات وتهدمت تبعاً لهذا حضارتا هذين الشعبين ... [٣٣] فظهور نشوء الحضارات وأفولها عائدان الى عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية اكثر منها بكثير لعوامل مناخية .

الأدوار اليومية والفصلية :

أبسط وأظهر **التغيرات المتواترة** في المحيط الجغرافي هي تعاقب النهار والليل وتتالي الفصول . وتتأثر الحياة الاجتماعية في كثير من مظاهرها بهذه التغيرات . ويزداد هذا التأثير أو ينقص تبعاً لدرجة ثقافة وحضارة الشعوب . فكلما كانت ثقافة الشعب اكثر بدائية كان هذا التأثير أقوى . وكلما كانت ثقافة الشعب اكثر تقدماً خف هذا التأثير في كثير من نواحيه .

ففي الامم البدائية وفي الماضي الغابر للأمم المتحضرة المعاصرة نلاحظ ان الانسان عبارة عن كائن نهاري : أي انه يعمل ويتحرك ويصرف شؤونه في النهار . وعندما يحل الليل يأوي الى بيته كما تأوي الماشية والدواب الى حظائرها . فيأكل ويسمر بعض الشيء وينام في ساعة مبكرة . وقد كان الانسان قبل اختراع النار اكثر شبهاً بالحيوانات التي تنام بعد غياب الشمس وحلول الظلمة . ولكن اختراع النار والقناديل ساعده فيما بعد على استغلال ساعات الليل لتصريف شؤونه . وتغلب نوعاً ما على وضعه ككائن نهاري . **ولكن اختراع الكهرباء قليلة التكاليف** جعل الانسان يتحرر من اعتماده على ضوء النهار وأصبحت المعامل والمصانع تعمل في البلاد الصناعية الراقية ليلاً كما تعمل نهاراً . وأصبح هناك عمال

---

(٣٣) راجع : Ibid, : pp. 106 - 107

التغيرات الطقسية الدورية :

هناك مناطق وأقاليم عديدة تخضع لتغيرات طقسية دورية . فقد تتعرض المنطقة لمدة سنوات لزيادة قوية في نسبة هطول الامطار ، تتلوها سنوات تتميز بضعف هطول المطر . ويمكن أن يحدث نفس الشيء بالنسبة للرطوبة والطقس: وتعني مثل هذه « الدورات الطقسية المناخية » بالنسبة للزراعة بضعة أعوام من الخصب تتلوها بضعة أعوام من الجدب. ويرتبط بالاعوام الاولى رخاء اقتصادي وازدهار اجتماعي ، يرافق الثانية ، (عادة وخاصة في البلاد المتأخرة حضاريا) جوع واضطرابات اجتماعية . وتحدثنا التوراة عن سبع البقرات السمان وسبع البقرات العجاف التي رئيت في أيام يوسف في الحلم ، ففسرها يوسف على أنها سبع سنوات من الخصب ستعقبها سبع سنوات من الجدب . ولذلك أمر يوسف بأخذ كل التدابير (من خزن الحبوب والمؤونة) لدرء خطر سنوات الجدب والقحط. وكل منكم يعرف ان سورية تتعرض بشكل دوري لمثل هذه التبدلات المناخية ويكون لذلك أسوأ الأثر في مواسم الحبوب وسواها من المزروعات التي لا تزال ترتكز على مياه المطر ...

المهم ان التدابير الحديثة خففت الى حد بعيد من أثر هذه النكبات المناخية الدورية . ويتم ذلك بفضل خطوط المواصلات الحديثة والمشآت الاقتصادية التي تجعل منطقة وافرة المحاصيل تمد بالمساعدة منطقة أخرى ماحلة المحاصيل .

التغيرات الطقسية والتاريخ الاجتماعي :

يرى بعض المؤلفين ان حضارات بابل وآشور ومصر نشأت تحت تأثير مناخ لطيف ساعد على نشأتها . ولكن هذا المناخ تبدل الى الجفاف والحرارة وبتبدله تأثرت هذه الحضارات ومالت الى الأفول شيئاً فشيئاً وأخيراً زالت وتهدمت.

هذا الرأي غير صحيح لأن التبدلات المناخية العميقة لا تحدث الا خلال آلاف السنين .. والحضارات تابعة في نشأتها وتطورها وازدهارها الى عوامل

تحضيره قد لا تخضع للمناخ بل تخضع **للذوق** والتقليد والضرورات الحياتية والاقتصادية . ومهما يكن من أمر ، بدأت المواصلات الحديثة تساعد على محو الفوارق في التغذية بين كثير من الشعوب وبين المدينة والقرية. فأوروباوأميركا الوسطيان تتلقيان السمك في ثلاجات أو برادات ، وكذلك يأكل النروجيون الاناناس الطري كالاستراليين .. وأخذت كثير من الاصناف الطعامية الاوروبية تدخل في حياة كثير من الشعوب ..

اذن لا يمكن ان يفسر المناخ كل شيء في هذا المجال ... ولا يخضع الغذاء ولونه وكيفية تحضيره خضوعاً تاماً للمناخ ...

هل يمكن تفسير الحضارة بالمناخ ؟

ادعى بعض المؤلفين ، أمثال (هنتينجكتون Huntington) وسواه (كما سنرى في الفصل القادم) ان المناخ ولد الحضارة . ويعني هذا المؤلف خاصة المناخ المعتدل. ذلك لأنه لاحظ ان الحضارة الحديثة تتمركز في أوروباوأميركا الشمالية (سنعود الى أفكاره بالتفصيل ..)

لا يمكن قبول هذه النظرية . ذلك لأنه يوجد ، في نفس المنطقة ، فروق قوية في المناخ . اذ نجد فروقاً قوية في المناخ بين مناطق الولايات المتحدة الاميركية المختلفة. ونجد هذا في سورية الطبيعية (مناخ الجبال ومناخ الصحراء، ومناخ الساحل ، ومناخ الغور ، ومناخ المدن الداخلية ...) ومع ذلك نجد حضارة واحدة . ولا يوجد شيء من الاعتدال في مناخ شتاء شمالي المانيا وصيف اسبانيا . ولكن شمالي المانيا واسبانيا ساهما بشكل فعّال في بناء الحضارة الاوروبية . وكذلك لا يشجع مناخ كنساس الحار على انشاء زراعة آلية ، وبرد وجليد شتاء (نيوانكلند) لا يشجعان على اقامة صناعة آلية . ولكن المنطقتين ساهمتا معاً في انشاء وتأسيس مثل هاتين الظاهرتين الحضاريتين (٣٢) .

---

(٣٢) راجع : Ibid, : pp. 94 - 95

الخضار عامة ، ولذلك يلجأ الى اللحوم والمواد النشوية . وفي الربيع والصيف تكثر الخضار والفواكه وتصبح اكثر نفعاً وأقل اعطاء للحرارة من المواد الدهنية والنشوية . وللمناخ هنا أثر في تطلب الجسم لبعض المواد الغذائية دون سواها، وله اثر آخر من حيث توفير الجو الصالح لظهور بعض الاثمار والخضار دون سواها ، في البلاد المتمدنة قهر الانسان هذه الحتمية وذلك بحلول مناخات صناعية تنتج في قلب الشتاء مثلا فواكه وخضار الصيف ...) ... والغذاء في البلاد الحارة يختلف عنه في البلاد الباردة في كثير من ألوانه . ففي البلاد الحارة يصعب شرب الخمور والمسكرات وأكل المواد الدهنية واللحوم المدهنة (كلحم الخنزير) . حتى ان بعض المؤلفين يرجعون تحريم لحم الخنزير والخمر لدى المسلمين الى كون الدين الاسلامي ظهر في الجزيرة العربية ذات المناخ الحار . وعلى العكس من ذلك ، تتطلب اللحوم المدهنة والخمور في البلاد الباردة ... ولكن المناخ لا يعلل كل شيء في الغذاء . اذ يختلف الغذاء في نفس الشعب الذي يخضع لمناخ واحد وحتى لدى السكان الذين يسكنون مدينة واحدة أو قرية واحدة . وهذا قد يعود الى عوامل دينية (المسيحي والمسلم اللذان يعيشان في بلدة واحدة ، الأول يشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير أما الثاني فيمتنع عن تناولهما) . وقد يأكل أبناء الدين الواحد غذاء مختلفاً حسب مركزهم الديني (المطهرين أو المصطفين في الديانة المانية نظام غذائي يختلف عن النظام الغذائي لغير المطهرين أو العامة من الشعب ..) ، وقد يعود الى عوامل اجتماعية واقتصادية (اختلاف الغذاء باختلاف الطبقات الاجتماعية في المجتمع الواحد وحاصة بين الاغنياء والفقراء ...) ، وقد يعود الى عوامل سكانية (كالهنود الذين يزرعون الأرز اكثر من سواه ، مع العلم أنه يكلف اتعابا مجهدة ، ذلك لأنه النبات الوحيد الذي يمكن ان يغل اكبر قدر من المحصول فيكفي ملايينهم الاربعمائة ، وليس لأن المناخ يجبرهم على زرعه دون سواه ..) ، وقد يعود الى عوامل ثقافية وقومية اذ لكل أمة تقريباً ألوانها الغذائية المفضلة والمختصة بها ... وهكذا فتحضير الطعام وكيفية

الشتاء أثقل واكثر اعطاء للدفء منها في الصيف . حتى ان الناس في البلاد الراقية يفصلون ثيابا للشتاء وأخرى للربيع وثالثة للصيف ورابعة للخريف .. وتكون الثياب سميكة وصوفية في البلاد الباردة والمتجمدة بينما تكون خفيفة وقطنية وحريرية في البلاد الحارة .. حتى ان الناس في بعض البلاد الحارة البدائية لايرتدون الثياب قط ومنهم من يسترون (عورتهم) فقط (كما في كثير من قبائل افريقيا ..) فعندما نرتدي الثياب للوقاية من المناخ ، يكون عندئذ المناخ السبب الأساسي والوحيد في تسبيب هذه الظاهرة. ويبقى لدينا الأزياء . اذ يؤثر المناخ أحيانا في الازياء . فزي الفستان النسائي المقطوع الكمين والمظهر للظهر والصدر يصلح لبيئة حارة ومعتدلة ولكنه لايصلح لبيئة باردة أو متجمدة. ولازياء الثياب الصحراوية الفضفاضة علاقة بالمناخ الحار ، لانها تكون كعازل للحرارة بحفظها شيئا من الهواء بينها وبين الجسد . ومهما يكن من أمر تأثير المناخ في الزي ، فيمكن القول ان الزي تابع بأغلبه **لعوامل نفسية** : ذوق وتقليد ، واغراء جنسي خاصة ، ولعوامل اقتصادية (توفير) ، ولعوامل دينية (حمل الحجاب عند المسلمين وعدم اظهار شعر رأس المرأة وعدم ارتداء الثياب النسائية التي تظهر اجزاء الجسد ..) كما ان المسيحيين يجبرون النساء على تغطية الرأس ، وارتداء الفساتين ذات الاكمام الطويلة وستر الساقين بالكلسات عندما يدخلن الى الكنيسة ...) ، ولعوامل اجتماعية (الطبقات الاجتماعية) ولعوامل مهنية (اختلاف الثياب باختلاف المهن :الرهبان والعسكريون ...) ، ولعوامل بيولوجية (اختلاف زي الثياب ولونها حسب العمر ...) .

ويمكن القول ان الازياء بدأت تميل نحو الوحدة في البلاد المتمدنة ، لان الازياء التي تظهر في باريس مثلا تنتقل بسرعة الى جميع أنحاء العالم المتمدن متخطية الحدود والمناخات والثقافات ..

المناخ والغذاء :

للمناخ تأثير على الغذاء اذ يختلف الغذاء حسب الفصول : ففي الشتاء تقل

بعض المؤلفين الاميركان ان الشعوب الغربية لا تزال بعيدة عن ان تغزو تماما بصناعتها المناطق القطبية **والمناطق الاستوائية** . وليس السبب في ذلك **كراهة وراثية في شعوب** هذه المناطق لنمط الحياة الحديثة . ولكن لان الحضارة الغربية نمت في مناطق معتدلة ، فهي لذلك مناسبة لشروط هذه المناطق. ولهذا كان من المتعذر نقلها دون تحوير الى المناطق التي تختلف عن مناطق نشأتها اختلافا قويا بالشروط المناخية .

وهذا صحيح اذا ما اعتبرنا المواد او الوسائل او الآلات التكنولوجية. ففي المناطق الاستوائية الاكثر رطوبة يتلف العفن وبعض الاحياء المتلفة ، كثيراً من منتجات الحضارة الغربية كالاحذية والاقمشة والورق . . . الخ . وتتعرض المعادن للصدأ بسرعة .

وتتبدل ، في البلاد القطبية ، صفات وخصائص الزيوت والشحوم ، وتظهر المعادن صفات جديدة ، وتتجمد المعلبات وتنفجر ... أما في الصحاري الحارة فكل المصنوعات تجف . فالدهانات تبيض وتبهت وتمحي وتتساقط ، والمواد البلاستيكية تتجعد وتصبح سهلة التكسر ،والماكينات العادية تتأكلها الرمال . وقد برهنت الحرب العالمية الثانية في روسيا ان طقس الشتاء القارس يمكن ان يكون حاليا ملائماً للقتال العسكري اذا كانت الاسلحة والخطط العسكرية والستراتيجيات معدة لطقس (أو مناخ) تصل درجة حرارته الى ماتحت الصفر[٣١] .

ومهما يكن من أمر فان الصناعات الحديثة يمكن ان تتلاءم مع جميع الشروط المناخية عندما تدرس هذه الشروط .وبهذا يستطيع أصحاب المعامل والمصانع ان يهيئوا صناعات تلاؤمها وتتمشى مع ضروراتها .

المناخ والثياب :

للمناخ تأثير على الثياب واللباس . ففي جميع الأقاليم تكون الثياب في

---

(٣١) راجع : R. T. Lapiere : Sociology. p. 95

وهكذا تلاحظون ان عمل المناخ يؤثر في الاقتصاد الزراعي البشري تأثيراً قويا طالما هو اقتصاد بدائي ، ويخف هذا التأثير كلما ارتقى هذا الاقتصاد وانتقل من اقتصاد جسدي الى انتاج آلي أو تكنولوجي .

تأثير المناخ في الصناعة :

تؤثر الظواهر الجوية في الانتاج الصناعي . فارتفاع الحرارة والبرودة والرطوبة وارتفاع درجة النور فوق حد معين تعتبر ، كانخفاضها عن حد معين ، مضرة بالانتاج . اذ يضعف الانتاج في كلا الحالين . وقد انتبه السيكولوجيون الاجتماعيون المختصون بدراسة الصناعة والمعامل الى أهمية العوامل المناخية في سير العمل ومستوى الانتاج[٣٠] .

ولهذا التأثير أهمية قوية في الصناعات البدائية . ولكن الصناعات الحديثة الراقية في اوروبا ، وخاصة في البلاد الباردة (روسيا ، البلاد السكندينافية) وفي المناطق الباردة والحارة (في الولايات المتحدة الاميركية) ، أخذت تتحرر الى درجة قصوى من هذا التأثير بما اتخذته من وسائل ترفيه ضد الحرارة والبرودة . والاوروبيون الذين يعملون في الكويت والبحرين وافريقيا والبلاد الحارة الاخرى خلقوا لانفسهم وفي مصانعهم وأمكنة عملهم جواً اصطناعياً ملائماً . . .

وتتوقف بعض الصناعات على المناخ . كصناعة الدخان التي يلائمها الجو الحار وصناعة الصوف التي يلائمها الجو البارد ، وصناعة القطن تتأثر ايضاً بالرطوبة الى حد ما . . . ومهما يكن من امر فان الانسان الراقي استطاع أن يخلق اصطناعياً الجو الملائم لهذه الصناعات . . .

ويؤثر المناخ من جهة اخرى في السلع المنتجة في بلد معين . وقد ذكر

---

(٣٠) J.A.C. Brown : The social psychology of industry penguin books . 1956

أن يبذر بذوره في الارض في شهر ايلول وتشرين الاول اذ لم تهطل الامطار، وإذا بذرها وانقطع المطر تعذر إنباتها . واذا انتشت ولم يروها المطر جفت الارض ويبست . وكل منكم يعلم ما أصاب بلادنا من أضرار زراعية فادحة بسبب تأخر الامطار هذا العام . . وكل منكم يعلم قيمة الامطار بالنسبة للزروع والاقطان في بلادنا : ويعلم أيضاً كم تكون الاضرار فادحة على اقتصادنا عامة اذا انحبس المطر أو كان قليلا في سنة من السنوات .. ويؤثر المناخ في اتجاه التجارة الدولية لبعض المنتجات الزراعية . فالقهوة والكاكاو وقصب السكر والكوبره (Coprah) (بذور جوز الهند المقشرة) تتجه من المناطق الاستوائية الحارة نحو أميركا الشمالية مثلاً لمبادلتها بالطحين والانسجة والبترول ... (٢٩) .

كما يؤثر المطر في الاقتصاد القائم على الحيوان . وكل منكم يعلم كم تضرر ، في بلادنا ، الاقتصاد القائم على تربية الماشية : الاغنام والجمال لدى البدو بسبب انحباس المطر هذا العام . ويضاعف فصل ماطر عدد الخراف في اوستراليا .

وهكذا ترون أن المناخ والامطار تؤثر في **الزراعة والاقتصاد** القائم عليها وعلى **تربية الحيوان** تأثيراً حاسما ولكن هذا التأثير يقوى كلما كانت زراعة البلاد بدائية ويقل عندما تعتمد على السدود والاقنية المائية أي على الري الصناعي ...

ويعتبر العمل الزراعي شاقا في البلاد الحارة والباردة . ويصبح أسهل في البلاد المعتدلة . وهكذا يكون الانتاج هنا أقوى . هذا اذا كانت الزراعة تقوم على مجرد اليد العاملة البشرية . ولكنها عندما تعتمد على الآلات الزراعية الحديثة من حراثات وبذارات وحصادات فان تأثير المناخ يخف . لان الفلاح الذي يحرث أرضه بحراثة أو يحصد زروعه بحصادة في المناطق المعتدلة لا ينتج عمله أكثر منها في المناطق الباردة أو الحارة ...

---

(٢٩) راجع : J .Haesaert : Sociologie générale . p·366

الواقعة بين الدرجة ٥٠ و ٥٥ ينتحر ٨ مرات على الاقل أكثر منها بين المتوازيات الواقعة بين ٣٦ و ٤٣ درجة[٢٧] .

وقد رد دوركهايم على هذه النظرية وأرجع العوامل الى المجتمع وعوامله اذ تحت نفس المناخ ينتحر في المدن أكثر منها في القرى ، وينتحر العزاب أكثر من المتزوجين ، والمتدينون اقل من غير المتدينين..[٢٨] .

وفي الحقيقة يرجع الانتحار الى اسباب كثيرة : نفسية ومرضية واجتماعية واقتصادية وسياسية ابعد ما تكون عن العوامل المناخية .

٥ ـ المناخ والحضارة :

ويؤثر المناخ فى الوجه المادي من الثقافة البشرية أي في الحضارة. وتضم الحضارة الزراعة والصناعة وأنماط الثياب والمسكن والغذاء و ... وسنبحث في تأثير المناخ في بعض المظاهر الحضارية .

تأثير المناخ والمطر في الزراعة :

للنبات ضروراته . فهناك منطقة للقهوة ، وأخرى للذرة وثالثة للتبغ ورابعة لبعض الاشجار دون سواها . فشجرات الكرز والاجاص والتفاح لا تعبأ **بالمرتفع ومناخه** ، بينما لا تنمو شجرات الجوز ، إلا نادراً ، فوق علو ١٥٠٠م أما شجرات الزيتون والبلح والبرتقال فلا تكاد تفارق الوديان والسهول الدافئة (ينمو الزيتون على بعض المرتفعات وخاصة في البلاد المعتدلة المناخ) .

ولا يمكن أن ينكر انسان ما للمطر من أثر في حياة النباتات وبالتالي في الاقتصاد القائم على الزراعة . فكل منا يعرف أن الفلاح في بلادنا لا يستطيع

---

(٢٧) نقلا عن : Emile Durkheim : Le suicide.pp.83 ss .

(٢٨) لدراسة عامة جداً راجع: ybid . » »

وقد اعتقد هؤلاء المؤلفون ان الرق ونشوءه يمكن ان يفسرا بالعوامل الجغرافية والمناخية . ويذهبون الى القول : كثيرة هي النظم الاجتماعية التي نمت او امتنعت ، تبعاً لطبيعة القطر ، كالرق مثلاً . فالرق محصور في الجملة في البلاد الحارة ، حيث العمل مجهد والطعام وافر ، وحيث يكفي عمل الرجل لإعالة اثنين ، وحيث يمكن ان يطعم العبد ويكسى بقليل من النفقة ، وقد اندثر الرق من شمالي الولايات المتحدة مثلاً ، لانه لم يكن مربحا ، وراج في الجنوب لان العبد كان يستخدم في المزارع الكبيرة ، بما يعود بالفائدة ، وكذلك الامر في افريقيا وآسيا فقد راج الرق في تلك الاقاليم التي يجعل المناخ فيها العمل مكروهاً واستخدام الرقيق مربحاً .

واليكم رأي أحد المؤلفين الاوروبيين الذين تأثروا الى حد ما بالنزعة الجغرافية : « في المناطق المعتدلة ، لا يحقر العمل ذلك لانه سهل وعندما تحل ساعة المساواة فان هذه تجد فيها (المناطق) كل السهولة . وفي الهند حيث انه شاق (ومجهد) فمن الممكن أن يقال انه ساعد على ازدهار الرق ونظام الطوائف دون أن يقيمهما (أو ينشئهما) »[٢٥] .

والواقع أن هؤلاء المؤلفين وقعوا في خطأ عدم التمييز بين ماهو اقتصادي : العمل والربح ، وما هو طبيعي أو مناخي ! والرق يعود في أساسه الى عوامل اقتصادية وسياسية لا الى عوامل طبيعية أو مناخية . ولو كانت العوامل الطبيعية أو المناخية هي الاساس فيه لما كنا نستطيع تعليل ظهور نظام الرق في بلاد : كروسيا واليونان وايطاليا ، والولايات المتحدة . .[٢٦]

وقد حاول بعض المؤلفين أن يردوا الانتحار الى المناخ . اذ في رأيهم ينتحر الناس ، في أوروبا ، في الصيف ، وخاصة في شهري حزيران وتموز ، اكثر منه في الربيع وفي الشتاء (خاصة) . وبين المتوازيات (خطوط العرض)

---

(٢٥) J.Haesaert : Sociologie gènérale.p. 367

(٢٦) M.Lengellé : L'eSclavage . P.U.F. 1955

بالنشاط والتحرر . ولذلك كانت حريصة على استقلالها قوية الشكيمة تقابل بقوة وعنف كل من تحدثه نفسه بالاقتراب منها » (٢٤) .

وهكذا فاسترقاق بعض البلدان واستغلالها من قبل الاستعمار تابع للمناخ الحار خاصة . فهل نفهم كيف استطاعت تركيا أن تستعمر سورية ولبنان وتونس والجزائر وكل **أوروبا الشرقية تقريباً** ؟ وهل نفهم كيف يستعمر الآن الاميركان والانكليز والفرنسيون والروس ألمانيا بكاملها ؟ الواقع أن هذا تابع مباشرة الى عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية وستراتيجية اكثر منها مناخية ! حتى أن نظام الحكم يعود ، في رأي هؤلاء المؤلفين ، الى المناخ والى الشروط الطبيعية جملة . اذ يرون ان الديموقراطية منتشرة في الاقاليم الشمالية أو المعتدلة ، اكثر من انتشارها في غيرها ، كما يرون ان المناخ يؤثر في نوع الحكومة ، اذ يغلب وجود النظام الاستبدادي في المناخ الحار ، غير الصحي ، وتغلب الديموقراطية في المناطق المعتدلة .

فهل يستطيع هؤلاء المؤلفون على ضوء نظريتهم هذه أن يفسروا لنا وجود الديكتاتورية في أمم كتركيا وروسيا ويوغسلافيا وهنغاريا وبولونيا وبلغاريا ورومانيا وألمانيا (في عهد النازية) وايطاليا (في عهد الفاشستية) مع العلم انها جميعاً واقعة اما **في المنطقة الباردة ، واما في المنطقة المعتدلة** ؟

الواقع ان النظرية من مخلفات القرن التاسع عشر المبطنة بالاهداف السياسية والعرقية والاستعمارية . وقد نسخت في ايامنا من اغلب الكتب الاوروبية والاميركية (مهد الاستعمار الحديث) ونأسف ان تبقى في كتب تعلم وتدرس في بلادنا .

والنظام السياسي في بلد من البلدان تابع لدرجة رقي الشعب وتقاليده ووعيه السياسي والاتفاق أو عدم الاتفاق بين مختلف طبقاته وأجزائه واقتصاده وأطماعه وأمور أخرى هي بغالبها ثقافية وحضارية واجتماعية وليست جغرافية أو مناخية .

---

(٢٤) مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه . الجزء الثاني ص ١١١

مافعل الدكتور الخشاب بقوله : « اذ نلاحظ في البلاد الحارة التبكير بالزواج ، بينما سكان المناطق الباردة والمعتدلة لا يلجأون اليه الا في سن متأخرة نسبياً »[٢٥] .

ذلك لان التبكير بالزواج والتأخر به تابعان أيضاً لعوامل أخرى أهم بكثير من العوامل المناخية ، هي : المعتقدات الدينية : اذ قد يأمر دين من الاديان بالزواج الباكر (الدين الاسلامي) ، والمستوى الثقافي والحضاري (وهو أهم العوامل) ، وكلما كان المستوى الحضاري والثقافي راقياً تأخر الزواج (أوروبا ، أمريكا ، والفئات الراقية في بلادنا حالياً . .) ، وعلى العكس من ذلك كلما كان المستوى الحضاري متدنياً بكر بالزواج (كما يحصل لدى جميع البدائيين) ، **والعوامل الاقتصادية** : تدفع العوامل الاقتصادية لدى الشعوب الزراعية الى الزواج **المبكر لأن المرأة والأولاد يعتبرون كوسائل وقوى للانتاج** . وقد تكون العوامل الاقتصادية من فقر وبؤس وضيق حال عاملاً في تأخير الزواج ، كما يحصل لكثير من الشبان المسلمين الذين لا يقوون على دفع الصداق .

المناخ والسياسة والرق والاستعمار :

وقد حاول المغالون في قيمة العوامل المناخية والطبيعية ان يعللوا بها ظواهر اجتماعية وثقافية واقتصادية كالمؤسسات السياسية والرق ... وظاهرة نفسية واجتماعية كالانتحار . وقد تأثر بهؤلاء الدكتور مصطفى الخشاب وحسن شحاته سعفان وسواهما ... فالدكتور مصطفى الخشاب يقول : « **وللجو تأثير** كبير في الوضع السياسي . فالبلاد الحارة مصابة بالكسل والخمول رغم وفرة الخيرات فيها . ولذلك كانت هدفاً للاسترقاق والاستغلال . ووجد فيها الاستعمار كنوزاً لا ينضب معينها . أما البلاد الباردة والمعتدلة فتمتاز

---

(٢٥) الدكتور مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه . الجزء الثاني ص ١١٢ .

بعض الشعوب البدائية [٢٢] .

وهذا ما كان يحصل قديماً في البرازيل . اذ كان فصل الجفاف يسبب مدة من الحياة البدوية يتفرق فيها الذكور في الغابات ليقطفوا الاثمار أو يقتلعوا الاعشاب ، بينما كان فصل الرطوبة يسبب تجمعاً سكانياً يساعد على ازدهار الحياة الدينية والاعياد المرتبطة بها [٢٣] . ولكننا نشاهد في أمكنة أخرى علاقات مشابهة في الظاهر لهذه ولكن المناخ لايلعب فيها الدور الذي يلعبه في الامثلة السابقة . فمثلاً نجد لدى الكواكيوتل (Kuwakiutl) (أحد الشعوب الاولية) نوعين من النظمة الاجتماعية : الاولى خاصة بالحياة العادية وتتميز بالانقسام الى أسر وأفخاذ وعشائر ؛ والثانية قائمة على أساس ديني ينقسم فيها السكان الى مجموعات يحفظ كلاً منها روح خاص بها . تظهر الأولى في الصيف فقط ، بينما تظهر الثانية في الشتاء . وبعض الفئات الامريندية (بدائيون في أميركا) يبدلون زعماءهم حسب الفصول . فهنا نجد أن الأسباب الحقيقية لهذا التعاقب لاتخضع للمناخ : اذ لا يعتبر الطقس فيه سوى مناسبة [٢٤] .

ويؤثر المناخ في الأسرة من ناحية ثانية . حيث أنه يحصل زواج المرأة ، في البلاد الحارة ، أبكر من زواجها في البلاد الباردة ، لأن تلك تبلغ مرحلة البلوغ الفيزيولوجي (في سن التاسعة أحياناً) وهذه في السادسة عشرة أو السابعة عشرة . يعتبر هذا صحيحاً اذا تساوت شروط الحياة الاجتماعية والثقافية في البلاد الحارة والبلاد الباردة . ولهذا وجب ألا تعمم الامور تعميماً فاسداً على غرار

---

(٢٢) راجع :

Munir Mushabik MOUSSA : Théorie de l'origine de la religion chez Durkheim. Chap·I et II

(٢٣) راجع :

R.Bastide : Ls folklore brésilien,in Revue de psychologie des peuples .Vol.V.1950.pp.377ss

(٢٤) راجع :

J. Haesaert : Sociologie géneale .p.3 68

وهكذا نرى ان صحة ونشاط شعب معين يعتبران كنتاج لمتحولات عديدة ، ربما يعتبر مناخ المنطقة التي يسكنها من أقل هذه المتحولات أهمية . والعوامل الاساسية التي تحدد صحة شعب من الشعوب ونشاطه الاجتماعي وكذلك طابع حياته الاجتماعية هي احتياطي الغذاء ومستوى الحياة ، والتكنيات والوسائل الصحية والتدابير الطبية والحوافز على العمل . وكل هذه العوامل تعتبر ثقافية اكثر منها طبيعية . (٢٠)

المؤسسات الاجتماعية والسكان والمناخ :

يقترن عادة بإيقاع الفصول وتبدلاتها ايقاع وتبدلات في الحياة الاجتماعية . وهكذا ففي الصيف تقل كثافة سكان المدن السهلية الحارة المناخ ، بينما تشتد كثافة سكان الجبال التي تحولت الى مصايف . ويحدث العكس في الشتاء . وقد يقبل الكثيرون من الاغنياء الى المدن الساحلية او الشاطئية : **كالاسكندرية و « الكوت دازور » في فرانسا ...**

ويبدل المناخ لدى الأسكيمو نمط المجتمع (Le sociotype) . ففي الصيف تتفرق **العشيرة او الفخذ** وتعيش على أساس أسر تضم الزوجين وأطفالها ، تسعى كل منها في سبيل الرزق والصيد .. بينما تعود فتتجمع في الشتاء وتعيش على أساس الفخذ أو العائلة الكبرى وفي بيت مشترك واحد وطويل ، وتتحول الحياة في الشتاء الى حياة دينية بحتة تقام فيها الاعياد والطقوس الدينية ، بينما كانت في الصيف حياة اقتصادية .. (٢١) كما يحصل ذلك في أميركا الشمالية لدى

---

(٢٠) من أجل هذه الآراء حول تأثير المناخ في النشاط والصحة راجع :
R.T.Lapiere : Sociology . pp. 56-96

(٢١) راجع :
M.Mauss et H.Beuchat:Essai sur les variations saisonnières des sociétés eskimos.L'année sociologique 1904-1905 .pp.39 ss

نشاط الشعب وحيويته الجسدية

العلاقة ، بين العوامل المناخية والصحة الجسدية والنشاط والحيوية لشعب معين لاتزال غير واضحة تماماً . وقد رأينا سابقاً كيف يؤثر المناخ على صحة الفرد . . وقد ذهب بعض المفكرين الى القول بأن الشعوب الجنوبية (التي تسكن الجنوب) هي شعوب كسولة بسبب الحرارة[١٩] . ويرتبط بهذا الاعتقاد اعتقاد آخر هو ان الشعوب الشمالية هي شعوب ضيقة العقل وشحيحة وبخيلة بسبب قساوة شروط الحياة التي يفرضها مناخ بلادهم البارد . ويسري هذا الاعتقاد لدى كثيرين في أوروبا . ولكن اعتقاد بعض مئات ملايين في أمر من الامور لايجعل هذا الاعتقاد حقيقة واقعية وموضوعية . ذلك لان التمييز بين الشمال والجنوب يرجع باغلبيته الى عوامل اجتماعية اكثر منها مناخية . وما هو الشمال بالنسبة لمقاطعة يعتبر الجنوب بالنسبة لمقاطعة أخرى. **فمثلا الايرلنديون الجنوبيون الكسولون** يعتبر الفاصل بينهم وبين الايرلنديين الشماليين النشيطين سياسياً وثقافياً اكثر منه مناخياً . والجنوبيون في المانيا يعيشون في شمال شمالي فرانسا ، بينما يعيش جنوبيو فرانسا في شمال شمالي ايطاليا . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يعتبر النشاط (او الحيوية) الجسدي لفئة من السكان او (لشعب من الشعوب) في أي مقاطعة المقاس على أساس نشاطهم وفاعليتهم الثقافيين غير ثابت . فمثلا كان جنوب فرنسا ، في القرون الوسطى ، مركز حضارة فرنسا ، ولكن هذا المركز تحول منذ مدة غير قصيرة الى شمال فرنسا . .

---

(١٩) راجع من أجل وجهة النظر هذه :

a) S.F Markham: Climate and the energy of natione.Oxf. Univ.press .N Y.1945

b) C.A. Mills : Climate makes man . Harper.N.Y. 1943

وغالى في هذا المنحى ، استاذ آخر في جامعة عين شمس هو الدكتور حسن شحاتة سعفان ، وتفوق على زميله السابق اذ يعتبر ان النيل « فرض على المصري قديماً وحديثاً أن يكون بعيد النظر » . كما غرس في نفس المصري حب « الروتين على منوال معين » ، ويعزي هذا ايضاً الى « سير الطقس طول ايام السنة تقريباً على وتيرة واحدة» . والنيل مسؤول ايضاً عن المركزية في مصر . « وكان للنيل ولشمس مصر المحرقة صيفيا ، الفضل في ايقاظ الروح الدينية عند المصريين القدامى » و « الاخلاقية ، » و « جمال النيل ووديه الاخضر ، وسط الصحراء القاحلة ورمالها ، وصفاء السماء المشمسة نهاراً والمقمرة ليلا ، كل هذا أدى الى ترفيه الحس المصري . فالمصري يشعر بالجمال ويحس به وهو بحكم هذه البيئة ذو خيال خصب قد يبعد أحيانا عن الحقائق والعالم الملموس . ولعل شدة الحساسية هذه هي التي أدت به أن يكون سهل التأثر اندفاعياً في أخلاقه ومزاجه »[١٧] .

من المؤسف ان تصدر آراء كهذه عن هذين الاستاذين اللذين يعلمان في جامعتين عربيتين مصريتين ! ! واعتقد أنهما يجهلان نتائج افكارهما هذه واذا لم يكونا جاهلين بالمشاكل والمفاهيم الاجتماعية والسياسية فانني أشك في نواياهما اذ يمكن القول انهما يتآمران على الشعب العربي في مصر مع الفئات الاستغلالية والاستعمارية عن قصد او غير قصد ، لانهما يوحيان الى هذا الشعب البائس بأن **مصائبه واخلاقه وطباعه** وتفكيره واندفاعه وطيشه وسطحيته وبؤسه ، كل ذلك متأت عن النيل ومناخ مصر ويكونان بهذا قد ابعدا الشعب عن أعدائه الحقيقيين الذين يكمنون في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي !.

ولكتب هذين الاستاذين أمثال في الاقليم السوري والعراق وقد كتبت مع الاسف أحيانا بيد جماعة لايشك بنواياهم الطيبة وجهودهم المشكورة في خدمة الشعب ومحاولتهم لانقاذ البلاد من البؤس والتأخر !![١٨] .

---

(١٧) حسن سعفان : مبادىء علم الاجتماع ص ١٦٣-١٦٦

(١٨) يمكن لكل منكم ان يطلع بنفسه على هذه الكتب برجوعه الى كتب علم الاجتماع التي تدرس في المدارس الثانوية ودور المعلمين وفي جامعة دمشق مع الاسف الشديد !

عليهم برود الطبع وبلادة العاطفة. وسكان المناطق الجبلية والصحراوية يمتازون بالشجاعة والكرم وايواء اللاجئين والتمسك بالعصبية. ولكن لفقرهم وجدب أسباب الرزق نراهم يميلون الى السلب وقطع الطرق وسفك الدماء . . . »[١٥]

فاذا أمعنا النظر في هذا النص الذي تقصدنا اطالته ، واذا علمنا ان هذا الكتاب يدرس في كلية الآداب بجامعة القاهرة (وقد يكون في سواها) واذا علمنا ان الكثيرين من المثقفين المصريين يقرأونه اذا علمنا كل هذا ، أدركنا ان مصطفى الخشاب الاستاذ في الجامعة المصرية يقول للمصريين دون أن يشعر : بما انكم تقعون في بلاد حارة فأنتم اذن ، وبصورة حتمية ستدوم الى الابد ، تميلون الى الطرب والتفكه والرقص ويسيطر عليكم الطيش وقوة الاندفاع وعدم القدرة على ضبط النفس وتحكيم العقل !.

وهو لو عقل ذلك لعلم ان هذه الطباع تعود الى فساد النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في هذه البلدان البدائية وليس الى الطبيعة والمناخ. وماذا نقول لشعب سويسرا الجبلي الذي يعتبر أرقى شعب في اوروبا (لا بل في العالم)، وماذا نقول للبنانيين الجبليين الذين يعتبرون من أرقى سكان البلاد العربية والآسيوية، ماذا نقول لهم وهم ليسوا بقاطعي طرق وسالبين وسفاكي دماء ؟!.

وأمر من هذا أنه ينسب رأيا لسوركين بقوله : « فللمناخ تأثير كبير على الحياة الوجدانية وعواطفها وغرائزها والميل الى الاجرام والانتحار وما اليها من الظواهر الاخلاقية ». [١٦] انه ينقل هذا الرأي عن سوروكين دون أن يعلم ان كان لسوروكين أم لسواه . والواقع ان سوروكين أعطى هذا الرأي وناقشه وأظهر خطله الفاضح !

---

(١٥) مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه الجزء الثاني ص ، ١١١-١١٢

(١٦) يضع الاستاذ الخشاب اسم المؤلف والكتاب والصفحة أيضاً هكذا :

(1) Sorokin : Eontemporary sociologi. theories. p.160,163.

الفاسد الذي يتعرضون له والى الفقر والحرمان، لا الى الطبيعة والمناخ وحتميته!
(سنعود الى نقد هذه الافكار) .

الاخلاق والطباع

أما بالنسبة للعلاقة بين الطبـــاع والاخلاق والمنـاخ فان « العـلم الرسمي » والعلم الشعبي **يتنافسان في عملية تخيلية** يقوم بهـا اتباع كل منهما . اذ يعتقدون ان سـكان الجنوب فرحون : لانهم يتمتعون بشمس مشرقه وطبيعة **خيرة معطاءة** تعفيانهم من الحساب والتوفير والتفكير بالمستقبل . وبما انهم خالون من الهموم لذلك يأخذون الحيـاة كما هي ، ولا يثقل عليهم الفقر ولا الفوضى . ويحولون الى **هيجانات وانفعالات مبتذلة** او الى العاب ولهو الطاقات التي يستخدمها سكان الشمال للتلاؤم والتكيف وحل المشاكل . ولهذا فهؤلاء يعتبرون ذوي مزاج صعب وحزين ، لانهم في كفاح دائم ضد البرد والظل : انهم حزينون ورصينون ومتعقلون ويطلبون اجوراً باهظة ويفضلون على الديموقراطية نظاماً رأسمالياً منظماً تماماً . وقد قال بهذه الافكار ايبوقراط وابن خلدون وكثيرون من كتاب وفلاسفة القرون الوسطى ومونتسكيو (كما رأينا في مقدمتنا التاريخية وكما سنرى بعد قليل)، وقد شايعهم في أفكارهم هذه كثيرون في اوروبا واميركا وكذلك في بلادنا ، من أمثال الدكتور مصطفى الخشاب . اذ يقول هذا المؤلف : « ولا تقل الناحية الاخلاقيـة عن الناحيتين الاقتصادية والسياسية في مبلغ تأثرها بظروف البيئة . فللمنـاخ تأثير كبير على الحياة الوجدانية وعواطفها وغرائزها والميل الى الاجرام وما اليها من الظواهر الاخلاقية . فسكان المناطق الحارة يميلون الى الطرب والتفكه والرقص ويسيطر عليهم الطيش وقوة الاندفاع وعدم القدرة على ضبط النفس وتحكيم العقل . وسكان المناطق المعتدلة يمتازون باعتدال الامزجة والرزانة وبعد النظر والقدرة على كبت الانفعالات . وسكان المناطق الباردة يمتازون كذلك بالصبر والجد والقدرة على النضال ومصارعـة الظروف القاسية ويغلب

تسكن جزائر البحر الجنوبي يوجه الى صنع الثياب وبناء المساكن والتكنيات الأخرى التي تساعد على التلاؤم مع المناخ (١٢).

وهكذا نرى ان التلاؤم مع الظواهر الطبيعية والبيئة الجغرافية يؤثر في ثقافات وتفكير الناس . ولكن لا يعتبر العامل الوحيد في تفسير الثقافة والاختراع . ويجب أن نحذر من أمثال هذه الاقوال المغالية : « وأثرت البيئة في القدرة على التفكير والابداع الفني. فالبلاد الصحراوية ساعدت الافراد على التأمل وشحذ القرائح ، والبلاد الجميلة أثارت الاخيلة والقدرة على التغني بالجمال والفن ، والبلاد المعتدلة شجعت على التفكير الهادىء المنظم وسير الحقائق والقدرة على الادراك ولذلك كانت مهدا للاختراع والاكتشاف والتقدم العلمي والفلسفي » (١٣) .

سنعود الى الرد على مثل هذه الافكار غير العملية المدرجة في اكثر كتب علم الاجتماعي العربية .

الألعاب : ويؤثر المناخ في الالعاب . فالشتاء العابه والصيف العابه . وفي البلاد الباردة تظهر مثلا ألعاب التزحلق على الثلج التي لايمكن ان تظهر في البلاد الحارة. وكذلك يميل سكان الاصقاع الباردة الى الالعاب العنيفة المجهدة التي توفر لهم الدفء والحرارة. بينما يميل سكان البلاد الحارة الى ألعاب أقل حركة واجهاداً.. ولا يمكننا أن نقول مع الدكتور مصطفى الخشاب : « أما أهل المناطق الحارة فلا يميلون الى شيء من هذا لانهم كسالى يؤثرون السكون على الحركة » (١٤) .

لان مثل هذه الافكار يبذرها العرقيون والمستعمرون وينقلها مع الاسف (بعض اساتذتنا !) دون تمحيص ذلك لان هذه الشعوب اذا كانت كسولة فهذا عائد بقسمه الاكبر الى النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

---

(١٢) راجع: R. Lapiere: Sociology. Megrauw-Hill. N. Y. 1949. p. 93

(١٣) مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه . الجزء الثاني . ص ١١٢ (الطبعة الثالثة ١٩٥٨) .

(١٤) المصدر السابق . ص ١١٤ .

ومهما يكن من أمر استقلال الدين ، في انتشاره ،عن العوامل الطبيعية (اذ ان الدين المسيحي والدين الاسلامي والدين اليهودي منتشرة في أصقاع مختلفة المناخ والعوامل الجغرافية) فان الدين تأثر في نشأته بالعوامل الجغرافية والطبيعية. أثرت الحوادث الجوية في البدائيين فعبدوا السماء والشمس والقمر . ولا تزال هذه العبادة ظاهرة في بعض ديانات باطنية في سورية. واخترعوا الاساطير عن تبدل الفصول وقرأوا الحظوظ في الكواكب. ولا تزال هذه العادة متبعة حتى أيامنا وفي أرقى الدول... وتقوم الديانة الطبيعية (Naturisme) بقسم منها على الظواهر الجوية . وهكذا فالهواء الشرقي الذي يسبب المطر في أمريكا الجنوبية يعتبره بدائيو هذه البلاد إلهاً ،ولكنه يعتبر شيطاناً في الهند ذلك لانه يسبب الجفاف.

وفي الديانة الاسلامية التي ظهرت في البلاد العربية تعين الجنة (أو النعيم) في السماء وترسم على شكل جنات تجري من تحتها الانهار، ويرسم الجحيم (أو النار) على شكل نار مشتعلة أبدا تحرق أجساد الكفار والخطاة ، بينما يتخيل النورديون وبعض الشعوب التي تسكن الاصقاع الباردة جداً الجنة على شكل مكان دافىء توقد فيه النيران ويتخيلون الجحيم على شكل مكان بارد جداً وجليدي ،فنرى هنا أن الديانة تتأثر بطبيعة « المكان » الذي تظهر فيه .(١١)

الفن : وتؤثر الطبيعة والحوادث الجوية والظواهر الكونية في الفن عامة وفي الشعر والادب والاساطير خاصة .

التفكير والابداع : كما تؤثر الطبيعة على الفكر والابداع . اذ احياناً يستعملها الانسان ليتلاءم مع الشروط الطبيعية المحيطة به . فثقافات الشعوب التي تقطن القطب الشمالي موجهة في قسم كبير منها لتأمين كساء مدفىء ،وبيوت سكن حارة أو دافئة . بينما نجد قسماً ضئيلا نسبياً من ثقافات الشعوب التي

---

(١١) للتوسع التام راجع : Munir Mushabik Moussa : Théorie de l'origine de la religion d'aprés E. Durkheim. (thése complémantaire dactylographiée). La Sorbonne. paris 1958. Chap. IV. pp. 270 - 291 et Chap. V. pp. 402 - 491.

٣ - تأثيرات العوامل المناخية على المجتمع:

وتؤثر العوامل المناخية في المجتمع عن طريق تأثيرها في الافراد. ففي البدء حدد المناخ مسكن الناس ومواطنهم. اذ كانوا يعيشون على خيرات الارض، لهذا فتشوا بادىء بدء عن المواطن التي تساعد شمسها اكثر من سواها على نمو النباتات. وقد سبب الجوع، المرتبط بالحاصلات أو الغلات الرديئة، هجرات جماهير وكتل بشرية ضخمة. وقد طرد جفاف القشرة الأرضية الشعوب نحو شواطىء البحيرات الكبرى وضفاف الانهار العظمى. كما جذبت مياه التشاد والنيجر اليها القبائل التي طردها العطش من مواطنها.

ومن الواضح ان المواطن كثيرة الخيرات معتدلة المناخ تساعد على تأسيس حضارة وحياة متفوقتين اكثر من المواطن الجدبة وقاسية المناخ. هذا اذا تساوت بين مجتمعات هذه المواطن المؤهلات والنظم الاجتماعية والثقافية. ونبحث الآن بشيء من التفصيل في تأثير المناخ في الثقافة والحضارة وبعض المظاهر والمؤسسات الاجتماعية ...

٤ - الظواهر الجوية والثقافة :

تختلف ثقافات وتقاليد الشعوب التي تسكن مختلف اقطار الارض. وقد يكون مرد بعض هذا الاختلاف الى الشروط الطبيعية التي يتعرض لها كل من هذه الشعوب. وتظهر ردود فعل الانسان على المناخ والظواهر الطبيعية في كثير من صلواته وطقوسه السحرية واطلاق المدافع لانتاج رعد صناعي، والقيام ببعض الحركات السحرية كرش الماء في الجو على شكل مطر ليحدث المطر الذي انقطع عن السكان، والقيام ببعض الصلوات والتعاويذ السحرية لتأمين رياح ملائمة للسفينة التي اخذت تمخر عباب اليم، وابعاد الغيوم غير المرغوب فيها.

٢ - **الفصول والطقس :**

يتعرض كل مناخ ، اثناء السنة ، لتبدلات عارضة ، يتحملها الفرد اذا لم تتجاوز حدود تأقلمه . ومهما يكن من امر فهو متأثر بها . ويؤثر الطقس في الافراد فيستجيب له كل منهم قليلاً او كثيراً . فالنهار الصاحي الجميل المشرق يساهم في خلق الفرح والسرور ويساعد على تحمل **السآمة والملل** اللذين يجعلهما نهار غائم وثقيل اكثر ازعاجاً واصعب تحملا . وهناك درجة حرارة (أو طقس) ملائمة للأعمال الفكرية ودرجة حرارة اخرى تساعد على النشاط الجسدي.

وعندما تتجاوز درجة الحرارة ٢٦° فان النشاط الجسدي لدى الابيض يضعف ويبطىء . واذا تعرض لبرد قاس فانه يصرف حريراته ليحافظ على الدفء ولهذا يقل توارد خواطره واقبال افكاره. والطقس المتغير يثير الطاقة والفاعلية. ولا شيء يتعب اكثر من سماء تبقى دائما زرقاء ، أو الرتابة المناخية للمناطق القطبية ... وهناك امراض تعتبر فصلية . ويعتقد البعض ان ظهور اوراق الاشجار وسقوطها يعتبران سيئين بالنسبة للأطفال والشيوخ . ولكن الاحصاءات لم تؤيد هذا الرأي ، ومهما يكن من امر فان الوفيات تبلغ أعلى نسبة في كانون الثاني وتحت مناخات مختلفة مثل بروسيا والنمسا وسويسرا وايقوسيا . وفي نفس المناطق ، كما في ايطاليا ، تزداد الوفيات في شهرين يختلفان تماماً : هما آب وكانون الاول ، بينما تختلف نسبة الوفيات ، وفي نفس المنطقة ، في شهري تشرين الثاني وكانون الاول المتقاربين بالمناخ ... من هنا يظهر لنا ان للعوامل المناخية أثراً ما ولكن تدخل معها عوامل اخرى هي **الفقر والبطالة وعدم العناية الصحية** والتعب والارهاق من العمل الشاق والمتواصل وهموم الحياة وعدم الاطمئنان .

تماما من مناخ اكثر حرارة . فاذا مانقل الى مدن كباندونج ودالات (في الفيتنام الوسطى) وسيملا (مدينة في الهند) فانه يجب ان يصطاف سنويا في المقاطعات الجبلية والا فانه يرتخي ويفسد جوهره ويقل تناسله [٨].

واذا نقلنا الأسود الى المناطق الشمالية الباردة فانه من الصعب ان يتأقلم اذ تضايقه الغيوم والضباب وقد تقضي، مع اهماله وكسله ، على صحته. ويزيد أحد المؤلفين فيقول : وبما انه يعمل دائماً الى تأجيل عمل اليوم الى الغد فكأنه خلق لأفريقيا ، مسقط رأسه دون سواها [٩].

ويزيد مؤلف آخر فيقول : « بما أنه تعود على الالتقاط تحت شجرات الموز منتظراً ان تتم الطبيعة له عمله ، فهو لايعلم ماذا يفعل بثرواته الوافرة . حتى ان اوقات فراغه لايقضيها ، كالهندي ، في التأمل . بل يثرثر ويطرح الحزازير ويضحك بملء شدقيه . ويهمل العمل الذي يبدو لناضروريا ليذهب ويستمتع. انه يلعب ويرقص ويحارب ويقضي وقته بالمبتذلات . فلماذا يجهد نفسه مادامت حاجاته ترضى دون ان يتعب ؟ فاذا مانقل الى اميركا فانه يلاقي فيها نصيبه: السل والبؤس اللذين ينتظرانه » . [١٠].

هذه آراء استعمارية اوحاها الخبث الاستعماري . اذ يحاول هؤلاء المؤلفون ان يردوا كسل السود (او البدائيين عامة) الى محتمات مناخية بدلا من ان يرجعوها الى النظام الاجتماعي البدائي الفاسد . فهم بهذا يبعدون هؤلاء المساكين عن السبب الحقيقي لحالتهم هذه ويلهونهم بقدر الطبيعة ، وبقدر الآلهة او الاله !.

---

(٨) راجع : L. Febvre et L. Bataillon: La terre et l'évolution humaine. 1922. p. 120

(٩) راجع: M. Briault: Les sauvages d'Afrique 1931. pp.23-24

(١٠) راجع : Jean Haesaert: Sociologie générale p, 363

١ - مفهوم المناخ وتأثيره الانتخابي :

لقد عرف المناخ (Climat) بتعاريف عديدة . ولكن لم يكن واحد من هذه التعاريف كافياً وافياً . وانما يمكن القول ، بصورة عامة ، ان المناخ عبارة عن محصلة يجتمع ويختلط فيها الجفاف والحرارة والغط الجوي والرياح والرطوبة والاشكال المختلفة التي تتكاثف فيها . وقد ميز بعض المؤلفين بين ثلاثة انواع من المناخات : المناخات الاوقيانوسية (المحيطية) والقارية الجبلية . وترسم هذه المناخات مقاطعات تحدد وتشمل سكن الناس . وكما ان النباتات الاحراجية لاتنبت حول القطب فكذلك لايسكن الانسان في قلب الدائرة الشمالية . فانه يفقد حياته في يوم مظلم جداً . وكذلك لايسكن على ارتفاع تجاوز ٦٤٠٠م ويفقد حياته ، بصورة عامة ، في الاعالي الشاهقة التي تجاوز هذا الحد .

وفي داخل المقاطعات القابلة للسكن، يجري كل شيء وكأن لكل «عرق» مناخه الخاص . وعندما ينتقل من اقليم مناخه الى اقليم آخر فانه يشعر بالضيق والتبدلات العميقة . ويجري كل شيء وكأن النبات يتلاءم مع المناخات المختلفة بسهولة اكثر من الانسان .

وهكذا اذا نقلنا بعض نباتات سهول معتدلة المناخ الى جبال عالية فانها تقصر وتدسو ، وتسمك انسجتها ، وترد عن نفسها غائلة الجليد بمنظومات دفاع خاصة . وهكذا ففي نوفيل-زمبل (Nouvelle-Zemble) (أي الأرض الجديدة ، وهي مجموعة جزائر في المحيط المتجمد الشمالي تقع شمالي روسيا) لايتجاوز الصفصاف الاكثر ارتفاعاً العشرين سم . وفي افريقيا الاستوائية اذا نقلت اليها بعض الاشجار الخاصة فانها تنمو فيها نمواً ضخماً ومدهشاً ، ولكن الانسان اذا مانقل الى اقليم يعاكس تماما اقليمه فانه ينزعج انزعاجا كليا وقد يقضى عليه أحياناً .

فالابيض المتعود على درجة حرارة تتراوح بين + ١٥° و + ١٧° ينزعج

البشرية التي تستمد طابعها الخاص من العوامل الجغرافية بصورة اكثر مباشرة هي : ١ ـ المسكن والبيت ، ٢ ـ خاصة الطرق (او خطوط المواصلات) واتجاهها ، ٣ ـ زراعة النبات ، ٤ ـ تربية الحيوانات ، ٥ ـ استغلال المعادن ، ٦ ـ واتلاف النباتات وقرض الحيوانات [٦] .

وتختلف اهمية هذه العوامل الجغرافية باختلاف المرحلة التاريخية ودرجة الحضارة والتكنولوجيا . فمناجم الفحم أصبحت ذات اهمية عندما بدأ العصر الصناعي . وقد أخذت حقول النفط ومصادر الطاقة الكهربائية المائية ، في ايامنا هذه ، اهمية لم تكن لها سابقاً ...

٢ ـ التأثيرات غير المباشرة للعوامل الجغرافية :

وهناك عوامل جغرافية خفيفة التأثير بالنسبة للعوامل السابقة . فعندما ننتقل من هذه الى تلك يجب ان نتمسك بالحذر . اذ من السهل ان نجد ترابطاً بين العوامل المناخية والطبيعية الاخرى والظواهر الاجتماعية .

فقد وجد بعض المؤلفين ، مثلا ، ترابطاً او ارتباطاً (Correlation) بين المناخ والجريمة والانتحار والعته والنشاط العضلي والجسمي ... (سنعود الى هذا البحث) [٧] .

ونبحث الآن بالتفصيل تأثير العوامل الجغرافية في حياة الناس الاجتماعية والفردية.

اولاً ـ تأثير الظواهر الجوية :

كنا قد قسمنا العوامل الجغرافية الى قسمين : الجوية والارضية . ونبدأ اولا بدراسة تأثير العوامل الجوية ..

---

(٦) راجع : J. Burnhes: Human geography. N. Y. 1920. Chap. 1 and 11

(٧) راجع : Maciver and Page: Society. pp. 106-109

على العقبات التي تضعها في سبيل غاياته فهو لايستطيع ان يسيطر على الرياح ولكنه يقدر ان ينصب أشرعته لافتتاحها والاستفادة منها ، وهو لايستطيع ان يغير الفصول السنوية ولكنه يستطيع ان يقي نفسه عائلة الحر والبرد .

وهناك عوامل جغرافية أخرى تخضع جزئياً لسيطرة الانسان المباشرة وبامكانه ان يستفيد منها **ويحورها** ايضاً . وتضم في الدرجة الاولى توزيع الحيوان والنبات وخصب التربة . فهو يأخذ الحيوانات والنباتات التي ترضي حاجاته فيولدها ويربيها كما يستأصل الحيوانات والنباتات الضارة ويقلب بهذا التوازن الطبيعي للحياة العضوية وهو ينتخب اصنافاً قليلة ويولد منها أنواعاً لاتعرفها الطبيعة المتوحشة ويحلها محلا ممتازاً على سطح الارض . وهناك مساحات معروفة بنوع من النبات دون سواه أوجدها الانسان وسهر على المحافظة عليها، منها مناطق القمح والذرة والتبغ والرز (الارز) والقطن .. وتصبح هذه مرتبطة بثقافة البقعة التي تقع فيها وبمؤسساتها الاجتماعية .. وهكذا تنشأ مساحات جديدة يحددها استغلال الانسان للاشكال المختلفة للحياة العضوية ..»[٥]

العلاقات الخاصة بين الجغرافيا والمجتمع :

تمارس العوامل الجغرافية نوعين من التأثيرات على المجتمع : الاولى مباشرة والثانية غير مباشرة .

١ – التأثيرات المباشرة للجغرافيا أو العوامل الجغرافية :

تهيء الجغرافيا بعض الاحوال التي مازالت ذات اهمية اقتصادية . وقد اشار جان برنز (Jean Burnes) الى ستة انواع رئيسية من الفعاليات

---

(٥) راجع : R. M. Maciver and CH. H. Page : Society. London. 1955. pp. 98-99

يمكن ان تراجع الترجمة العربية لهذا الكتاب الفصل الخامس . (نشر مصر ١٩٥٨) .

لايسعنا ، في هذه الدراسة ، الا أن نعطي للعوامل الجغرافية الاهمية التي تستحقها في تعليل الحوادث والظواهر الاجتماعية .

مفهوم وتقسيمات العامل الجغرافي :

يتضمن العامل الجغرافي مجموعة الظواهر الكونية التي تمارس — خارج تدخل الانسان — تأثيرها القوي أو الضعيف على سلوكه الاجتماعي . واهم هذه الظواهر المناخ والفصول والارض والجبال والمياه والرياح والتيارات البحرية والغابات والنباتات الطبيعية والوضع والامتداد .. وقد صنفها هويتبك **وتوماس** الى اربعة اصناف : الجو (l'atmosphère) والارض (La lithosphère) والماء (l'hydrosphère) والاحياء (La biosphère) (٤) .

اما نحن فنجعلها صنفين : **الظواهر الجوية** (météorologiques) التي تحدث في السماء ، **والظواهر الارضية** (Chtoniques) التي تحدث على الارض خاصة .

العوامل التي لايمكن السيطرة عليها والعوامل التي يمكن السيطرة عليها :

نحسب في عداد العوامل التي لايمكن السيطرة عليها (Incontrolable) علاقة الارض بالشمس والقمر ومساحة الارض ومقدار مواردها المعدنية ومواقعها وتوزيع القارات والبحار والسهول والجبال والانهار والبحيرات والفصول السنوية ، والمد والتيارات البحرية وسقوط المطر (الى حد ما) وهبوب الرياح والطاقه الكهربائية . فالانسان لايتمكن ، من تُغير هذه العوامل الا بصورة طفيفة لاتكاد تذكر ... ولكن ليس تحت رحمة هذه العوامل تماماً لانه يقوى الى حد ما على استغلالها والاستفادة من الفرص التي تقدمها له والتغلب

(٤) R. H Whitbeck and O. Y. Thomas : The geogoaphic factor, its role in life and civilization. 1932. p. 59

الذي يبلغ ٤٦٠٠ م وتعرضها لضغط جوي قاس جداً على كل ساكن جديد واعاصير مخيفة ، وغبار مزعج ، وستة أشهر من الثلج في السنة ، وحرارة تهبط الى ٢٥ درجة تحت الصفر .

وكم من ثروات طبيعية بقيت مهملة وعديمة النفع في بلدان عديدة على الرغم من وجود السكان فيها . كما حدث في اميركا الشمالية حيث بقيت ثرواتها الطبيعية كالنفط والفحم والحديد ، دفينة في الارض الى ان جاءها الرجل الابيض فاستخرجها واستغلها . بينما لاتزال بلدان لاتقل غنى عنها ، كالصين مثلا ، غير مستغلة لكنوزها . ولذا قيل : **لايقرأ الاقتصاد على الخرائط فقط !**

ويعطينا التاريخ أمثلة أخرى . **فكم من تاريخ شعب تغير فجأة** دون ان يحصل اي تبدل لا في السماء ولا في الارض . فنفس الشمس التي ساهمت في مجد **نينوى وبابل** لم تمنع أفولها . وقد تهدمت روما وأثينا على الرغم من تعرضها لنفس المناخ الذى شهد طويلا عظمتها ومجدهما . وعندما غادر العرب اسبانيا ، التي كانت في أيامهم ، عبارة عن جنة من الفواكه والورود والزهور ، تحولت الى اراض جافة تكسوها الاعشاب الضارة على الرغم من عدم حصول اي تبدل مناخي . وهناك امثلة اخرى عديدة تدل على أن الحوادث الاجتماعية والتبدلات التاريخية ليست مرتبطة بالعوامل الجغرافية .

وكما يعتقد جـ . دايكمنز (G . Dykmans) : ان الحوادث هي ، بالنسبة للجغرافيا ، ملأى بالحظوظ السيئة والحواجز المذللة والتناقضات والمدهشات : انها تعاكس المنطق البسيط للامكنة لتخضع لمنطق الناس الذين يستلهمون مبادىء اكثر تعقيداً .. [٣] وتدركون ، منذ الان ، خطل تلك النظريات التي تحاول أن تعلل الحوادث الاجتماعية بحوادث كونية أو جغرافية .. ولكن

---

(٣) G. Dykmans : Introduction critique à la science économique. Tome. II. Paris. 1951. pp. 305

في حال بعض البلدان ، فروما المدينة الشهيرة بنيت في ردب يوصل اليه بمشقة على ضفتي نهر صغير ، بعيداً عن البحر الذي كان يفتح صدره واسعاً لبنائها . والشتاء فيها بارد والصيف خانق الحرارة ، غير صحي يهرب منه الناس الميسورون منذ ظهور أول موجات حرارة . وتقوم مدريد على هضبة باردة شتاء حارة صيفاً . وهناك مدن كبرى ، كنابولي ، ولوس انجلس ، وسان فرنسيسكو ، لا تفتأ تتوسع باطراد رغم التهديد المستمر **للهزات الارضية** (الزلازل) التي تهدمها بين زمان وآخر . وكيوتو (Kioto) ، العاصمة القديمة لليابان ، تعرضت ، خلال عشرة قرون ، لـ ١٣١٨ زلزالا . وفي ايلول عام ١٩٢٣ هدمت طوكيو بكاملها تقريباً أثر زلزال قضى على اكثر من ١٥٠ ألف شخص . ولكن بناءها أعيد دون توقف أو تردد . وهذا ما يحصل لكثير من مدن اليابان ، ولكنها مع ذلك آهلة بالسكان .

وهولاندا المتاخمة للبحر والتي تتعرض باستمرار لثوراته المخربة والتي كانت أمواجه تقضي ، فيما مضى وبليلة واحدة ، على عشرات القرى وآلاف الناس ، ما يئست من حالها هذه واستمرت تعيش في هذه البقعة التي يصعب العيش فيها وفتشت عن مواردها خارج حدودها (في المستعمرات مثلا) .

وكذلك الدانمارك ، ذلك البلد الصغير والرطب والضيق والذي تنقصه المناجم والنفط والمعادن ، تستمر في العيش ، وتصرف شؤونها بشكل مدهش مما يجعل لها مركزاً دولياً محترماً لا يتناسب مع صغرها . يحيط البحر بسكانها لذلك يعملون في الزراعة .

وكذلك ايسلندا (جزيرة واقعة في الطرف الشمالي من الاتلنتيكي) انتجت مدنية زاهرة على الرغم من تعرضها الدائم للأمطار المستمرة وللخوف من أرض بركانية ورغم ان النهار الشتائي لا يزيد فيها على أربع ساعات والشهور الصيفية لا تربو على بضعة أسابيع .

وهضبة التبت تضم مليونين من الناس يتكيفون معها على الرغم من ارتفاعها

الفصل الثامن

العوامل الجغرافية والطبيعية وأثرها في الفرد والمجتمع

نبدأ بدراسة العوامل الجغرافية والطبيعية وتأثيرها في المجتمع والفرد لانها تبدو للدارس أوضح وأقرب متناولاً من سواها .

عدم التوافق بين الحوادث الجغرافية والحوادث الاجتماعية :

تحذر الطبيعة من جهة ، وكثيراً ما تغري من جهة ثانية ، ولكن الناس لا يصغون اليها دائماً . فخريطة توزيع السكان في العالم وخريطة البقاع الاكثر تلاؤما للسكن البشري تتوافقان بصورة عامة . ولكنهما تتعاكسان أحياناً اكثر مما نظن . فهناك في الاميركتين وأوستراليا وأفريقيا بقاع خصبة وسهلة المنال ولكنها مع ذلك خالية من السكان . بينما هناك جماهير وجماعات لا تحصى تعيش تحت سماء ومناخ قاسيين ، كما في الصحاري ، وفي الهند خاصة حيث بسبب فقدان المطر المجاعات الهائلة التي تقضي يومياً على مليونين من الضحايا البشرية وتغذي ليلا ونهاراً النيران على معابر بنارس (أو باناراس) [١] و [٢] .

وتبدو بعض احتقارات الطبيعة واضحة في حال بعض المدن الكبرى وحتى

---

(١) مدينة مقدسة في الهند تقع على نهر الغانج .

(٢) راجع : H. W. Von Loon: Géographie nouvelle, trad. H et A. Collin: Delavand. 1937. p. 290

المادية من الثقافة البشرية . ولا يمكن فهم نفسية شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات وكثير من ظواهره الاجتماعية الا اذا فهمنا العوامل الثقافية والسياسية التي تهيمن فيه وتوجه سلوكات أفراده .

وفي كل مجتمع عوامل ديموغرافية (تابعة للسكان) وعوامل مورفولوجية (تابعة لتركيب المجتمع وبنيته وفيزيولوجياه) واجتماعية محضة (تابعة للتصورات الجماعية والتفاعلات بين الافراد . . .) ، كما أننا لا يمكن ان نفهم ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو حالة راهنة في مجتمع ما اذا عزلنا هذا المجتمع عن تاريخه الطويل وعن تطوره الكلي والعام. فاذا لم نعر العوامل التاريخية أهميتها في التعليل الاجتماعي والفهم لبنية المجتمع فاتتنا أمور كثيرة وجهلنا أموراً أخرى عديدة. وهكذا نلاحظ اننا لنفهم المجتمع وجب أن ندرس العوامل والعناصر **الجغرافية والبيولوجية والنفسية** وحتى الفيزيولوجية والاقتصادية والثقافية والمورفولوجية والاجتماعية المحضة والديموغرافية والتاريخية . وتجب الاشارة الى أن هذه العوامل **متشابكة ومتداخلة في الكل الاجتماعي** . ولا يمكن فهم هذا الكل الاجتماعي (المجتمع العام) الا على أساس **هذه النظرة الكلية الشمولية التداخلية** ، والتي تنظر الى المجتمع **كوحدة وكل** ، وتحاول أن تفهمه كوحدة وكل دون **عزل وتفريق** وتجزيء بين مختلف عوامله وعناصره . وكل نظرية تحاول أن تعلل المجتمع والظواهر الاجتماعية على أساس نوع واحد من هذه العوامل الآنفة الذكر هي نظرية **جزئية وتجزيئية وسطحية ومحدودة** وبعيدة عن موضوعية العلم . ونحن اذا ما حاولنا ، في هذه الدراسة ، عزل هذه العوامل ودراسة كل نوع منها على **حدة فذلك لضرورة منطقية وشكلية وتحليلية** ولغرض التعمق في فهم طبيعة كل منها وأثره في المجتمع . نفعل هذا الآن على أن نعود في نهاية هذا القسم فنقدم نظرة **شاملة وكلية وتركيبية** تعطي القارىء فكرة واضحة عن المنحى والطريقة والنظرة الموضوعية الصحيحة والواقعية لدراسة وفهم وتعليل المجتمع وظواهره ومؤسساته . . .

تصدير للقسم الرابع

لا نستطيع ان نبحث في هذا الكتاب المخصص للسوسيولوجيا العامة في تطور المجتمع البشري وانتقاله من البسيط الى المركب (أو المعقد) ومن العشير الأولي الى الامبراطورية والدولة الفيدرالية . وانما سنعود الى مثل هذا البحث في كتاب آخر يخصص **للسوسيولوجيا الديناميكية والتطورية** . وقصدنا أن نبحث في القسم الحالي العوامل الهامة التي تلعب دورها في تعليل الحوادث والظواهر والمؤسسات الاجتماعية وفي تعليل مجرى التطور الاجتماعي والتاريخي ، والعناصر الهامة الداخلة في تركيب المجتمع والحياة الاجتماعية . فنحن في دراستنا للمجتمع نرى أن كل مجتمع يعيش على بقعة أرض معينة خصبة أو جديبة ، سهلية أو جبلية ، ساحلية أو داخلية أو صحراوية ، خاضعة لمناخ معين حار أو بارد أو معتدل ، وواقعة بين دول عديدة أو منعزلة . . ودراسة هذه العوامل الجغرافية والطبيعية ضرورية لفهم بعض تنظيمات ومؤسسات اجتماعية وبعض أفكار ومظاهر ثقافية سواء ما كان منها دينياً أو سياسياً أو أدبياً أو فنياً .

كما نرى ان كل مجتمع يتألف من أفرادهم كائنات حية حيوانية لها **حاجاتها البيولوجية** من حاجة الى الطعام وأخرى الى الماء وثالثة الى المحافظة على الحياة ورابعة للدفء والراحة والاطمئنان . ولها عقلها الذي غالباً ما تستخدمه كوسيلة لارضاء هذه الحاجات والرغبات ، ولها أيضاً شعورها وعواطفها وتفاعلاتها فيما بينها . فدراسة العوامل البيولوجية والنفسية ضرورية جداً لفهم كل ثقافة وكل مؤسسة اجتماعية واقتصادية . وفي كل مجتمع مؤسسات ووسائل وظواهر اقتصادية ضرورية لبقاء الأفراد والمجتمع لا يمكن ان تفهم الظواهر الاجتماعية والعمليات الاجتماعية بجزء كبير منها الا على ضوئها . لهذا كان من الضروري اعارة العوامل والعناصر الاقتصادية اهتماماً خاصاً لما لها من أثر كبير في المجتمع وعلاقة وثيقة بحاجاتنا الأولية . . وفي كل مجتمع ثقافة تضم التقاليد والعادات والاعراف والمظاهر الفكرية والسياسية ، وحضارة تشمل التيكنولوجيا والمظاهر

القسم الرابع

ـ العوامل المحددة في المجتمع البشري

والعناصر التي تدخل في تركيبه

ـ بعض النظريات الاجتماعية ـ

ـ علاقة السوسيولوجيا ببعض العلوم الاجتماعية الاخرى وبعض الفلسفات .

وبيولوجية . ويجب أن تهدينا هذه الدراسة الى اعتبار هذه العوامل في السلوك الاجتماعي البشري الذي حجبتها فيه عن أعيننا العوامل الثقافية والاجتماعية . ويظهر لنا من هنا انه ليس هناك اختلاف في الطبيعة بين المجتمع البشري والمجتمعات الحيوانية ولو أن المجتمعات الحيوانية تختلف عن المجتمع البشري بما لا تملك أكثر منها بما تملك .

وعلينا ، على الرغم من هذا كله ، أن نحترز من المشابهات والتمثيلات السطحية بين هذين العالمين الاجتماعيين كما يقرر شنرلا (Schneirla) (١) .

★ ★

(١) راجع فصله في كتاب J. H. Rohrer and M. Sherif : Social psychology at the Crossroads. 1951.

علينا عندما ندرس الحياة الاجتماعية البشرية **الانغفل وجهة النظر الكونية** (cosmique) أي اننا ننتسب **الى عالم متطور** وان للانسان سابقين (او مبشرين) وان مرحلة الوعي او الشعور البشري سبقتها مرحلة أخرى ادنى شعورا وادنى وعيا : ذلك لان المجتمعات الحيوانية لدى الفقريات ، وخاصة لدى القرود ، تملك شيئا من الوعي او الشعور ادنى من الوعي او الشعور البشري ، وهذا تابع الى درجة الذكاء ونمو الشخصية . ولهذا فاننا لايمكن ان نفهم شيئاً من الظاهرة البشرية اذا لم نرجع الى المراحل الحيوانية التي سبقتها . ولا يمكن ان نفهم منها شيئاً اذا اعتبرنا فقط الانسان الحالي ومجتمعه الثقافي الذي يمثل أكثر من ستمائة ألف عام من الجهود المستمرة . وقد أحسن السولوجيون بدراستهم للمجتمعات البدائية ولكنهم مع ذلك درسوا بدائيين قدماء ولكن متأخرين عنا في المستوى الحضاري .

وهكذا يجب أن نضع في حسابنا الاعتقاد بأن المجتمع البشري تطور في جميع مظاهره وأنه متطور أيضاً ، وأن تيار التطور لن يتوقف . وسندرس في فصول قادمة تطور المجتمع البشري منذ نشأته حتى أيامنا هذه أي منذ العشير والأسرة الى الأمة والامبراطورية وتطور جميع نواحيه المادية والثقافية والاجتماعية والسياسية .

وربط المجتمعات البشرية المعقدة بالمجتمعات الحيوانية في اطار التطور يساعدنا في آن واحد على فهم الانسان **واتجاه التاريخ** الذي هو **الانسنة (او التبشر)** (humanisation) الثقافية المستمرة للانسان والمجتمع . ويساعدنا هذا على اعطاء وجهات نظر المستقبل أساساً علمياً موضوعيا يلائم الجميع وان نربط بهذه النظرة التطورية الى العالم أخلاقاً تتوافق معها .

وهكذا فسوسيولوجيا المجتمعات الحيوانية أظهرت لنا أن الحادث الاجتماعي الاولي ، الذي هو التجاذب الاجتماعي ، هو عبارة عن عملية سيكو- فيزيولوجية

تابعة ومتعلقة ، بينما يعتبر المجتمع تجمع افراد **يظلون مستقلين** حتى ولو حد اتحادهم من استقلالهم .

وهكذا فدراستنا هذه ، التي تدفعنا الى انكار النظرية العضوية في السوسيولوجيا، تدفعنا بالمقابل الى اعتبار العوامل البيولوجية في تعليل الظواهر الاجتماعية والسلوك الاجتماعي البشري .

وقد دلتنا هذه الدراسة على اننا كلما ارتفعنا من مستوى الى آخر في السلم الاجتماعي الحيواني وجب علينا ان ندخل في حسابنا عوامل جديدة علاوة على العوامل التي وجدناها في المستوى الادنى . ففي مجتمعات الحشرات رأينا ان العوامل البيولوجية كانت هي الغالبة والمسيطرة وعندما انتقلنا الى مجتمع الحيوانات الفقرية وجدنا عوامل اخرى هي العوامل السيكولوجية منها **الذكاء والذاكرة** والادراك والشعور ولو البسيط .

وعندما سننتقل الى مستوى المجتمع البشري فاننا سنضطر الى اعتبار عوامل جديدة ، هي العوامل الثقافية والتاريخية ، علاوة على العوامل السابقة . كما لاحظنا ما للعوامل الاجتماعية **المحضة : المورفولوجية والديموغرافية** : ككثافة السكان وشدة كثافتهم وشدة العلاقات الاجتماعية وتوثقها وشكل التنظيم الاجتماعي من تأثير فعّال في جسد الحيوان ونفسيته وسلوكه . ولهذا وجب علينا ان نعيرها كل الاهتمام عندما سندرس المجتمع البشري .

ورأينا ايضا أهمية الطبيعة والارض والمناخ والغذاء والمأوى بالنسبة للمجتمعات الحيوانية . لهذا علينا ان نولي اهتمامنا العوامل الطبيعية والجغرافية والاقتصادية في دراسة المجتمع البشري وتطوره وتبدله وتكون ظواهره ونشوئها .

وقد لاحظنا تماما ان المجتمعات الحيوانية في تطور وان بطيئا. ولهذا وجب

نفسه . والقسم الآخر يرجع الى **اكتسابات الترويض والتعلم أو الى مكتسبات الذكاء** .

وفي الواقع يتجاوز الاجتماعي المجال السيكولوجي حيث انه، وخاصة لدى الحشرات ، يمكن ان يؤدي الى تمايز مورفولوجي للافراد تبعا لوظيفتهم أو مهمتهم في المجتمع . ويتخذ الاجتماعي لدى الانسان دون سواه وبفضل اللغة التي تعتبر عنصر تشام بالنسبة للنفسية البشرية، اتساعا ثقافيا جديداً مع العلم انه يحافظ على صبغته السيكولوجية والعضوية .

ومن السلوك الاجتماعي للفرد ، الذي يعتبر الواقع (او الحقيقة) الموضوعي الوحيد والمرسخ في الاعراف والتقاليد بقدر عادات الخلية في الغريزة ، تبرز تلك **المجموعة من القواعد المحددة** (أو التحديدية) ، تلك المجموعة التي تشكل المجتمع الذي لايمكن اعتباره واقعا (او حقيقة) موضوعيا مستقلا عن الافراد ويعلو عليهم . فالناس هم الذين شكلوا المجتمع ولكن المجتمع يعود بدوره فيشكل الناس فيحررهم او يضطهدهم ويضغط عليهم . والمجتمع الذي هو استعداد فردي نوعي محسن بالاختراع والابتكار يجب ان يبقى في خدمة الفرد والنوع ..

وتبعدنا دراستنا هذه عن وجهات نظر اولئك السوسيولوجيين الذين يميلون الى اعتبار «شخصا او كائنا» وواقعا مستقلا عن الفرد يعلو عليه ، وما على هذا سوى الخضوع له ، كما يميل بعضهم الى اعتبار المجتمع جسداً حيا او «جسداً فوق العضوي» (Superorganisme) . وسنعود الى مثل وجهة النظر هذه في فصل قادم .

ومهما يكن من امر فان تركيب الجسد وتكوين المجتمع هما **عمليتان بيولوجيتان** ، يقولبان العناصر التي تكونهما بصورة متشابهة أحيانا ولكنهما مع ذلك يظلان ظاهرتين مختلفتين : فالجسد هو عبارة عن فرد مكون من حجيرات

نتيجة عامة للقسم الاول

لم يكن هدفنا من هذه الدراسة الموجزة للمجتمعات الحيوانية المقارنة بين هذه المجتمعات والمجتمع البشري وانما كان الغرض منها التوصل الى فهم الاجتماعي (Le social) وفهم العناصر والعوامل التي تلعب دورها كمحددات (déterminants) في المجتمع والحياة الاجتماعية .

وتعتبر هذه الدراسة على غاية من الاهمية ذلك لانها تمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية وهي على حال من البساطة تساعد على فهمها عندما تصبح على حال من التعقيد في المجتمع البشري . وقد مكنتنا من دراسة نمو ونشوء بعض الظواهر الاجتماعية كمواقف الرهط الداخلي والرهط الخارجي ، والزعامة ، والدارج الاجتماعي والسيطرة الاجتماعية ، والتعود الاجتماعي ، والاستقرار والتطور الاجتماعيين وامور أخرى، يشترك فيها الانسان والحيوانات الاجتماعية.

واذا كان الانسان يشترك مع بعض الانواع الحيوانية (وخاصة مع اقربها اليه) في سلوك معين أو في سلوكات اجتماعية معينة فهذا يدفعنا الى الافتراض بأن لهذا السلوك او السلوكات **اساساً بيولوجيا** وفيزيولوجيا . ويساعدنا هذا في النهاية على تمييز العوامل الوراثية من العوامل البيئية المكتسبة التي تلعب دورها في تحديد الظواهر الاجتماعية ...

وقد اطلعتنا هذه الدراسة على ان **الاجتماعي** ليس سوى سلوك معين للفرد في علاقاته مع الآخرين وخاصة مع اشباهه. ويستمد قسم من هذا السلوك الاجتماعي من التكوين الجسدي للفرد وهو كالبنية العضوية مرسوم في نمو الفرد

مصادر عامة لهذا الفصل

(١) O. Klineberg : Social dsychology (revis edit) N. Y. 1954. Chap. II

» : Psychlogie sociale. Paris H. U. F. 1957; Chap.II

(٢) Lindzey : Handbook of social psychology. N. Y. 1954. Vol. I. Chap. XV

(٣) P. Chau chard : Sociétés animales, société humaine Paris P. U. F. 1956 2ème partie. Chap I et II

(٤) Pr. Grassé : Structure et physiologie des sociélés animales. Paris C. N. R. S. 1952.

(٥) Bourlière : Vie et mœurs des mammifères. Paris. Payot. 1951.

(٦) فؤاد البهي السيد : علم النفس الاجتماعي . الطبعة الثالثة . القاهرة دار الفكر العربي الفصل الثالث ١٩٥٨ .

فيما بينها وتتفاهم بلغة صوتية واشارية رمزية هي ادنى من لغة الانسان اللفظية والمفهومية . كما ظهر لنا جليا وجود شيء من التبدل والتغير في سلوكها يدل على وجود «ثقافة» حيوانية اولية تختلف عن الثقافة الانسانية التي تحفظ بواسطة اللغـة ومظاهر الفن ، ووجود دارج اجتماعي يقوم لديها على القوة والسيطرة والحيويه والسن والمهارة ... والزعامة المتعلقة عامة بالسيطرة والقوة والغلبة .

كما رأينا لديها سلوك العدوانية المصحوب بسلوكات التعاون والصداقة والايثار والتجاذب الاجتماعي والتقليد الذكي ..

استعماله العصا لرميها والصندوق أو الصناديق للتوصل الى مسها بالعصا . ولكن واردن يؤكد ان مثل هذا السلوك يعتبر نادراً بين القرود .(٤٥)

ومهما يكن من امر فان الانسان يتوصل بواسطة الترويض والتعليم الى جعل القرد يقلد كثيراً من اعماله : كالرقص والاكل والنوم والمشى والتصفيق والتقبيل واللعب والاشارات واستعمال أو استخدام بعض الآلات والوسائل بسيطة التركيب . ويصل التقليد الى أعلى ذروته في المستوى الحيواني ، لدى الشيمبانزي . اذ يأتي بالدرجة الثانية بعد الانسان. ذلك لانه اذكى الحيوانات وما يميز بين تقليد وتقليد هو درجة الفهم والادراك للموقف (أوالوضعية)الذي يراد تقليده (أو تقليدها) .

ويلعب التقليد دورا هاما في المجتمعات الحيوانية العليا كما يلعب دوره في المجتمع البشري . اذ يعتبر لدى الحيوانات الوسيلة الوحيدة تقريبا لاكتساب الخبرات الجماعية او الاجتماعية السائرة واحيانا الفردية المبتكرة ، .. كما يعتبر احيانا وسيلة للدفاع عن الرهط بكامله وبهذا يعتبر وسيلةللبقاءوحفظالنوع(٤٦).

الخلاصة :

عندما ارتفعنامن **مستوى الحشرات** الىمستوى الفقريات وجدنا انالعوامل النفسية تلعب دورا هاما الى جانب العوامل الفيزيولوجية والبيولوجية . وقد ظهر لنا ان الفقريات تعيش في بقعة ارض تتمسك بها وتدافع عنها ، وانها تنفر من الحيوان الغريب بسبب الشعور برهط داخلي ورهط خارجي ، وانهاتتصل

---

(٤٥) راجع : Warden : Comparative psychology. N. Y. 1936-1940.

(٤٦) من اجل معلومات هامة عن هذا الفصل راجع :

O. Klineberg : Social psychology. Chp. II.

» : Psychologie sociale. vol. I. chap. II

طويلة على الرغم من وجوده بين جنساء له . وقد ينقطع عن الطعام وقد يرميه بعيداً ويغضب نتيجة لحزنه وتأثره . (٤٣) .

وقد لاحظ مكبرايد Mcbride عواطف الصداقة لدى سمك يونس أو خنزير البحر (Porpoise) (٤٤) وكل منا يعلم صداقة الكلاب وعطفها وتحببها تجاه الاطفال مع انهم لايقدمون اليها الطعام . ونعلم أيضاً مدى امانة الكلاب واخلاصها تجاه من يربيها وقد تضحي بنفسها لانقاذه . وأصبح من البديهي ان نجد لدى الثدييات نوعاً من السلوك المنزه تجاه الآخرين . ومن البديهي ان هذا السلوك يبدو في ارقى صوره واشكاله لدى الانسان الذي يتمتع بارقى ذكاء وأرقى خصائص انفعالية وعاطفية من سائر الحيوانات .

التقليد :

وينتهي بنا البحث الى التقليد . فهل لدى الفقريات تقليد صحيح ، أي تقليد ذكي وواع ؟ هناك نوعان من التقليد : **تقليد آلي يتم دون وعي ولاذكاء** ، وتقليد واع وذكي وفاهم . فهل نجد النوعين لدى الفقريات ؟ نجد النوع الاول لدى بعضها كالدجاج والفراخ ويعتبر منعكسياً محضاً . ونجد الثاني لدى بعضها الآخر ويتجلى خاصة في التعلم والترويض لدى الدب والحصان والقرد ، وفي تعلم الغناء لدى بعض الطيور ، وتعلم اللغة البشرية لدى الببغاء ، وفي استعمال بعض الاجهزة الاتوماتيكية والوسائل لدى القردة . وقد لاحظ واردن لدى القرود وجود تقليد افعال **ذات دلالات** (actes significatifs) تتعلق بوضعية مدركة في الحال عندما يقتضي الامر اجراء فعل جديد . كأن يقلد قرد قرداً آخر رآه لأول مرة يفتح صندوقاً بالضغط على زر معين أو يرمي موزة بعد

---

(٤٣) راجع : Lindzezy : Opi. Cit. Vol. I. p. 542

(٤٤) راجع : A. F. Mcbride : Melt mister porpoise. Mat. hist. Mag. 1940. vol. 45. p. 16-29

بعضها البعض . ولا يقتل اللاحم الا ليغتذي . واذا كان المجتمع البشري ينخلع في صراع الطبقات والحروب الاجرامية فان المجتمع الحيواني ، بعكس ذلك ، يتجنب كثيراً من الحروب والصراعات ... فهل يرضى المستغلون ومسببو الحروب الاستعمارية والاستعبادية والاستغلاليـة وواضعو فلسفات القوة والبطش ان تكون الحيوانات أفضل منهم ومن اتباعهم ؟

الايثار والصداقة :

يقودنا هذا البحث الى التساؤل : هل لدى الفقريات شيء من الايثـار **والصداقة** وبعض عواطف أخرى أخلاقية ؟ يؤكد بعض المختصين بشؤون الحيوانات اننا نشاهد لدى الفقريات شيئاً من سلوك « العفو عند المقدرة » . فاذا غلب كلب كلباً آخر فان المغلوب يتخذ وضعية الخضوع ويمد رقبته للذبح أو النحر : وهكذا تجر وضعية القبول هذه عن طريق منعكسي استحالة الافتراس أو النهش لدى الاقوى ، فيظل الكلبان معطلي العدوانية كل منهما تجاه الآخر الى ان ينجلي الموقف في اتجاه ما . ويؤكد البعض ان للاحسان الايثاري ، اي تحويل الخد الايسر لمن يضربنا على الخد الايمن ، معادله وقيمتـه في مستوى الاوتامتيات الغريزية .(٤٢)

أما الايثار فيوجـد على شكله البيولوجي والنفسي الاولي لدى الفقريات ويتجلى قبل كل شيء في محبة « الوالدين » وعنايتها بصغارهما وتضحيتها في سبيلها . كما يلاحظ ثانياً لدى بعض « الازواج » التي تحصل بينها علاقات جنسية تـدوم الى مابعد زمان الانسال . وهذا يظهر لدى بعض الثدييات . وفي هذه العاطفة شيء من عواطف الصداقة والمحبة . وقد أشار كوهلر ونيسن الى ان الشيمبانزي يمكن ان يظهر الاضطراب والحزن عندما يبعد عنه صديقه الذي عاش معه مدة

---

(٤٢) راجع : P. Chauchard : Opi Cit. p. 67

وقد حاول بعض المؤلفين الالمان ان ينقلوا مبدأ القوة والكفاح أوالصراع من أجل العيش من المستوى الحيواني الى المستوى الانساني. وقد اعتبر مؤلفون. من أمثالا نوفيكوف (Novikow)وفرّي (Ferri)وفاكارو (Vaccaro) وبرنهاردي أن قانون الصراع من أجل العيش هو قانون اساسي في الطبيعة ملازم للبشر كما هو ملازم لجميع الكائنات الحية . (٤١) .

وفي هذا النقل من المستوى الحيواني الى المستوى الانساني خطل ، لأن هؤلاء خلطوا بين مستويين مختلفين ، كما انهم لم ينتبهوا الا الى مظهر واحد من مظاهر البيولوجيا . اذ ان الطبيعة اوجدت مضاداً للعدوانية هو التجاذب الاجتماعي الذي يدعو الى التعاون والتآزر بينما تدعو العدوانية الى التقاتل والتصارع والتنابذ والتفرقة . والدور الاساسي للمجتمعات الحيوانية هو تحقيق شروط لاتظهر معها العدوانية بل يصبح من الممكن ظهور فاعلية مشتركة مجدية لجميع الافراد وذلك بالتقيد الغريزي ببعض قواعد ومحرمات لاتعتبر سوى منعكسات لاشعورية . فالضعيف الذي يتنازل عن بعض الحقوق يربح في هذه المجتمعات الاطمئنان والامن ، والحياة دون ان يبعد عنه احياناً الهلاك في سبيل الاقوياء واستمرار النوع .

ولا يعتبر العالم الحيواني عالم انتصار القوة فقط ، بل هو ايضاً عالم انتصار ضعف ذلك الذي يعرف كيف يهرب ويختبيء وتتلاءم او يتكيف ، وعالم انتصار مجتمعات ورابطات الضعفاء ... وفي مستوى العلاقات البشرية ، نجد سيطرة أفظع وحشية حيث يصبح معها كل شيء محللا . أما في عالم الحيوان فكل شيء منظم . وقد قيل ان الذئاب لايفترس

---

(٤١) من اجل تفاصيل هامة راجع : P. Sorokin : Théories Sociologiques contempor aines. Payot 1938. Chap. VI.

» » : Contemporary sociological theories. N. Y. 1928. Chap. VI

وكذلك تتجلى العدوانية في صراع الاناث التي تدافع عن صغارها أو تدفع الذكور عنها ، كما تتجلى في **سلوك الغذاء وحماية** الارض أو الموطن .

ولاحظ المختصون بالسوسيولوجيا الحيوانية ان الاناث أقل عدوانية وعدائية من الذكور. وقد وصف تومبسون (Thompson) وهب (Hebb) ثلاثة أنواع من سلوكات الشيمبانزي هي : سلوك **الصداقة** وسلوك شبه ـ العدوان (او العدوانية) وسلوك العدوان . وكانت النتائج على الشكل التالي :

سلوك الصداقة	٨ ذكور	٢٢ انثى
عدد الحالات : عدد الحالات	٢٠٥	٥٣١
الوسطي	٢٥,٦	٢٤,١
شبه ـ العدوان : عدد الحالات	٧٣	٢٥
الوسطي	٩,١	١,١
العدوان أو العدائية : عدد الحالات	٤١	٣٨
الوسطي	٥,١	١,٧

يظهر لنا من هذه النتائج ان الصداقة متقاربة جداً لدى الذكور والاناث على السواء . ولكن الاختلاف عظيم في سلوك العدوان .. [٣٩]

كما لاحظ هذان المؤلفان ان الحرمان يلعب دوره لدى الشيمبانزي في تسبيب العدوانية والاعتداء كما يلعب نفس الدور لدى الانسان [٤٠] .

---

(٣٩) من اجل تفاصيل هامة راجع : D. O. Hebb and W. R. Thompson : The Social significance of animal studies ; in Lindzey : Hanbook of social psychology. Vol. I. pp. 545-550.

(٤٠) راجع: Ibid : p. 550

الغريزية الاجتماعية عندما تميل غرائز فردية اكثر قوة الى اشاعة الاضطراب والفوضى في المجتمع . لهذا لا نجد عصيانات وثورات حقيقية ، لان « المجرم » يعرف بالغريزة ان الخضوع واجب ذلك لان القانون مكتوب في « نفسه » وذاته . وسلطته مع ذلك أقوى من سلطة ملكة النحل ... أما لدى الانسان فالامر يختلف ذلك لان السلطة (أو السيطرة) تتجسد وترسخ في بنيات ومؤسسات اجتماعية بدلا من أن تبقى لازمة للغرائز وتناسقها الآلي .

العدوانية :

يقودنا بحث السيطرة والخضوع الى بحث موضوع **العدوانية** بين الحيوانات ، هذا الموضوع الذي لفت نظر داروين فألح عليه الحاحاً قوياً . وقد كان لآراء داروين أثر في آراء بعض السوسيولوجيين الذين تأثروا بالنزعة التطورية .

ونعلم جميعاً نظرية داروين المتعلقة بالكفاح أو « الصراع من أجل العيش » . فهو يرى أن العامل الاساسي للتطور هو التزاحم الحيوي (Concurrence vitale) اذ تتكاثر الكائنات الحية بسرعة تصبح معها الارض عاجزة عن كفايتها اذا لم يهلك عدد كبير منها . ومن هنا جاء « الصراع من أجل العيش » ضد شروط المحيط الطبيعي وضد أفراد انواع مختلفة وضد أفراد النوع الواحد . وبهذا يحصل « انتخاب طبيعي » يسلم بواسطته الأقوى . ومن هنا نجد هذا الصراع المرير الذي يهلك فيه الضعفاء ولا يبقى فيه سوى الاقوياء والاكفياء . وهكذا جعل داروين الصراع والعدوانية كوسيلتين من وسائل العيش والتطور [٣٨] .

ونلاحظ ان السلوك الأساسي للحيوان الفقري تجاه جنيس له هو العدوانية وخاصة العدوانية المتعلقة ، بالجنسية ، حيث يقتل الذكور ، في حالة النشاط الجنسي ،

---

(٣٨) راجع : داروين : أصل الانواع . Ch. Darwin : l'origine des espèces

» » : The origin of species. N. Y. 1917

الى تشكيل مجتمع قائم على **السيطرة والدارج** ، يمثل بصورة عامة أقل مايمكن من التسامح المتبادل وحيث تتعادل العدوانية والتعاطف بصورة لا بأس بها يسمح معها بتحقيق رهط متجانس يدافع عن نفسه بشكل أفضل من سواه في التنافس مع رهوط أخرى غير منظمة أو منظمة بصورة مختلفة عنه »[٣٦] .

الزعامة :

رأينا سابقاً وجود الزعامة ولو الاولية لدى بعض الطيور والحشرات . وبين السيطرة والزعامة صلة وثيقة . وتحدد السيطرة الزعامة غالباً لا دائماً . فمثلاً وجد جرينبرغ ان القيصانة (سمك أصفر اللون ومستدير) المسيطرة تميل لان تكون الزعيمة في رهط المتاهة. ولكن فيشل (Fsichel) لم يجد هثل هذه العلاقة بين الدجاج . وقد رأى مؤلفون مختلفون ان السيطرة لدى كثير من الطيور والفقريات لا تلعب دوراً رئيسياً في تنظيم الرهط . وقد لاحظوا أن للزعامة قيمة كبرى وتستقر في بعض الرهوط في أنثى . فهذه الرهوط أمريسية (Matriarchal) بعكس مجتمعات البابوين التي تعد أبريسية (patriarchal)[٣٧] . ومهما يكن من امر فللزعامة أهمية في تقوية التماسك في المجتمع الحيواني والمجتمع الانساني على السواء . اذ عندما يوجد الزعيم الحقيقي يلتف حوله مختلف الافراد وتقوى الروابط الايجابية (من محبة ما وتماسك وتعاطف ووحدة) بينهم . ولكن الزعماء لدى الحيوانات ليسوا بزعماء ورؤساء حقيقيين ذلك لانهم لا يضعون القوانين ويكتفون ، بما أنهم في الغالب اكثر قوة من سواهم ، بالمراقبة والحراسة والابقاء على الانسجام بجعل الافراد الآخرين يتقيدون بالمحمات

---

(٣٦) P. Chauchard : Opi. Cit. pp. 77-78

(٣٧) راجع : G. Lindzey : Handbook of social Psychology. Vol. I. p. 541.

كبش الفداء ، وتظهر هنا حالة من حالات « الاضطهاد الاجتماعي » ذكرت لدى أنواع أخرى من الفقريات. وكما يقول دوسن سين (de Saint - Seine): « أمام حوادث كهذه ، وأمام ما يحصل غالباً في كل دراسة لسلوك الفقريات ، يدفع بنا الميل الى التساؤل الى أي حد لا يقرأ الملاحظون بصورة لا شعورية ظاهرات بشرية محضة من خلال العلاقات الاجتماعية تحت - البشرية (Infra-Humaines) : من الصعب ان نجيب على هذا السؤال . ولكن الموضوعية العلمية تلزمنا ان نضع سؤالاً معاكساً : الى أي حد (يمكن القول) ان الميل البشري الى جعل (فرد) أدنى أو أقلية محتقرة عرضة للاستهزاء الاجتماعي والسخرية وحتى الاضطهاد المفتوح ، هو مجرد نسخ (أو نقل) بشري وإرث سلوك اجتماعي عام لدى الفقريات ؟ »[٣٥] . ليس من شك في أن الامر حاصل على هذه الشاكلة . والدافع الواعي هو الذي يتبدل فقط أما السلوك فهو واحد وعيني .

فائدة الدرجة العليا :

تعتبر الدرجة أو المرتبة العليا ميزة حقيقية في الكفاح من أجل **الحياة والعيش**. وينطبق هذا على المجتمعات الدارجية . فعندما نقارن بين مجتمع ثابت ومجتمع ندخل فيه الاضطراب بصورة مستمرة ، وذلك بتبديل اعضائه ، نلاحظ « انه في الاسراب الخاضعة للتعديلات الدورية ، والتي تبقى فيها العدوانية باستمرار في حالة تهيؤ ، يهبط استهلاك الغذاء ، وتفقد الدجاجات شيئاً من وزنها وتبيض عدداً أقل من البيوض. فاذا سلمنا بأن مثل هذه التجارب تعطي فكرة ، ولو تقريبية ، عن الظواهر التي تحدث في الطبيعة ، أصبح من الجائز ان نفكر بأن هذا النمط من التنافس المنظم بين الافراد ، الذي يؤدي

---

(٣٥) نقلاً عن : P. Chauchard : Opi. cit. pp. 76-77

الهدف أي التوصل الى الانثى . فيمكن اذن ان نعتبر السيطرة والخضوع كوسيلتين للتوصل الى هدف [٣٣] . وقد أظهر كاربنتر حادثة هامة هي اننا نلاحظ لدى القرود المسماة (Singes rhésus) نظاماً دارجياً ناميا جداً للسيطرة ، كما نلاحظ أيضاً ظاهرة الامتلاك المطلق للاناث من قبل بعض الذكور . بينما نجد لدى **القرود العاوية** ان العلاقات المعممة بين الجنسين هي اكثر شيوعاً ولا نلاحظ سوى فروق ضئيلة بين هذه الحيوانات فيما يتعلق بالسيطرة [٣٤] .

ونلاحظ لدى هذه القرود العاوية أفخاذاً (Clans) مؤلفة من ثلاثة ذكور وثماني اناث وثلاثة بالغين وأربعة لم يدركوا بعد سن المراهقة أو البلوغ .

وقد لوحظت ظاهرة السيطرة لدى الاسماك التجمعية . فمثلاً لدى السمك المسمى بيتا سبلندنس (Betta splendens) تمنع عدوانية الذكور تجمعهم ، بينما تعيش الاناث ، التي هي اقل عدوانية ، في مجتمع .

وفي امكنة تربية الاسماك لوحظ ان الفرد آلفا يشغل كل المكان تقريباً ، أما الافراد الباقية فليس لها الا أمكنة صغيرة . وفي هذه الشروط يلعب الفرد **أوميغا** (الكادح الادنى) دورا هاماً ، اذتنصب عليه هجومات جميع الافراد الباقية (أو الباقين) وبهذا يحصل تفريغ للعدوانية يساعد الرهط على البقاء . وفي غياب هذا الفرد تعم المعارك . ويمكن لفردان يبعد عنه هجوماً ما بسقوطه على الفرد أوميغا الذي توجه اليه ضربات ونقرات الجميع ويصبح بهذا نوعا من

---

(٣٣) راجع : R. M. Yerkes : Soçial dominance and sexual status in the Chimpanzee. Quart. rev. biolog. 1939. vol. 14, pp. 115-136.

(٣٤) راجع : C. R. Carrpenter : Characteristics of social behavior in non-human primates. trans. N. Y. Acad. Scien. 1942. Vol. II. 4, ser. pp. 248-258.

يجتمع اثنان منها يتمكنان حالا من تحديد المسيطر أو المستبد . وتظهر هـذه السيطرة بضرب المستبد للخاضع والاستيلاء على اكبر قسم من غذائه ، كما تظهر في السلوك الشاكي لدى الخاضع .

وأظهر ماسلو أيضاً كيف يتبدل سلوك السيطرة تبعاً للوضع الاجتماعي . اذ يصف لنا حالة حيوان (آ) كان يسيطر على الحيوانين (ب) و (ج) . وفي يوم وضع الثلاثة في قفص واحد فاتفق الاخيران ضد الاول ولقناه درساً قاسياً . ومنذ ذلك اليوم أصبح (آ) تابعاً وخاضعاً لهما حتى ولو وجد مع واحد منهما فقط . ويظهر من هنا ان المميزات الشخصية لا يحددها مزاج الفرد فقط ولكن مجموع الوضع الاجتماعي [٣١] . وقد لاحظ السيدان يركس السيطرة لدى الشيمبانزي . فاعتبرا السن والجنس والقوة والاحوذية (السرعة والرشاقة) والحذاقة ومميزات مرتبطة بالمزاج كعوامل محددة لمثل هذه العلاقات : علاقات السيطرة من جهة والخضوع من جهة أخرى . فنحن هنا لسنا فقط أمام فرد يفرض سيطرته على الرهط ، ولكن أمام منظومة من العلاقات تشمل جميع الافراد وتؤلف نظاماً دارجياً (Ordre hiérarchique) [٣٢] .

وأظهر يركس كيف يمكن ان تتأثر سلوكات السيطرة والخضوع لدى الشيمبانزي بالعلاقات الجنسية . اذ عندما تكون الاناث في حالة **حرارة** (**أو حمارة**) جنسية فانها تسيطر بشكل ظاهر على الذكور ، بينما يحصل العكس في أخرى . وخير تعليل لهذه الظاهرة هو ان الذكور تخضع ارادياً لتتوصل الى التعاون المطلوب من الاناث . وهنا يؤلف الخضوع أنجع وسيلة للوصول الى

---

(٣١) راجع : A. H. Maslow : The role of dominance in the social and sexual behavior of infra-human primates.
Journ. of genetic. Psychol. (1936) Vol. 18. pp. 261-277.

(٣٢) راجع : Yerkes and Yerkes : Opi. Cit.

لدى بعض عصافير الدوري . ولدى بعض الطيور ، كالبط السويدي شبه البري نلاحظ ان الانثى تسيطر قسما من السنة بينما يسيطر الذكر اثناء القسم الآخر . وقد لوحظ أن لزمن الانسال تأثيراً على هذه العلاقات . اذ قد تسيطر الانثى اثناء هذه المدة لأن عدوانية الذكر توجه الى جنسائه وفي حالات أخرى يحصل العكس .

وتسيطر ، عامة ، الطيور المسنة على الطيور الاصغر منها سناً . ويمكن أن تستمر هذه السيطرة حتى الى مابعد تدهور قوة المسنين . اذ ان غضبها يضفي عليها مظهراً مرعباً يعوض عن فاعليتها وقوتها الماضيتين . وكأن قوة العادة تجعل الاحداث في حالة تبعية تجاه المسنين .

وقد قال شجلدرب ـ اب : «لايمكن ان نمتنع عن التفكير في هذا الموضوع ألا وهو وجود تشابه قوي بين وضع الرجل المسن في الحياة الاجتماعية ووضع الطيور المسنة»[١] .

وقد لوحظت السيطرة في المجال الجنسي لدى طيور أخرى برية . فمثلاً الطيور المسماة جروز (Grouses) (ديوك الاريقى) تجتمع في زمن الانسال والحب على الشكل الآتي :

اناث عديدة يحرسها الديك السيد القاهر وآخر ، معه من ثلاثة الى ستة حراس . ويحدد هذا الدارج بصورة موقتة العلاقات الجنسية : لأن الديك السيد يلقح ٧٤٪ من الاناث والديك الثاني ١٣٪ منها والحراس ٣٪ منها فقط . أما الذكور المنعزلة فتلقح في النهاية ١٠٪ منها فقط .

وقد وصف ماسلو (Maslow) في دراسات قيمة سلوكات السيطرة والخضوع لدى بعض قرود كبيرة تعيش في افريقيا هي البابوين (Babouins). فعندما

---

(٣٠) Schjelderup-Ebbe : opi.citt,p,961

عامة ويطرده . والنظام الدارجي للاستبداد يفرض منذ تلاقيهما وتصبح الثورة (أو العصيان) نادرة (٢٨)

تلعب القوة دورا هاماً في تكوين هذا الدارج ، ولكنها ليست العامل الوحيد في هذا التكوين . يبرهن على ذلك ان الدارج لايكون دائما مستقيما بل يمكن ان يتبع شكلا مثلثيا . أي ان الطائر (أ) ينقر الطائر (ب) ويسيطر عليه، وينقر هذا (ج) ويسيطر عليه، بينما ينقر هذا الاخير (أ) ويسيطر عليه فهنا يوجد ، كما لدى الكائنات البشرية ، علاقات نوعية تتعلق بالشخصية تقتضي من الفرد أن يسلك مسلكا مختلفا تجاه أشخاص مختلفين ، وبين هذه الحيوانات نوع من علاقات التجاذب والتنافر أو المحبة والكراهية . فمثلا قد يظهر ديك عدوانيته تجاه الفرد بيتا (Bêta) بينما لايظهر أي عدوانية (أو تحببا) تجاه الفرد أوميغا (Oméga) الخاضع له خضوعا تاما ، حتى انه ليرضى بأن يدفعه الديك أوميغا ويعتلي دجاجة بدلا منه (٢٩)

قدتبقى الدرجات ثابتة لمدة أشهر ، ولكن يمكن ان يعاد توزيعها بين الافراد. اذ قد يشترك **الأدنون** ويتفقون على قهر المستبد والزعيم .

وعندماندخل فرداً جديداً على أفراد مجتمع ما فانه يحتل درجة سفلى ولكنه بعد مدة يأخذ بالدفاع عن نفسه ويحتل فيما بعد درجته الملائمة له . وتظهر بينه وبين الافراد الآخرين عدوانية واحتكاكات عنيفة ، ولكن هذه تخف مع الزمن بفضل الالفة والتعود . ولا ترتبط السيطرة جوهرياً بالجنس .

فلدى بعض الطيور كالتدرج (Faison) **والحبشي** (Dindon) السيطرة للذكر . بينما نجد العكس لدى بعض الطيور المسماة سوادية أو فرفر ، وكذلك

---

(٢٨) راجع : المصدر السابق .

(٢٩) راجع من اجل هذا المثال الاخير : P.Chauchar d: opi.cit.p.74

الافراد الضعفاء . وذرية دجاجات المرتبة العليا تعد اكثر من دجاجات المرتبة الدنيا لأنها تبيض اكثر منها حيث تغتذى اكثر وأفضل منها.

وتقوم **سيطرة** المستبد على تفوقه في القتال . فهو يتمتع بحقوق الزعامة عندما يتغلب على الآخرين جميعا . فالفرد في درجة أو مرتبة ما هو ذلك الذي تغلب عليه أفراد مرتبة أعلى وتغلب هو على افراد مرتبة أدنى وهكذا تكتسب الدرجة أو المرتبة ويكف القتال بين الافراد . **وبهذا تعطل فاعلية العدوانية بالدارج** . فاذا ماحصل سبب ما ، كأن يقوى فرد أو يضعف فيميل في الحالة الاولى الى تغيير درجته وينكر عليه الأخرون درجته في الحالة الثانية فيحصل قتال وصراع يمكننا من مرتبة جديدة. ويمكن من السيطرة والزعامة عوامل متعددة منها القدرة والصحة الجيدة والعمر والمؤهلات ولهذا فالافراد المرضى يتقهقرون الى المراتب الدنيا وأخيراً يقتلون . وفي نفس المرتبة يسيطر الديك على الدجاجة ..[٢٦]

وقد استنتج شجلدرب – إب من دراسته النتيجة التالية : من ملاحظة هذه الانواع المختلفة يمكن ان نستنتج النتيجة العامة التالية : بأنه لايوجد طيران من نوع معين لايعرفان ، اذا كانا يعيشان معا ، **لأي منهما الزعامة** (أو الاسبقية) وأيهما تابع للآخر .[٢٧]

لكل من هذين الطيرين ارتكاسات مميزة . حيث ان الفرد التابع يظهر **تفهما وخوفا وأحيانا** رعباً أمام الآخر . وهكذا يميل الى تجنبه . ولأصواته طابع مميز . ويمكن للمستبد ان يتجاهل تماما وجود الآخر ولكنه ينقره بصورة

---

(٢٦) راجع : P. Chauchard : Sociétés animales, société humaine. pp. 71--73

(٢٧) راجع : T. Schjel erup-Ebbe : Social life of birds, in : Murchison Hanbook of social psychology. (1935). p.949

في مجال التغذية :

اذ يوجد قبل كل شيء دارج متعلق **بالنقر أو النقد** . فالفرد الموصوف بصفة **آلفا** (Alpha) هو أول من يأكل ويقدمه الآخرون عليهم بصورة آلية. واذا تجرأ أحد هؤلاء على التقدم فيكفي عامة لردعه مجرد تهديده منقار وإلارد على أعقابه ببعض **نقرات** . ولا يرد الافراد الادنون المهاجمون على نقرات هذا الفرد المتفوق ولا يحاولون ان يدافعوا عن أنفسهم تجاهه . ويتمكن بعده الافراد من الحصول على الغذاء كل **حسب ترتيبه** المتعلق بقوته وفاعليته ... فالفرد آلفا هو **المسيطر والزعيم** والمستبد ورئيس المجتمع ، يخضع له الجميع ، وينقر كل من لايخضع له ، ولا يتجاسر أي فرد آخر على مهاجمته ، بينما الفرد الأخير المسمى بالحرف اليوناني أوميغا (Oméga) يأتي في المؤخرة ويتغذى بصورة رديئة من فضالة الآخرين ويهاجمه الجميع ولا يقوى على الدفاع عن نفسه .

في مجال الجنسية أو التصالب :

في مجال الجنسية والتصالب لايمكن لدجاجة ان ترفض الاستسلام للمستبد أو للزعيم .

أما بالنسبة لفرد آخر فليس له الحق في ان يعتلي (أو يصالب) الادجاجات درجته ودجاجات الدرجة الادنى منها . ويقل عدد التصالبات تبعاً للدرجة الاجتماعية . فالديوك من الدرجة الدنيا تعتبر محرومة من التصالب . ومع أنها سوية من الناحية الفيزيولوجية فهي مخصية اجتماعيا وتصبح أحيانا عاجزة عن القيام بالفعل الجنسي بصورة نهائية . والدجاجات من مرتبة عليا تعلى أقل من الدجاجات في المراتب السفلى . وهذا أمر له قيمته في نوع يميل الى ابادة ذرية

القرود بدء ثقافة ، فعلينا، على الاقل ، ان نقرر ان التقاليد والتجربة تقوم في الحياة الاجتماعية لدى الشيمبانزي بنفس الوظيفة التي يقوم بها التجمع او التزايد (Accumulation) الثقافي . وهكذا فالمشكلة تتعلق كما ترون بتعريف الثقافة . وحتى لو قبلنا تعريف واردن لها فانه لايمكن انكار ظهور ووجود ظاهرتي الاختراع والتعود الاجتماعي في المجتمعات الحيوانية.. وبهذا نستطيع ان نقول ان هناك ثقافة أولية تماماً لدى الفقريات وخاصة العليا منها ..

الدارج الاجتماعي — السيطرة والخضوع — الزعامة:

رأينا ان الطوائف لدى الحشرات ترد الى أصل تشريحي وتكويني . فالتكوين الفيزيولوجي والجسدي يؤهل الفرد لوظيفة معينة ويصنفه في هذه الطائفة دون تلك. بينما يختلف الناس فيما بينهم حسب درجتهم الاجتماعية وحسب انتسابهم الى طبقة اجتماعية ، وهو اختلاف عميق ولكنه مع ذلك يعود عامة الى عوامل ثقافية ونفسية واقتصادية لا الى عوامل تكوينية عرقية أو دموية متعلقة بكل طبقة . أما لدى الفقريات فلا نجد طبقات اجتماعية وانما نجد دارجاً اجتماعيا للافراد في مختلف الدرجات وهو دارج غير تابع لتفوق وراثي الزامي ولكنه عبارة عن نتيجة مكتسبة للاعتراف بالقيمة الاجتماعية للفرد ، وهو ليس بحظوة يمكن ان تدوم ولكنه سلطة معرضة دوماً للتغير .

والهدف من هذا الدارج هو الابقاء على المجتمع بتنظيم العلاقات الاجتماعية فيه بصورة تقل معها مناسبة الخلاف والتصارع الى أقصى درجة ممكنة..

وأول من أظهر بداهة مثل هذا الدارج الاجتماعي الحيواني هو العالم الطبيعي النوروجي شجلد رب- اب (Schjelderup-Ebbe) وكان ذلك في عام ١٩١٣ في دراسة له على الديكة والدجاج الأليفة. وقد رأى ان هذا الدارج يلاحظ في مجالي التغذية والجنسية .

ونقدم الى القارىء تجربة أخرى ليست بأقل أهمية من السابقة قام بها كونرادي (Conradi) وقد برهن بواسطتها على أن عصافير الدوري عندما ترضع مع عصافير الكناري فانها تقلد تغريدها (٢٤)

ومن المعلوم ان الكناري والبلابل وعصافير أخرى تحسن تغريدها تحت تأثير بعض المختصين بشؤونها.

ومن المعقول ان نخلص الى القول بأن تغريد الطيور يحتوي على عناصر تكوينية أو وراثية وعلى عناصر اكتسابية . وبمعنى آخر تلعب فيه «الثقافة» والتعليم دورا وان كان بسيطا .

ومهما يكن أمر فان أمهات الطيور صغارها أو فراخها الطيران، وتطول مرحلة التعليم هذه لدى النسر . وقد لوحظ ان الأم الشيمبانزي تعلم صغارها المشي ، وقد أعلن السيدان يركس : « لايبدو ممكنا القول بأنه يجب تجنب استعمال ألفاظ كهذه : ثقّف وعلّم وروّض ، لاشيء سوى ان الموضوع يتعلق بنوع أدنى من الانسان ، ذلك لأن الام الشيمبانزي تشجع ، لغاية محدودة تماما وبصورة ظاهرة ، وتساعد بأشكال شتى صغيرها على اكتساب الاستقلال الحركي والسير والتسلق ، (كما تساعده) عرضيا على العدو هنا وهناك واللعب بصورة حرة وبصور شتى » .(٢٥)

وتبدأ الأم بهذه التمرينات في السنة الاولى من عمر صغيرها . وقد تدوم مدة أطول ايضا وتنقطع فيما بعد .

ويخلص هذان المؤلفان الى القول بأننا اذا لم نكن ميالين الى ان ننسب الى

---

(٢٤) راجع : E. Conradi : Song and eall-notes of English sparrows whon reared by canaries. Amer.Jour of psych. (1905). N° 16. bd. 190—199.

(٢٥) راجع : yerkes and yerkes : opi. cit. 1013

الثقافة :

لقد اعطينا بعض أوجه « حضارية » و « ثقافية » لدى الحشرات ونعالج الآن هذه القضية لدى الفقريات . وقد وقفنا موقفاً معقولا اثبتنا فيه الامتداد والاستمرار بين السلوك الاجتماعي الحيواني والسلوك الاجتماعي البشري . اذ هناك حالات يظهر فيها سلوك حيواني متبدل ومتطور يشبه قليلا او كثيرا التطور الاجتماعي لدى الكائنات البشرية .. وقد اشار الباحثون الى ان سلوك رهوط كلاب الماء ممكنة التبدل والتغير وقد يحدث هذا كرد فعل على تأثير البيئة الخارجية .

يقال ان كلاب البحر الموجودة في اوروبا تعيش عادة **أزواجاً أزواجاً** ، بينما تعيش في بلاد اخرى اكثر هدوءا وأمناً ، في كندا مثلا ، على شكل رهوط صغيرة او كبيرة تقريباً . وتعيش بصورة عامة في البلاد كثيفة السكان في انفاق تمتد **تحت الارض** ولكنها في البلاد قليلة السكان تبني غالبا بيوتا [٢٢].

ويظهر التبدل بصورة واضحة لدى الطيور : وقدقام سكوت (Scott) بتجربة شهيرة . اذ فصل عن والديهافراخ صفاري (مفردها صفارية)(Loriot) صغيرة جدا وقبل ان تتمكن من تعلم تغريدهما. وكانت النتيجة أن أصدرت فيما بعد تغريداً خاصا بها يختلف عن تغريد والديها . وعندما وضعت صغار صفاري معها تعلمت منها التغريد الجديد [٢٣].

صحيح أنه يوجد في هذه الحالة تدخل بشري ، ولكن نتائجها تشير تماما الى امكان وجود الاختراع والاتصال والتعود الاجتماعي لدى هذه الحيوانات ، هذه المعايير الثلاثة التي وضعها (واردن) لتمييز الثقافة .

---

(٢٢) راجع : Alverdes : opi. cit.

(٢٣) راجع : W.E.D.Scott : Data on song birds: Science, n. s. (1901) N. 14. pp.522—526.

تنتج كرد على وضع انفعالي . وتتمكن حسب المناسبة ان تعبر عن رغبات أو عن نماذج من الاشياء والافعال . ولكن لايمكن ان تملك مدلولات مجردة أو رمزية ولاتتمكن من الوصف (ولو القليل أو البسيط) لما حدث في الماضي ولما سيحصل في المستقبل . (١٩)

ويقول اسبر ان نقص اللغة الحيوانية يفرض على الحيوانات تضييقين أساسيين تماماً :

اولا — يعتبر التعاون في سبيل مهمة مشتركة محدوداً تماماً .

ثانياً — التقليد (اوالسنة) الاجتماعي ونجمع التكنيات المفيدة والاكتشافات تعتبر غير ممكنة الا في حدود ضيقة ... (٢٠)

ومهما يكن من امر ، فان الفروق بين لغة الانسان ولغة الحيوانات وخاصة العليا منها ، لايمكن ان تعتبر فروقاً **مطلقة** ، ذلك لان لأوليات (rudiments) الثقافة أصولا سابقة على البشرية (prehumaines) . ولكن قد تصبح الفروق في الدرجة فروقاً في الطبيعة اذا مابلغت درجة قصوى .

وهكذا فالصفات الخاصة بالاتصال البشري ، وخاصة فيما يتعلق « بتسلسل الزمان » واعني ان كل جيل يبني على التقاليد المجمعة من الاجيال السابقة ، تعطي للحياة الاجتماعية البشرية صفتها المفردة . (٢١)

وما يميز الاتصال البشري بصورة خاصة هو استعمال اللغة الكلامية القائمة على **الالفاظ والمفاهيم والرموز** الكتابية . وهذا مايعطي الثقافة البشرية امكانية الاستمرار والبقاء .

---

(١٩) راجع : Yerkes and Yerkee : opi. cit.

(٢٠) راجع : Esper : opi. cit.

(٢١) راجع : a) Klineberg : Social psychology. Chap. II. (et trad. française) pp. 37—42.

b) P. Chauchard : Le langage et la pensée. P.U.F. (1956). pp§ 12—22.

٥ – وعندما يبتعد صغير عن أمه فانه يمكن ان يصدر سلسلة من الصرخات تتضمن عادة ثلاث نغمات .

٦ – ويمكن للوليد ان يصدر نأمة مستمرة تؤثر في العلاقة القائمة بين الام والصغير .

٧ – وتصدر صغار هذا القرد اثناء لعبها صرخات موزونة .

٨ – وعندما يقتتل الصغار فان ذكراً عجوزا يمكن ان يصدر قبوعات توبيخ او تحذير .

٩ – وازاء وضع غريب يصرخ الذكور: هو هو هو . Hou;Hou;Hou)[١٩] .

وقد دلت دراسات نيسن (Nissen) على ان الشيمبانزي يملك **٣٢ صوتا**[١٨] ويملك الدجاج عشرة انواع من الصراخ تتعلق بأوضاع مختلفة .

ويمكن القول ان التغريد والصراخ ليسا لدى الحيوانات سوى اشارات محذرة لوضع يهم الحاجات الانفعالية ، وهما يختلفان تماماً عن اللغة البشرية .

ويجب ان نشير هنا الى ان لغة الحركات او الاشارات (gestes) تعتبر نامية اجتماعياً لدى بعض الثدييات : **كوضع الرأس ، والاذنين والذنب والوقفة العامة** تلك الاشارات التي تساعد الكلب مثلاً على ان يُفهم الآخرين مايحتاج اليه ..

وحاول بعض المؤلفين ان يظهروا الفروق بين اللغة الحيوانية واللغة البشرية . يرى البعض ان الفرق الاساسي بين اللغة البشرية ولغة **الحيوانات** يكمن في أن لغة الحيوانات لايمكن ان تعبر **الا عما هو حاضر في اللحظة ذاتها**

---

(١٩) راجع : C.R. Carpenter : A field study of behavior and social relations of howling monkeys, coup. pcych. monog. N° 10, 1934.

(١٨) راجع : H.W. Nissen : A field study of the chimpanzee comp. psych. monog. N° 8 · (1931) .

جهود فردين أو أفراد كثيرين . وقد ذكر اسبر (Esper) في هذا الصدد ارتكاسات نموذجية أساسية هي :

١ - **ارتكاس الهرب** : اذ يمكن لبعض المشاهد وبعض الروائح ان تسبب الهرب اذا ما اضيفت اليها صرخة معينة . وتجيب بعض الحيوانات على هذه الصرخة بصرخات مماثلة وتقوم بالهرب . ومن جاءت ضرورة استخدام الحارس .

٢ - **سلوك المرعى او الطعام** : اذا وجد حيوان غذاء ما أو مرعى صرخ، وبهذا تلبي نداءه حيوانات اخرى من نوعه حيث تقبل الى مكانه .

٣ - **السلوك الجنسي** : يهيء صراخ حيوان معين الارتكاس الجنسي لدى حيوان آخر ويساعد على تنسيق سلوكهما .

٤ - **السلوك العدواني** : يمكن ان يكون الصراخ مقدمة لصراع أو أن يستعاض به عنه حيث يكتفي الحيوانان به ويمتنعان عن الصراع . (١٨)

وقد درس **كاربنتر** (Carpenter) لغة القرود . فميز أصواتا تعبيرية كثيرة لدى القرد العاوي .

١ - يرد الذكر ، على مؤثرات مزعجة بعواء مدوٍ وفظيع ، وكذلك الانثى ترد بعواء معين .

٢ - عندما يكون قطيع من هذه القرود في حالة مسير ، فان الذكر الذي يقودها يمكن ان يخرج ، وعلى فواصل منتظمة ، نقيقاً رناناً وعميقاً .

٣ - وعندما يزعج أو يخشى شيئاً ما فانه يقوم بقبوعات متقطعة تهيء الرهط لسلوك دفاعي .

٤ - ويمكن للأم ، اذا سقط صغيرها على الارض ، ان تخرج انيناً ينتهي بالزمجرة أو التأنيب .

---

(١٨) راجع : E.A.Esper : Language; in Murchison : opi.c it. (1935)

الدفاع والغذاء. وقد أجريت تجارب كثيرة لدراسة هذا التعاون ونوعه. فوجد المجربون ان التعاون لدى الحيوانات الدنيا كالحشرات مثلا هو تعاون منعكسي، بينما هو لدى الفقريات تعاون هدفي أو قصدى (وذكي) ولكنه من **طرف واحد** (purposive but one-sided) بينما هو لدى الانسان تعاون هدفي (وذكي ومن طرفين (purposive two-sided) [١٦]

اللغة والاتصال :

ويجرنا بحث الفاعلية المشتركة الى بحث اللغة والتفاهم لدي الفقريات. تملك الفقريات اشارات منوعة ومختلفة تستخدمها في الدفاع والحياة الجنسية وهي أمور اخرى تساعدها على حفظ بقائها. ولهذه الاشارات مدلولات، وتؤلف بهذا وسيلة للاتصال والتفاهم بين افراد المجتمع. اذ للتحذير من الخطر اشارته، ولتجميع الصغار اشارة، وللدعوة الى الغذاء اشارة، وللنداء الى مهمة مشتركة اشارة، وللنجدة اشارة ... وغالباً مايوجد في الرهط حارس ينبه الآخرين في حالة الخطر وذلك بالصراخ أو بضرب الارض بساقه. وتملك **الطيور لغة صوتية** نامية. وتستطيع بعضها، كالببغاء، أن تقلد صوت وألفاظ الانسان، وتستخدم هذه الالفاظ كاشارات ملائمة ولكن دون ان تتمكن من اعطاء اللفظة قيمتها البشرية. وتستطيع القرود ان تردد بعض كلمات قليلة مثل بابا وماما وكاب (Cup).

وقد اشار آلفردس الى ان الحيوانات غالباً ماتحدث اصواتا مشتركة. ويمكن ان نرد هذه الاصوات الى التقليد او الى الخصومة في حالة الذكور او يمكن ان تعبر عن سلام أو تحية [١٧] .. وتساعد الاصوات في غالب الاحيان على تنسيق

---

(١٦) للتوسع راجع : Lindzey : Hanbook of social psychology. vol.I.pp. 540—541.

(١٧) راجع : Alverdes : opi. cit.

المفضل هنا هو الدفاع (أو الهجوم) الجماعي لدى الذئاب حيث يمكن اعتباره كنوع من التاكتيك تقوم به على شكل أسراب . وكذلك مثال بعض الطيور التي تقوم بنوع من الدفاع الجماعي ضد **الطيور المفترسة** .

وكذلك تؤثر الناحية الجنسية على التجمع ، وتلعب العلاقات « الزوجية » دورها في المجتمع . ولتربية الصغار أثر آخر . اذ تستفيد الصغار التي تربى في القطيع من التجربة المشتركة ، وتتفوق بنشاطها وفاعليتها وذكائها على الصغار التي تربى منعزلة . حيث يحصل تعلم جماعي . ومهما يكن من أمر غريزية وفطرية السلوك لدى هذه الحيوانات فان التربية تلعب دورها في توجيه وتنميط هذا السلوك .

فمثلاً تتعلم صغار الحيوانات اللاحقة الصيد وقتل الفريسة . ويتجلى هذا أيضاً لدى الطير المسمى البينجوين (pingouin) الامبراطور الذي يفرخ في قلب شتاء القطب الجنوبي . اذ تحضن هذه الطيور بيوضها بشكل جماعي حيث تضعها على سيقانها فترفعها بهذا عن الارض المجلدة وترد عنها الرياح بتشكيلها كتلا ومجموعات تؤمن لها مناخاً مصغراً يساعد على حفظ حياة الصغار . وتلاحظ المهمات الجماعية الهامة في بناء الاعشاش واوكار . ويتجلى التعقيد على أقصاه لدى كلاب الماء (Castors) تلك الحيوانات التي تبني دواميس (أو زرائب) معقدة بممرات تسير تحت الماء وتنتهي فوق الماء . وتضيف الى الدواميس حواجز من الشجر المقطوع لتحافظ بواسطتها على مستوى واحد للماء . وتبني كذلك قنوات لتنقل فيها الاخشاب المقطوعة .

وهناك **عصافير الجنة** (paradisiers) التي تبني أنفاقاً تزينها بأوراق الاشجار والاشياء اللامعة ، حيث تشاهد الاناث **الاستعراضات الابهية** وتقوم بعض الطيور برقصات تشبه شبهاً غريباً رقصات بعض الشعوب البدائية الرحيل . وتظهر الفاعلية المشتركة على شكل معقد لدى **القرود** وخاصة لدى الشيمبانزي . والمجال الذي تظهر فيه هو مجال **التعاون** وتنسيق الجهود في سبيل تأمين

وقد رأينا انه يوجد لدى الحيوانات تجاذب اجتماعي وحاجة الى الاجتماع ، ولكن هذا لا يدعو بالضرورة الى التجمع مع اعضاء من نفس النوع البيولوجي. وقد ذكر آلفردس (Alverdes) حالة صغير **وحيد القرن** أسير سرتماماً عندما ادخلت عليه عنز وأصبحت له رفيقة . وقد أصبحا فيما بعد صديقين وأخذت العنز تنام أكثر الاحيان ورأسها متكىء على وحيد القرن . ولهذا يرى ان ما يكون أساس علاقات الرهط الداخلي هي الالفة (Familiarité) وليس « **شعور النوع** » [١٤] . وقد أعطى آلفردس مثالاً آخر عن التكوين الاصطناعي للرهط الداخلي فيما يخص السلوك الجنسي . اذ في رأيه ان الكر (الجحيش) الذي يربى مع الافراس لا يتصالب فيما بعد الا مع افراس وليس مع أتن .

وأظهر هويتمن (whitman) ان الحمام - الزاجل الذكر الذي يربى بين بين اليمام يصبح مستعداً دائماً للتصالب مع اليمام وليس مع الحمام - الزاجل [١٥] . وما يحدد العلاقات الاجتماعية ، في هاتين الحالتين هي الالفة وليس التشابه أو التماثل البيولوجي .

الفاعلية المشتركة :

يمكن للأنواع التي تعيش معا أن تقوم كرهط بفاعلية ما دون تعاون راق أو معقد أو أن تتعاون على تحقيق **مهمة مشتركة** ، وتبقى ، حتى في حال عدم تعاونها ، خاضعة لرقابة الرؤساء والحراس ، وتقوم بحركات جماعية **خوفية أو لعبية** . ويمكن أن يتم الدفاع والحصول على الغذاء بصورة تعاونية . ومثالنا

---

(١٤) راجع : F. Alverdes: The behavior of mammilian herds and packs, in Murchison: opi. cit.

(١٥) راجع : Whitman (C) : The behavior of pigeons. Carnegie inst. publ. N° 257 (1919).

لها في النهاية الصداقة والعطف [١٠] .

ولاحظ هارلو (Harlow) مجموعات أو رهوطاً من القرود موضوعة في اقفاص ساقبة أو متلاصقة . ولهذا يقرر: «مهما يكن من تكرار ظهور الخلافات والمشاغبات في الرهط الموجود في القفص الواحد ، فان جميع الاعضاء يقفون صفاً واحداً عندما يهددون من قبل غرباء القفص المجاور . وعندما يهددهم العدو المشترك فان « شعور القفص » ينشأ حالا . . ومن البديهي ان هذا « الشعور القفصي » هو عبارة عن عملية مكتسبة ، ودراسته في شروط تجريبيـة يجب ان تقدم معلومات عن القوى التي تفعل فعلها في تشكيل وصيانة الرهوط الاجتماعية الاساسية لدى القرود [١١] . واعتبر بعض المؤلفين هذه الكراهية تجاه الغريب كدليل حاسم على الطبيعة البيولوجية « لشعور النوع [١٢] »، أو «للاتنوسنترية» (Ethnocentrism) (موقف قائم على الاعتقاد بأن الشعب الذي ننتمي اليه هو بعقائده وتقاليده وقيمه مثال أو نموذج يجب ان يحتذى) أو « لكراهية المباين » (Aversion du dissemblable) [١٣] التي يزعمون وجودها لدى الكائنات البشرية . ولكن يجب ان نلاحظ ان الرهط الداخلي لا يتألف دائماً، لدى الحيوانات ، من أفراد ينتمون الى نفس النوع . اذ يمكن ان يعيش حمار الوحش (الزيبرا) مع الخيول الاهلية ويرعى معها ، كما يمكن ان يعيش مع الغزلان والنعام . ويمكن ان نلاحظ جاموسات وحشية تعيش مع الفيـلة . .

---

(١٠) O. Klineberg: Psy. Sociale. Vol.I P.28.

(١١) H.F. Harlow: Levels of integration along phylogenetic scale; in Rohrer and sherif:Social psychology at the crossroads.1951.P.130.

(١٢) راجع : F.H. Giddings: The priciples of sociology.N.Y. 1896.

(١٣) راجع : W.G. Sumner: Folkways. N.Y. 1906

١ — **فيرى العامل الاول فى المحيط الطبيعي** ، كانتحاء بعض الحشرات بتأثير النور ، وهجرة بعض الحيوانات بتأثير المناخ . .

٢ — ويمكن ان تحدد البنية أو المورفولوجيا السلوك الاجتماعي لدى النمل والنحل ، اذ ان بنياتها (أو بناها) المختلفة تحدد شكل علاقاتها الاجتماعية .

٣ — وتعتبر العوامل الفيزيولوجية هامة في تحديد علاقات التزاوج والتصالب ، تلك العلاقات المحددة بالتجاذب الجنسي المتبادل لدى الجنسين .

٤ — **وهناك علاقات تحددها ، عوامل سيكولوجية** وخاصة ما تعلق منها بالحياة الانفعالية . اذ ينشر خروف خائف الخوف والذعر بين جميع الخراف التي تحيط به أو تتبعه [٧] .

الرهط الداخلي والرهط الخارجي :

رأينا هذه الظاهرة لدى الحشرات وندرسها الآن لدى الفقريات . ولوحظ ان كل الطيور ، تقريباً ، تهاجم وتنقر وتقاتل الطير الغريب [٨] . ويمكن لهذا الهجوم الموجه ضد الغريب ان يمحو ، كما عند البشر ، النفور والكراهية داخل الرهط الواحد ويوحد اعضاءه ولو بصورة موقتة .

ولاحظ السيدان يركس نفس هذه الظاهرة لدى الشيمبانزي التي تهاجم أي قردة جديدة تدخل عليها [٩] . ولكنها تأخذ شيئاً فشيئاً بتحمل الدخيلة وتظهر

---

(٧) O.L. Tinklepauph: Social psychology of animal; in Moss (F.A) edit : comparative psychology, 1934.

(٨) T.Schjelderup-Fbbe:Social life of birds; in Murchison: Opi. Cit.

(٩) Yerkes and yerkes: Opi.cit.

والحنين الى الوطن لدى الانسان . ويمكن أن تؤدي هذه الحالة الى اضطرابات هضمية ، ومن المحتمل في بعض الحالات المتناهية (عدم رجوع الحيوان الى زمرته) ان يتعرض الحيوان للمرض أو الموت [٤] .

ويصرح كوهلر (Kohler) ان الشيمبانزي الذي يبقى منعزلا لايمكن اطلاقاً أن يعتبر بشيمبانزي حقيقي . واذا انتزعنا هذه الحيوانات من رهوطها فان الصغرى منها تظهر خوفاً شديداً ، وأما الكبرى فتصرخ صراخاً يعبر عن الغضب . وعندما نعيد أحدها الى رهطه فان الافراد يستقبلونه بفرح ظاهر ويلفونه بأيديهم ويقيمون له استقبالاً حماسيا [٥] .

ويظهر لدى القرود التلاحس المتبادل (أو التنظيف المتبادل) الذي درسناه لدى الحشرات . ويعتبر بعض المؤلفين ان هذا التنظيف ، لدى قرود الشيمبانزي ، هو عبارة عن نوع من الخدمة الاجتماعية ترافقه انفعالات شديدة ويتصف بصفة ايثارية ظاهرة . وتطلب هذه الخدمة بشغف والحاح . والعلاقة الاجتماعية التي يوجدها هذا التنظيف تساعد على نمو العلاقات المنزهة والصداقة والثقة . ويؤلف ، لدى الشيمبانزي الاسيرة ، شاغلا أو شغلا مفضلا ومحبباً وملهياً .

« يقول يركس ويركس « نعتقد انه لا يوجد اي نمط من أنماط السلوك الاجتماعي الذي يقتضي تعاون شخصين يمكن ان يعادله من وجهة نظر دلالته او مدلوله » [٦] .

وقد حاول تينكلباف (Tinklepaugh) **ان يعدد العوامل** التي تحدد العلاقات الاجتماعية لدى الحيوانات في مختلف مستويات السلم الحيواني .

---

(٤) للتوسع راجع المصدر السابق : Ibid; :

(٥) راجع W. Kohler : The mentality of Apes. N. Y. 1925

(٦) Yerkes and Yerkes : Opi. cit. p. 1027.

السلوك الجماعي :

لقد تكلمنا عن هجرة الحيوانات التي تتم بشكل جماعي وعن أهميتها بالنسبة لبعض الطيور والفاعليات المتعلقة بتزواج وتصالب الطيور والعلاقات الاسروية التي نصادفها غالباً لديها تدل على أهمية حياتها الاجتماعية . وتدل بعض الدراسات التي تمت في حدائق الحيوانات أن لدى بعض الطيور سلوكات تشبه مانسميه لدى الانسان الحنين الى **الوطن** (٣).

ولدى القرود يظهر السلوك الاجتماعي على درجات منوعة . ويقال ان قرود الجيبون Gibbons تجمعية، وتتنقل على شكل جماعات على قمم الاشجار. وأما قرود **الاورنج اوتان** (Orang-outan) فليست اجتماعية تماماً ،وينعزل فيها الذكور والاناث في الزمان الخارج على فصل التصالب . أما الغوريلا فتعيش في رهوط تحتوي على أنثى أو عدة أناث وصغارها . ويؤكد بعض الملاحظين لهذه القرود اننا نجد أحيانا أسرابا أو « قطعانا » تحوي ثلاثين قرداً على الأقل بينها ذكور بالغون عديدون . ويجب أن نشير هنا الى أن السلوك الاجتماعي لدى الشيمبانزي قد وصف وصفاً مسهباً وكافياً . وقد اشار السيدان يركس الى ان التعلق (أو التبعية) الاجتماعي (dependance) عبارة عن ظاهرة هامة جداً في حياة هذا الحيوان . اذ يمكن ان تفرض ، منذ الولادة وفي السنوات الاولى من سنوات الطفولة ، تأثيراً قوياً على النمو والتعبير لديه . لأن فصلاً (أو انفصالاً) يفرض بالقوة نبعد بواسطته أحد هذه القرود عن رفاقه الذين ألفهم يؤدي لديه الى **ارتكاسات** فيزلوجية شبيهة بالشعور بالوحدة والعزلة

---

(٣) راجع R. M. Yerkes and A. W. Yerkes : Social behavior in infrahuman primates. in Murchison handbook of social psychology. 1935.

نمطا من الاشارات (Signalisations) يؤلف لغة حيوانية حقيقة وأسلوب اشارات (أو رموز) يستخدم للاتصال والتفاهم .

فالطيور والعصافير تستخدم بشكل واسع **الاصوات** للاتصال داخل المجتمع وللاشارة الى وجودها : اذ تتضمن الوظيفة الاساسية لتغريد الطيور وسم الموطن أو البقعة الارضية ، وتحدي الغريب ، واستدعاء (أو نداء) **الاليف** أو القرين (Conjoint) . ولكن هناك أيضاً اشارات صوتية كضرب الارض بالذنب أو بالساق والصفير . ويدل الحيوان على موطنه أو بقعته ببوله وبعره اللذين يحصرهما في أمكنة معينة . وقد يفرز في أمكنة أخرى افرازات من غدد جلدية أو شرجية . وتخلع بعض الحيوانات قشور الاشجار ... وللدفاع وللجاذبية الجنسية اشارات بصرية خاصة كنشر الريش وخاصة ريش الذنب وحجب النقاط الملونة .

وغالباً ماتساعد هذه الاشارات المختلفة الحيوانات على تجنب القتال ، اذ تدفع الاشارة العدو الى الهرب . وقد يكفي التهديد ، وقد يؤدي الامر الى تبادل الصراخ .

وعلى حدود الموطن أو البقعة يمكن أن يتم القتال اذا ماتعلق الامر بالانثى . والسمك المسمى ابينوش (Epinoche) اذا ماوجد على حدود الموطن فانه يخضع لميلين متعاكسين : **الهرب والهجوم** .

ويعلل وسم الأرض كثيراً من سلوكات الحيوانات الاسيرة التي تبول على الحدود غير المسيجة من مكانها أو التي لاتقبل الاجتماع بسواها اذا كانت غير اجتماعية . ويظهر هذا جلياً لدى الكلاب . اذ يستخدم البشر الكلاب مستغلين هذه الظهورات الغريزية التي هي غريزة التعلق بالوطن أو الارض والدفاع عنها . لأن الكلب يعوي في وجه كل من يدخل « حماه » ويهاجمه . ولا يفعل ذلك مع كل من يبقى بعيداً عن هذا الحمى ولا يتبعه الى خارجه .[٢] .

(٢) راجع P. Chauchard : Sociétés animales, Société humaine pp. 61 - 67.

او الوجر ومكان تربية الصغار ، الممنوعة بتاتا على الاغراب ، **والمجال الحيوي** الذي يعتبر كبقعة يمكن لجميع اعضاء المجتمع الحيواني ان يصطادوا فيها . ويشمل المجال الحيوي مراكز دفاع وأمكنة للاختباء . والحيوان الذي يعرفه جيداً يمكن أن يدافع فيه عن نفسه بسهولة. ولهذا نجد اشارات وعلامات منوعة تدل على الملكية .

تنظيم الأرض والمجال :

سواء أكانت الحيوانات اجتماعية أم **استقوارية** فانها تبدل قليلاً أو كثيراً في مجالها وأرضها اما بغدواتها وايابها المتكررة فقط ، واما بفاعلية انشائية تتعلق مثلاً بالاعشاش والاوكار أو الأوجار التي يمكن ان تكون شخصية أو جماعية . ويلعب العامل الفطري دوراً هاماً في بنائها وانشائها ، ويمكن ان تتعقد انشاءات وبناءات الاسماك وخاصة الطيور **والثدييات** ونخص بالذكر منها **القاضمة** ، وتظهر فيها « حجر » لاستعمالات مختلفة . اذ تظهر **الاوكار الاساسية** ومعها منافذ للأمان وفتحات للتهوية وحجرة النوم وحجلة (غرفة الزوجين أو العروسين) وحجر للمخزونات وحجر للغائط ، **وأوكار ثانوية** للأمان والاختباء. ونجد أحياناً بعض المنشاءات التي تحمي من الفيضانات. وتطول مسافة الممرات أحياناً بشكل قوي .

وتكتفي أنواع أخرى ، وخاصة ذوات الحافر ، باللجوء الى الأوجار الطبيعية ويوجد في المجال الحيوي (أو الأرض) شعاب تؤدي الى المراعي وأمكنة الصيد وموارد الماء .. وتعود الى أوجارها أو ملاجئها بسهولة مستعينة بحواسها المختلفة وبالرسوم أو الأثار التي تتركها ..

وسم الأرض

يتعرف الحيوان على أرضه أو (موطنه) وأرض جنسه . ولهذا يستعمل

للحيوانات **المستقرة القاطنة** ، الاصقاع **الترانزيتية** ، الخاصة **بالحيوانات المهاجرة** التي تتبع احياناً دوراً ثابتاً متعلقاً بالفصول.

وتتخذ هجرات هذه الحيوانات ، أحيانا ، أشكالا منظمة يقودها قائد ، وينتظمها نظام سير محترم ومتقيد به . ولهجرة الحيوانات أهمية حيوية بالغة لاتقل عن أهمية الهجرة البشرية ، حيث يقوم بها الحيوان المهاجر ليفتش عن المناخ **الملائم والماء والغذاء** وأحياناً عن الملجأ الحصين الأمين . وقد درس كثير من المختصين هذه الهجرات وقيمتها **واشكالها ، وانتظامها واسبابها ونتائجها** والطرق التي تتبعها . وفي قراءتها والتمعن فيها فائدة قصوى لمعرفة وتفهم الهجرات البشرية [١]

وهكذا نجد ان للحيوانات «مواطن» للسكن **وأصقاعا للهجرة** .

وتنضاف الى ملكية الارض أو الصقع السيطرة الاجتماعية (سنعود اليها بالتفصيل) التي تمكن فرداً ما من الامتلاك المطلق لفرد آخر ، كعلاقات الزوجين اللذين تقوم بينهم الرابطة القائمة على **وحدانية الزوجة** (Monogamie) وحيث نلاحظ بينها **علاقات الاخلاص** ، وعلاقات الذكر المسيطر «**بزوجاته المتعددات**» (لايوجد اختلاط جنسي ولو كان في القطيع حرمات عديدة) ، وعلاقة الزعيم باتباعه في القطيع المؤلف من جنس واحد والذي لايخضع في تركيبه «للجنسية» ودرجة ثبات هذه المحتمات للحياة الاجتماعية تابعة للأجناس الحيوانية ، وغالباً ماتدخل فيها الجنسية بعض الاضطرابات أو التغيرات ، اذ ان أرض الزوجين تحمى بشكل قوي جداً في زمان الحب أو الانسال وتربية الصغار ، ومن هنا ظهر في بعض حالات وجود **مواطن خاصة** كالعش مثلاً داخل الأرض (أو الموطن) الجماعية . .

ويميز عادة بين الأرض (أو الموطن) الحقيقية التي هي المأوى ، او الوكر

---

(١) راجع Thevenin : Les migrations des animaux. P. U. F. Paris. (Que sais-je) N° 15 - 1941.

الرقعة الارضية أو الارض :

يعتقد البعض ان كل مافي حياة الحيوانات يسير حسب الصدف ... اذ يصادفون حيوانات واعشاشاً وأوجارا وأوكارا، ولهذا يعتقدون بأن الحيوان على عكس الانسان ، يملك كل الحرية في الطبيعة الواسعة ولا يعرف احترام الملكية والتزام الطرق المطروقة . في هذا الاعتقاد كثير من الوهم والخطأ لأن الحيوانات تتقيد ببقعة معينة وتخضع لتقاليد معينة . اذ للحيوانات مجالها (أو بقعتها الأرضية) الذي تعيش فيه . وللحيوانات ملكية مؤمنة يهرب منها الحيوان العدو عند رؤيته لبعض **الاشارات والرسوم** . ورؤية هذه الاشارة تدفع الحيوانات الى التهيؤ للهرب والبعض الآخر الى التهيؤ للقتال .

وليست ملكية «الارض» ظاهرة اجتماعية ، ذلك لأن جميع الحيوانات المنعزلة تملك **وجرا** أو **مسكنا** تدافع عنه أولاً بالاشارات المميزة للملكية ، وثانياً بالقتال . ويدخل في سلوك احترام أرض الآخر عوامل **فطرية منعكسية وغريزية** وعوامل **مكتسبة** . لأن الحيوان يكتسب بالخبرة والتجربة ، وخاصة عندما يهاجم ويضرب ويطرد قسراً لاختراقه حرمة أرض الغير ، ولكن من الصعب ان نميز الفطري عن المكتسب . فهناك مثلاً كلاب الجرونلند (Chiens du Grœnland) التي لاتحترم «الارض» طالما هي صغيرة، ولكنها عندما تدرك سن البلوغ تعرف الارض وتحترمها وتتقيد بالنظم المتعلقة بها . ولكن ملكية الأرض يمكن ان **تصبغ بالصبغة الاجتماعية** عندما يسيطر عليها نوع اجتماعي . ونجد ، تبعاً **للتجاذب الاجتماعي** ، جميع الحالات الوسطية الكائنة بين الأرض الجماعية للسيد التي تحتوي على أراض فردية لايمكن خرق حرمتها وتعتبر محرمة حتى على مواطني المجتمع الواحد ، وحالة الأرض الجماعية تماماً حيث يعتبر كل مافيها جماعياً أو حيث يعيش الافراد بحرية تامة سواء أكانوا متفرقين أم مؤلفين لقطعان منظمة . ويقابل الأرض الثابتة والمحددة

الفصل السابع

السيكولوجيا الاجتماعية والحياة الاجتماعية لدى الفقريات

تؤول المجتمعات المتمايزة بشدة لدى الحشرات للتقسيم الى طوائف مختلفة بتشريحها وفيزيولوجياها وسيكولوجياها : فالفرق كبير بين الحيوان المنعزل أو الانعزالي والحيوان الاجتماعي . وعلى العكس ، تبدو مجتمعات الفقريات — ولأول وهلة — كأنها أبسط منها ، اذ يبقى الأفراد متشابهين ومتعادلين بامكانياتهم وقليلي التبدل اذا مانشأوا في مجتمع . بينما في الواقع يعتبر الحادث الاجتماعي فيها معقداً جداً . ويظهر هذا التعقيد بشكل أوضح لدى الفقريات العليا ، كالقرود مثلاً ، حيث يظهر في مجتمعاتها عادات وأعراف . وهذا راجع الى نموها النفسي وخاصة الى **نمو ذكائها وذاكرتها وادراكها** . وهكذا ففي مجال مجتمعات الحشرات كنا في المستوى البيولوجي المحض تقريباً ، أمافي مجال مجتمعات الحشرات فنرتفع الى المستوى البيولوجي والسيكولوجي والى مستوى السيكولوجيا الاجتماعية . وسنرى فيما بعد ان الدراسة السيكولوجية الاجتماعية ستفيدنا في فهم كثير من السلوكات البشرية وخاصة **مايتعلق** منها بالعدوانية **والوهط الداخلي** والرهط **الخارجي، والزعامة والسيطرة والخضوع...**

ولن نتمكن هنا من دراسة كل مايتعلق بالحياة الاجتماعية لدى الفقريات ، ولهذا فسنلح على بعض المظاهر العامة .

مصادر اخرى

١ ـ الدكتور فؤاد البهي السيد : علم النفس الاجتماعي . الطبعة الثالثة . دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٥٨ . الفصل الثالث .

2 — P. Chauchard : Sociétés animales, societé humaine. pp. 43 — 56.

3 — Grassé : Structure et physiologie des sociétés animales. C. N. R. S. Paris. 1952.

4 — Callery et Coll : Biologie des abeilles. Paris P. U. F. 1942.

5 — Feytaud : Le peuple des termites. Que-Sais-Je. Paris P. U. F. 1946.

6 — Lindzey : Handbook of social psychology. Vol. I. Chap.14

7 — W. M. Wheeler : Social life among the insects. 1923.

8 — A. L. Kroeber : Anthropology. N. Y. 1948.

العصيان وسلوك متعلق **برهط داخلي ورهط خارجي** . وتلاحظون اننا استعملنا بعض ألفاظ مقصورة على المجتمع البشري **كعاملة وجندي وحارس** وملكة وزوج ملكي ورفيق .. وهذه الصور الكلامية تظهر الشبه بين الحشرات الاجتماعية والانسان الاجتماعي . ولكن يجب الاحتراس من المغالاة في هذا الصدد . وكما يقول شنيرلا (Schneirla) أنه **وجه شبه** ووجه شبه فقط يجب ألا نغالي فيه وألا ندفعه بعيداً ..» [٨]

وسنعود الى مثل هذه الامور بشكل اكثر تفصيلاً في الفصل القادم .

---

(٨) راجع : T. C. Schneirla : Problems in biopsychology of social organization. in J abnerm. social psychology. 1946. vol. 41. pp. 385-402.

الحرب والثورة :

وتعرف هذه المجتمعات الحروب والثورات . فمثلا نلاحظ غالباً في بدء انشاء وكر النمل معارك يقتل فيها جميع الاناث عدا واحدة . وقد تحصل داخل المجتمع ثورات وعصيانات وحروب أهلية ... وقد يتبنى نمل من نوع معين ملكة من نوع آخر . حيث تقتل الملكة المتبناة الملكة المتبنية ، وتقوم عاملات المجتمع المتبني على تربية دودات الملكة المتبناة . ويؤدي الامر في النهاية الى ظفر صغار الملكة المتبناة على صغار المجتمع المتبني .

الاسترقاق او الاستعباد :

وتظهر بعض مجتمعات النمل الخليطة المؤلفة من نوعين مختلفين ، على اثر غزوات تقوم بها أنثى أحد النوعين فتستولي على **دودات** النوع الثاني ، فتقدمها العاملات التي تهتم ببيوضها وصغارها الى ان تكبر عاملاتها هي ، ويحصل هذا في بدء تكوين المجتمع .

ويقوم النمل **الامازوني** بغزوات حربية ليستولي على عاملات غريبة يتخذها **رقيقاً وعبيداً له** . وفي قمة التطور ، لانجد في هذا المجتمع سوى نملة تملك فقط الاشخاص الخصبين ولا تملك عاملات اطلاقاً ، ذلك لأن هذه العاملات تتكون دائماً من عبيد مستولى عليهم من انواع أخرى ومضمومين الى الرهط مع ملكتهم أو بدونها .

الخلاصة :

وهكذا تلاحظون أن لدى النمل والنحل والارض بعض مظاهر نجد أشباهها في المجتمع البشري :

كالاسترقاق والاستعباد والزراعة وتقسيم العمل والحرب والثورة أو

وبصورة عامة ، الغذاء لدوداته ولا يهتم بها اطلاقاً . ويظهر بعدهذا تقسيم العمل مع ظهور العاملات ، وأخيراً يخلق مجتمع دائم وليس سنويا. وهكذا نجد تطوراً في شكل المجتمع وتعقيده بين النحل ، يظهر فيه التجديد وان كان بطيئاً ومن الصعب ان نعرف ان كان هناك تربية يخضع لها الصغار ويكتسبون خلالها بعض العادات . ولكن مما لا شك فيه ان حياة المجتمع تؤثر في الصغار وتجعلهم مختلفين عن اولئك الذين يعيشون منفردين او منعزلين .. وقد برهن بعض العلماء على اننا يمكن ان نروض النحل على تعرف **اشكال والوان منوعة** .

واذا كان اسلوب الانتاج وتقسيم العمل واستخدام بعض النباتات والحيوانات كوسائل للانتاج والاستثمار وتبني نوع من المنشآت للانتاج تعتبر من مظاهر الثقافة والحضارة ، فلا شك ان لدى النحل والنمل والارض بعضاً من وجوه الثقافة والحضارة .

الزراعة : ذلك ان بعض النمل القطبي المسمى أتا (Ata) يلجأ الى زراعة بعض انواع **الفطر** . اذ يصنع هذا النمل من اوراق الشجر نوعاً من الحفرة او الوكر يغرس فيه فطراً يعتني به تماما ويصبح غذاءه الوحيد . ويمنعه النمل من ان يثمر . وعندما يؤسس مجتمع نمل فان الملكة المؤسسة تجلب فطرا وتكون اول مهماتها غرسه .

وتعتبر هذه الزراعة حالة وسطية بين التعايش المشترك (symbiose) (لحيوانين أو نباتين كالاشنة المركبة من طحلب وفطر) والزراعة الحقيقية البشرية .

تربية بعض الحيوانات : نجد في مجتمعات هذه الحشرات التي ندرسها بعض حشرات أخرى من جنس آخر تعيش معها. **اذ يربي النمل في مجتمعه « حيوانات اليفة »** وكما ان النمل يتلاحس فانه يربي أيضاً نوعاً من البراغيث (pucerons) تفرز عصيراً يحبه ويحلبه بفمه . تقاد هذه البراغيث الى المرعى تحت الحراسة وتوضع ليلا في « **اصطبلات** » في مأمن من الاعداء . ويبدو ان هذه البراغيث تريد مثل هذا الاشتراك في الحياة مع النمل .

ما اهملها الانسان . (٥)

اما بوز (Boas) فيعتقد ، على العكس من ذلك ، ان ظواهر مشابهة للثقافه البشرية تحصل في المجتمعات الحيوانية . ويعتبر الثقافة على انها تلك التي تضم « كل ظهورات العادات الاجتماعية لجماعة ما ، وارتكاسات الفرد متأثرة بعادات الوسط الذي يعيش فيه ، وانتاجات الفاعلية البشرية محددة بهذه العادات . » (٦)

ويعلن بوز أنه « لايوجد انقطاع (أو انفصال) مطلق بين عدد من مظاهر الثقافة البشرية وعادات حياة الحيوانات . » (٧)

ومهما يكن من أمر هذه الآراء ، فالوضع الاكثر تعقلا يتوجب منا ان نرى استمرارا واتصالا بين السلوك الاجتماعي البشري والسلوك الاجتماعي الحيواني ، استمراراً أو اتصالا يشبه الاستمرار أو الاتصال الكائن بين المورفولوجيا الانسانية والمورفولوجيا الحيوانية . فاذا أخذنا بعض حالات لدى الحشرات وخاصة لدى النمل **نرى بعض التجديد** ولو البطيء جداً في نمط حياته . ونرى ان هذا التجديد الملائم المحسن لشروط الحياة يصبح عادة اجتماعية مشتركة تسري من جيل الى جيل . فبين النحل لانرى اكثر من عشر انواعه يعيش بصورة اجتماعية . اذ هناك انواع انعزالية او منعزلة كالتي تدعى « اوسمي » (osmies) وآنتيدي (Anthidies) ومجاشيل (Mégachilles) . الى جانب هذه الانواع الانعزالية نلاحظ تعقيداً نامياً او متزايداً في المجتمع مع ظهور مجتمعات معقدة جداً في القمة تحوي عشرات الالوف من الافراد ونلاحظ في هذا التطور ، أن أول مرحلة من مراحله تتميز بالاعتناءات الشخصية التي تقدمها الحشرة بنفسها لدوداتها ، مع العلم ان النحل المنعزل يهيء مسبقاً ،

---

(٥) راجع : C. J. Warden: the emergence of human culture 1936.

(٦) F. Boas : anthropology in Encycl. of Social Science (1930) p. 79.

(٧) Ibid. ; p. 79

الثقافة والتربية لدى الحشرات :

هل يمكن القول ان لدى الحيوانات بصورة عامة ، ولدى الحشرات بصورة خاصة ، ثقافة أو حضارة أم ان الثقافة (أو الحضارة) مقصورة على الانسان دون سواه من الحيوانات؟ لهذا السؤال أهمية كبرى فيما يتعلق بامكانية استخدام السيكولوجيا الحيوانية لتحديد العوامل الوراثية والثقافية في السلوك البشري. المختصون بسوسيولوجيا الحيوانات منقسمون حول هذه المشكلة. فمنهم من ينكر بشكل ضمني وجود ثقافة أو حضارة لدى الحيوانات ومن هؤلاء ف. هـ ألبورت (F.H. Allport) (٤) .

ومنهم من ينكر ذلك صراحة ومن هؤلاء واردن (Warden) في مؤلف له يعالج فيه مسألة ظهور الثقافة البشرية . اذ يقرر واردن ثلاثة معايير أو مقاييس للثقافة هي : **الاختراع والاتصال والتعود او التطبع الاجتماعي** . أي ان الثقافة تستلزم نوعاً جديداً معينا من السلوك ينقل الى افراد النوع الآخرين بحيث يصبح عادة مشتركة بين عدد كبير منهم . وفي رأي واردن ، لانجد مثل هذا، السلوك لدى الحيوانات التي هي أدنى من الانسان في السلم الحيواني. ومايشبه الثقافة لدى هذه الحيوانات يملك صفة بيو - اجتماعية (biosocial) وهي محددة بالوراثة أو بخصائص نوعية (phylogenèse) ، بينما تعتبر الثقافة لدى الانسان من نسق تبدلي فردي (ontogénique) ، وتنمو في مجرى حياة الافراد كنتيجة للعوامل الاجتماعية . ويرى واردن ان الحيوانات الاليفة تظهر ذكاء معيناً وتكتسب بعض عادات جديدة بفضل الانسان ولكنها تعجز عن تبني الصفات الثقافية المتعلقة به وطبع نسلها بها ارتكازا على التعود أو التطبع الاجتماعي . فهي تحت وصاية الثقافة البشرية وتعود الى حالتها الوحشية اذا

---

(٤) راجع مقاله في مجلة : Social forces, Vol. 15. 1937. pp.455-462

الرقصة متناسبة عكسياً مع المسافة، ويكون الميل أو الانحناء (Inclinaison) على السمت مساوياً لزاوية خط الشمس - الخلية - ، والتغذية - الخلية . وفي حال احتجاب الشمس تسد الحساسية المتعلقة باستقطاب النور هذا المسد .

وتشير الى المسافات القريبة برقصة مختلفة . كما قد تدل على الزهرة بواسطة رائحتها [٢] . .

اذن نرى لدى هذه الحشرات لغة اشارية تتفاهم بواسطتها . وقد نجد عند حشرات أخرى لغة صوتية تقوم بها عند قيامولتها أو شعورها بالجوع والحر والخطر . كما تتعارف كل هذه الحشرات على أساس بصري وشمي .

الرهط الداخلي والرهط الخارجي : (In-group and out-group)

لقد لاحظ كثير من المختصين بشؤون الحيوانات وجود علاقات حسنة بين الاعضاء في نفس الرهط أو الجماعة ، ترافقها عدوانية أو كراهية نحو الاعضاء الذين ليسوا من رهطهم أو جماعتهم . أذ لاحظوا ان النمل يجعل حداً فاصلاً أو مميزاً بين أعضاء وكره أعضاء وكر آخر . ويبدو أن هذا التمييز يقوم على أساس شمي ، ذلك لاننا اذا دهنا بعض افراد الوكر بعصير مستخرج من وكر لرهط معاد فان رفاقها تقتلها [٣] . ويحدث العكس اذا دهنا اجسام أفراد رهط عدو بروائح رهط معين فان أفراد هذا تقبلها .

---

(٢) للتوسع راجع : Von Frisch : Bess : their vision, chemical senses and language. Cornell. Univer. Press. 1950.

Von Frisch : vie et moeurs des abeilles. (trad. franç.) Albin Mich. Paris 1950 et Paul Chauchord : Opi. Cit. الذي اقتبسنا عنه حتى الآن هذا القسم من فصلنا الحالي .

(٣) راجع O. Klineberg : Psychologie sociale. (trad. franç.) P. U. F. T. I. P. 25 et 28.

O. Klineberg : Social psychology. chap. II (1954).

المشتركة متوسطة السرعة . ففي الخلية « والارضة » نجد ان العمل يسير وكأن هناك مخططاً (plan) يتبع من قبل الجميع بالتناسق والتعاون . وقد لوحظ ان بعض النمل القطبي المسمى أوكوفيل (Oecophylles) يصنع عشه من ورق الاشجار التي تحيطها العاملات بواسطة حرير تفرزه دوداتها ، وتقرب الاوراق تبعاً لعمل متناسق تعمل فيه على شكل سلسلة مؤلفة من ٦ أو ٧ نملات . ويجب ان نشير هنا الى السلالم والجسور التي يؤلفها النمل من اعضائه وكذلك الكرات النملية الجماعية العوامة . وهذا راجع الى سلوك للمادة الحية يتجلى فيه التناسق المنعكسي والغريزي .

الاتصال والتفاهم لدى الحشرات :

وقد اثارت مشكلة تناسق الاعمال لدى هذه الحشرات مشكلة التفاهم والاتصال فيما بينها (Communication) اذ يوجد لدى الحشرات كثير من العلاقات الحسية وخاصة القرنية تستطيع بواسطتها ان تتعارف على أساس شمي . وتستعد الحشرات كثيراً من امكانيات التناسق العملي من كونها تملك نفس الارتكاسات ونفس الحساسية ونفس مؤهلات التوجه ونفس القدرة على التقليد المنعكسي . ولكن هذه الفاعليات لا تفسر كل شيء في هذا التناسق فهل تملك الحشرات لغة تتفاهم بواسطتها وتتوصل بفضلها الى مثل هذا الانسجام وذلك التناسق ؟ ولا نقصد هنا لغة مفاهمية وبشرية بل لغة حركية أو صوتية .. لقد برهن فون فريش (Von Frisch) على وجود لغة راقصة أو رقصية لدى النحل تتمكن بواسطتها من تأدية اشارات معبرة ، لغة تتوصل الى درجة لا تفوقها سوى اللغة البشرية . اذ تتمكن النحلة بعد عودتها من الجني من إعلام رفيقاتها ان هناك أريا في زهرة معينة وعلى مسافة معينة وفي اتجاه معين . وتدل على المسافة (أو البعد) والاتجاه برقصة ذات ثماني حركات ، حيث تكون سرعة

لدى النحل بين العاملات والدودات الغـاذيات . . وهكذا فان صبغ التغذية بالصبغة الاجتماعية يؤدي الى تبادل جواهر هامـة جداً ، قـد تكون هامة جداً للنمو وقد لوحظ ان لحس الصغار مألوف جداً لدى الفقريات ، وقد ذكرت حالة هرة منعت من ان تلحس نفسها فتركت صغارها تموت لعدم لحسها لها .

المرحلة الاجتماعية :

وهكذا فتمايز الافراد مورفولوجيا يدفع كل فئة منهم لان تقوم بمهمة (أو عمل) تتناسب مع تركيبها المورفولوجي . ولكن الافراد لا يقومون بهـذه المهمة كل بمفرده بل بصورة اجتماعية وتبعاً للتعاون ، ويؤدي هذا التنسيق أو التناسق بين الاعمال الى انسجام قوي . ويعطي هذا الانسجام للخليـة كثيراً من مظاهر البنية فوق العضوية (Superorganisme) اذ تكفي عمليات التنظيم أو التعديل الذاتي لخلق بيئة داخلية حقيقية ، تتجلى في ميل هذه الحشرات الى اقامة شروط حياتية ثابتة وتعديلها اذا تغيرت (Homéostasie) . . فمثـلاً يجب ان تبقى حرارة الخليـة في حدود ٣٥° مهما كانت الظروف الحرارية . فاذا ارتفعت الحرارة قام أفراد مخصوصون بالتهوية لادامة الحرارة المطلوبة . ويتجلى هنا نوع من التناسق أو التنسيق الذاتي (auto-coordination) مرتبط بفاعليات منعكسية وغريزية . ويعتبر روش (Rösch) ان للعاملات (لدى النحل) تقويماً فيزيولوجياً . فهي أولاً منظفة وبعدها مغذية بالعسل وخبز النحل ، وبعدها منتجة للرب الملكي ، وتقوم بعد ذلك بجولات الجني وتصبح بعد ذلك خازنة ، وتنتج بعد هذا الحجيرات بمساعدة غددها المفرزة للشمع ، وتصبح في النهاية جناءة للعسل . وتجري كل فاعلية بصورة مشتركة وتصبغ بالصبغة الاجتماعية . وتنسجم الاعمال الفردية بصورة تامة . وقد لوحظ ان نملتين تنسقان فاعليتهما عندما تعملان معاً . فاذا كانت الاولى سريعة والثـانية بطيئة أصبحت فاعليتهما

أما لدى الارض فان جميع البيوض متماثلة ، ولكن الافراد يتمايزون خلال التبدلات المتتابعة التابعة للنمو المتطور . وهذا عائد الى تأثير هرمونات اجتماعية ، أو جواهر ينشرها أعضاء طائفة فتسبب الحد أو التوقف من تناسل هذه الطائفة وتساعد على ازدهار الامكانيات الاخرى .

التنظيم الاجتماعي

ما يميز هذه المجتمعات الحشراتية العليا هو أن إعداد الطوائف ، أوالتوجيه المورفولوجي للأفراد ، يتم حسب الحاجات . ويتم تنظيم هذه المجتمعات بشكل مدهش ، فكأن هناك قوة خفية تعلم **العاملة النحلة** عن النسبة الضرورية بين الملكات والعاملات والذكور. فاذا ما اختطفت الملكة ، غذيت حالا دودات حسب النظام الغذائي التابع للملكة . وهذا ما يحصل لدى الارض اذا ماأزيل الزوج الملكي ، اذ يتحول بعض الاحداث الى أفراد **جنسيين** . كما يحصل في هذه المجتمعات تنظيمات أو تعديلات من نوع آخر ، اذ اذا أصبح فرد عاجزاً عن القيام بوظيفته المعد لها بسبب هرمه ، فانه يتعرض لتجديد شباب ويعد لوظيفة أخرى . وهذا ما يحصل تحت تأثير هرمونات اجتماعية ،وسمي هذاالتأثير بالتأثير الهرموني الاجتماعي . وهكذا فان تنظيم وتعديل الطوائف يتمان تحت تأثيرات **رهطية وجمهورية** . ذلك لان هذه الحيوانات **تتلاحس** وتتلامس « بقرونها » ؛ فليس من المستغرب او تؤثر مؤثرات مادية أو منعكسية في سلوكها .

التغذية الاجتماعية :

يحصل بين هذه الحشرات تبادل غذاء . فلدى الارض يغذي العمال الجنود، وتقترن هذه التغذية بتلاحس (أو لحس متبادل) . ونجد هذا التبادل في الغذاء

٢) وإما ان نرد ذلك الى بيوض متشابهة ولكن أصل التمايز يعود الى اختلاف في المعاملة أو العناية وهذا يتعلق بأثر البيئة الاجتماعية أي يكون السبب متعلقاً بالغذاء . (trophique) .

مما لاشك فيه ان السببين يلعبان دورهما في نشأة هذا التمايز . ان تمايز أو اختلاف الجنسين يعود الى عوامل تكوينية أو وراثية ، ولكن لدى النحل والنمل ، وبفضل حالة خاصة (قانون دزيرزون Dzierzon) ، يمكن أن تلقح الانثى البيوض وأن لاتلقحها . فالبيضة الملقحة تعطي أنثى ، وغير الملقحة ذكراً . والملكة النحلة تمتنع ، بفضل ظاهرة منعكسية تكمن في وجودها فوق حجرة كبيرة (cellule)، عن فتح جراب ملقحاتها وتلقيح البيوض. أما اذا كانت فوق حجيرات أصغر فان اللقاح يتم . ويمكن لدى النمل ان تكون الاختلافات بين الطوائف عائدة الى أسباب تكوينية أو وراثية ولكن معرفتنا لهذه الاسباب لاتزال غير تامة .

أما لدى النحل فنعرف تماماً سبب عقم العاملات . اذ أنه عائد الى خصي بواسطة تقشف غذائي . فالدودة التي ستصبح ملكة توضع في حجرة كبيرة وتغذى جيداً ، كالذكور ، بنوع من الحليب تفرزه العاملات المغذيات من غدد جبهية (ويدعى الرب الملكي gelée royle) . يعتبر هذا الرب أو الحليب غنياً بالفيتامينات وخاصة بالفيتامين (E) ويؤمن للملكة طولاً أفضل ونمواً سوياً . أما العاملات فلا تعطى (أو لايعطين) منه الا مدة ثلاثة أيام وتغذى بعدها بالعسل وخبز النحل (والمدعو أيضاً Pollen) ، ويعتبر هذا الغذاء تقشفياً ويجعل العاملات عقيمة دون ان يكون هذا العقم كلياً ، فاذا قتلت الملكة أو ماتت تمكنت العاملات من البيض ولكنها تبيض ذكوراً لأن بيوضها غير ملقحة . اذ يمكن ان نبدل حجيرة الدود . وهكذا اذا وضعت دودة العاملة التي لم تبلغ ثلاثة ايام من عمرها في حجيرة ملكة فانها تصبح خصبة واذا وضعت دودة ملكة مدة يومين في حجيرة عاملة فانها تتبدل .

والى جانب الافراد الجنسيين يوجد أفراد محايدون (neutres) هم خصيان اجتماعيون ، فهم اناث عقيمة (أو عقيمات) لنقص بيضي لدى النحل والنمل ، ومنهم أفراد عقيمون من الجنسين لدى الارض. هؤلاء العقيمون على أنماط ونماذج مختلفة ، وهذا تابع لمورفولوجياهم التي تحدد غرائزهم وبالتالي **وظائفهم الاجتماعية** وهم لدى النحل يشكلون **العاملات** اللواتي يختلفن بنماذجهن تبعا لتطور الفرد . وتملك العاملات بعض أعضاء خاصة تسهل عليها جني غبار الطلع (pollen) وأري (Nectar) الأزهار وغدداً تنتج **الشمع** : المادة الاولية اللازمة **لصنع النخاريب**. ولدى النمل يوجد **عاملات** وجنوداً كفاء . ويملك الاخيرون في فكهم الاسفل نوعا من « الحربات » الفتاكة تعينهم في الدفاع والهجوم . وكذلك نجد لدى الارض **عمالا وجنوداً** . وهؤلاء الاخيرون مخيفون ، يملكون عدا « حرباتهم » غدداً تفرز سائلاً عدوانيا ، وهم غير قادرين على أن يغتذوا بأنفسهم ... ويبقى النحل وحده مجنحا تماما ، أما الارض فينزع أجنحته عندما يؤسس « أرضته » (termitières) وكذلك ينحط بصره بتأثير الظلمة ... ويعتبر المجتمع ، لدى هذه الحشرات ، **اسرويا** . ويعتبر انشاء هذا المجتمع اجتماعيا لدى النحل ، حيث ترحل عاملات عديدات مع ملكة شابة لانشاء مجتمع جديد .. ولدى الارض يوجد ، في البدء ، الزوج الملكي بمفرده وعنه ينشأ المجتمع . أما لدى النحل فيعتبر تأسيس المجتمع اكثر تنوعا . ويمكن أن يكون التنوع المورفولوجي كبيراً حاويا نماذج متعددة في كل زمرة : اذ هناك جنود مختلفون لدى الارض ، وأفراد آذنون أو بوابون يسد رأسهم مدخل الوكر لدى النمل ، وأفراد خازنون لدى النحل يملكون في بطونهم قربا تعتبر كخزانات للعسل ..

أصل الطوائف : يمكن ان يرد هذا التمايز أو الاختلاف في التكوين والوظائف الى سببين :

١) اما ان نرد هذا الى أنواع متعددة من البيوض وهكذا يكون التمايز أو الاختلاف التكويني عائداً إلى اختلاف تكويني Génétique أو وراثي.

ويعتبر التكوين أو التشكيل الاجتماعي لدى الأرض أقدم وأكمل تشكيلا (أو نظمة) (Organisation) من سائر المجتمعات الحشراتية .

المجتمعات لدى الارض والنحل والنمل

يعتبر النحل والنمل من الحشرات ذات الاجنحة **الغشائية** (Hyménoptéres) التي هي حشرات عليا ذات استحالات (Métamorphoses) **كاملة** تملك بين المرحلة الدورية والمرحلة البلوغية طوراً **سرفياً** (nymphale) **سكونياً** وتبدلا أو تعديلا في كافة الاعضاء . أما الارض التي هي حشرات أقل تمايزاً فانها تصل بصورة اكثر تسلسلا الى المرحلة البلوغية بفضل تبدلات متعاقبة أو متتالية . وما يجذب الانتباه في الحالات الثلاث هو وجود فروق مورفولوجية بين الافراد كثيري العدد الذين يؤلفون المجتمع . وهنا لا نقصد فقط الجنسين (الذكور والاناث) والصغار في مختلف المراحل ، بل نقصد أيضا وجود الطوائف (castes) لدى الافراد المتمايزين مورفولوجيا بقصد القيام بوظيفة اجتماعية . اذ يشمل المجتمع **افراداً قادرين على الانسال** ، ولكن عددهم يعتبر محدودا جداً (ملكة لدى النحل والارض وظيفتها بيض البيوض) . هذه الانثى التي تدعى **الملكة** يرافقها لدى الارض ذكر مهمته تلقيح البيوض ، ويسميان معا « **الزوج الملكي** » (Couple royal) ، أما لدى النحل والنمل فيقتل الذكر بعد التلقيح وهكذا لا تملك مجتمعاتها بصورة دائمة ذكراً . اذ تلقح الانثى اثناء طيرانها الزفافي وتحتفظ طوال حياتها وفي جراب معين بالملقحات . وهكذا يقتل الذكور غير النافعين .

وانظر ايضاً كتاب جراسي :

Structure et physiologie des sociétés animales

كتمثيل لتطور الانواع الاكثر اجتماعية ... ومن الجائز ان نعتبر المجتمعات المعقدة كمجتمعات تطورت ابتداء من مجتمعات أبسط وأقل تعقيداً . ونحن لانحب أن نبحث بالتفصيل في العوامل التي أدت الى هذا التطور اذ تعود الى عوامل بيولوحية وغريزية ومحيطية طبيعية واجتماعية ايضاً ...

ونحن اذ نبحث في مجتمعات الحشرات فسنقتصر على مجتمعات الارض والنمل والنحل . وغايتنا معرفة المبادىء البيولوجية العظمى التي تسيطر في مرتبة من مراتب مجالات السوسيولوجيا ... وسنحاول ماأمكن أن نوحد في سوسيولوجيا واحدة كل مستويات المجتمعات المختلفة ... ومع ان الحشرات هي عبارة عن حشرات وتحقق مجتمع حشرات قائماً على الآلي والعضوي ، ومختلفاً عن مجتمعات الفقريات التي تقوم على النفسي والعضوي معاً ، فان تأثيرات الرهط والجمهرة (أو الكتلة) التي تقدمها بصورة مكبرة في مرتبتها ، توجد أيضاً لدى الكائنات العليا ، إما في مستوى أساس حياتها الاجتماعية ، أو منقولة الى مستوى أعلى : « فالعامل » الحشرة يعتبر مخصياً تشريحياً لنقص فيتاميني أو هرموني من أصل اجتماعي . وسنرى في الفصل القادم أن «الكادح الادنى» Sous-prolétaire في مجتمعات الطيور هو مخصي وظيفياً بواسطة المحرمات الاجتماعية ، بينما يلاحظ في المستوى البشري أن الفروق الثقافية تدخل بين الفئات حواجز لايمكن تقريباً تخطيها . وكما يقول جراسي (Grassé) «تظهر الميول الاجتماعية لدى الحشرات المتنوعة تماماً ... ولكن بينما تبقى بدائية تماماً لدى أغلب هذه الحشرات ، فانها تصل في بعضها الآخر الى درجة عالية من التعقيد . وهكذا نثير حالا في الذهن الأرض والنمل والزنابير والنحل ... لقد تشكلت النماذج العظمى لمجتمعات الحشرات مستقلة فيما بينها ... وتعود المشابهات بينها الى الميل في اتجاه واحد أو الى توافق الاتجاه (convergence أكثر منه الى وحدة الأصل . »[١] ..

---

(١) نقلا عن :

P. Chauchard : Sociétés animales , Société humaine . P . 64

الفصل السادس

البيولوجيا الاجتماعية للحشرات

تؤلف مجتمعات الحشرات خير مثال موضح للبيو سوسيولوجيا البيولوجية ولتأثير التجمع والتجاذب الاجتماعي على فيزيولوجيا الفرد وسيكولوجياه وكذلك على مورفولوجياه ...

وقد بقي المختصون بشؤون الحشرات زمناً طويلا يبدون الدهشة أمام عجائب الطبيعة ويثيرون مشكلة خضوع كل من الافراد خضوعاً كلياً « لروح الخلية » (L'esprit de la rnche) .. وقد برهن العلماء المحدثون على أن « روح الخلية » هذه هي عبارة عن انتحاءات (tropismes) (أو منعكسات) وتعتبر **ارتكاسات الزامية منقوشة** في الجملة العصبية بصورة فطرية ، حيث يؤمن تعاقبها (الذي لايمكن ان يخطىء والذي يجري على شكل متسلسل) كامل سلوك ملائم أو متكيف ، لاتديرها الحشرة اطلاقاً ، وانما هو تحت اشراف وسيطرة مؤثرات رهطية أو تجمهرية نوعية لاتزال غير معروفة تماماً ، ومؤثرات غذائية أو هرمونية اجتماعية .. فكل شيء في الخلية معقد ولكن لم يبق فيها شيء خفياً ، اذ نحن أمام عمليات مادية متعلقة بتنظيم ذاتي اجتماعي (Autorégulation) وأصل مثل هذا التعقيد مايزال مجهولا حتى الآن . اذ يوجد في نفس الرهط ، وخاصة لدى النحل والزنابير ، جميع نماذج المجتمع التي تبتدىء بالفرد المنعزل وتنتهي بالخلية . ويمكن **ان نميل الى اعتبار هذا التطور**

المصادر

التي يمكن الرجوع اليها أيضاً

1 — Pr. Grassé : Structure et psychologie des sociétés animales. Paris C.N.R.S. 1952

2 — Armstrong : La vie amoureuse des oiseaux. Paris. Albin-Michel. 1952

3 — Rabaud : Phénomène social et sociétés animales. Paris F. Alcan. 1937

4 — G. Lindzey : Handbook of social psychology. Vol I. Addison-Wesley. 1954

5 — O. Klineberg ; Social Psychology. N. Y. H. Holt. revis. edit. 1954

6 — C. Murchison : A handbook of social psychology. N. Y. 1935

بالصبغة الاجتماعية (Socialisée) . ولكن وجود عدة مجتمعات معقدة ، مؤلفة من أسر معددة الزوجات ، لدى البابوين (Babouins) يدل على وجود عملية مكملة هي **الرغبة الاجتماعية** التي تساعد على مساكنة الذكرين اللذين يوجدان في حالة الفاعلية (أو النشاط) الجنسية . أما ما يختص بالأسرة فاذا كانت هناك مجتمعات مغلقة ، فقد رأينا سابقاً أمثلة عديدة لتجمعات لاعلاقة لها اطلاقاً بالأسرة . ولا تشكل الانواع الانعزالية مجتمعات أسروية دائمة أو طويلة الامد ، وهذا دليل على ان الرغبة الاجتماعية ضرورية . وما يكوّن الرابطة الاجتماعية في المجتمعات الاسروية ليس العلاقة بين الأبوين والصغار ، تلك العلاقة التي تعتبر وحيدة الطرف (Unilatéral) من الناحية البيولوجية ، ذلك لأنها عبارة عن انجذاب الوالدين نحو صغارهما طالما هم بحاجة الى عنايتها ورعايتها ، بل الذي يكوّن هذه الرابطة هو **التجاذب المتبادل** (Interattraction) بين الأخوة والأخوات ، ذلك التجاذب الذي يبقي على تجمعهم حتى ولو أهملهم الابوان . وهناك زنابير انعزالية تربي صغارها في عش ولكنها مع ذلك لاتكون مجتمعات ، لان الصغار ينعزلون منذ بلوغهم ، ذلك لأنهم لايملكون التجاذب الاجتماعي . والمجتمعات المختلطة المؤلفة من أنواع مختلفة ، هي أيضاً عملية اجتماعية لاعلاقة لها لا بالاسرة ولا بالجنسية .

ونرى ، لدى بعض الطيور المسماة بينجون (Bingouins) ، ان الطير الذي لايتعرف على بيضته ، تعلّم ألا يتعرف وألا يقبل سوى فراخه ، ولكنه لايعود يتعرفها بعد مرحلة الفراق والانفصال . وهكذا نشاهد هنا فرقاً عميقاً بين غريزة «الأهل» (Instinct parental) وبين العاطفة الامومية الحقيقية أو الحب الامومي (Amour maternel) . (٥)

---

(٥) هذا الفصل مقتبس بكامله عن :

P. Chauchard : sociétés animales et société humaine. PP. 5-42

الاجتماعية . ويرى جراسي (Grassé) ان « المجتمع يفرض رقابة على الفرد الذي يعتبر تجمعياً في حياته ولا يصبح فاعلاً جنسيا الا عندما يغادر المجتمع ، ويؤدي الدارج الاجتماعي في الفقريات الى التحريم الاجتماعي لممارسة الجنسية لدى الافراد من المرتبة الدنيا . . وفي انواع اجتماعية عديدة نرى ان زمن الانسال يهدم المجتمع

نلاحظ هذا في امراب السمك وفي رهوط العصافير التي تنعزل **ازواجا ازواجا** في اعشاشها الكائنة في بقعة أرض محرمة على الغرباء اثناء زمن «الحب» وكذلك يعيش الذئاب في رهوط بينما تنفصل في فصل «الحب» وتتجمع ازواجا أزواجا . واذا كانت بعض القطعان لدى اللبونيات تجمع الجنسين ، فان كثيراً منها لا يضم سوى جنس واحد ، اذ تدخل «الجنسية» تبدلات عميقة في واقع هذه القطعان . وهناك مجتمعات نلاحظ فيها تميز وانفصال **الجنسي** عن **الاجتماعي**. اذ هناك قطعان تتألف من أزواج **متميزة ومنفصلة** تمارس زواجا وحيد الزوجة (Monogamie) أو زواجات متعددة الزوجات تبقى منفصلة عن بعضها البعض .

وبالعكس هناك تجمعات جنسية محض ليس لها أي صفة اجتماعية ، كتلك التجمعات لدى الديدان البحرية المسماة (Annélides) ، التي تظهر على سطح البحر أزواجاً أزواجاً ، ويعتبر ظهورها هذا مرتبطاً **بالدورة القمرية** . **وتجمع ذكور عديدين حول انثى واحدة** ليس له أي صفة اجتماعية : اذ التجاذب جنسي ولا يوجد بين المتزاحمين سوى العدوانية .

اذن يجب ان نقيم تمييزاً مطلقاً بين الجنسية والاجتماعية دون ان يجرنا هذا إلى نكران الدور الحاسم الذي لعبته بعض مظاهر الجنسية في تشكيل المجتمعات أو نشأة أو تكامل الجاذبية الاجتماعية . فمثلاً نرى لدى القرود ان زوال الراحة الجنسية الطويلة والتعويض عنها بتتال منظم للطمث لدى الانثى تقابله لدى الذكر فاعلية مستمرة تعاكس الحياة المنعزلة .

وعلى هذه الشاكلة تعلل حياة الذكر مع زوجاته ، التي هي حياة مصبوغة

هذا الارتباط ، واستمرار الرهط الاسروي بعد بلوغ الصغار مستوى يتمكنون معه من الاستقلال بغذائهم وحياتهم ، ليسا ظاهرة جنسية بل ظاهرة اجتماعية وتملك الانواع المنعزلة نفس المجتمعات الجنسية ، فاذا كانت لاتميل الى تكوين مجتمعات زوجية أو أسروية فلأن الرغبة الاجتماعية أو الحاجة الى الآخرين تنقصها . وانها لاتملك **هذه الحاجة** الى الآخر الا **في حالة** والا لهدف خاص هو « الجنسية » (sexualité) . ويوجد حقاً تقارب شديد بين الرغبة الاجتماعية والرغبة الجنسية ، وهذا عائد الى كونهما سلوكين غريزيين ، ونمطين من انماط وظائف الجملة العصبية عندما توجد في شروط معينة ، وخاصة هرمونية ، تثير **الحاجة** والتفتيش أو **الرغبة**... ولكن ينتج عن الرغبة الجنسية انها تجمع أفراد من جنسين مختلفين (sexes opposés) بينما تجمع الرغبة لاجتماعية الافراد مهما كان جنسهم » . والغريزة الجنسية هي ، بصورة عامة ، موقتة ترتبط بزمن النشاط الجنسي ، انها سلوك شبيه بالسلوك الغذائي . بينما الجاذبية الاجتماعية هي ، على العكس من ذلك ، حاجة دائمة ليس لها من هدف وظيفي واضح سوى **الحاجة الى الآخرين وضرورة التحقيق ، بصورة مشتركة ، لجميع الافعال الحيوية** . وهناك أمثلة عديدة تظهر استقلال الجنسية عن الاجتماعية (أو المؤالفة الاجتماعية) (Sexualité et sociabilité) . لقد ذكرنا سالفاً بعض التجمعات الخالية من أثر جنسي ، كتجمعات بعض الحشرات للقيلولة أو النوم التي لاتجمح سوى الذكور ، وجميع الجماعات الديدانية محرومة من الجنسية . حتى في مجتمع أسروي متمركز حول الفاعلية الجنسية لزوجين ، **كمجتمع الارض** ، يستدل على هيمنة الاجتماعي واستقلاله بكون هذا المجتمع لايتفرق اذا انفصل عنه **الزوجان الملكيان** (Le couple royal) . ولكننا نرى على العكس من ذلك ، انه يميل الى البقاء والاستمرار وذلك بتعويض الزوجين المفقودين . وهذا مايحصل ايضاً لدى النمل والنحل التي تفقد ملكتها . **ونجد احياناً تعارض بين الغريزتين** . اذ تؤدي الحياة في مجتمع الى خصي افراد عديدين من العقيمين لدى الحشرات

أما بالنسبة للانسان فالغريزة الجنسية تتصعد الى حب وتنفلت نوعا ما من شرطها العضوي . وقد امكن التساؤل : الى أي حد يمكن اذن القول ان هذا التصعيد (sublimation) للجاذبية المتعلقة بالزوج او بالاطفال يمكن ان يعتبر كمصدر للتجاذب الاجتماعي ؟

وقد ألحت البسيكانليز (التحليل النفسي) ، تحت تأثير فرويد ، على أهمية الجنسي في الحياة الحضارية . حتى ان فرويد ذهب الى القول : في كتابه «الطوطم والمحرم» (Totem et tabou) بان الغريزة الجنسية أصل للثقافة البشرية وما تحويه من دين وفن وعلم ...

وقد اعتبرت البسيكانليز ، أن الجنسي يلعب ، حتى لدى الطفل ، الدور الاساسي . وكل منا يعرف مارددده كثير من المؤلفين عن الصفة الجنسية لعلاقة الطفل بوالديه ، وعن عقدة أوديب وعقدة الخصي . . ومهما يكن من اهمية العامل الجنسي لدى الطفل ، فعلينا ألا نصبغ كل شيء بالصبغة الجنسية و « نجنس » السلوك البشري بكامله وان نرجع كل شيء بشري الى الجنس . وقد كان لآدلر (Adler) الفضل في بيان اثر العلاقة الاجتماعية مع الآخر ، وديكالكتيك التعدي والخضوع ، والحاجة الى الحماية والسيطرة ، والرغبة في أن نعامل كأفراد (sujets) (أو أسياد) وان نعتبر الآخرين كأشياء (Objets) (أو أتباع) . وقد انتقلت مغالاة فرويد واتباعه الى بعض المختصين بالسوسيولوجيا الحيوانية الذين يحاولون أن يؤسسوا الظاهرة الاجتماعية على الغريزة الجنسية أو على الأسرة . لقد أظهر جراسي (Grassé) بشكل متين بأن عمليات التجاذب (او الجاذبية) الاجتماعية وعمليات التجاذب الجنسي مستقلة الواحدة عن الأخرى ، على الرغم من ارتباطها بكون انسان واحد يملك معاً غرائز اجتماعية وغرائز جنسية . فلدى الحيوان الاجتماعي يجب ان تجري الغريزة الجنسية في اطار المجتمع وتحدث فيه تبدلات خاصة .

ولكن بقاء ارتباط الزوجين بعد الفاعلية الجنسية ، عندما لا يقتضي النسل

هو عبارة عن ظاهرة اجتماعية أولية وقالوا ان الميل الى التجمع يمكن ان يقوم أو يبنى على أساس هذه الغريزة عن طريقين : اذ من جهة يوجد لدى كثير من الانواع تعدد زوجات (polygamie) ، ومن جهة ثانية ينفذ **الجنسي** على **الاجتماعي** لانه يؤدي الى **تشكيل الاسرة** أي الى التحاق الصغار بالوالدين .

ولكننا لانجد الاسرة لدى جميع الحيوانات .. اذ هناك بعض حيوانات تهمل بيوضها دون ان تهيء لها أي بيئة ملائمة .. وفي مرتبة حيوانية أعلى ، تحضن الانثى البيوض وتعتني بها في عش واحد . وهذا معروف تماما لدى العناكب والاسماك والطيور .. والاعتناء بالصغار قد يكون مقصوراً على الانثى . أما الذكر فيمكن ان يهملها منذ الوطء ، أو يلازمها ويشترك معها في بناء العش وتربية الصغار . وهناك بعض حالات يقوم بها الذكر بحضن البيوض لان الانثى تهملها .

وهناك كثير من صغار الحيوانات تحتاج الى عناية وكفالة الوالدين مدة تطول وتقصر حسب درجة الحيوان في السلم الحيواني ... هذه الاعتناءات الخاصة بالتغذية أو بالتنظيف ، المتعلقة بجاذبية خاصة موجهة نحو الصغار وبشرط هرموني قريب من الشرط الهرموني الجنسي ، تستلزم وحدة أو تماسكا في **رهط أسروي** ، هو عبارة عن مجتمع أولي . وتكون العلاقة أوثق اذا كان غذاء الصغار يستمد من جسد الام كحليب الثدييات ... واذا ما ادرك الصغار سن الاستقلال لازموا أبويهم واخوتهم وحتى اولئك الذين يتحدرون من « أجيال » متعددة فيتشكل عندئذ **مجتمع حيواني**. وهناك مجتمعات ثدييات عديدة تقوم على اساس أسروي . ونجد هذا بين الحشرات **كالنمل والنحل والارض** ... ومهما يكن من اصل البشرية الحالية ، فمما لاشك فيه ان الاسرة لعبت دوراً هاما جداً في تكوين هذا الأصل . ومن المعلوم ان في **المجتمعات الاولية** (أو المسماة بدائية) توجد علاقة واضحة بين الغريزة الجنسية والأسرة وتركيب العشائر **والافخاذ** أو **الفروع** (Clans) .

وتجمعات الجراد الصحراوي تؤثر في جهازه العصبي وفي غدده الصماء. فالتجمع يدخل الاضطراب في فيزيولوجيا الحيوان كافة : اذ يأكل الحيوان اكثر وتزداد لديه المبادلات الجسدية ويسارع نموه ، وينقص وزنه وتنشط فاعليته . ويظهر تجاذب (او جاذبية) اجتماعي يدفع بالافراد الى التجمع في اسراب اكثر فأكثر عدداً ، كما تظهر عملية تقليد منعكسي تجعل كل فرد حساساً تجاه فاعلية جاره : فاذا ماطار احدها مال الجميع الى الطيران ... هذه المنعكسات في التقليد تعتبر آلية ومختلفة عن التقليد الواعي لدى الانسان . انها منعكسات آلية تؤمن تناسق اسراب السمك او الجراد وانتظامها الدقيق ... وللتقليد اثر في حياة الفقريات وخاصة ماتأثر منها بالزعيم او القائد الذي يتزعمها او يقودها ويمشي في مقدمتها . كما يلعب التقليد دوراً هاماً جداً في الحياة الاجتماعية لدى البشر . وقد الح تارد على هذا التأثير وجعله الركيزة الاولى للحوادث الاجتماعية .

الجنسي والاجتماعي :

أغلب الحيوانات ، حتى المنعزلة او الانعزالية منها ، يجب ان تمارس بصورة دورية علاقات مع جنيس من الجنس المخالف لارواء الغريزة الجنسية وانتشار النوع ، وتدفع الغريزة الجنسية ، المرتبطة ببعض الهرمونات ، الجنسين الواحد نحو الآخر منتصرة بذلك على الميل الى العزلة او الانعزال . ولكن هذه الغريزة تجر معها عدوانية بين افراد الجنس الواحد وخاصة لدى الذكور . ويمكن ان تظهر هذه العدوانية لدى الذكر والانثى ايضاً على الرغم من العلاقات الجنسية بينهما . اذ هناك بعض الاناث (لدى القاصميا Mante والعناكب) تأكل الذكر أثناء ، أو بعد ، ممارسة الفعل الجنسي ..

ولكن الغريزة الجنسية تستلزم ، بصورة عامة ، **التجاذب بين فردين** .. وقد استنتج البعض من ضرورة أو اتصال الجنسين ان هذا الاتصال (أو العلاقة)

وقد أظهر شليفر (Shlaifer) ، لدى كثير من الحيوانات وخاصة لدى السمك الاحمر ، ان العزلة تزيد الفاعلية وحرق الاوكسجين . وهذا عائد الى تأثير رهطي من أصل بصري يمكن ان يحصل دون ملامسة حقيقية (الفصل بواسطة زجاج ، أو رؤية السمكة لنفسها في الماء ، أو رؤية سمكة ميتة) .

وتأثير رهط من هذا النوع هو الذي يلعب دوره في حال الحمامة الانثى التي لا تبيض الا اذا شاهدت جنيساً لها ولو كان أنثى مثلها ، أو اذا شاهدت صورتها في المرآة . . . ولا يتمكن الحمام الذكر من افراز الحليب (غذاء الفراخ) من حوصلته الا اذا رأى الانثى تحضن الفراخ . والورض لا يكون سويا (أو طبيعياً) لدى بعض طيور البحر المسماة مويت (Mouettes) الا اذا بلغ عددها العشرين على الاقل . . فمن المحتمل ان يكون تأثير مماثل للرهط لدى الانسان يجعل الحيض (أو الطمث) يظهر بصورة أبكر عند نساء المدن منه لدى نساء القرى ، أو يضعف من نمو الاطفال المنعزلين أو المعزولين .

ويمكن أن يغير التجمع ، لدى بعض الحيوانات **غير الفقرية** ، الجنس . فمثلاً لدى الكريبيدولا (Crepidula) نوع من (المحاريات) تعطي الدودة المنعزلة انثى ؛ بينما تعطي ، اذا احتكت بأخرى ، ذكراً .

وهكذا نرى ان التجمع (أو الحياة في مجتمع) لا يؤثر فقط في السلوك النفسي ، بل يبدل أيضاً ، بصورة عميقة وبعمليات متنوعة ، من فيزيولوجيا الفرد . فالكائن الاجتماعي يحتاج الى الآخرين ، الذين هم مصدر لموادومثيرات حسية ضرورية لحسن سير جهازه العصبي وجسده بكامله . ويتأثر الكائن غير الاجتماعي نفسه بالحياة داخل رهط . وتعلل بتأثيرات من هذا النوع كل فيزيولوجيا وتشريح الطوائف لدى الحشرات الاجتماعية (كما سنرى في الفصل القادم) . ونجد لدى الانسان مثل هذه التأثيرات ، وان كانت أهمية العامل السيكولوجي وتعقيد البيئة يحجبانها عن أعين الملاحظ . وسوء النمو الجسدي النفسي لدى الطفل الذي يحرم من عطف واعتناء والديه يعد أحد مظاهر هذه التأثيرات .

وفي ماء مخفف (Diluée) حتى ٧٥ ٪ يلزم بعض ساعات لقتل بضعة أفراد وبضعة أيام لقتل عدة مئات في نفس الحجم المائي .

وكذلك تظهر بعض التجمعات مناعة في أفرادها ضد السموم . فالسموم التي تقتل بعض الحيوانات المائية في حوض مائي كبير ، لا تتمكن من قتلها في حوض مائي صغير . . . وهذا راجع الى إفراز مادة مخاطية أو الى نشر إيونات واقية تكون أغزر كلما كانت الكثافة الحيوانية أشد .

وترتبط ايضاً نسبة الانسال بكثافة السكان اذ يوجد حالة فضلى نوعية. فهناك بعض الحيوانات وحيدة الخلية والمسماة « العصيات » (bacilles) لا تنمو الا اذا بذرنا منها عدداً كافياً . ولدى ذبابات الخل (drosophiles) الموجودة في اناء واحد نحصل على عشر ورضات من تسعة أزواج ، ولكن نحصل على تسعين ورضا (أو توريضا) من زوج واحد . . . ولدى الفئران يقلل تزايد السكان من غزارة الأفراد بقتل الذكور وزيادة الوفيات لدى الصغار. ويظهر هنا نوع هام جداً من عملية **التنظيم الذاتي** . ومن الضروري ان نعمق معرفتنا عن هذا النوع من التنظيم الذاتي لأنه يكشف لنا عن نواح خافية في المجتمعات البشرية .

وقد اظهر سوليراك (Soulairac) أن الجرذ غير الفاعل جنسياً يصبح فاعلاً عندما يدخل على المجموعة جرذ **فاعل جنسياً** . (وسنرى تأثير الجهوة على السلوك الجنسي لدى الحشرات والفقريات الاجتماعية) .

ويؤثر التجمع على النمو . اذ غالباً ما يظهر في التجمعات ضعف في النمو دون أن يرجع هذا الى نقص في الغذاء ، فتحت تأثير ١٦° من الحرارة تنمو فئران منعزلة بصورة أفضل في الرهط حيث تدفع عن نفسها تأثير الحرارة بالتلاحس . ويجد السمك الأحمر في المياه التي يعيش فيها جنيسه مادة تحسن النمو والطول . ولدى ذبابة الخل يتزايد الطول في الرهط ولكن في حدود معينة (اذ اذا كان الرهط كبير العدد ، زادت الامراض بين الافراد) .

outang) رهوط يتألف كل منها من ذكر وانثيين يرافقهما صغارهما (٤) .

تأثير الكتلة أو الجمهرة والرهوط :

تؤثر الحياة المشتركة على الفرد . وهكذا ففيزيولوجيا **المنعزل** ليست مماثلة تماماً لفيزيولوجيا **التجمعي** . وهذا يتأتى عن نسقين من الظواهر :

١) **تغير الوسط تحت تأثير تزايد السكان تزايداً شديداً** ، وتعتبر هذه الظاهرة التجاورية أو الاتصالية مضرة عادة ، ولكن يمكن ان يكون لها تأثيرات مفيدة ، وتدعى هذه الظاهرة بتأثير الكتلة أو الجمهرة (Masse) .

٢) **التأثير المتبادل للمثيرات الحسية** القائمة بين الأفراد ، وهذا ما ندعوه بتأثير الرهط .

وهذه عبارة عن نتيجة للحياة الاجتماعية التي تجعل سلوك الحيوان الاجتماعي مختلفاً عن سلوك الحيوان المنعزل، وتهبه فاعليات **مشتركة منسقة** ، هي بصورة عامة ، فاعليات غريزية فطرية خاصة بالبنيات العصبية لدى الحيوان الذي يملك التجاذب الاجتماعي ؛ وتظهر هذه الفاعليات بصورة مستمرة أو في ظروف معينة عندما يصبح الحيوان تجمعياً . ولكن دراسة التجمع لدى الجنادب دلت تماماً على أن تشكيل جمهرة ، أو تجمع أفراد عديدين على بقعة ضيقة ، هو الذي يؤدي الى ظهور الغريزة الاجتماعية والتجمعية والى تبدل مورفولوجي ، فهنا بسبب تأثير الجمهرة أو الرهط التجاذب الاجتماعي ويجعل الفرد حساساً تجاه تأثير الجنيس .

وقد برهن ج . بون (G.Bohn) ودرزوينا (A.Drzewina) عام ١٩٢٠ على أن الدودة البحرية المسماة كونفوليتا (Convoluta) تقاوم بصورة أفضل المياه الحلوة اذا كانت مجتمعة . فكأن التجمع يؤلف بالنسبة لهذه الديدان **وقاية** ؛

---

(٤) للتوسع انظر المصدر السابق .

وكذلك شاهد بعض العلماء في حدائق الحيوانات ان الرباط الزوجي يمكن ان يدوم لدى الذئاب سنين عديدة .

ب - **مجتمعات الفقريات الاجتماعية الوحيدة الزوجة** : التي تحصل عن الاندماج في رهط واحد لعدد متغير لأسر وحيدة الزوجة . ويختلف هذا الاندماج في شدة كماله أو ضعفه حسب الانواع . فالكوكو (أو الطاطوي) الاميركي يعيش في أسراب مؤلفة من **زوجين وحيدي الزواج** ، لها ، حسب أنواعها ، أعشاش منفصلة أو أعشاش مشتركة . وفي أحد أنواعها نجد ان تربية الصغار تجري بصورة مشتركة ، ونلاحظ فيه **تعدد الزوجات**. كما نلاحظ وجود مجال (أو أرض) **محدود** ومحدد يطرد منه كل غريب في زمن الانسال . ولا يقبل الغرباء في هذا المجال الا في فصلي الخريف والشتاء .

حـ - **مجتمعات فقريات معددة الزوجات** : ونلاحظها بصورة واضحة لدى الحيوانات اللبونة الاجتماعية : كالفيلة والوعول أو الأيائل . فالفيلة والوعول تؤلف ، خارج زمن الانسال ، **قطعاناً** منفصلة ، قسم للذكور وقسم آخر للاناث والصغار من جهة ثانية . ولكن في زمن الانسال يتولى الذكر على قطيع من الاناث يكون ، ان جاز لنا القول « حرمه » . والحصان الهميوني في منغوليا يعيش على شكل قطعان مؤلفة من رهوط أسروية تتضمن ذكراً وثلاث أو أربع اناث وبعض صغار يرعاها الذكر . ونجد لدى القرود أنواعاً كثيرة تعددية **الزوجات** . فالآلويتا في امريكا تؤلف أفخاذاً حقيقية يضم الواحد منها ثلاثة ذكور وتسع اناث (لا تشكل زوجين) وعدداً من الصغار . أما بالنسبة للشيمبانزي والغوريلا (اللذين هما أقرب الحيوانات الى الانسان) فيبدو ان الرهط النموذجي يتألف من ذكر مسيطر يرافقه عدد من الذكور «الذين» هم أدنى منه حركية ، ومن عدد كبير من الاناث « يصحبهن » صغارهن ، وقد يبلغ العدد الكلي أو العام عدة عشرات من الأفراد . . ويلاحظ لدى هذين النوعين وجود الذكر المنعزل . . ويلاحظ لدى الاورانغ - أوتانغ (Orang-

ويمكن ان نميز الرهوط أو الجماعات الآتية :

أ) **جماعات او رهوط بدائية** : نجد فيها استمرار التنافس الفردي بين الافراد على الغذاء وانتقاء القرينة (أو القرين) وينتفي فيها الدارج الاجتماعي ولا يدوم فيها التجاذب المتبادل . ونجد هذا النوع من الجماعات غير المنسقة لدى الوطواط سواء في «تجمعاته» الشتائية أم المنامية .

ب) **جماعات منسقة** : (وخاصة في تنقلها) ونلاحظها لدى أسراب الاسماك أو أسراب بعض الطيور وخاصة في زمن **الانسال** أو زمن **الواحة** . ولكنها لاتكوّن جماعات راقية .

ح) **مجتمعات راقية** نلاحظ فيها ان الرهط **يكون وحدة متماسكة مغلقة** كثيراً أو قليلًا يقل فيها تنافس الافراد تماماً ، وينتقل على **ارض** أو **مجال حيوي** مشترك ويتمكن من التوصل الى التنسيق والى تقسيم العمل . ولا نجد فيه تمايزاً مورفولوجيا بل اقامة **دارج اجتماعي** يترأسه **زعماء** .

المجتمعات والحياة الجنسية لدى الفقريات : وتتميز هذه المجتمعات تبعاً لمميزات الحياة الجنسية أي على اساس وحدانية الزوج أو تعدد الزوجات . وهنا نلاحظ الانماط الثلاثة الآتية :

آ ـ **الجماعات الاسروية للفقريات المنعزلة والوحيدة الزوجة** : يرى بورليير (Bourlière) ان هذه الجماعات تكوّن أبسط المجتمعات الحقيقية لدى الفقريات ويرى أننا نلاحظ فيها كل الانماط المتوسطة الواقعة بين المجموعة الاسروية الفصلية المحض التي يتركها الاب بصورة مبكرة ، والمجموعة الأسروية الدائمة التي يقدم الذئاب خير مثال عليها .[٣] ...

نلاحظ احيانا لدى بعض الطيور ان صغار « الجيل السابق » يساهمون في تربية صغار الجيل اللاحق » كما نلاحظ لدى الوز البري ان الوالدين وصغارهما تقوم بهجرة الخريف ولا يتفرق الرهط الا في الربيع التالي . ويشمل الرهط الاسروي للجيبون (Gibbon) (احد انواع القرود) الوالدين وعدداً من الصغار مختلفي الاعمار

الآخرين الا حسب تجاذب متبادل وتبدل في البيئة . وهذا يحصل لدى كثير من الحشرات . كالبلاتة (نوع من الخنافس الليلية) مثلا ، وكبعض ذكور الحشرات الطيارة التي تغادر العش المشترك ليلًا لتبيت في مكان ما بمفردها.

ب ـ **الجماعات المنسقة البسيطة** ، حيث يظهر فيها تنسيق في الحركات والتحرك على اساس مجموعات أو رهوط. وتشمل مثلًا تلك الجماعات العديدة من الديدان كالسيارا (Sciara) المسماة «بالدودة الحربية أو العسكرية» التي تكوّن شريطاً متحركا مؤلفاً من طبقات عديدة من الأفراد ، ويتجمع فيه الكل في مادة مخاطية مشتركة ، ويتغير أفراد المقدمة أحياناً وليس لهم قائد مشترك . وتكوّن أحياناً تحركاتها نوعاً من الهجرات الهامة : كهجرات الفراش والجنادب ..

حـ ـ **المجتمعات الدنيا** ، حيث نجد فيها مهمة مشتركة حقيقية ، ونلاحظ مثل هذه المجتمعات لدى بعض العناكب الاجتماعية التي تؤسس مجتمعات من هذا النوع لها نسيج بيت مشترك ، كما نلاحظها عند بعض الديدان التي تبني لها عشاً مشتركا تجد فيه دفئاً أفضل من ذلك الذي تجده في أعشاشها الفردية .

د ـ **المجتمعات العليا** ، التي نجدها لدى الأرض والزنابير والنحل والنمل ، وحيث نلاحظ فيها تنسيقاً قوياً وتنظيما مدهشاً في الفعاليات الفردية . ويصل التفاعل والرغبة الاجتماعية في هذه المجتمعات الى اقصاها . فالعلاقات المتبادلة معقدة جداً ، والأفراد المرتبطون فيما بينهم ارتباطاً وثيقاً لايقوون أحياناً على العيش المنعزل ، والمجتمع المتشكل من رهط عائلي أو أسروي يعتبر مجتمعاً مغلقاً جداً بالنسبة للغرباء الذين لايقبلون فيه ، ويحتوي على تنوع مرتبط بالمهمات الاجتماعية ، وعلى **اتصال** ، وارتباط قائم بين جميع المراحل التطورية أو التكاملية التي تبدأ بالبويضة وتنتهي بمرحلة البلوغ .

٢ ـ **الرهوط والجماعات لدى الحيوانات الفقرية** : ونجد لدى الحيوانات الفقرية رهوطاً مختلفة الشكل .

اذ لايمكن ان نتكلم عن وجود جماعة ، او رهط اجتماعي حقيقي ، الا اذا حصل فيها (او فيه) **تجاذب متبادل** ونوعي بين الافراد الذين يكونونها (او يكونونه) . وهنا نخرج حالة الطفيليات من حسابنا حيث ان التجاذب فيها ليس متبادلا .

ولكن الواقعة الاجتماعية تجاوز اطار التجاذب المتبادل والانتحاء (التروبيزم) (انجذاب النبات بالنور او بمثير آخر) . اذ نحن ، هنا ، امام حاجة حقيقية شبيهة **بالجوع والعطش** ، هي **الحاجة** الى الجنس (Congenère) او هي ، كما يقول هويلر (Wheeler) ، **الرغبة الاجتماعية** (Appétion sociale) التي تتعلق بحالة من حالات الجملة العصبية ، التي تجعل الحيوان المعزول يبحث عن الآخر ويظهر انزعاجه لعزلته هذه ، ولو كان ذلك الآخر غائباً غير حاضر امامه او في مجاله المكاني . هذه الحالة بارزة جداً لدى القرود . وهذا يجعل تشابها بين التجاذب الاجتماعي **وغريزة قريبة منه** ، ولكن **مختلفة عنه ، هي الغريزة الجنسية** التي هي حالة من حالات المراكز العصبية موجودة بصورة فطرية تثير ارتكاسات في السلوك ، وتهدف الى اشباع حاجة وتجعل الفرد حساساً تجاه الرسائل الحسية التي تنجم عن الآخر . وبهذا يمكن القول : ان التوازن العصبي للانواع الاجتماعية يتطلب (التجمع) او يفرض الرهط أو المجموعة .

هناك صنفان مختلفان من الرهوط **الاجتماعية : صنف منسق وآخر غير منسق.** ففي الاول نجد تنسيقاً لفعاليات الافراد اما في الثاني فلا نجد مثل هذا التنسيق ونقدم بعض امثلة عن كلا الضربين :

الرهوط او الجماعات لدى الحشرات وما دونها : وتشمل هذه الجماعات مايلي :

آ) **جماعات غير منسقة وغير منظمة وموقتة** ، تضم عددا متغيراً من الأفراد ، ومفتوحة للقادمين الجدد ، ومرتبطة بموقع ثابت وهي غير عائلية بالضرورة ، ويكون الأفراد فيها غالباً في حالة قيلولة ، وليست التجمعات الاجتماعية الأولية اجبارية ، والفرد الذي يمكن ان يعيش منعزلاً لاينضم الى

النباتية .. وقد لوحظ ان لتأثير البيئة الاجتماعية ، او للحياة المشتركة ، في الفيزيولوجيا الفردية نتائج هامة تظهر على المستوى المورفولوجي والمستوى السيكولوجي . ففي المستوى الاول يؤدي الامر الى تمايز بين الافراد ، حيث تتحول الجنادب الانعزالية مثلا الى جنادب تجمعية ، وحيث تظهر « الطوائف » لدى الحشرات .اما تأثير المجتمع في السلوك فمسؤول عن **التجاذب الاجتماعي** (Affinité sociale) هذه الغريزة التي تدفع الى التجمع والى البحث عن الاخرين وتنمي الذكاء والشعور وبهذا تقود شيئاً فشيئاً الى المجتمع الانساني .. وفي كل « تجمع » نقع على **تفاعلات** وعلى تنظيمات ذاتية (autorégulations) بين مختلف العناصر التي يتكون منها التجمع او المجتمع . وتحدث التفاعلات ، سواء في **المجتمع الحجيراتي** (الجسد) ام في المجتمع نفسه ،تبدلات مورفولوجية وسيكولوجية . كما تحدث التنظيمات الذاتية او البناءات الذاتية في المجتمع **بيئة** مجتمعة ، أو مصبوغة بالصبغة الاجتماعية ، ومنظمة ذاتيا ، معتمدة بذلك على تنسيق الفعاليات الفردية .

ويجب ان نشير منذ الآن الى ان **الظاهرة الاجتماعية** تظهر في جميع مستويات السلم الحيواني وان جميع الرهوط (او المجموعات) تملك انواعاً **اجتماعية** وانواعاً **انعزالية** . ولا يؤلف التجاذب الاجتماعي بين افراد من نوع واحد فقط بل يجمع ويؤالف ايضاً بين افراد من انواع مختلفة . وسنرى هذا في بحث النمل والنحل . حيث تعيش بعض الحيوانات **الطفيلية** مع اخرى ، وحيث تستعبد حيوانات حيوانات اخرى وتستفيد منها .وهكذا نجد لدى الحيوانات نوعاً من الاسترقاق او الاستعباد يشبه الى حد ما الاسترقاق او الاستعباد البشري ... اذن ليست العلاقة الاجتماعية الحقيقية بين افراد من نوع واحد الا **حالة** من العلاقات بين **الانواع** المختلفة (Interspécifiques)...

مختلف نماذج التجمعات الحيوانية : يجب أن نميز بين الجمهرة والتجمعة الموقتتين اللتين لايمكن ان نعتبرهما **رهطاً او (تجمعاً) حقيقياً دائماً او جماعة.**

السلوكات البشرية . ولهذا تتوجه هذه السوسيولوجيا لتستمد منها العون في كثير من تعليلاتها . ويجب أن يؤثر هذا الاتجاه في السوسيولوجيا عامة حيث يجب ان تعتمد في تعليل الحوادث الاجتماعية على البيولوجيا . وقد كتب رابو عام ١٩٣٧ : « ان ننكر ان الحياة الاجتماعية هي في كل مستوياتها أو درجاتها ظاهرة بيولوجية يبدو في ، الوقت الحالي ، بدعة محضة ... فالبيولوجيا والسوسيولوجيا لن تظهرا مطلقا كتابعتين الواحدة منهما للاخرى ، واقل من ذلك كمتعاكستين مباشرة : وستظهر الحياة الاجتماعية كأحد الظواهر التي تتعلق دراستها بصورة خاصة ومطلقة بالمجال البيولوجي . »[١]

في هذا القول كثير من الصحة وكثير من الغلو ذلك لان دراسة المجتمعات الحيوانية الراقية لدى القرود مثلا ، ستظهر لنا ان السلوك الحيواني (والبشري ايضاً) يرتبط بعوامل نفسية علاوة على العوامل البيولوجية . وهذا لايعني مطلقاً ان العوامل البيولوجية والسيكولوجية تكفي لتعليل السلوك البشري بكامله . ذلك لأن في المجتمع البشري تظهر عوامل اجتماعية محضة وبشرية وثقافية محضة يكون لها تأثيرها وبهذا تنضاف الى العوامل السابقة .. (وسنعود الى هذا البحث في الفصول القادمة) .

فيزيولوجيا العلاقات الاجتماعية : الواقعة الاجتماعية الاولية هي عبارة عن خاصة بيولوجية للفرد ، وهي عبارة عن الاختلال او الاضطراب الذي يطرأ على فيزيولوجياه عندما يكون في الرهط وعلى اتصال واحتكاك بالآخرين . فالعلاقة الاجتماعية الاولى هي من نسق **مادي بيولوجي** وتظهر لدى كائنات لاتملك جملة عصبية ولا سلوكا ولا نفسية أولية ، أي لدى النباتات . وهناك علم خاص يدعى الفيتوسوسيولوجيا (phytosociologie) (السوسيولوجيا النباتية) يدرس التجمعات النباتية لنباتات من نوع واحد ومن انواع مختلفة أيضاً ، وتأثيرها في نمو « الافراد »

---

(٢) نقلا عن : Ibid , p .7

الفصل الخامس

المجتمعات الحيوانية

نقدم هذه الدراسة الموجزة عن المجتمعات الحيوانية لنتمكن فيما بعد من فهم المجتمع البشري او الانساني فهما تاما ، ذلك لان العوامل التي تلعب دورها في المجتمعات الحيوانية تلعب ايضاً دوراً قد يكون هاماً أو اقل أهمية في المجتمع البشري، ودراستنا هذه ستقدم لنا المشابهات والفروق بين **الوقائع** البشرية والوقائع الحيوانية. وستظهر لنا العوامل والعناصر التي تميز الوقائع أو الحوادث البشرية عن الوقائع أو الحوادث الحيوانية، وقد قال رابو Rabaud : «يجب الا ننسخ المجتمعات البشرية عن نموذج المجتمعات الحيوانية : لأن التيرومورفية (Théromorphisme) (مشابهة الانسان بالحيوان) ليست افضل ولا أسوأ من الانتروبومورفية النزعة المشبهة (Anthropomorphisme) (مشابهة الآلهة والاشياء بالناس) ، ولكن من الانسب ان نقوم بمقارنات لنرى ماتملك **الرهوط** من امور مشتركة وما يملك كل منها من خاص به »[١] .

وهكذا تتجة سوسيولوجيا المجتمع الحيواني (او السوسيولوجيا الحيوانية) الحديثة الى معرفة **الشروط والعوامل الاجتماعية الاولية** التي تحدد كثيراً من

---

(١) نقلا عن : P. Chauchard; Sociétés animales,Société huma-
- ine .p.6

القسم الثالث

المجتمعات الحيوانية

(من السوسيولوجيا الحيوانية)

(١٥) راجع : Bergel (B.E.) : Urban sociology. Printice-Hall. N. Y. 1955

(١٦) راجع : M. Halbwachs: Morphologie sociale, A. Collin. Paris. 1938

(١٧) راجع : A. Landry: Traité de démographie. Payet. Paris 1945

A. Sauvy: Théorie générale de la population. P. U. F. Paris. 1952

P. Landis: Population problems. N. Y. 1943

(١٨) راجع : Sorokin: Sociology of revolution. Philadelphia 1925

» : Man and society in calamity. N. Y. 1942

G. Bouthoul: Les guerres. Payot. Paris. 1951

A. Joussain: La loi des revolutions. Flammarion. Paris. 1950.

(١٩) راجع : Brookover: Soociology od Education. N.Y. 1955

F. Y. Brown: Educational Sociology. 2 thedit. N. Y. 1954

(٢٠) راجع : P. Chauchard: Sociétés animales et société humaine. P. U. F. 1956

Richards: Les insectes sociaux. Stock. Paris. 1955

Rabaud: Phénomène social et sociétés animales. Alcan. Paris. 1937

Lindzey: Handbook of social psychology. Tom. I. N. Y. 1954

(٢١) راجع : F. J. Brown: sociology of childhood. N. Y. Printice Hall. 1939

(٢٢) راجع : A. Cuvillier: Opi. cit., Tom. II. Chap. X

E. Burgess and Lock: The family. N. Y. 1946

H. Becker: Marriage and family. Boston. 1942

(٢٣) راجع : E. Sutherland: Criminology. Philadelphia. 1939

J. Marquiset: Le crime. P. U. F. Paris. 1948

(٢٤) راجع : E. L. Koos: The sociology of patient. Printice-Hall. N. Y. 1945

b) K. Mannheim: Idéologie et utopie. M. Rivière. Paris. 1956

» : Ideology and utopia. Londres. Kagan and Paul (6 the ed.)

6 — A. Cuvillier: Manuel de sociologie. T. II. : راجع (٦)

7 — Marcel Cochen: Pour une sociologie du lan- : راجع (٧)
gage. Albin Michel.Paris. 1956

علي عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع .

P. Sorokin: social and culture dynamics. Vol. I. : راجع (٨)
N. Y. 1937

R. Escarpit: Sociologie de la litterature. P. U. F. Paris. 1958

M. Belvianes: Sociologie de la musique. Payot. Paris. 1951

G. Gurvitch: Sociology of lauw. N. Y. 1942 : راجع (٩)

» : Eléments de sociologie juridique. Sirey. Paris.1940

R. Toulemont: Sociologie et pluralisme dialec- : راجع (١٠)
tique. Louvain. 1955

G. Gurvitch: Morale théorique et science des Moeurs. P. U. F. Paris 2ème edit. 1948

A. Cuvillier: opi. Cit., Tome II. Chap. XI : راجع (١١)

A. Cuvillier: Ibid. Tome II. chap. VIII : راجع (١٢)

A. Joussain: Petit traité de sociologie économique. J. Lamarre. Paris. 1931

13 — G. Freedman.. : راجع كل ماكتبه (١٣)

— Schneider: Industrial sociology. N. Y. 1954

— Whyte : Industry and society. Printice-Hall. N. Y. 1946

Loomis and Beegle: Rural social systems. Prin- : راجع (١٤)
tice-Hall. Y. 1951

— T. Smith: sociology of rural life. N. Y. 1940

— L. Nelson: Rural sociology. American book. N. Y. 1948

— Landis (R.H.) : Rural sociology. American book. N.Y. 1948

مصادر الفصل

(١) انظر : G. Davy: Durkheim. L. Michaud. Paris. P. 54

(٢) من اجل هذا الفرع راجع :

2 — a) A. Cuvillier: Manuel de sociologie. Tom. I. Paris P. U. F. 1950

b) G. Bouthoul: Traité de sociologie. Tom. I. Paris. Payot. 1948

c) P. Sorokin: Society, culture and personality, Harper, N. Y. 1947

(٣) من اجل هذا الفرع راجع :

3 — a) G. Bouthoul: Traité de sociologie. Tom. II

b) P. Sorokin: Society, culture and personality

c) H. W. Odum: Understanding society, the principles of dynamic sociology, Macmillan. N. Y. 1947

(٤) من اجل هذا الفرع راجع :

4 — a) Munir mushabik Mousâ: Théorie de la l'origine de la religion d'après Durkheim. Paris 1958 (thèse complémentaire dactylographiée).

b) Durkheim: Les formes élémentaires de la vie religieuse. F. Alcan. Paris 1912

c) R. Bastide: Eléments de sociologie religieuse. A. Colin. Paris. 1938

d) Meunsching: Sociologie religieuse. Payot. Paris. 1951

e) J. Wach: Sociology of religion. 2 édit. Chicago. 1447. (trad, franç, Payot. Paris. 1955)

(٥) من اجل هذا الفرع راجع :

5 — a) J. J. Maquet: Sociologie de la connaissance. Louvain. 1949

الخلاصة :

وهكذا ترون ان السوسيولوجيا تفرعت الى فروع عديدة يختص كل منها بناحية أو بمجال من نواحي أو مجالات المجتمع . وبهذا تنطلع السوسيولوجيا اليوم الى دراسة المجتمع بكامله ومساعدة المصلحين الاجتماعية على حل المشاكل الاجتماعية المعقدة كالحروب والمستبقات والتعصب الديني والعرقي والوطني أو القومي . . وتقسيمنا للسوسيولوجيا الى قسمين : عامة وخاصة ، لا يعني ان السوسيولوجيا الخاصة هي سوسيولوجيا تطبيقية أو تدرس حوادث جزئية على خلاف السوسيولوجيا العامة التي **تدرس الحوادث العامة** . ذلك انه لا فرق من حيث العمومية في الدراسة بين القسمين . ولكن سمينا الأولى سوسيولوجيا خاصة لأنها تختص بدراسة قسم معين من الحوادث الاجتماعية ، بينما سمينا الثانية سوسيولوجيا عامة لأنها تدرس المشاكل العامة للسوسيولوجيا وطرق الدراسة فيها ، وقوانين التطور الاجتماعي والاستقرار الاجتماعي ، أي تدرس الواقع الاجتماعي بكامله لتصل الى وضع مثل هذه القوانين العامة .

بالمجتمع والتفاعلات التي تحدث في المدرسة وعلاقة المدرسة بالثقافة والسياسة ، وشخصية المعلم ، وأدواره وأثرها في المجتمع والتلاميذ ، وأثر التربية في الحرب والسلم [١٩] ...

١٧ - **سوسيولوجيا المجتمعات الحيوانية** : وتدرس المجتمعات الحيوانية وتركيبها وعوامل تكوينها ومميزاتها مع مقارنتها بالمجتمع الانساني [٢٠] ...

١٨ - **سوسيولوجيا الطفولة** : وتدرس تأثير المجتمع في الطفولة ونشوئها وتكون الشخصية ، والتنبؤ الاجتماعي [٢١] ...

١٩ - **سوسيولوجيا الأسرة** : وتدرس نشوء الأسرة وتركيبها وتطورها خلال التاريخ وعلاقات الزوجين فيما بينهما ، والعقد الزواجي والطلاق ، وعلاقة الاولاد بالأبوين واختلاف كل ذلك باختلاف المجتمعات وعلاقته بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية [٢٢] ...

٢٠ - **سوسيولوجيا الجريمة (أو الاجرامية)** : (Sociologie du crime (ou criminelle)) وتدرس الاجرام والجنوح وعلاقتها بالمجتمع والرهوط وكيفية مداواتها بواسطة المؤسسات الاجتماعية التربوية ...

٢١ - **السوسيولوجيا العيادية أو التشخيصية** : (Sociologie clinique) وتدرس بعض الامراض العقلية من عصابات وذهانات واضطربات نفسية تحدث في أساس الشخصية وعلاقة ذلك بالمجتمع والأسرة والرهوط والطبقات الاجتماعية وعدم الاطمئنان الاجتماعي وكيفية مداواتها على أساس اجتماعي وطبي ونفساني [٢٤] ..

٢٢ - **وهناك فروع أخوي منها سوسيولوجيا المجتمعات البدائية ، وسوسيولوجيا القبالة والتمريض** ، وسوسيولوجيا الانتخابات ، وسوسيولوجيا التطبيق الديني ...

١١ – **السوسيولوجيا الريفية** : (Sociologie rurale) وتدرس الريف (أو القرية) وتقاليده وعاداته والأسرة وحجمها وتكوينها وعاداتها والتعاون فيها ، والمجموعات أو الرهوط (العصبات والصداقات والزعامة) ، والجوار ومراكز التجارة، وأنماط القرى وأشكالها ومراكزها أو مواقعها ، والمقاطعات الريفية ومظاهرها الاقتصادية ، والطبقات الاجتماعية وأسسها ، والمجموعات الدينية وصفات الدين في الريف ، والتربية والمدرسة وعلاقتها بالريف والادارة في الريف ، والمزرعة وأثرها والخدمات الصحية والاجتماعية ، كما تقيم المقارنات بين الريف والمدينة في جميع هذه المواضيع التي تدرسها [١٤] .

١٢ – **سوسيولوجيا المدينة** (أو المدنية) : (Sociologie de la ville ou urbaine) وتدرس المدنية وكل ما يظهر فيها من مؤسسات وتقاليد وعادات ورهوط وعلاقات وصفات مميزة . وتعد هذه الدراسة على شاكلة الدراسة الريفية اذ تصف كل الواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في المدينة وتحاول ان تعلل ما يظهر فيه من حوادث وظواهر وتغيرات .

١٣ – **المورفولوجيا الاجتماعية** : (Morphologie sociale) وتدرس بنية الرهوط الاجتماعية كما تدرس الوقائع الاجتماعية وعلاقتها بالأساس المادي في المجتمع [١٦] .

١٤ – **الديموغرافيا** : (Démographie) وتدرس السكان وعوامل تزايدهم وتناقصهم وتوزيعهم وتركيبهم ، والولادات والوفيات والهجرة كما تدرس الموت والولادة والجنس والعمر [١٧] ...

١٥ – **سوسيولوجيا الحرب والثورة**: وتدرس علاقتها بالمجتمع وعواملها المختلفة وتطورهما خلال التاريخ واختلافها باختلاف المجتمعات والقوانين التي تنتظمها [١٨] ...

١٦ – **سوسيولوجيا التربية**: (Sociologie de l'éducation) وتدرس (كما سنرى في الكتاب المخصص لسوسيولوجيا التربية) العملية التربوية وعلاقتها

العوامل المختلفة من سياسية وبيولوجية واقتصادية ، وتدرس أيضاً الفولكلور والعادات والتقاليد وأثرها في المجتمع . . [٦] .

٤ - **سوسيولوجيا اللغة** : (Sociologie du langage) وتدرس اللغة ونشوءها وأشكالها وتركيبها وتطورها وقوانين ذلك التطور وعلاقة ذلك بالمجتمع وطبقاته ورهوطه (أو مجموعاته) وعلاقة اللغات بالشعوب والدول والأمم [٧] ...

٥ - **سوسيولوجيا الفن** : (Sociologie de l'art) وتدرس الفن ونشوءه وأشكاله وتطوره وعلاقة ذلك بالمجتمع . . وتضم التفرعات الآتية : سوسيولوجيا الأدب ، سوسيولوجيا الموسيقى ، سوسيولوجيا اللهو واللعب والسينما وسوسيولوجيا الأزياء [٨] ...

٦ - **سوسيولوجيا الحقوق** : (Sociologie juridique ou du droit) وتدرس الحقوق والقوانين ونشوءها وتطورها واختلافها باختلاف المجتمعات [٩] ...

٧ - **سوسيولوجيا الأخلاق** : (Sociologie de la morale) وتدرس الأخلاق ونشوءها واشكالها وعلاقتها بالمجتمع [١٠] ...

٨ - **سوسيولوجيا السياسة (أو السياسية)** : (Sociologie de la politipue ou socilogie politique) وتدرس أصل السلطة والدولة والأمة والأنظمة السياسية وتطورها منذ فجر التاريخ حتى الآن وعلاقتها بالمجتمع ووظيفتها فيه [١١] ...

٩ - **السوسيولوجيا الاقتصادية**: (Sociologie économique) وتدرس نشأة الاقتصاد والتجارة والملكية والنقد وتطورها ، وتدرس الانتاج وتقسيم العمل ، والطبقات الاجتماعية . والقيمة الاقتصادية والسعر [١٢] ...

١٠ - **السوسيولوجيا الصناعية**: (Sociologie industrielle) وتدرس المعامل والمصانع والعمل فيها وعلاقة العمال فيما بينهم وعلاقتهم برؤسائهم وتأثير العوامل الاجتماعية في الانتاج وتأثير الدارج (Hiérarchie) الاجتماعي في المعمل ، وتأثير التعاون والتنافس في عملية الانتاج [١٣] ...

فيه وعلاقة السوسيولوجيا بالعلوم الاخرى التي تساعدها في دراسة المجتمع . تدرس الحتمية والسببية والقوانين والتعليل والتنبوء في السوسيولوجيا وطرق البحث فيها وتعير هذه الطرق قسماً كبيراً من الاهتمام [٢].

ب - **السوسيولوجيا العامة الديناميكية** : وتدرس تطور المجتمع وتبدله وصيرورته والعوامل المساعدة على ذلك، والقوانين التي تنتظم هذه العملية التطوريه للمجتمعات البشرية بصورة عامة .

وهكذا نرى ان هذين الفرعين يدرسان المجتمع ومشاكله من وجهة نظرة عامة .[٣] ولا يعني هذا ان هذين الفرعين منفصلين كما في مفهوم كونت .

٢ ــ السوسيولوجيا الخاصة :

وسميناها بالخاصة لأن كل فرع من فروعها يدرس مادة خاصة او قسماً او جزءاً من الحقيقة الاجتماعية والثقافية ، وتضم الفروع الآتية :

١ - **سوسيولوجيا الدين** (او الدينية) (Sociologie de la religion) وتدرس أصول الدين وعناصره وأفكاره وأشكاله وعلاقته بالمجتمع والطبقات الاجتماعية وجميع العوامل المؤثرة في نشوئه وتطوره ، ووظيفته الاجتماعية ... [٤].

٢ - **سوسيولوجيا المعرفة** : (Sociologie de la connaissance) وتدرس علاقة معارفنا الانسانية بالمجتمع والطبقات الاجتماعية والعوامل السياسية والبيولوجية . وانواع المعرفة وانتقالها من نوع الى آخر خلال التاريخ البشري ... [٥]

٣ - **سوسيولوجيا الثقافة او الحضارة** : (Sociologie de la culture ou de la civiiliation) وتدرس نشوء الحضارة أوالثقافة **وتطورها وانواعها في مختلف المجتمعات وفكرة التقدم** الحضاري أو الثقافي وعلاقة كل ذلك بالمجتمع

الفصل الرابع

فروع السوسيولوجيا

بعد أن عرّفنا السوسيولوجيا ننتقل الى تحديد فروعها وأقسامها ..

لقد رأينا سابقاً ان اوغست كونت ميز بين نوعين من السوسيولوجيا : السوسيولوجيا الستاتيكية أو الستاتيكا الاجتماعية والسوسيولوجيا **الديناميكية**.

وقد وضع دوركهايم الفروع الآتية : ١ — السوسيولوجيا العامة . ٢ — السوسيولوجيا الدينية . ٣ — السوسيولوجيا الأخلاقية والحقوقية . ٤ — السوسيولوجيا الاجرامية والاحصائية الأخلاقية . ٥ — السوسيولوجيا الاقتصادية . ٦ — المورفولوجيا الاجتماعية . ٧ — الدراسة السوسيولوجية للغة والفن والتكنولوجيا [١] ..

أما في أيامنا هذه فقد أصبحت فروع السوسيولوجيا أكبر عدداً وأكثر تنوعاً . ونحاول أن نقدم للقارىء أكثر هذه الفروع . فنحن نقول ان السوسيولوجيا تقسم الى فرعين رئيسيين هما : السوسيولوجيا **العامة** و**السوسيولوجيا الخاصة** . ويشمل كل فرع تفرعات ، يدرس كل منها نوعاً من الوقائع الاجتماعية أو وجهاً من موضوع السوسيولوجيا .

١ — السوسيولوجيا العامة وتضم :

أ — السوسيولوجيا العامة الستاتيكية ، وتدرس أصول السوسيولوجيا ومنابعها وتعريفها وموضوعها والمجتمع والقوانين التي تنتظمه والعناصر الهامة

de M. Rosenthal et P. Youdine) . Moscou (1955) . Art. Sociologie p. 571

(١٧) P. Sorokin. Society, culture aud personality. Harper (N. Y) (1947) p. 16

(١٨) R. M. Maciver and Ch. H. Page. Society. Macmillan London (1955) p. V

(١٩) H W. Odum. Undrstanding society. Macmillan. N. Y. (1947) p. 5

(٢٠) R. Freedman and others. Principles of sociology. Henry Holt N. Y. Revised edition (1956) p. 1

(٢١) من اراد التوسع فليراجع :

a) p. Sorokin. Opi. Cit. p p. 6 — 8

b) A. Joussain. La sosiologie. Flammarion. Paris (1945) p p. 19 — 27

c) Cours de sociologie. (Cours dactylographiés) Paris (7 rue du Faubourg Montmartre) (1953) pp. 24 — 26

(٢٢) راجع : E. Durkheim : Les règles de la methode sociologique. (7 éme édit. 1919) pp. 11 — 12

(٢٣) راجع : Ibid. , p. 14

(٢٤) راجع : Ibid. , pp. 12 et 14

(٢٥) راجع : Ibid. , p. 14

(٢٦) راجع : Ibid. , pp. 6 — 7

(٢٧) Ibid. , p. 19

(٢٨) راجع : Tarde (G.) . Les lois de l'imitation ...

(٢٩) نقلا عن : A. Cuvillier : Manuel de sociologie. T. I. P. 194 ,

(٣٠) للتوسع ، راجع : G. Bouthoul : Traité de sociologie. T. I. P. 99 — 107

(٣١) راجع : Mauss et Fauconnet ' Art. sociologie, in grande Encyclopédie francaise.

المصادر

(١) راجع : G. Davy. E. Durkheim, Choix de textes et introduction. Louis Michaud. (paris) pp. 12 — 31

(٢) راجع : E. Durkheim , Les règles de la méthode Sociologique. 7 eme ed. F. Alcan. Pqris (1919) p. 23

(٣) راجع : M. Mauss et P. Fauconnet. Art. sociologie. in grande Encyclopedie. T. XXX.

(٤) راجع : G. Tarde. Les lois sociales. F. Alcan. Paris (1898) P. 15 et suiv.

(٥) R. Maunier. Introduction à la sociologie. F. Alcan. Paris (1938) P. 2

(٦) A. Cuvillier. Manuel de sociologie. T. I. P. U. F (1950) p. 193

(٧) G. Gurvitch. La vocation actuelle de la sociologie. P. U. F. (1950) P. 7

(٨) للتوسع راجع : Ibid. pp. 49 — 97

(٩) راجع : F. Tonnies. Communauté et société. (trad. franc.) P. U. F. (1944) p. VIII

(١٠) نقلا عن : A. Cuvillier. Manuel de sociologie. T. I. p. 157

(١١) نقلا عن : Jean Haesaert. Sociologie générale. edit. Erasme Bruxelles. (1956) p. 6

(١٢) نقلا عن : Ibid. p. 6

(١٣) James Drever. Adictionnary of psychology. penguin. London (1956). art. Soeiology. p. 270

(١٤) Jean Haesaert. Sociologie générale p. 6

(١٥) E. Dupréel. Sociologie général. P. U. F. (1948) p. 5

(١٦) Petit dictionnaire philosophique (sous la direction

فيما بينهم **بعاطفة تآزر** ، أو بأهداف مشتركة أو بالاثنتين معـاً ، ويتصلون فيما بينهم داخل ثقافة مشتركة تحدد أدوارهم الخـاصة بهم كما تحدد القيم المختصة بهم وتستخدم لتمييزهم عن الافراد الذين لاينتسبون الى رهطهم ... وهكذا فليس كل تجمع عبارة عن **رهط** فمثلاً **الجمهور والجمهرة** لا يمكن اعتبارهما رهطين ... وهنـاك رهوط اجتماعية كثيرة منها الاسرة والمنظمات السيـاسية والاقتصادية والثقافية ... والطبقات الاجتماعية ...

وكذلك تدرس العلاقات والروابط الاجتماعية وما تقتضيه من تفاعلات اجتماعية بين الافراد وبين الرهوط وبين المجتمعـات ... وسنقدم في الفصول القادمة أنماطاً من الحوادث الاجتماعية والمؤسسات والرهوط والعلاقات الاجتماعية ، وسندرسها بالتفصيل بعد ان ندرس المجتمع الحيواني والمجتمع الانساني والعوامل الاساسية التي تلعب فيها الدور الرئيسي ...

والخلاصة : يمكن القول بأن السوسيولوجيا هي ذلك العلم الاجتماعي الذي يصف ويقارن ويصنف ويحلل ويعلل المجتمع الكلي وما يظهر فيه من وقـائع اجتماعية ... والوقـائع الاجتماعية حوادث **عامة وجماعية** ومثلية أو نموذجية تتكرر وتفرض نفسها أحيانا فرضاً علينا مع العلم أنها تملك روح التبدل والتغير ...

★ ★

يمكن ان تعتبر كوقائع مثلية أو **نموذجية** وعامة وجماعية لها قسرها ولها تكرارها ولها ايضاً **ابداعها** وجدتها وتبدلها ..

فنحن نردد بعض الوقائع الاجتماعية ليس فقط لأنها قسرية ، بل لأننا نراها أيضاً نموذجية وأفضل من سواها . وهي ليست فقط ترداداً للماضي بل هي أيضاً تغير وتبدل وأحيانا تجدد ... (٣٠) .

— **تضم ما يحدث فيه من حوادث وما يقوم فيه من مؤسسات ورهوط ومنظمات خاصة وعلاقات وتفاعلات اجتماعية .**

وتدرس السوسيولوجيا مايظهر في المجتمع من حوادث عامة وغير مؤسسية كالانتحار والثورة والاغتيال ...

كما تدرس المؤسسات الاجتماعية التي تدل ، كما يرى موس وفوكوني ودوركهايم ، على تلك الانماط من الفعل والتفكير والاحساس التي يجدها الفرد قائمة بصورة سابقة في مجتمعه وتنتقل في اغلب الاحيان من جيل الى جيل بواسطة التربية ... وبهذا المعنى يمكن ان نعتبر ، كمؤسسات اجتماعية ، الافكار والعقائد والرموز **والعادات** والأعراف والطقوس التي تنقلها الينا التقاليد (أو السنن) على غرار المؤسسات السياسية والحقوقية والدينية والاسروية .. فبهذا المعنى يمكن القول : ان المؤسسة (أو الوضع) هي « مجموعة من الافعال أو الافكار **موضوعة** أو **مرسخة** تماماً يجدها الافراد أمامهم وتفرض نفسها عليهم كثيراً أو قليلاً » (٣١) .

ومهما يكن من أمر ففي كل مجتمع نجد **مؤسسات** (أو أوضاعاً) هي عبارة عن مجموعة أو منظومة من القواعد محددة كثيراً وقليلاً تنتظم الروابط بين اعضاء المجتمع ، وبين الرهوط ، وتنظم أيضاً العلاقات بين اعضاء هذا المجتمع واولئك الذين هم أغراب بالنسبة اليه .

— **كما تدرس أيضاً الرهوط أو المجموعات** : ونعني بالرهط (أو المجموعة) (Groupe) الاجتماعي كل منظومة علاقات أو روابط اجتماعية يرتبط اعضاؤها

قدرة أمرية وقسرية تفرض نفسها بواسطتها على الفرد سواء شاء أم أبى»[٢٦]...

وأخيراً يعرف دوركهايم الواقعة الاجتماعية بقوله : « يعتبر واقعة اجتماعية كل نمط من أنماط العمل مثبت أم غير مثبت ، يمكن ان يمارس على الفرد قسراً خارجياً ، أو كل ماهو عام في بقعة مجتمع معين وله وجود خاص به مستقل عن ظهوراته الفردية »[٢٧] .

وجهة نظر تارد :

لقد اعتبر تارد التقليد كمعيار للواقعة الاجتماعية . اذ قال : ان الواقعة الاجتماعية المحض أو الصحيحة هي الواقعة المقلدة . وكلما كانت المساحة المقلدة فيها متسعة برزت صفتها الاجتماعية بوضوح اكثر[٢٨]...

وجهة نظر مارسيل موس :

ويعتبر مارسيل موس ان هناك ميزتين يمكن ان نميز بهما ماهو اجتماعي عن ماهو فردي هما :

١ — **الواقعة الاجتماعية و قعة احصائية ومعدودة** ذلك لأنها واقعة خاصة برهط . فهي تتضمن عدداً معيناً من المساهمين أو المشتركين ، وتتمثل بنوع من التردد أو التكرار ، وتتكرر على مجرى الزمان ... وبهذا المعنى يمكن القول : « كل مشكلة اجتماعية هي مشكلة احصائية ... كل مافيها يمكن ان يقاس ويجب ان يعد » .

٢ — **الواقعة الاجتماعية واقعة تاريخية** . « كل واقعة اجتماعية هي عبارة عن فترة من تاريخ رهط من الناس ، انها نهاية وبداية لسلاسل كثيرة » . فهي تستلزم دائماً وراءها **تاريخاً وتقاليد وعادات** ولغة ... وحتى ان اكثر الوقائع جدة وابداعاً في الظاهر ، كالابداع مثلا ، هي متقلة كثيراً او قليلا بالماضي ، وخاصة لانها في جزء منها اجتماعية »[٢٩] ومهما يكن من امر فان الوقائع الاجتماعية

— **وما يظهر فيه من وقائع اجتماعية** : لقد وسعنا معنى الوقائع الاجتماعية فأصبحت تضم الحوادث والمؤسسات والرهوط والمنظمات والعلاقات والتفاعلات الاجتماعية .. أي كل مايظهر داخل المجتمع ونصفه باجتماعي فما هي الواقعة الاجتماعية وكيف نميزها عن سواها ؟ **فهل نقول : ماهو عام فهو اجتماعي** ؟

وجهة نظر دور كهايم :

يعتبر دور كهايم ان العمومية تصح ان تعتبر كمعيار نميز به الوقائع أو الحوادث الاجتماعية . فمثلا كل مايعود الى حاجات ورغبات الجسد : من حاجة للطعام والشراب ... وكل الفاعليات الفكرية من ذاكرة وادراك وانفعالات وانتباه ... هو عام بالنسبة لجميع أفراد الجنس البشري وليس فقط بالنسبة لأفراد مجتمع معين ،ولكن لايمنع مع ذلك أن نقول عنها انها وقائع أوحوادث اجتماعية .. (٢٢)

فالحوادث أو الوقائع الاجتماعية هي اجتماعية ذلك لأنها جماعية (Collectifs) اذ « يعبر الحادث الاجتماعي ، في رأي دور كهايم ، عن حالة للنفس أو الروح الجماعية » (٢٣) . فهو اجتماعي لانه مشترك بالنسبة لافراد المجتمع جميعاً أو لأغلبيتهم ... ويدخل تحت هذا الصنف من الوقائع مايلي : القواعد الاخلاقية والحقوقية ، والعقائد الدينية والسياسية ، والطقوس وجميع المؤسسات الاجتماعية ... (٢٤)

فهي حالات خاصة بالرهط أو الجماعة **يردها الافراد لأنها تفرض عليهم**[٢٥].

وهكذا يصل دور كهايم الى المعيار الذي بواسطته نميز الوقائع أو الحوادث الاجتماعية عن سواها ، ألا وهو **القسر** الاجتماعي . اذ يقول دور كهايم «هو ذا اذن نسق من الحوادث (أو الوقائع) يمثل صفات خاصة جداً : تستلزم أنماطاً من الفعل والتفكير والاحساس **خارجية** بالنسبة للفرد ، وتملك سلطان القسر الذي تفرض نفسها علينا بواسطته ... هذه النماذج من السلوك أو التفكير تملك

التجريب وبهذا تجعلها أيضاً قابلة للتجريب . وكل نظرية غير قابلة للتجريب تعتبر غير علمية ..

وبهذه الروح تصبح السوسيولوجيا علماً وصفياً كسائر العلوم الوضعية الأخرى . وبهذا النهج نستطيع ان نجعل منها علماً قوياً يستطيع ان يصمد أمام هجوم الخصوم القائلين بعدم شرعيته أو بوجوب انحلاله في العلوم الاجتماعية الاخرى كالتاريخ والسيكولوجيا الاجتماعية والاتنولوجيا أو **الانتروبولوجيا الثقافية** والعلوم الاقتصادية والسياسية ...

— **للمجتمع الكلي** : ونقصد بالمجتمع الكلي المجتمع العام والشامل الذي تجري فيه الوقائع الاجتماعية أو تظهر فيه الرهوط (أو المجتمعات) الجزئية . فنحن نعيش في أمة ، فالامة هي اذن مجتمعنا العام أو الكلي . وقد نعيش داخل مدينة فقط وتكوّن هذه المدينة دولة قائمة بذاتها (كما كان في اسبارطة وأثينا قديماً) فنحن **كأعضاء وأسر** وطبقات ورهوط نعيش داخل هذا المجتمع الكلي الذي هو المدينة . ويكون المجتمع الكلي حيوانياً وكذلك بشرياً كما سنرى . وعندما ندرسه يجب علينا ان نعتبره ككل ، كل جزء فيه مرتبط بالكل وبالاجزاء الاخرى . ولا يمكن تعليل ظاهرة اجتماعية أو واقعة اجتماعية اذا عزلناها عن سواها من الظواهر أو الوقائع الاجتماعية التي تحيط بها في المجتمع الكلي .

ويمكن ان نعرف المجتمع بأنه : مجموعة اجتماعية يجد فيها اعضاؤها الاساسي لما هو ضروري لهم من الناحيتين المادية والروحية أو الفكرية . وبهذا وجد ويجد الناس في القرية ، وفي المدينة وفي الامة عناصر حياة انسانية وحياة اجتماعية وهكذا يضم المجتمع العام مجموعات أخرى كالعائلة ومنظمات المصالح والثقافة والفن واللهو ... مع العلم ان المجتمع يملك **مؤسسات** تنظم علاقات الافراد فيما بينهم من جهة وبين سواهم من جهة اخرى . ولهذا قال دوركهايم المجتمع هو مجموعة من الافراد رسخت العلاقات بينهم فأصبحت مؤسسات ...

وفروقها الاساسية ، ويحاول بهذا أن يحدد **أوجه الشبه** التي توجد بينها في أسبابها وسيرها ونتائجها ، ويتوصل بهذا الى عدد معين من القوانين العامة تنطبق على جميع الثورات من نفس النموذج أو النوع .

وهكذا فالسوسيولوجيا تدرس الحوادث السوسيولوجية ولا تهتم بالحوادث الاجتماعية التاريخية الا اذا كانت **متكررة** أو متواترة ، وقد تهتم بحادث تاريخي **وحيد** من نوعه لتقارنه بسواه من الحوادث وتظهر الشروط التي جعلته يظهر في زمن معين ولا يتردد في سواه ..

وسنرى فيما بعد أهمية الحوادث السوسيولوجية بالنسبة للسوسيولوجيا لأن هذه لاتستطيع ان تقيم قوانينها الا بالاستناد الى مثل هذه الحوادث **المتكررة المتوافرة** .

- **والوصفية** : أي أن السوسيولوجيا علم يصف الحوادث السوسيولوجية ويثبت خصائصها وصفاتها . وبهذا يقوم بدراسات مونوغرافية وسوسيوغرافية...

- **والمقارنة والتصنيفية** : ولا تكتفي السوسيولوجيا بالوصف بل تحاول ان تقارن بين الحوادث **من جنس معين لتصنفها** تحت نماذج معينة عامة ..

- **والتاريخية** : أي أن السوسيولوجيا تدرس تطور المؤسسات الاجتماعية والوقائع الاجتماعية وتعود بها الى اصولها الاولى مظهرة تبدلها خلال مراحل التاريخ . فهي دراسة **ديناميكية** كما انها دراسة ستاتيكية .

- **والتعليلية** : ولا تحاول السوسيولوجيا أن تصف وتصنف وتجمع الحوادث والوقائع الاجتماعية فقط ، بل تجتهد في أن تبحث ايضاً عن اسبابها وقوانينها وتضع ما امكن نظرية تنظمها . فهي تأخذ من الحوادث والوقائع المجتمعة أساساً لوضع التعليل والبحث عن الاسباب والنظريات والقوانين ..

- **والتجريبية او الوضعية** : أي أنها تجمع وقائعها على **اساس علمي صحيح** يستند الى ملاحظة الحوادث واستقرائها وتضع تعليلاتها ونظرياتها بالارتكاز على

فهي لا تدرس زعيما معينا ولكن الزعيم بصورة عامة ، وتبحث في ما هو مشترك وعام بالنسبة لجميع الأديان ، فهي لا تدرس دينا معينا فقط بل تدرس الدين بصورة عامة .. ولهذا قلنا عنها انها هي الدراسة العامة للمجتمع والحوادث الاجتماعية . (٣١)

الحادث الاجتماعي والحادث السوسيولوجي :

وهنا يجب ان نفرق لكم بين الحادث الاجتماعي والحادث السوسيولوجي. فالحادث الاجتماعي هو ، اذا توصلنا الى نهاية التحليل ، عبارة عن حادث تاريخي منظوراً اليه من وجهة نظر معينة . فهو بهذا المعنى حادث **وحيد** او **مفرد** حصل في تاريخ معين وفي شروط معينة ، ولا يمكن ان يعود فيحصل تماماً على نفس النمط ولا تحت نفس الشروط بعينها ، أما الحادث السوسيولوجي فهو ، على العكس من ذلك ، حادث **متواتر ومتكرر** ، يتردد بين حقبة وأخرى سواء في نفس الشعب أو في شعوب مختلفة وفي نفس الحقبة التاريخية أم في حقب تاريخية مختلفة تابعة لتطور الحضارة في كل من هذه الشعوب . فمثلاً اغتيال قيصر من قبل بروتوس واغتيال مارا من قبل شارلوت كورداي ، واغتيال هنري الرابع من قبل رافاياك ... هي حوادث تاريخية ، والحادث السوسيولوجي الذي يقابل هذه الاغتيالات هو الاغتيال السياسي . وكذلك الحرب الكبرى الاولى والحرب الكبرى الثانية ، والحروب بين العرب والروم وبين العرب والفرس وسواهم هي حوادث تاريخية ، والحادث السوسيولوجي الذي يقابلها هو **الحرب** . والثورة الانكليزية (١٦٤٠) والثورة الفرنسية (١٧٨٩) والثورة الروسية (١٩١٧) هي حوادث تاريخية . والحادث السوسيولوجي الذي يقابلها هي **الثورة السياسية** .. فمؤرخ الثورات يجمع المستندات الخاصة بها ويبحث في كل منها على حدة . أما السوسيولوجي فيقارن بين هذه الثورات ويصنفها تبعاً لمشابهاتها

تعريفنا :

أما نحن فنقول : السوسيولوجيا هي الدراسة **العامة والوصفية** والمقارنة **والتصنيفية** والتاريخية والتعليلية والتجريبية أو الوضعية **للمجتمع الكلي** ، وما يظهر فيه من وقائع اجتماعية تضم ما يحدث فيه من حوادث وما يقوم فيه من مؤسسات ورهوط ومنظمات خاصة وعلاقات وتفاعلات اجتماعية .. فلنشرح هذا التعريف .

ـ السوسيولوجيا هي الدراسة العامة

السوسيولوجياهي ، على العكس من التاريخ وبعض العلوم المتعلقة بالفردي ، **علم عام** . فهي لا تدرس الفردي أو الوحيد من الحوادث الاجتماعية الا لتقارنه بسواه وتستخرج من تلك المقارنة ما هو عام ومشترك بين هذه المجموعة من الحوادث الاجتماعية . فمثلا يدرس التاريخ الحوادث الاجتماعية من حيث هي حوادث وحيدة أو مفردة لا يمكن **ان تتردد** أو تتكرر . فهو يدرس الحرب الكبرى الثانية كما هي ، وعلى أنها مختلفة عن سواها من الحروب ، ويدرس شخصية علي بن أبي طالب على أنها شخصية **زعيم خاص** لم يوجد قبلها ولن يوجد بعدها مثلها تماماً ، ويدرس الدين الاسلامي أو المسيحي كدين وحيد أو مفرد كما يدرس الخصائص ، التي تميزه عن سواه ، ويدرسه كدين ظهر في مرحلة تاريخية معينة .. أما السوسيولوجيا فتدرس ، على العكس من ذلك ، خصائص الحوادث الاجتماعية البي **تتردد وتتكرر** ، وتكون مشتركة بين جميع الحوادث الاجتماعية أو بين نماذج مختلفة من جنس واحد .. فهي مثلا تبحث في ما هو مشترك وعام بالنسبة لكل الحروب ، اذ لا تدرس الحرب الفلانية وانما هي تدرس الحرب بصورة عامة . وتبحث في ما هو عام بالنسبة لجميع **الزعماء** ،

تعريف من روسيا :

ويعرفها المؤلفون الروس الشيوعيون بقولهم هي « علم عن المجتمع »[١٦]

تعاريف من الولايات المتحدة الاميركية :

وتقدم أخيراً بعض تعاريف من الولايات المتحدة الاميركية :

١) - **تعريف سوروكين :** يقول سوروكين : « السوسيولوجيا عبارة عن العلم المجرد (generalizing) للظواهر « الاجتماعية - والثقافية » (Socioculturel) معتبرة في اشكالها الشاملة (أو النوعية) ونماذجها وتعالقاتها او ترابطاتها المختلفة »[١٧]

٢) - **تعريف مكيفروبيج** (Maciver et page) يعرفها هذان المؤلفان بقولهما : « تدرس السوسيولوجيا وحدها العلاقات الاجتماعية نفسها والمجتمع نفسه » .[١٨]

٣) - **تعريف أودم** (H.W.Odum) : ويعرفها أودم بقوله : «السوسيولوجيا هى اذن العلم الذي يدرس المجتمع »[١٩] .

٤) - **ويقول مؤلفو كتاب « مبادىء السوسيولوجيا » :** يمكن ان تميز السوسيولوجيا عن سواها من المعلوم الاجتماعية بكونها تجعل من الرهوط البشرية المحرق الاساسي لنظريتها وبحثها » .[٢٠]

ما قدمنا من تعاريف يكفي لأن يعطي القارىء فكرة واضحة عن اختلاف المؤلفين حول تعريف السوسيولوجيا وتحديد موضوعها . ولو كانت مكتبة جامعة دمشق غنية بالمصادر لكنا قدمنا للقارىء لوحة تاريخية عن مختلف التعاريف مظهرين اختلافها حسب المرحلة التاريخية التي اعطيت فيها . .[١]

---

(١) من أجل تعاريف أخرى راجع :

C. Gurvitch et autres : Traité de Sociologie. PP. 3-21.

وصلنا هذا الكتاب بعد كتابة هذا الفصل وأكثر فصول كتابنا هذا ، فلم نستطع - مع الأسف - أن نستفيد منه في كتابة هذا الفصل .

علاقات أو روابط هي موضع السوسيولوجيا .[١٠]

تعاريف من انكلترا :

نقدم بعض التعاريف من انكلترا :

١) — **تعريف تاونبي** (A. Toynbee) : يعتبر تاونبي السوسيولوجيا كفلسفة تاريخ .[١١]

٢) — **تعريف سبنسر** : « يعرفها سبنسر بقوله : السوسيولوجيا هي دراسة تطور المجتمعات وقوانينها »[١٢]

٣) — **تعريف دريفر** (J. Drever) يقول هذا المؤلف : «السوسيولوجيا هي العلم الذي يدرس نمو ومبادىء المنظمة (أو النظمة أو المؤسسة) الاجتماعية وبصورة عامة يدرس سلوك الرهط المتميز عن سلوك الفرد داخل الرهط .»[١٣]

تعريفان من بلجيكا :

ونقدم هذين التعريفين من بلجيكا :

١) — **تعريف هزرت** (J. Haesaert) : يعرفها بقوله « تدرس ، من زاوية مظهرها العام والثابت ، العلاقات المتبادلة التي تربط فاعليات الناس في احتكاكهم مع امثالهم » .[١٤]

٢) — **تعريف دوبريل** (E. Dupréel) : يعتقد دوبريل ان السوسيولوجيا ليست علم المجتمع بل « علم العلاقات الاجتماعية » . ويرى ان السوسيولوجيا تدرس ثلاث مفاهيم أساسية هي : العلاقة الاجتماعية والرهط الاجتماعي ومجموع الرهوط الاجتماعية المتجانسة والمتشابكة ، وذلك المجموع الذي يتصف قليلا أو كثيراً بعدم التماسك .[١٥]

الكلية ، كالواقع الذي تمثله ، طبقات couches او مراتب تتدرج من الظاهر الى الباطن ومن السطح الظاهر الى الاعماق الباطنة والخفية ، وهي لا يمكن ان ترد بصورة مطلقة الى المجتمعات الكلية او العامة (globales) اذ ان «الانات» (les Nous) (أي الجماهير والجماعات والاتحادات) والرهوط الخاصة (أي الطبقات الاجتماعية) هي ايضاً عبارة عن ظواهر اجتماعية كلية . انها وقائع دائمة التغير والتبدل ، ودائمة الثورة والحركة ، وهي خالصة لجميع الظواهر الثقافية والحضارية [١] .

تعاريف من المانيا :

نعطي بعض التعاريف من المانيا : ١) **تعريف شبنجلر** : السوسيولوجيا في رأي شبنجلر عبارة عن فلسفة تاريخ .

٢) **تعريف تونتيز** (F.Tonnies) . يفرق تونيز بين سوسيولوجيا محض او عامة واخرى خاصة .

يعتبر الاولى كأساس لكل سوسيولوجيا. وتدرس اشكال التجمع وخاصة **المتحد** والمجتمع (communauté et société) ، والعلاقات الاجتماعية التي تشمل الروابط والمجموعات الطبيعية والنفسية والمنظمات الاجتماعية . [٩]

٣) **تعريف فون فيزي** (L . Von wiese) : يرى في السوسيولوجيا « العلم الذي يدرس العلاقات الاجتماعية » . اذ يرى ان موضوع السوسيولوجيا هو الاجتماعي لا المجتمع . . والاجتماعي مؤلف من عمليات ارتباط تضم «التقارب» والتلاؤم ، والتمثل والاتحاد ، ومن عمليات اخرى فيها **التفرق والانفصال** وتضم التنافس والتناحر والتصارع والمعاكسة . . ومن هذه العمليات تنتج

---

(١) — من اجل أهمية الظواهر الاجتماعية الكلية لدى جورفيتش راجع :
G. Gurvitch et autres : Traité de Sociologie. Paris. P. U. F. 1958 P.P. 19-21

ج ـ **النماذج الاجتماعية** (الهتافات الاجتماعية ، الكليشات الاجتماعية ، الاشارات والازياء) .

د ـ **السلوكات الجماعية** المتمتعة بشيء من الانتظام ولكنها تجري خارج المنظمات المكونة (الطقوس الدينية ، العمليات الحقوقية والادارية ، ضروب الازياء غير المتحجرة ، والفولكور) .

هـ ـ **لحمات الادوار الاجتماعية** (الادوار والوظائف الاجتماعية) .

و ـ **المواقف الجماعية** (الحركات او الافعال التي تقوم بها الجماعة « او الرهط » بكاملها او افراد جمهور ما) .

ز ـ **الرموز الاجتماعية** (النماذج الثقافية ، الطقوس ، السنن او التقاليد ، الادوار الاجتماعية والمقولات المنطقية) .

ح ـ **السلوكات الجماعية الغليانية والمجددة والمبدعة** (**الثورات** والنهضات والحركات الاصلاحية العميقة) .

ط ـ **الافكار والقيم الجماعية** . ي ـ **الحالات الذهنية والافعال النفسية الجماعية** (وتشمل **التوتر والارتباط** بين أناي او ذاتي Moi والآخر Autrui والـ « نحن » Nous ، او تشمل التوتر النامي النازع نحو ما يثبت وجوده على انه (لنا) le notre ولي le mien ولك le tien [٨] .

ويعتقد الاستاذ جورفيتش بان بين مختلف هذه المستويات تقوم علاقة وثيقة وتأثير متبادل ولا يمكن فهم اي قطاع من المجتمع الا بعلاقاته مع القطاعات الاخرى التي ترتبط فيه .

واخذ جورفيتش مفهوماً اساسياً من **مارسيل موس** هو مفهوم «الظواهر الاجتماعية الكلية » (Phénoménes sociaux totaux) وقد اخذت هذه الظواهر اهمية كبرى في سوسيولوجيا جورفيتش . لهذا يعتقد بان الواقع الاجتماعي يؤكد نفسه اولاً وقبل كل شيء في « الظواهر الاجتماعية الكلية » او الكليات السائرة (Totalités en marche) وتملك هذه الظواهر الاجتماعية

الاجتماعية »[١] . ويقول في مكان آخر « حينئذ يمكن ان تعرف السوسيولوجيا بانها **علم المؤسسات** وتولدها وسيرها (او نموها) »[٢] .

وقد تأثر دوركهايم في هذا التعريف الاخير بتعريف تلميذيه موس وفوكوني.

٣ ــ تعريف موس وفوكوني : وقد عرفها موس وفوكوني كما يلي : « علم المجتمع هو علم المؤسسات كما عرفناها »[٣] .

٤ ــ تعريف تارد : ويعتبر تارد السوسيولوجيا كنوع من السيكولوجيا ـ البينية Interpsychologie التي تدرس التأثير المتبادل بين شخصين او اكثر، او هي « دراسة الانا متأثراً بأنا آخر، وبمعنى آخر هي دراسة التفاعل بين الافراد الذين بينهم روابط شعورية »[٤] .

٥ ــ تعريف ريني موني : ويعرفها ريني موني كما يلي : « سأسمي (سوسيولوجيا) الدراسة الوصفية والمقارنة والتعليلية للمجتمعات البشرية »[٥].

٦ــ تعريف كوفولي: (A.Guvillier) ويقول كوفولي « السوسيولوجيا هي علم الرهوط او المجموعات البشرية »[٦] .

٧ ــ تعريف جورج جورفيتش : (Gurvitch) . ويقول جورج جورفيتش « موضوع السوسيولوجيا هو الواقع الاجتماعي معتبراً في جميع مستوياته الاعماقية » (Paliers en profondeur) .

اذ يميز الاستاذ جورفيتش في الواقع الاجتماعي عشرة مستويات (اوطبقات) تبدأ بما هو ظاهر واوضاعي وتنتهي بما هو نفسي وجماعي معاً . نبدأ بالظاهري ونذهب شيئاً فشيئاً نحو الاعماق .

فكلما هبطنا من مستوى الى آخر هبطنا الى طبقة اعمق .

آ ــ السطح المورفولوجي والاكولوجي: (Surface morphologique et écologique) اي الاساس الجغرافي والديموغرافي والإكولوجي (التوطني) والجهازي او الوسائلي .

ب ــ المؤسسات أو المنظمات الاجتماعية (الزواج، الاسرة، حفلة دينية . . .).

الفصل الثالث

تعريف وموضوع السوسيولوجيا

درسنا فيما مضى كيفية ظهور السوسيولوجيا كما درسنا تعريف اوغست كونت لها . ولكن هل بقي تعريف كونت هو السائد أم تبدل ؟ وما هو موضوع علم الاجتماع .؟

التعاريف كثيرة مختلفة واحياناً متضادة تماماً، تختلف هذه التعاريف حسب الشعوب او الامم كما تختلف في الامة الواحدة ، بين مرحلة تاريخية واخرى وبين مؤلف وآخر . وهذا تابع اولاً لتغير المفاهيم العلمية ووجهات النظر الاجتماعية حسب الازمنة التاريخية ، وهو تابع ثانياً لاختلاف وجهات نظر المؤلفين والمذاهب التي يستمدون منها ويصدرون عنها .. والى القارىء بعض التعاريف مأخوذة من امم وشعوب مختلفة .

تعاريف من فرنسا :

نبدأ اولاً بفرنسا ارض ظهور هذا العلم .

١ — لقد رأينا تعريف اوغست كونت فلاحاجة الى ترديده هنا، فليرجع اليه في الفصل الثاني .

٢ — **تعريف دور كهايم** : يعرف دور كهايم السوسيولوجيا بقوله « هي علم الواقع الاجتماعي » او هي بمعنى اوضح « علم الوقائع او الحوادث

القسم الثاني

تعريف السوسيولوجيا وفروعها

3— Sorokin : Contemporary sociological theories. 1928 (traduction française) Théories sociologiques contemporaines. Paris. Payot 1938.

4— Timasheff: Sociological theory

5— Bouthoul : Histoire de la sociologie Paris. P.U.F.1950

6— A. Cuvillier : Manuel de sociologie. T. I. Paris. P.U.F. 1950.

جـ — مصادر عن المدارس والنظريات :

١ — حسن شحاته سعفان : تاريخ الفكر الاجتماعي. القاهرة ١٩٥٧

٢ — مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه. الجزء الاول والثالث.

3 — G. Gurvitchet Moore : La Sociologie au XXe siècle. P.U.F. 1946

4— Barnes : opi. cit.

★ ★

مصادر عامة

آ – مصادر عن أوغست كونت :

١ – امين عبدالله صالح : علم الاجتماع. القاهرة. مكتبة الانجلو مصرية. ١٩٥٨

٢ – مصطفى الخشاب : اوغست كونت . القاهرة مطبعة لجنة البيان العربي.

3— Cuvillier: Manuel de sociologie T.I. Paris P.U.F. 1950

4— G. Gurvitch: Auguste Comte, Karl Marx et Herbert Spencer. Paris C.D.U 1957

5— A. Cresson : Les courants de la pensée philosophique française. T. II Paris. A. Colin. 1927

6— R. Hubert : Auguste Comte. Introduction et textes choisis. Paris Louis Michaud. 1915

7— J. Lacroix : La sociologie d'Auguste Comte P. U. F. 1956

8— J. Laubier : A. Comte - Sociologie (textes choisis) P.U.F. 1957

9— E. Barnes : Introduction to the history of sociology. Chicago. 1948

10— N.S. Timasheff : Sociological theory N.Y. 1955

ب – مصادر عن المدارس والنظريات :

١– عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع

٢– مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه الجزء الثالث. مطبعة لجنة البيان العربي .

كبير في ظهور هذا العلم ، حيث استفاد مؤسسه الحقيقي اوغست كونت من دراسات الفلاسفة ونتائج العلوم الوضعية التي سبقت السوسيولوجيا الى الظهور، في تأسيسه ورفع دعائمه . وقد اتجهت السوسيولوجيا بعد كونت ، وفي البداية، اتجاها نظريا تغلب عليه النزعات المدرسية والفلسفية ، ولكنها اتجهت بعد ذلك اتجاها تجريبيا بفضل دراسات لوبلي ومدرسته وبفضل الدراسات الاميركية الحديثة .

والتفاعـلات التي تظهر فيه ... ومن اتباعها : دوركهايم واسبيناس Espinas وروبرتي Roberty ...

عهد الاتجاهات التجريبية :

تلا عهد (اودور) النظريات والمدارس عهد الدراسات التجريبية والاتجاه نحو دراسة المجتمع دراسة **علمية ومشخصة** . وظهر هذا الاتجـاه في الولايات المتحدة الاميركية ، كما رأينا سابقاً ، وهو لايزال غالباً فيها . وقـد اتجهت الافكار في البداية نحو دراسة الوقائع المشخصة وجمعها مع اهمال العنصر النظري. وقد مال الاتجاه في الوقت الحاضر الى الجمع بين الدراسات الواقعية والدراسات الواقعية والدراسات النظرية او بين الوقائع والنظرية ، وقد انتقلت هذه الحركة اليوم الى فرنسا وانكلترا والمانيا وروسيا... واخذت الطرق التجريبية الاميركية تسيطر على الدراسات السوسيولوجية كطريقة **السبر** ، وطريقة الرائز ، وطريقة **التحري** ، وطريقة المقابلة الشخصية ، وطريقة الاستخبار او الاستجواب ، وطريقة التجريب ، وطريقة الملاحظة ، وطرق السوسيومتريا ، وطريقة تحليل المادة ، وطريقة السلم ... ومالت السوسيولوجيا بهـذا الى التخصص وهكذا ظهرت علوم اجتماعية خاصة كالسوسيولوجيا التربوية والسوسيولوجيا الدينية ، وسوسيولوجيا الفن ، وسوسيولوجيا المعرفة ... وسنعود (الى هذه الفروع في الفصل القادم) ... [١٢]

والخلاصة : كان للفلاسفة الاجتماعيين السياسيين فضل كبير في التهيئـة لظهور السوسيولوجيا في القرن التاسع عشر . كما يقول ريني مونيي R.Maunier « لابد لعهد **التأسيس من ان يسبقه عهد التبشير** » . وكان للعلوم الوضعية دور

---

(١٢) – نأسف لعدم تمكننا من التوسع في هذا العرض التاريخي خوفاً من الخروج عن هدفنا من هذا المدخل الا وهو اعطاء فكرة عامة ومقتضبة عن ظهور وتأسيس السوسيولوجيا. وسنعود في كتاب خاص الى تاريخ السوسيولوجيا.

العيش والتي تحاول ان تظهر قيمة عامل الكفاح والتطاحن من اجل الحياة في المجالين **الحيواني والبشري** في تعليل كثير من الحوادث الاجتماعية. ومن اتباعها: داروين ونوفيكوف وفاكارو Vaccaro ...

٤ – **المدرسة الغريزية** : التي تعتبر السلوك البشري والعمليات الاجتماعية والظواهر الاجتماعية كظهورات لغرائز وميول فطرية اوغريزية، ومن اتباعها: مكدوجال وروس وفرويد Macdougall et Freud.

جـ – المدرسة الديموغرافية :

وتحاول ان تعلل الحوادث الاجتماعية على اساس العوامل الديموغرافية كتزايد السكان (الحجم) وكثافتهم . ومن اتباعها : كوست A.Coste وجويو Ives guyot ولوريا A.Lorio وكوفالوفسكي ...

د – المدرسة النفسية (Ecole du Psychologisme) التي تحاول ان تعلل الحوادث الاجتماعية بعوامل نفسية كالغرائز والتقليد والغريزة الجنسية والسلوك . ومن اتباعها : تارد ومكدوجال وواطسن وروس ...

هـ – المادية الاقتصادية :

وتعلل الظواهر الاجتماعية وتطور المجتمع بالعوامل الاقتصادية فقط . وهي غير **المدرسة الماركسية** التي تعلل الحوادث الاجتماعية وتبدلاتها بالعوامل التي تعود الى اسلوب انتاج الخيرات المادية ومظهريه : علاقات الانتاج والقوى المنتجة (الوسائل والناس الذين ينتجون بها ...) ، ولا تنسى تأثير العوامل الطبيعية والبيولوجية ... فالمادية التاريخية ليست وحيدة العامل في تعليلاتها ...

و – المدرسة السوسيولوجية (Ecole du Sociologisme) : وتعلل الحوادث الاجتماعية بعوامل اجتماعية ، بالمجتمع ومورفولوجياه وتصوراته

كثيرة وكانت هذه النظريات متأثرة بالنزعة الفلسفية على غرار نظريتي كونت وسبنسر . اذ تأثرت بالفلسفة من حيث وضع مذهب عام يعلل كل مافي المجتمع ومن حيث التعلق بالاتجاه الذي يريد ان يعلل (كل شيء) بعامل واحد . ويسمي جورفيتش Gurvitch وسوركين Sorokin هذا الاتجاه باتجاه **العامل المسيطر** اوالغالب Facteur prédominant . اذ كان بعض الفلاسفة يحاولون ان يعللوا كل شيء بالعامل الروحي ، وآخرون بالعامل المادي ... وهكذا ظهرت نظريات و مدارس متعددة في السوسيولوجيا منها :

آ – المدرسة الجغرافية أو الانتربوجغرافية :

وتعلل الحوادث الاجتماعية بالعوامل الجغرافية والطبيعية .
ومن اتباعها: راتزل Ratzel ودومولن Demolins وريتر Ritter وكيرشوف .

ب – المدرسة البيولوجية :

وتعلل الحوادث الاجتماعية بالعوامل البيولوجية وتضم هذه المدرسية النزعات التالية :

١ – **النزعة العضوية** (Organicisme) وتعتبر المجتمع كوحدة حية او كجسد حي مع الاعتراف بواقعه فوق – الفردي . ومن اتباعها : ليلنفلد P.Lilienfeld وشافلي A.Schaffle وفورمس R.worms ونوفيكوف J.Novicow .

٢ – **النزعة الانتروبو -عرقية** (Anthropo - racisme) وتعلل الحوادث الاجتماعية بلغة العرق والوراثة والانتخاب والتبدل بواسطة الانتخاب . ومن اتباعها : جوبينو Gobineau ، ولابوج G.V.Lapouge وتشابرلن H.S. Cha-mberlain - ... .

٣ – **المدرسة الداروينية : القائلة بالتطاحن او الكفاح** من اجل الحياة او

وقد اشتهر في روسيا اتنوغرافيون واتنولوجيون نذكر منهم : انوتشين A.Maksimov وماكسيموف V. Kharusin ، وخاروسين de. Anutchin ، ومار N.Marr ، وبوجوراس V.Bogoras ، ورادلوف V.Radlov ، وسترنبرغ L.Sternberg ، وكاجاروف E Kagarov ، وسلينين D.Selenin ... [١٦]

اما في ايطاليا فقد تأثر فريق من السوسيولوجيين بكونت وآخرون بالمدرسة النفسية ، وفريق ثالث بالمدرسة العضوية وبالداروينية . ومن اشهر السوسيولوجيين الايطاليين : بارتو W .Pareto (١٨٤٨ - ١٩٢٤) (متأثر بالمدرسة النفسية واشتهر بدراساته الاقتصادية وهو اهم سوسيولوجي ايطالي ولذا فقد استثمرت ابحاثه تماماً في الولايات المتحدة ...) ، وآريدجو R Aridgo (١٨٢٨-١٩٢٠) (متأثر بالوضعية ...) ، ولابريولا A.Labriola ولوريا A.Loria (١٩٥٧-١٩٤٣) (متأثران بالماركسية) ، فاكارو M.Vaccaro (ولد عام ١٨٥٤) (متأثر بالداروينية الاجتماعية) ، وكورادوجيني Corrado gini (ولد عام ١٨٨٤) (اشتهر بابحاثه عن السكان وهو سوسيو - بيولوجي في تعليلاته ، وشيبيوسيجلي Sc.Sigheele (١٨٦٨ - ١٩١٣) (متأثر بتارد ولوبون ..) . [١٧]

عهد النظريات والمدارس

ظهرت في القرن التاسع عشر في مستهل القرن العشرين نظريات سوسيولوجية

---

١٦ - راجع :

Gurvitch et Moore : La Sociologie au XXe siècle Tom. II. Chap. XXIV

١٧ - من اجل السوسيولوجيا في ايطاليا راجع :

1— H.E. Barnes : An Introduction to Sociology. NY. 1948. Chap. XXIX

2— Gurvitch et Moore : La Sociologie au XXe siècle. Chap. XXII.

Burgess ، وماك كنزي Mac Kensie ، وسوروكين (ولد سنة ١٨٨٩ (وهو من المؤلفين النظريين المشهورين) ، وزيمرمان C. Zimmermann وجالبن C. Galpin ، وروبرت لايندت R. Lyndt ، وموورينو (ولد عام ١٨٩٢ وهو مؤسس السوسيومتريا)، وكاردنر A. Cardiner (ولد عام ١٨٩١)، ولينتون R, Linton ، ومارغرت ميد M. Mead (اشتهر هؤلاء الثلاثة الاخيرون بأبحاثهم الانتروبولوجية وتأثير الثقافة في الشخصية ..)

أما في روسيا فقد ظهرت اتجاهات مختلفة منها ما تأثر بالماركسية ، ومنها ما تأثر بالمدرسة النفسية الذاتية ، ومنها ما تأثر باوغست كونت وسبنسر .. ومن السوسيولوجيين الروس نذكر: لافروف Pierre Lavrov (١٨٢٣-١٩٠٠)، و (ميخايلوفسكي K. N. Mikhailovsky (١٨٤٢ - ١٩٠٤) ، وكاريف Karhyeve (١٨٥٠ - ١٩٣١) (هؤلاء من اتباع المدرسة الذاتية) (Subjectiviste) ، وكروبتكين Kroptkin (١٨٨٤ - ١٩٢١) (اشتهر بدراسته للسيكولوجية الحيوانية وألح خاصة على التعاون في الحياة وهاجم داروين وقانون التزاحم الحيوي ..)، ودوروبرتي De Roberty (١٨٤٣ - ١٩١٥) (وقد خرج على « الذاتية » الروسية وعلى الماركسية واتجه اتجاهاً سماه هو نفسه بالوضعية - الجديدة (Néo-positivisme) ، وكوفالفسكي M. Kovolvky (١٨٥١ - ١٩١٦) (اشتهر بدراساته في مجالي الحقوق وتاريخ المؤسسات السياسية ، وألح على الابحاث المونوغرافية ...) ، وزفونيتزكايا A. Zvonitzkaya (تأثر بتارد وبالدوين وجيدنجز والى حد ما بجورج زيمل) ، ونوفيكوف Novikov (١٨٤٩ - ١٩١٢) (تأثر بالداروينية الاجتماعة) ؛

أما المدرسة الماركسية فكان لها أتباع قبل الثورة الروسية الكبرى واما بعد الثورة فكان لها اتباع كثيرون ، نذكر من الفئتين : بلخانوف وبوخارين (١٨٨٨ - ١٩٣٨) ، ولينين (١٨٧٠ - ١٩٢٢) ، وستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) .

ومن أشهر هؤلاء السوسيولوجيين: ويلهلم ديلتاي W. Dilthey (١٨٣٣ - ١٩١٢) ، وويلهلم فوندت W. Wundt (١٨٣٢ - ١٩٢٠) ، وتونيز F. Tonnies (١٨٥٥ - ١٩٣٦) ، وفون فيزي S. Von Wiese (ولد سنة ١٨٧٦) ، وماكس فبر M. Weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ، وماكس شلر M. Scheler (١٨٧٤ - ١٩٢٨) ، وكارل مانهايم K. Mannheim (١٨٩٣ - ١٩٤٧) (الذي اشتهر بمؤلفاته عن سوسيولوجيا المعرفة) ، وألفرد فبر (لا يزال حياً ويعمل في الولايات المتحدة الاميركية ، اشتهر بالسوسيولوجيا التاريخية والثقافية ..) [١٥] .

أما في الولايات المتحدة الاميركية فقد ظهر رعيل اول متأثر إما بدوركهايم ، وإما بتارد ، وإما بماكس فبر ؛ ومنهم : ورد C. F. Ward (١٨٤١ - ١٩١٣) ، وبالدوين Baldwin (١٨٦١ - ١٩٣٤) ، وإلوود Ellwood (١٨٧٣ - ١٩٤٦) ، وروس Ross (١٨٦٦ - ١٩٥٠) (والثلاثة الاخيرون متأثرون بتارد ؛ أما الاول فمتأثر بالمدرسة الروحية) وسمنر W. G. Sumner (١٨٤٠ - ١٩١٠) وسمول A. Small (١٨٥٤ - ١٩٢٦) ، وجيدنجز Giddings (١٨٥٥ - ١٩٣١) ، وكولي C. H. Cooley ١٨٦٤ - ١٩٢٩) ، وجورج هربارت ميد G. H. Mead (١٨٦٣-١٩٣٢) (وهذا الاخير كان ذا نزعة غالبة نحو الابحاث السوسيولوجية التجريبية .

وقد ظهرت بعد الحرب العامة الاولى بين ١٩١٨ - ١٩٢٠ نزعة غالبة نحو الابحاث التجريبية والانتروبولوجية ، ومن أشهر مؤلفي هذه النزعة : توماس زنانيكي Th. Znaniecki (ولد سنة ١٨٨٢ ، وبارك Park ، وبرجس

---

١٥ - من اجل السوسيولوجيا في المانيا راجع :

1 - R. Aron : La sociologie allemande contemporaine Paris. P.U.F. 2èmes édit. 1950

2- G. Gurvitch et Moore : La Sociologie au XXe siècle Chap. XX

والاميركية ... [١٣] .

ومن أشهر السوسيولوجيين الذين أتوا بعد سبنسر هم : بنجامن كيد B. Kidd (١٨٥٨ - ١٩١٦) ، وجراهام والاس G. Wallas (١٨٥٨ - ١٩٣٢) ، وهارولد لاسكي H. Laski (١٨٩٢ - ١٩٥٠) ، وباتريك جدز P. Geddes (١٨٥٤ - ١٩٣٢) ، وفيكتور برنفورد V. Branford (١٨٦٤ - ١٩٣٠) ، وشارل بوث Ch. Booth (١٨٤٠ - ١٩١٦) ، وبياترس ويب B. Webb (١٨٥٨ - ١٩٤٣) (تأثر هؤلاء الاربعة بمدرسة لوبلي واستخباراتها الواقعية) ، وهوبهاوس L. T. Hobhouse (١٨٦٤ - ١٩٢٩) ، ووسترمارك E. A. westermarck (١٨٦٢ - ١٩٣٩) (الذي اشتهر بدراساته في أصل الزواج وتاريخه وأصل المبادىء الاخلاقيه والمحرمات) ومورّيس جنزبرغ M. Ginsberg (الذي لا يزال حياً ويتحلى بفكر ناقد وعميق ..) [١٤] .

أما فى ألمانيا فقد ظهر مؤلفون شهيرون كان لهم فضل كبير في وضع بعض المصطلحات والتعريفات والتصنيفات والافكار والاتجاهات التي لا تزال تلعب دوراً هاماً في السوسيولوجيا الالمانية والاميركية ، والى حد أقل ، الفرنسية (وخاصة في الاتجاهات الحديثة : جورفيتش ، آرون ...) .

---

١٣ - من اجل سبنسر راجع :

1— G. Gurvitch : A. Comte, K. Marx et H. Spencer. C. D.U. Paris. 1957.

2— G. Gurvitchet Moore : La Socioligie au XXe siècle. Tom. II.

3— Timasheff : Sociological theory N.Y. 1955

١٤ - من اجل هؤلاء المؤلفين راجع :

1— G. Gurvitch et Moore: La Sociologie au XXe siècle. Tom II. Chap XIX

والسوسيولوجيا الحقوقية ، والسوسيولوجيا الاقتصادية وعلى دراسة بعض الشعوب والحضارات : الحضارة الصينية وسواها .

كما ظهر في فرنسا ، علاوة على تارد ، مناهضون لسوسيولوجيا دوركهايم ونخص بالذكر منهم : ريني فورمس R. Worms (١٨٦٩ - ١٩٢٦) ، وجاستون ريشار G. Richard (١٨٨١ - ١٩٤٥) ، وكذلك الاستاذ جورج جورفيتش ، استاذ السوسيولوجيا الحالي في السوربون . كما سار لوسين ليفي - برول L. Lévy - Bruhl (١٨٥٧ - ١٩٣٩) في طريق معاكس لمنحى دوركهايم في كتاباته الشهيرة عن العقلية البدائية ... [١٢]

أما في انكلترا فقد تابع هـ . سبنسر H. Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) رسالة أوغست كونت في تأسيس السوسيولوجيا ووضع الكثير من مفاهيمها . ويعتبره الاستاذ جورفيتش من مؤسسي السوسيولوجيا سواء بسواء كأوغست كونت وسن - سيمون وبرودون وماركس . وقد تأثرت أفكاره بالداروينية والتطورية ، حيث طبق مبادىء هذه على أفكاره الفلسفية والسوسيولوجية . وقد تأثر بالبيولوجيا في تفريقه بين البنية والوظيفة في المجتمع . ولكنه ألح على أن المجتمع من طبيعة « فوق - العضوية » (Supro - organique) ، وميز بين المجتمع والجسد بفروق كثيرة . واستنكر أن يكون من اتباع المذهب العضوي . ويرجع اليه الفضل في أنه أول من ألح على فكرة « النماذج الاجتماعية » (types Sociaux) . واستخدم في دراساته السوسيولوجية **الطرق المقارنة** والمستندات **الاتنوغرافية** . ولا يزال أثره كبيراً في السوسيولوجيا الانكليزية

---

١٢ - من أجل معلومات موسعة راجع :

1— G. Davy : Sociologues d, hier et d'aujourd'hui. P.U.F. 1950

2— G. Gurvitch et Moore : La Sociologie au XXe siècle. Tom. II. chap. XVII. P.U.F. 1947

٤) توجيه الافكار نحو امكان استفادة السوسيولوجيا من العلوم الطبيعية دون الحاق تلك بهذه .

٥) توجيه الانتباه الى امكان استفادة السيوسيولوجيا من الطرق الرياضية والكمية دون المغالاة في ذلك .

٦) اظهار الدور الهام الذي تلعبه في كل مجتمع تنظيمات اجتماعية كالدين والاخلاق والتربية والمعرفة .

٧) لفت النظر الى أهمية العوامل الديموغرافية وتقسيم العمل في التطور الحضاري والثقافي والاجتماعي .

الدراسات السوسيولوجية بعد أوغست كونت

ظهر بعد اوغست كونت مؤلفون كثيرون تابعوا رسالته في ارساء قواعد السوسيولوجيا ووضع وتوضيح مفاهيمها .

ففي **فرنسا كان** لمؤلفين ، أمثال تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) ودوركهايم (١٨٥٨ - ١٩ ٧) ولوبلي Leplay (١٨٠٦ - ١٨٨٤) ودومولن (١٨٥٢ - ١٩٠٧) ، الفضل الكبير في ترسيخ قواعد السوسيولوجيا ورسم مناهجها ووضع طرقها وقواعدها . وأهمية دوركهايم تظهر بتأسيسه في فرنسا مدرسة سوسيولوجية لا تزال مستمرة حتى الآن . ومن أشهر أتباعها مارسيل موس (١٨٧٢ - ١٩٥٠) ، وموريس هالفاكس Halbwachs (١٨٧٧-١٩٤٥)، وفرنسوا سيمياند F. Simiand (١٨٧٣ - ١٩٣٥) ، ومارسيل جراني M. Granet (١٨٨٤ - ١٩٤٠) ، وسلستن بوجلي C.Bouglé (١٨٧٠ - ١٩٤٠) ، وبول فوكوني P. Fauconnet (١٨٧٤ - ١٩٣٨) ، وجورج دافي G. Davy (ولد سنة ١٨٨٤). وقد بسط هؤلاء ونموا أفكار دوركهايم وعمقوها وطبقوها على السوسيولوجيا الدينية ، والسوسيولوجيا السياسية ،

ولم تعد صالحة لعصر العلم والنور أي **حالة الوضعية** . وقد استلزم منه هذا الدين اضافة علم سابع الى العلوم الستة ، التي عددناها سابقاً ، هو الاخلاق ، دعاه « بعلم الانسان الفردي » ذلك العلم الذي يعلم **معرفة وحب** وعبادة الكائن الأكبر أي الانسانية . وقد وضعه في رأس تصنيفه السابق للعلوم ، فوق السوسيولوجيا وأخذ مكانها في خاتمة العلوم[١٠] .

والخلاصة لقد جمع كونت افكار من سبقوه في نظرية منهجية وقوية . واعترف نفسه بأنه تأثر بأرسطو ومونتسكيو وتورغو وكوندورسي (الذي دعاه بأبيه الروحي) وبوسوي وهوبز وآدم سميث ودومتر (وأمثاله من التقليديين المحافظين)؛ولكنه لم يعترف ، لحقد في قلبه ، بفضل سن - سيمون عليه مع أن أثره ظاهر في مؤلفاته . ومهما يكون من أمر ، ومهما يكن من مآخذ كثيرة أخذت على أفكاره ، كتوحيده بين السوسيولوجيا والفلسفة الوضعية ، وخروجه عن النسبية الفكرية التي ألح عليها ، والفصل المصطنع بين الديناميكا الاجتماعية والستاتيكا الاجتماعية ، وفقدان كل تحليل ديالكتيكي لديه .. [١١] ، فلكونت الفضل في :

١) تأسيس السوسيولوجيا وتصنيفها بين العلوم الوضعية ، وتعيين طرق البحث فيها .

٢) اظهار الصفة الاجتماعية الصميمة التي لايمكن ارجاعها الى سواها ، وقد أقام هذه الصفة على مفهوم المجتمع ككل واقعي ومشخص .

٣) لفت النظر الى امكان استفادة السوسيولوجيا من الدراسات التاريخية والاتنوغرافية .

---

(١٠) لانستطيع ان نتوسع في عرض أفكار كونت اذ نخرج عندئذ عن هدف مدخلنا الذي هو عبارة عن نظرة تاريخية :

(١١) من أجل مآخذ كثيرة راجع :

G Gurvitch : A,Comte,K. Marx et H. Spencer, Paris. C. D.U. 1957

وتطور المفاهيم البشرية جرى وتم حسب قانون الحالات الثلاث . وهكذا يقابل هذه الحالات الثلاث ثلاثة عهود **لتقدم الكائن الأكبر** (الانسانية) . إذ يقترن بالحالة اللاهوتية عهد سياسي يتميز بسيطرة عاملين هما : التيوقراطية والروح العسكرية ، ويقترن **بالحالة الوضعية** عهد سياسي يتميز بظهور ظاهرتين اجتماعيتين هما : السوسيوقراطية والروح الصناعية . وبين هاتين الحالتين مر تاريخ الانسانية بسلسلة من التفسخات والإنشاءات النامية . إذ في الحالة الميتافيزكية يتهدم المجتمع التيوقراطي والعسكري تحت تأثير الفلسفة الميتافيزكية الناقدة . وتحت تأثير النظرات الوضعية المتلمسة يتكون ، في نفس الوقت ، نظام أكثر فأكثر سوسيوقراطية وصناعية . . .

ولا ينسى كونت بعض عوامل أخرى تلعب دورها في التطور البشري . إذ ذكر تأثير العوامل البيولوجية في التقدم البشري . فيرى في « التزايد الطبيعي للسكان » السبب الرئيسي الذي يقوي من سرعة التطور الاجتماعي . وما يعتبره كونت هنا هو « التعاون الشديد أو العميق للافراد على بقعة معينة » لا « تزايدهم المطلق » . اذ ان هذا التأثير الذي يحدد « في مجموع العمل البشري ، تقسيما أكثر فأكثر خصوصية ، هو بالضرورة لا يتفق مع عدد قليل من المتعاونين » .

السياسة الوضعية والديانة الوضعية :

وقد أراد كونت أن يرسم سياسة واقعية تقوم على أسس الفلسفة الوضعية والسوسيولوجيا . ويريد بهذا أن يضع حداً لما خلفته الثورة الفرنسية من فوضى . لذلك هدف كونت الى اصلاح في التقاليد والعادات والاخلاق يتسنى معه تأمين سيطرة الغيرية وامحاء الفردية أمام عبادة الانسانية . ولهذا وضع ديانة جديدة سماها **ديانة الانسانية** تقوم على عبادة الانسانية « كعناية » حقيقية بدلا من الإله المجرد . وفي رأيه ان الديانات التوحيدية والاشراكية والفيتيشية ماتت

١) **الارتباط الاجتماعي .**

٢) **عضوية التجمع** والنظام الاجتماعي . ويطرح هذا المبدأ ضد النظرية **التعاقدية والفردية** (المجتمع حصل عن تعاقد أو عقد اجتماعي) . إذ حال المجتمع هي ، بالنسبة للانسان ، حال طبيعية (فكرة أرسطو الانسان سياسي بالطبع) .

٣) **الأسرة كالعنصر الاجتماعي الاولي** . ويعتبر الأسرة الخلية الاجتماعية التي يتألف منها المجتمع[٩] .

ب ـ **الديناميكا الاجتماعية** : يشرح كونت القسم الثاني أي الديناميكا الاجتماعية في سبعة دروس (٥١ ـ ٥٧) . يعرفها كونت بقوله هي : « علم **الحركة** الضرورية والمتصلة (أو المستمرة) **للانسانية** ، أو بصورة أوجز ، هي علم **قوانين التقدم** . وتبعاً لهذا يعتبر كونت **الانسانية كشعب واحد** ، وهذا الشعب الواحد كفرد متضخم ومشمول بكلية تطوره أو نموه السابق واللاحق . وفي رأيه ان الانسانية في تطور وتقدم مستمرين . **والحركة التي تحرك الانسانية قوانينها** . هذه القوانين هي موضوع الديناميكا الاجتماعية . وما تضعه من قوانين يصبح أساسياً . إذ معرفة هذه القوانين ستساعد على معرفة ماضي الانسانية والعوامل التي ساهمت في تكوينها .

التعليل :

ويدرس في هذا القسم تطور المعرفة البشرية والمؤسسات الاجتماعية من دينية وسياسية واقتصادية وعلمية حسب قوانين الحالات الثلاث . ويظهر ان المحرك الأساسي للتطور البشري هو العامل العقلي . فيرى ان « الآلة الاجتماعية بكاملها ترتكز على الآراء » . كما ان التطور العام للحضارة تابع للتطور الخاص للمفاهيم العقلية البشرية .

---

(٩) للتوسع راجع : Ibid : pp. 318 - 607

١ - الستاتيكا الاجتماعية

عالج كونت هذا الموضوع في الدرس الخمسين من « دروسه في الفلسفة الوضعية » فالستاتيكا الاجتماعية هي نوع من التشريح الاجتماعي . وموضوع هذه السوسيولوجيا الستاتيكية هو « الدراسة الوضعية التجريبية والعقلية ، للافعال وردود الافعال المتبادلة التي تقوم بها بصورة مستمرة مختلف اجزاء المنظومة الاجتماعية فيما بينها »[٨] .

تقوم هذه السوسيولوجيا على مفهوم الارتباط أو **الاتحاد الاجتماعي** consensus social ذلك الاتحاد أو الارتباط الشامل الذي تتصف به ظواهر الجسد الحي ويظهر بصورة جلية في الحياة الاجتماعية . اذ ان الظواهر الاجتماعية متصلة ومترابطة فيما بينها بصورة عميقة . وكل دراسة تحاول ان تدرس ظاهرة اجتماعية بصورة منعزلة عن سواها من الظواهر الاجتماعية الاخرى هي دراسة غير معقولة . والوحدة الاجتماعية الاولية لا يشكلها **الفرد** بل **الاسرة** . إذ بالنسبة للعوامل التي يتشكل المجتمع منها تنشأ منظمات كثيرة . وهكذا نجد في كل مجتمع نوعاً من **تقسيم العمل** فيخلق هذا التقسيم تآزراً بين مختلف الاجزاء وتنشأ وتتطور في نفس الوقت مؤسسات سياسية واقتصادية ودينية وتشريعية وعسكرية . يشكل كل هذا ، وفي كل مرحلة تاريخية ، في كل رهط أو مجموعة نظاما ما Ordre وتوازناً ما équilibre أو انسجاما harmonie يدوم كل منها قليلا أو كثيراً . وهكذا تصبح الستاتيكا الاجتماعية « **علم النظام** » . ويقوم بين المنظمات المختلفة التي تظهر في كل مجتمع نوع من التفاعل أو التأثير المتبادل . وهكذا يظهر في الحياة الاجتماعية ارتباط او **اتحاد محافظ** . ففي السوسيولوجيا الستاتيكية يطرح كونت ثلاثة مبادىء :

---

(٨) راجع : Ibid : 48 leçon. pp. 324-325.

الحالات المتعاقبة التي مرت بها **الانسانية** ومقارنة مختلف هذه الحالات فيما بينها والتوصل الى القوانين التي تنتظم الحوادث الاجتماعية المشخصة [٥].

وقد شرح كونت جميع هذه الطرق وقواعد البحث فيها ، في الدرس الثامن والاربعين من كتابه « دروس في الفلسفة الوضعية »[٦].

اقسام السوسيولوجيا

يرى كونت تشابهاً بين الجسد والمجتمع . اذ يتضمن الجسد :

١) عناصر حيوية ، ٢) انسجة ، ٣) **اعضاء** . وكذلك يشتمل المجتمع على: ١) أسر هي **العناصر** الاجتماعية المحضة ، ٢) بطون او طوائف هي الانسجة الاجتماعية ، ٣) مدن هي الاعضاء الاجتماعية . ولكن كونت يجد، مع ذلك، فروقاً بين الجسد والمجتمع . اذ في الجسد ليست العناصر منفصلة الواحد عن الآخر الا بالتجريد ، اما عناصر المجتمع فمنفصلة واقعياً، وفي الجسد نجد شعوراً واحداً بينما نجد في المجتمع عدداً من الشعورات مساوياً لعدد افراد المجتمع ، وبهذا تحتاج السوسيولوجيا الى البيولوجيا لتتأسس ولكنها ليست ملحقاً او تابعاً لها . وكما ان البيولوجيا تفرق بين وجهة **النظر التشريحية** Anatomique المتعلقة بتنظيم الجسد ، **ووجهة النظر الفيزيولوجية المتعلقة بحياته** ، فكذلك **تفرق** السوسيولوجيا بين دراسة **شروط وجود المجتمع** ودراسة **النظام والتقدم**[٧].

وهكذا ميز كونت بين نوعين من الدراسة الاجتماعية : الستاتيكا الاجتماعية statique sociale والديناميكا الاجتماعية Dynamique sociale .

---

(٥) من اجل شروح ضافية عن هذه الطريقة راجع : Ibid : pp. 322-334

(٦) من اراد التوسع فليراجع : Ibid : pp. 209-336

(٧) راجع : Ibid : 48 leçon. p. 318 et suivant

ان يتبعها السوسيولوجي في دراسته لتكون دراسته موضوعية . يقرر كونت مايلي : بما ان السوسيولوجيا ليست فقط علماً مستقلاً عن سواه بل هي ايضاً تركيب لكل العلوم الوضعية ، لهذا كان من الواجب ان تستغل طرق هذه العلوم التي مهدت لها ووهبتها اسسها . ولكن بما ان موضوعها مختلف عن سواه من المواضيع ، وبما ان السوسيولوجيا علم لايمكن ارجاعه الى اي علم آخر ، لذلك كان من الواجب ان نلائم طرقها مع متطلبات مادتها وموضوعها . فمن الخطأ اذن **ان نطبق عليها طرقاً رياضية محضة او نلحقها بالبيولوجيا** ونطبق عليها طرق هذا العلم فقط ، او نحولها الى اقتصاد سياسي . ولكن يجب ان نطبق فيها طرقاً **موضوعية** تشبه طرق العلوم الطبيعية . ولذلك اقترح الطرق الآتية:

١) **طريقة الملاحظة** : أي الملاحظة المحضة للظواهر الاجتماعية .

٢) **طريقة التجريب الحقيقية** : من الصعب حسب كونت ان نجري على المجتمعات تجارب مباشرة لانه من المتعذر ان نحقق **الظروف** التي نهدف الى معرفة نتائجها . ولكن يمكن على الاقل ان ندرس مايجري عقب **تبدلات عابرة** تغير نسق الظواهر الاجتماعية .

٣) **الطريقة المقارنة وخاصة طريقة المقارنة التاريخية** . اذ علينا ان نقارن بين المجتمعات البشرية والمجتمعات الحيوانية ، والمجتمعات البدائية والمجتمعات الاكثر تحضراً وتقدماً ورقيا (٤).

٤) **الطريقة التاريخية** : يعتبر كونت هذه الطريقة كطريقة خاصة بالسوسيولوجيا تتميز بها عن العلوم الوضعية السابقة . وبما ان السوسيولوجيا تبحث في تطور وتقدم الافكار والمعارف والحضارات البشرية فهي لذلك عبارة عن **تاريخ** . لهذا وجب ان تستعمل الطريقة التاريخية التي تهدف الى تحديد

---

(٤) A. Comte : Cours de philosophie positive. T. IV. P. 296. édit. Baillère. 4ème édit. 1877.

التي سماها كونتي بنفس الاسم « محاولة في **الفيزياء الاجتماعية** » مستمداً هذه التسمية من كونت و سن- سيمون .. وقد ركب كونت هذا المصطلح : Sociologie من جذرين الاول لاتيني وهو Socios ويعني « مجتمع » والثاني يوناني وهو logos ويعني « دراسة » . وقد قال كونت في ذلك : « اعتقد أن من واجبي القيام منذ الآن بوضع هذا المصطلح الجديد الذي يعادل تماماً تعبيري السابق « الفيزياء الاجتماعية » لنتمكن من الاشارة بلفظة واحدة الى ذلك الفرع المتمم في الفلسفة الطبيعية المختص بالدراسة الوضعية لمجموع القوانين الاساسية المتعلقة بالظواهر الاجتماعية »[٣] .

وقد حاول كونت ان يعطي تعريفاً آخر في كتابه « **منظومة سياسية وضعية** » هو ان السوسيولوجيا عبارة عن الدراسة العلمية **للكائن الاكبر** (Le grand être) أي الانسانية (L'humanité) ، أي انها يجب ان تبحث في القوانين الثابتة والعامة التي بحسبها تحيا وتتكامل وتتطور هذه الانسانية . ويعني كونت بالانسانية : ١) الانسانية الحالية والموضوعية أي مجموع الناس الذين يعيشون حالياً ويتعاونون في سبيل التقدم ، ٢) الانسانية الماضية الباقية بما خلفته من آثار وتركته من ذكريات ، ٣) الانسانية التي ستولد فيما بعد والتي يتخيلها خيالنا منذ الآن . وهكذا يصبح موضوع علم السوسيولوجيا الدراسة لكلية ظواهر الفكر البشري ولكل اعمال الناس وآثارهم . فكأن موضوعها اصبح الدراسة العلمية للثقافة البشرية .

طرق الدراسة في السوسيولوجيا

بعد ان حدد كونت موضوع علمه الجديد لجأ الى تحديد الطرق التي يجب

---

(٣) راجع : A. Comte : Cours de philosophie positive. 47ème leçon.

تعريف السوسيولوجيا

فما هي هذه السوسيولوجيا التي وضعها كونت وصنفها بين العلوم وجعل ترتيبها بعد البيولوجيا واعتبرها خاتمة العلوم الوضعية ؟ في رأي كونت : السوسيولوجيا هي العلم النظري المجرد المختص بالظواهر الاجتماعية ... ولكن مفهوم واسم هذا العلم تبدلا مع مجرى افكار كونت .

ففي سنة ١٨٢٢ وعندما شعر مع سن-سيمون بضرورة ظهور علم اجتماعي جديد سمى هذا العلم على غرار سن-سيمون : الفيزياء الاجتماعية . ويعني بهذا ضرورة تأسيس علم طبيعي للحوادث الاجتماعية ، متجانس مع فروع الفيزياء الاخرى ، كالفيزياء السماوية والفيزياء الارضية أي علم الطبيعة . اذ كتب في ذلك العهد : « والآن وقد أسس الفكر البشري فيزياء سماوية وفيزياء ارضية ، سواء أكانت ميكانيكية او كيماوية ، وفيزياء عضوية ، سواء اكانت فيزياء نباتية أم فيزياء حيوانية ، يبقى عليه ان يكمل منظومة علوم الملاحظة بتأسيس الفيزياء الاجتماعية »[١] . واعني بالفيزياء الاجتماعية ذلك العلم الذي موضوعه دراسة الظاهرة الاجتماعية منظوراً اليها بنفس الروح التي ينظر بحسبها الى الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيماوية والفيزيولوجية الخاضعة لقوانين طبيعية ثابتة ، وحيث ان الغرض الخاص للبحث هو اكتشافها »[٢] .

ولكن كونت بدّل فيما بعد هذه التسمية بتسمية اخرى هي السوسيولوجيا . وقد لجأ الى هذا الاستبدال لتجنب خلط هذا العلم مع الدراسات الاحصائية

---

(١) راجع : A. Comte. Cours de Philosophie positive. p. lere leçon p. 10.

(٢) راجع : A. Comte : Système de politique positive. vol. IV. Appendice PP. 149-150.

والميتافيزيكية والوضعية في الوجود معاً . فقد ظهر في السياسة جماعة احرار **يريدون التحرير** واقامة السياسة على اساس العلم ، وآخرون محافظون يفكرون بعقلية القرون الوسطى ، وظهر هذا الوضع في التفكير العلمي نفسه . فاذن في عصر العلم يوجد عقلية دينية واخرى ميتافيزيكية وثالثة وضعية ، وهذا يؤدي بنا الى نوع من **التهافت** لاينقذ الناس منه الا تصنيف للمعارف الوضعية . يحدد هذا التصنيف مجال الفكر العلمي ويرسم **تقسيماته او فروعه** . وهذا يعني ان هذا التصنيف سيكون عبارة عن نتيجة لقانون الحالات الثلاث ، ويمكن القول ايضاً ، عبارة عن تعبير جديد له . وقد اتبع كونت في تصنيفه للعلوم الاساسية نسقا تاريخيا ومنطقيا . اذ يعلمنا التاريخ ان العلوم ظهرت حسب الترتيب التاريخي التالي : الرياضيات ، علم الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، البيولوجيا . وقد ظهرت بعد هذه العلوم الخمسة السوسيولوجيا التي اسسها كونت نفسه . ففي رأي كونت تتوج السوسيولوجيا مجموعة العلوم الوضعية الاساسية . وقد رتبها كونت حسب وجهات نظر مختلفة . فمنها أنه قال ان ترتيب او تدرج العلوم تعينه درجة عمومية الظواهر . فالظواهر الاكثر عمومية هي في الواقع أبسط الظواهر ، اذ بما انها تكون شرطاً للظواهر الاخرى فانها تفترض اقل عدد ممكن من الشروط . وهكذا فترتيب او تدرج العلوم هو ، في نفس الوقت ، ترتيب **وعمومية متناقصة** وتعقيد متزايد . وكلما كانت الظواهر معقدة كان ظهور العلم بها متأخراً على سواه . وبما ان الظواهر الاجتماعية هي اكثر تعقيداً من بقية الظواهر لذلك كان ظهور السوسيولوجيا متأخراً على ظهور سواها من العلوم . وفي رأي كونت يستند كل علم الى العلم الذي يسبقه ويستمد منه كثيرا من النتائج والقوانين والطرق . ولهذا يرى في هذا نوعا من التركيب لنتائج سائر هذه العلوم ..

٢ ـ الحالة الميتافيزيكية :

استبدل الفكر البشري في **هذه المرحلة (او العهد) القوى او النفوس بالالهة** . فالنبات ينمو لانه يملك نفسا نباتية ، والحيوان يحس لأنه يملك نفسا حسية ، والاجسام تتحد لانها تملك تعاطفات او تجاذبات ، والحرارة تحرق لانها فيها قوة الاحراق ... وهكذا ولتعليل الحوادث المختلفة تصور **الفكر البشري قوى منفصلة عنها ، وقد انتهى بتوحيدها في قوة عليا واحدة هى الطبيعة** ، علل بها كل شيء (كما فعل هوبز وبوفون(Buffon) ... لقد بقي الفكر البشري متجها نحو **اكتناه المطلق** ، كما في العهد السابق ، ولكنه ادرك انتظام الحوادث الطبيعية وانكر ان تكون خاضعة لاهواء الآلهة .

٣ ـ الحالة الوضعية :

وهي عهد العلم الذي يقتضي تعليل الظواهر **بالاسباب الثانية** معتمدا على الملاحظة التجريبية والمنهجية والعلمية .. انه عهد الوضعية التي تبحث عن القوانين التي تنتظم الحوادث **اي العلاقات الثابتة القائمة بين الظواهر والملاحظة** ، والتي لاتهتم بالتوصل الى معرفة المطلق او الطبيعة الصميمة للاشياء بل تتعلق بالمعرفة النسبية ... وهكذا نرى ان هـذا القانون الذي يفسر ويصف التطور الفكري للبشرية يظهر لنا ان الحضارة البشرية والافكار البشرية تابعة للتبدل والتطور .

تصنيف العلوم :

يقول كونت ان هذا القانون الذي يعلل لنا التطور الفكري للبشرية يساعد ايضاً على فهم الحالة الراهنة في القرن التاسع عشر . اذ يعتقد كونت انه في ابتداء هذا القرن استمرت الحالات الثلاث للفكر البشري : اللاهوتيـة

واعيا لحاجاته وحدوده ، وبالتالي مطبقا على حلول المشاكل التي هي في متناوله اي المعرفة الموضوعية للحوادث والظواهر . فالوضعية هي اولا واساسياً عبارة عن **نظرية للعلم** . ولم يتوصل الفكر البشري الى العلم دفعة واحدة بل ظل يتلمس الموضوعية العلمية خلال مجرى التاريخ الطويل حتى توصل اليها بفضل جهود العلماء المحدثين . وهكذا بدأ الفكر البشري يعتقد بوجود قوانين تنتظم الحوادث الكونية وبالتالي بوجود حتمية تسيطر على الطبيعة وحوادثها . واذا كان الفكر الحديث يتمشى على الطريقة العلمية والوضعية فالفكر **البشري بدأ بنمط آخر من التفكير**. اذ بدأ بالتعليلات الدينية واعقبها بالتعليلات الميتافيزكية قبل ان يتوصل الى التعليلات العلمية الوضعية . ولهذا وضع كونت قانونا بتنظيم تطور جميع اشكال المعارف البشرية ، دعاه **بقانون الحالات الثلاث**» (Loi de trois états) . اذ يعتقد ان تطور الافكار البشرية مر **بثلاثة عهود** او ثلاث حالات هي :

١ — الحالة اللاهوتية

(l'état théologique) **وهي الحالة البدائية الطبيعية للوعي** البشري ومميزتها الاساسية هي ميلها الى **تعليل اجمالي وغائي للعالم** . انه **تعليل بالاسباب** اي **بارادات** شبيهة بارادة الانسان . فالناس هذا العهد اللاهوتي كانوا يعللون **الحوادث** بتدخل ارادي لاله شبيه بالانسان . فاذا كانت الصاعقة تنزل في الارض فلأنها القيت بذراع زوس zeus . وقد مر هذا التعليل باشكال ثلاثة :الفيتيشية (Fetichisme) (الاله عبارة عن نفس داخلية تسكن الشيء الذي توجهه) ، وتبعها شكل آخر هو **الشركية** أو الاشراكية (polythéisme) (انفصل الالهة عن الاشياء وأخذوا يؤثرون بها من الخارج) . وانتهى الامر بعهد **التوحيدية** (Monothéisme) حيث اقام الفكر البشري طبقية وتدرجا بين الالهة وانتهى بأن وحدهم في اله واحد خالق ومدبر للكون كله .

١ - بتأسيس عقيدة dogme مؤلفة من معتقدات عامة تقوم على العلم .
٢ - بتأسيس عقيدة أقل عمومية مؤلفة من حقائق علمية متعلقة بالعلم الاجتماعي.
٣ - بتأسيس عقيدة اخلاقيـة وسياسية تستمد اصولها من هذا العلم الاجتماعي نفسه .

ويرى كونت العقيد الاولى في الفلسفة الوضعية أو الايجابية- philosophie positive- اذ يتوقف النجاح ، في اي علم من العلوم ، على اعتماده على الوضعية أو الايجابية . فما هي هذه الفلسفة الايجابية وماهي خصائصها ؟. يقول كونت انه يستعمل اللفظة « فلسفة » حسب المفهوم الذي كان يستعمله الفلاسفة القدماء وخاصة ارسطو ، أي أقصد المذهب (أو المنظومة) (système)العام المعارف البشرية ، والصفة « وضعية » تستلزم منا أن نعتبر النظريات ، في اي مجـال فكري : على انها تهدف الى تنسيق وترابط الوقائـع الملاحظة. « ويرى كونت ان » جميع العقول الصالحة تردد ، منذ بيكون Bacon : انه لا معارف واقعية الا تلك التي ترتكز على الوقائع الملاحظة ، وبالتالي القابلة لان يبرهن عليها عقليا او تجريبياً . وهي فلسفة لاتهتم بمعرفة طبيعة الاشياء الصمية ولا « لماذا » حصلت أية ظاهرة من الظواهر لان معرفة المطلق مستحيلة ومتعذرة على الفكر البشري ، وهي فلسفة لاتعطي لافكارها قيمة مطلقة بل نسبية . لانها افكار بشرية تابعة لعصر من العصور ولمرحلة تاريخية وعلمية معينة . فخير نظرية لعصر ما من العصور ، هي « تلك التي تمثل أفضل من غيرها مجموع الملاحظات المتعلقة بها . وهذه الفلسفه ، كما نرى ، هي **مذهب وطريقة** . وفي رأي كونت لايمكن فصل المذهب عن الطريقة لان الواحد مرتبط بالاخرى وعليها يؤسس ويقوم. ولايمكن ان تكون الفلسفة الايجابية طريقة خارجية بالنسبة للفكر او متعالية عليه . انها الفكر ذاته يبحث عن الحقيقة التي تناسبه والتي يتمكن من التوصل اليها : اذ يوجد ارتباط ضروري بين الوضعية والحس السليم الطبيعي . فليست الفلسفة الوضعية سوى الحس السليم الشامل وقد اصبح منهجيا وواعيا لذاته ، أي

الفصل الثاني

مرحلة تأسيس السوسيولوجيا

— أوغست كونت —

أوغست كونت (١٧٩٨ – ١٨٥٧) : عندما بدأ اوغست كونت عمله في ميدان العلم والفلسفة كانت قد ظهرت في الجو ، كما قلنا سابقاً ، أفكار مشتتة تدعو الى انشاء علم اجتماعي جديد . فما كان من كونت الا أن جمع هذه الأفكار وركبها تركيباً بديعاً وأخرج منها فلسفة تاريخ قوية **ومذهباً فلسفياً عميقاً** وعلماً جديداً يرتكز على الموضوعية . ونجد زبدة أفكار كونت في كتبه الرئيسية الثلاثة الآتية : « دروس في الفلسفة الايجابية أو الوضعية Cours de philosophie positive (١٨٣٠ – ٢٨٤٢) .

و « أحاديث عن مجمل الايجابية » Discours sur l'ensemble du positivisme (١٨٤٨) .

و « مذهب السياسة الوضعية » Système de politique positive (١٨٥١ — ١٨٥٤) .

ذهب كونت من النقطة التالية : يجب انقاذ الانسانية من الفوضى والانقسامات والويلات ، والتوصل الى توحيد الافكار والعقول وتوجيهها وانتظامها . ولكن كيف ؟ في رأيه نتوصل الى مهمتنا بما يأتي :

مصادر

يمكن ان يراجع القارىء المصادر العامة الآتية :

١ - عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع دمشق مطبعة الجامعة السورية (طبعة ١٩٥٧) .

٢ - أمين عبد الله صالح : علم الاجتماع القاهرة مكتبة الانجلو - مصرية ١٩٥٨

٣ - رينيه مونيه : المدخل الى علم الاجتماع . ترجمة محمد بدوي . (دار الثقافة - الاسكندرية) ١٩٥٣ .

4 — G . Bouthoul : Traité de sociologie . T . I . Paris . payot . 2 eme edit . 1949.

» » : Histoire de la sociologie. que sais-je. Paris (P. U. F) 1950

5 — A. Cuvillier : Manuel de sociologie. T. I. Paris. P. U. F. 1950.

6 — H. E. Barnes : An introduction to the History of sociologie. Chicago. Univ. Ch. Press . 1948

٥) تعتبر الثورات المتتابعة ، وشبه الدائمة ، ضرورية لاقامة العدالة والعقل الجماعيين في جوهرهما .

٦) الافكار والعقل الجماعي والعدالة مرتبطة **بالفعل والعمل** وتملك ميلاً « للعودة الى الفعل » . وعندما يفقد هذا الاتصال والتماس ولا يتحقق في الصراع ، فإن الجهد والابداع الجماعيين والأفكار والعقل الجماعي تنحل وتتحول الى **ظلال**.

٧) يمكن ان يدرس الواقع الاجتماعي بصورة فضلى ، بواسطة ديالكتيك تناقضات لا تحل ولكن تدفع الى تجارب متجددة دوماً ، والى جهود وصراعات متكررة أبداً . وهكذا يكمن الأساس المنهجي للعلم الاجتماعي في الديالكتيك السالبة (٥٦) .

ومهما يكن من أمر ، فإن المرحلة التي ندرسها كانت مرحلة تهيئة لظهور السوسيولوجيا . ويجب ان تسبق مرحلة التأسيس مرحلة التهيئة . ويتقدم دوماً المبشرون والمهيئون على المؤسسين . اذ لا يمكن ان نبدع أو نبتكر شيئاً من لا شيء . وبهذه الصورة فإن كونت عندما ظهر على المسرح العلمي وجد الأفكار مبثوثة من حوله في الأجواء الفكرية ، وما كان عليه الا أن يقطف ثمارها وينظمها في **مذهب متسق ونظرية متماسكة** .

---

(٥٦) من أجل دراسة قيمة عن سوسيولوجيا برودون راجع :

G. Gurvitchr. : Proudhon Sociologue. C. D. U. 1955 (cours ronéotypé).

« ان الانسانية – بعد ان انتجت العقل والتجربة الاجتماعية – (أخذت تعمل) على انشاء العلم الاجتماعي » الذي يدرس :

« الابداع (البشري) ذاته ، مأخوذاً ، اذاشئناالتعبير ، عن الواقعة»[٥٤] (أي عن الحوادث التي تجري) .

وقد قال : أتريدون أن تعرفوا الانسان ؟ ادرسوا المجتمع ، أتريدون ان تعرفوا المجتمع ؟ ادرسوا الانسان . فالانسان والمجتمع يستخدمان بالتبادل كموضوع ومحمول (de sujet et d'objet) ؛ **فالتوازي** (أو) المرادفة ،.. تام » . ([٥٥]) .

وقد قال برودون بالأفكار السوسيولوجية الهامة الآتية ، والتي لعب جزء منها دوراً هاماً في أفكار ماركس ودوركهايم من بعده :

١) يتضمن الواقع الاجتماعي مظاهر متعددة منها : « القوى الجماعية » و « **العقل الجماعي** » و « فكرة العدالة » التي تصطرع غالباً مع « المثل الأعلى» (الانفعالي) ، والحقوق والضوابط الاجتماعية (كالقواعد والرموز . . .) وأخيراً مع الجهد الجماعي الارادي الذي يعتبر العمل أحد ظهوراته .

٢) يعتبر هذا الواقع الاجتماعي ، في مجموعه ، **جهداً وفعلاً وعملاً** وتنافساً **وصراع رهوط وطبقات** ويبرز بصورة خاصة في الحروب والثورات .

٣) تلعب العفوية الجماعية دوراً جوهرياً في الدوامة الاجتماعية .

ولا تستطيع القوى الجماعية ولا العقل الجماعي ولا العدالة ولا الضوابط الاجتماعية ولا الجهد الجماعي الارادي ان تقوم بعملها أو وظيفتها بدونها (أي العفوية الجماعية) .

٤) يوجد في كل مجتمع تعدد رهوط وطبقات لها واقعها الفعلي .

---

(٥٤) راجع : Ibid. Vol. II.

(٥٥) راجع : Ibid. Vol. II.

٥ - يجب ان تقوم كل نظرية سوسيولوجية على هذا القانون الاساسي .

٦ - يجب ان تكون **الشروط العملية** والتطبيقية الاساس للاخلاق الجديدة وتحسين حياة الناس الذي يجب ان يتم في الحياة الاجتماعية على الارض بتغيير النظام الفاسد الذي يسودها ، لا في الجنة او في السماء .

٧ - ويقتضي هذا التبدل العميق تنظيما صناعياً جديداً ، ونظاماً سياسياً واجتماعياً جديداً واتحاداً اوروبياً تنتظمه **اخوة (او اخاء) جديدة ، هي المسيحية الجديدة** . وهكذا يضع سن - سيمون ديانة جديدة قائمة على العلم والمبادىء الاشتراكية .[٥١] ولاهمية أفكار سن - سيمون قال الاستاذ جورج جورفتش فيه : « يلعب سن - سيمون دور يوحنا معمدان بالنسبة للسيولوجيا الحديثة . ومن وجهة نظر ما (يمكن القول) ان مؤلفاته تحتويه بكاملها ولكن على شكل بذور فقط »[٥٢] ويعتبره الاستاذ جورفيتش احد مؤسسي السوسيولوجيا المعاصرة .

برودون Proudhon (١٨٠٥ - ١٨٦٥) ولا يمكن ان ننسى اهمية برودون وما قدمه من افكار ساعدت على تهيئة الجو لظهور علم الاجتماع وقد اعتبره جورج جورفيتش (مع سن - سيمون) احد مؤسسي السوسيولوجيا المعاصرة .

وقد نادى برودون بوجوب تأسيس علم اجتماع . ويعرف هذا العلم بقوله : « العلم الاجتماعي هو المعرفة المعقولة والمنهجية .. لما هو (المجتمع) .. في كلية حياته وفي كل مبادئه وفي كامل وجوده »[٥٣] .

وقد عرفه تعريفاً آخر فيه كثير من الدينامية والديالكتيكية ، اذ قال :

---

(٥١) راجع : Barnes : An introduction to the history of sociology pp. 37-74

(٥٢) G. Gurvitch : Les fondateurs français de la sociologie contemporaine : saint-Simon et P.-J.-Proudhon. I Saint-Simon. P. 9 (C. D. U.) 1955

(٥٣) راجع : Proudhon : Le système des contradictions économiques. Vol. I.

والملائكة لينقذوا انفسهم ، او ان يتعلقوا بحقائق ازلية يعد الكلام فيها لغواً باطلاً. لذلك وجب اتباع الطريقة العلمية ، الطريقة الوحيدة التي اظهرت جدواها في الحياة الاجتماعية . ويجب الا تعتمد البشرية الا عليها . فلنطبقها اذن على علم المجتمعات . وبهذا نقدم الوسيلة لانقاذ المجتمع البشري المتزعزع . وهكذا فمعرفة المجتمع البشري العلمية تساعد على تنظيمه في سبيل مصلحة الجميع . ولا يوجد خارج المعرفة العلمية خلاص .

وبهذا دعا علماء كثيرون الى انشاء « علم اجتماعي » . ومن هؤلاء الدكتور بوردن (Burdin) الذي نادى بوجوب تأسيس علم **وضعي** يكون كفيزيولوجيا تدرس حياة البشر في المجتمع وتهتم بتطور العقائد البشرية منذ المجوسية والشركية والتوحيد حتى مفهوم القوانين التي تنتظم مجموع الظواهر ،

سن ـ سيمون Saint-simon (**١٧٦٠ — ١٨٢٥**) : وقد تأثر سن ـ سيمون بهذه الفكرة ونادى بوجوب تأسيس **فيزيولوجيا اجتماعية** او **علم سياسي**، يقابل عند اوغست كونت لفظ سوسيولوجيا . وكان لسن ـ سيمون اكبر الفضل على اوغست كونت لان هذا بقي سكرتيره لمدة لابأس بها . واهم افكار سن ـ سيمون التي اثرت في اوغست كونت هي الآتية :

١ ـ يجب ان نميز بين العلم والفن في جميع مجالات المعرفة .

٢ — يجب ان نصنف العلوم حسب تعقيدها المتزايد (او التصاعدي) ويجب ان نضع على رأسها العلم الجديد أي العلم السياسي .

٣ — يجب أن يؤسس هذا العلم على استقراءات التاريخ الراسخة كما يجب ان تسوده روح مفهوم **التبدل والتقدم** .

٤ — والقانون العام للتقدم هو ذلك القانون الذي وضعه تورجو Turgot **وبوردن** والمسمى قانون الحالات أو المراحل الثلاث الذي ينتظم التطور النفساني للجنس البشري . وقد اسمى سن — سيمون هذه المراحل كما يلي : **التخمينية، نصف التخمينية والوضعية** .

والاوضاع في اوروبا العهد الصناعي الجديد. وما أحدثته من بؤس وآلام بين بعض الطبقات وخاصة الكادحة منها ادى الى وضع كثير من المشاريع والمذاهب والاقتراحات لاعادة بناء المجتمع على اساس اقتصادي واجتماعي جديد. وبهذا مست الحاجة الى تأسيس علم **اجتماعي** يهدى المصلحين لوضع افكارهم الاصلاحية على اساس من القوانين الاجتماعية وفهم للطبيعة الاجتماعية. وهكذا نادى الاشتراكيون باصلاحات جذرية عميقة معلنين تعاطفهم مع **الطبقة الكادحة**. وكان زعيم الاشتراكيين في فرنسا سن ـ سيمون Saint-simon ، أقوى الداعين لتأسيس «**علم مجتمع**» ، يشير الى طبيعة واسس هذا الاصلاح الاجتماعي.

الثورة الفرنسية : لقد خلفت الثورة الفرنسية وراءها الويلات والمذابح والفوضى والحروب التي اثارها نابليون وادت الى انكساره والى هجرة واسعة. وهكذا شعرت فرنسا المنهكة الحائرة بأنه يجب وضع حد للفوضى التي خلقها القرن الثامن عشر بأفكاره الثورية. وقد كان الاتفاق عاماً بين المفكرين سواء التقدميين منهم ام المحافظين حول هذه النقطة. ولكن كيف نعيد الاتفاق والانسجام الى المجتمع الفرنسي؟ **يقول التقليديون** من امثال لامني Lamennais ودوميتر De maistre بالعودة الى تقاليد وعادات ما قبل الثورة والالتفاف حول المذهب الكاثوليكي الذي نجد فيه لحمة الحياة الاجتماعية.

اما الفلاسفة الروحانيون فكانوا ضد هذه الفكرة لان التاريخ لا يمكن ان يرجع الى الوراء. ومن المستحيل على مجتمع عرف افكار **الحرية والثورة والموسوعيين** ان يعود فيتعلق بالاوضاع السابقة للثورة. لذلك ارادوا ان يؤسسوا فلسفة تقوم على **بديهيات عامة** فكرية **وجمالية وخيرة** تقربها جميع العقول لانها مستمدة من العقل البشري الفطري والطبيعي وتؤدي بالنتيجة الى الاتفاق والتضامن.

وقد عاكس آخرون النزعتين السالفتين ، وكان **اوغوست كونت** اقوى هؤلاء ، وانكروا ان يعود الناس في القرن التاسع عشر الى اساطير الجن

نظرية « الانسان المتوسط » (L'hommemoyen) . وقد اوجد هـذا العلم وسيلة تمكن من ادخال دقة الطرق الكمية في السوسيولوجيا .

٥) البيولوجيا

وقد احرزت البيولوجيا تقدماً ملموساً في هذا القرن وكان لها فضل كبير على تأسيس السوسيولوجيا .

وكما ان العلماء اخذوا بتصنيف النباتات والحيوانات الى نمـاذج (اجناس وأنواع ..) اخذالاتنوغرافيون والمؤرخون والفلاسفة الاجتماعيون بتصنيف المجتمعات الى نماذج معينة . ووضحت الفكرة القائلة بأن المجتمعات موجودة في الطبيعة ويمكن ان نصنفها كما نصنف النباتات والحيوانات ، لان لها مشابهاتهـا وفروعها في الزمان والمكان . وهكذا اخذت **الملاحظة والتصنيف والتعليل** بالتغلب على التأويلات الدينية والذرائعية . واكتسبت قوانين الطبيعة بفضل النزعة العلمية معنى موضوعياً : انها (اى القوانين) العلاقات التي تسمح المقارنة بالبرهان عليها في حوادث المادة والحياة .

وقد استفادت السوسيولوجيا من هذه النزعة بفضل الفكرة القائلة بتشبيه **المجتمع بالجسد** ، او ان المجتمعات عبارة عن اجساد تشبه الاجساد الحية ، تلك الفكرة التي رأيناها عند أفلاطون وأرسطو وابن خلدون وسواهم ...

٦) الثورة الصناعية والثورة الفرنسية : نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر

الثورة الصناعية :

كان للثورة الصناعية أثر عميق في أوروبا . وكانت التغييرات التي احدثتها هذه الثورة عبارة عن أقوى تبدلات عرفها تاريخ البشرية . وقلبت المفـاهيم

وجود قوانين في الحياة الاجتماعية وخاصة في المجال الاقتصادي . ورسخت أسس هذا العلم في القرن الثامن عشر بفضل الفيزيوقراطيين phisiocrates في فرنسا وآدم سميث Smith في انكلترا . وقد اعلن زعيم الفيزيوقراطيين ، الطبيب كيني quesnay ، في كتابه « لوحة اقتصادية (tableau économique) عن وجود « قوانين طبيعية » وجب اكتشافها في المجال الاقتصادي . وقد كتب دوبون دونمور Dupont de Nemours في مؤلفه : « فيزيوقراطية » Phisiocratie (١٧٦٨) يوجد « قوانين فيزيائية خاصة بالمجتمع » . وقد تكلم عن وجوب انشاء « علم جديد »[٥٠] .

كما تكلم آدم سميث عن وجوب اكتشاف نظام طبيعي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وكذلك آدم فيرجوسون A. Ferguson يمكن ان يعتبر من المبشرين بالسوسيولوجيا . لأنه وضع في كتابه « تاريخ المجتمع المدني » (History of civil society) (١٧٦٧) تصنيفاً للمجتمعات وتقسيماً للتاريخ البشري الى ثلاثة عصور كبرى هي : الوحشي والبربري والمتمدن . وقد اعتمد في دراسته هذه على معطيات اثنوغرافية هامة .

٤ ـ علم الاحصاء :

وفي القرن الثامن عشر اتخذ هذا العلم شكله الكمي الذي نراه عليه حالياً . وقد نشر في عام (١٧٤١) الالماني سوسميلخ Sussmilch (١٧٠٧ – ١٧٦٧) اول كتاب قيم في الاحصاء الديموغرافي . وقد طبق العالم الرياضي البلجيكي كوتلي Quételet (١٧٩٦–١٨٨٤) في كتابه « محاولة في الفيزياء الاجتماعية » (Essai de physique sociale) الاحصاء على الحوادث الاخلاقية واستخلص

---

(٥٠) نقلاً عن : Ibid., p. 11

٢ ـ الحقوق المقارنة

وتظهر فكرة القانون بشكل أوضح لدى مونتسكيو .

مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥): وقد اعتبره دوركهايم كمبشر أساسي لعلم الاجتماع . لأننا نجد لديه ، في رأي دوركهايم ، المفهومين الاساسيين لتأسيس علم الاجتماع ، أولاهما : مفهوم النموذج (نموذج المجتمعات التي يمكن ان نقارن فيما بينها) **ومفهوم القانون** [٤٨] . اذ تخضع ، حسب رأيه ، الحياة الاجتماعية لقوانين ، ولا تقوم المؤسسات السياسية والحقوقية على نحكم المشرعين بل على القوانين التي هي « العلاقات الضرورية التي تتحدر من طبيعة الاشياء » . وقد حاول مونتسكيو في كتابه « روح الشرائع » أن يتبع طريقة علمية بدراسته « لما هو كائن وليس لما سيكون » ، وسار في دراسته للمؤسسات السياسية وسواها على اسس الطريقة التاريخية في السوسيولوجيا وطريقة الملاحظات المقارنة . ولهذا قال إهرليخ Ehrelich يجب ان يعتبر كتاب « روح الشرائع » كأول محاولة لاقامة سوسيولوجيا حقوق [٤٩] .

كما ألح على اظهار تأثير العوامل الطبيعية في الحياة الاجتماعية . وبهذا كان له فضل واضح على ظهور علم الاجتماع .

٣ ـ الاقتصاد السياسي

وقد ساهم علم الاقتصاد السياسي في ظهور السوسيولوجيا **بالحاحه** على فكرة

---

(٤٨) راجع : Durkheim : Montesquieu et Rousseau (Lib. Marcel Rivière :) Paris pp. 43-113

(٤٩) نقلاعن : A. Cuvillier : Manuel de Sociologie. T.I. p. 11

وهكذا نرى عند **كوندورسي** فكرة تأسيس علم اجتماعي يقوم على الدراسات الاحصائية والديموغرافية. ويكون بهذا قدم خدمة جلى للسوسيولوجيين الذين أتوا من بعده.

نظرية التقدم :

يلاحظ كوندروسي ان التاريخ البشري في تقدم مستمر وصيرورة دائمة. وتخضع صيرورة الفكر البشري لقوانين عامة. ومجرى التاريخ خاضع ايضاً **للحتمية**. مع العلم ان هذه الحتمية لاتمنع من التقدم الى الامام ... ولكن تقدم التاريخ مرتبط بالعقل او الذكاء الانساني. اذ أن الذكاء، او العقل، هو الذي يدير العالم. وهكذا فتقدم التقاليد والعادات والمؤسسات رهن بتقدم **المعارف البشرية**. فالانسان يعيش حسبما يفكر. ويتمكن **عقله من معرفة الاقدار** التي تنتظره. اذ في الواقع يحدد العقل البشري هذه الاقدار. ويريد كوندروسي ان يحقق بهذه الاقدار ثلاثة أهداف : دولية واجتماعية وأخلاقية. فهو يريد أن يمحو عدم المساواة بين الامم، ويحقق المساواة بين مواطني المجتمع الواحد أو الامة الواحدة، **مساواة في الثروة، والوضع الاجتماعي** والثقافة، واخيراً يحقق الازدهار الحقيقي للانسان [٤٦].

ويرسم كوندورسي الخطوات التاريخية التي تبعتها الحضارة البشرية في سيرها منذ نشأتها حتى عصره. فيجد تسع مراحل تبدأ بالانسان البدائي الاول وتنتهي بالقرن التاسع عشر مارة بكل المراحل التي عرفها التاريخ البشري بصورة عامة. ويتنبأ بمرحلة عاشرة سيتخلص فيها الناس من اعدائهم : **المرض** والظلم وعدم المساواة والحروب والصدف [٤٧].

---

(٤٦) راجع: Ibid., pp. 35 - 40

(٤٧) راجع: Ibid., pp. 85 - 199

كوندورسي (١٧٤٢ - ١٧٩٤): وفي هذا القرن ظهر كوندورسي المفكر الفرنسي وكان لهذا المفكر فضل كبير على علم الاجتماع بقوله بنظرية التقدم progrès التي كان لها اثر واضح على أفكار اوغست كونت . وكذلك نادى بوجوب انشاء علم اجتماعي تطبق فيه طريقة الرياضيات والاحصاءات . ومن اشهر مؤلفاته كتابه المسمى «ملخص أو مخطط لوحة تاريخية لتقدمات الفكر البشري» Esquisse d'un tableau historique de progrès de l'esprit humain

يلح كوندورسي على وجوب اتباع العلوم الادبية أو الاجتماعية طرق العلوم الفيزيائية من ملاحظه الحوادث وتطبيق الرياضيات على ابحاثها وبتطبيق الرياضيات أو **الحساب** تكتسب العلوم الاجتماعية **دقة ويقين** العلوم الفيزيائية . ودعا الى انشاء علم اجتماعي من هذا النوع دعاه «الرياضيات الاجتماعية» La mathematique sociate . وموضوع هذا العلم هو **الناس والاشياء** ، والناس والاشياء معاً . يدرس هذا العلم الانسان عندما يبحث مثلاً في قوانين الولادة أو الوفاة في منطقة معينة ، أو عندما يدرس حسنات ومساوىء نمط من أنماط الانتخابات . ويمكن ان يدرس الانسان بعلاقاته مع الحوادث الطبيعية او **الانسان الفرد** كما يقول كوندروسي ، ويمكن ان يدرس ايضاً السير العام لعمليات الفكر البشري من وجهة نظر عامة . وهنا يبحث مثلاً عن تأثير المناخ والمهنة والعادات في **مدة الحياة** أو طولها .

ويبحث هذا العلم في الاشياء عندما يقدر حسنات بانصيب مثلاً وعندما يبحث عن المبادىء التي يجب ان تعين بحسبها النسبة المئوية للتأمينات البحرية .

ويبحث هذا العلم في الانسان والاشياء عندما يدرس القضايا المتعلقة بالرقبى (وهو مايتمتع به المرء مدى الحياة) بالتأمينات على الحياة (٤٥) .

---

(٤٥) راجع : Condorcet : textes, par J. - B. Séverac (Louis Michaud. Paris). pp. 33 - 35 et 55 - 80

فان الحياة الاجتماعية تمثل اطوار الحياة الفردية : الطفولة ، الشباب او المراهقة وزمن النضج . والنضج يتحول الى هرم وهذا يقود الى التدهور والنكوص والعودة الى الحالة البدائية الاولى . وهكذا يتتابع الدور .

بقول فيكو ، قبل مونتسكيو ، بأن التجديدات في المؤسسات الاجتماعية ناتجة عن تبدلات الروح العامة . وهكذا فالرأي العام يوجه الاخلاق والقانون وأنماط التعبير . وكان لفيكو فضل كبير في توجيه الاذهان وخاصة اذهان السياسيين الى قيمة الرأي العام في حياة الدولة وقوانينها وشرائعها .. ويمكن ان ينظر الى فيكو كمبشر لنظرية الطبقات الاجتماعية . اذ يؤكد ان السلوكات السياسية لاغلبية الافراد يحددها وضعهم الاجتماعي ، وقد رأى بوضوح بأن التصادمات التي تنشأ داخل نفس الرهط أو المجموعة groupe مردها الى اختلاف الوضع الاجتماعي ، وقد لاحظ ان هذه التصادمات لن تنقطع لانها غير متعلقة بالافراد وانما بالبنية الاجتماعية . ويعتقد ان **المدن الاولى** كانت تتألف من طبقة النبلاء وطبقة الشعب كثيرة العدد . وقد حصل من خلاف هذين العنصرين قانون ازلي، هو ان جماعة الشعب (او الدهماء) plébéiens تريد دائماً ان تغير وضع الاشياء ، بينما النبلاء يريدون أن يدوم (٤٤) .

وهكذا يبدو فيكو تقدمياً من بعض وجوه بينما يبدو جبريا في نظريته المتعلقة **بالتاريخ الانساني على شكله الدوري** .

هردر J. Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣) : يعتقد هردر ان النظام الذي يريده الله يختلط بالجهد الذي بواسطته تنزع القوة المبدعة للطبيعة ، خلال تنوع النماذج ، الى نموذج كامل : والمجتمع البشري هو الدرجة العليا لتقدم هذه القوى الكونية ، و « القوى الحيوية التي في الانسان هي محركات التاريخ » وبهذا يعلن هردر معاً فلسفة التاريخ لدى هيجل والانتروبوجيوغرافيا لدى راتزل Ratzel .

---

(٤٤) G. Bouthoul : traité de sociologie T. I. P. 46

الالهة ويعتبرون أنفسهم من طينة أعلى من طينة البشر ويتعالون على عامة الناس معتبرينهم كالحيوانات الحقيرة .

واما العهد البشري أو الانساني فهو عهد الطبيعة البشرية **الذكية** ، فهي لذلك طبيعة معتدلة رفيقة وعاقلة . وهي تعترف بالشعور والعقل والواجب كقوانين .[٤٢] ويقابل هذه العهود الثلاثة ثلاثة انواع من العادات والتقاليد . فتقاليد العهد الاول مطبوعه بطابع الورع والدين . وتقاليد العهد الثاني تتمسك بالتحسس للشرف . أما تقاليد العهد الثالث فيهيمن عليها ويديرها الواجب .

ويقابلها ثلاثة انواع من القوانين الطبيعية : العهد الاول وقانونه ديني وكل شيء متعلق بالآلهة . العهد الثاني وقانونه هو القانون البطولي أو قانون القوة ولكن القوة التي يسيطر عليها الدين سلفاً . والعهد الثالث وقانونه هو القانون **البشري او الانساني** الذي املاه العقل البشري النامي والمتطور تماماً .

ويقابلها ايضاً ثلاثة انواع من الحكومات : العهد الاول وحكوماته تيوقراطية او الهية دينية : يعتقد الناس ان كل شيء املته الآلهة على البشر . العهد الثاني وحكوماته بطولية أو أرستوقراطية : وهي حكومات الاقوياء . أما العهد الثالث فحكوماته انسانية أو بشرية وفيها نجد المساواة المدنية والسياسية . وهكذا يلد جميع الناس أحراراً سواء في هذه الحكومات ذات النمط الملكي الدستوري أم الديموقراطي ... وهكذا يقابل هذه العهود ايضاً ثلاثة انواع من اللغة ، والتشريفات ، والسلطات والعقول ، والاحكام ...[٤٣] ويكون بهذا قد سبق أوغست كونت الى نظرية الحالات الثلاث التي سنراها فيما بعد .

هذه العهود تتكرر على مسرح التاريخ وتعود على شكل أدوار . وهكذا

---

(٤٢) Ibid. , P. 48 - 85.

(٤٣) Ibid. , P. 85 - 101

ومع ان هذا العالم خلق بصورة خاصة وفي الزمان ، فان القوانين التي وهبته اياها « العناية » تعتبر شاملة وأزلية .

ويبرهن على وجود هذه العناية بحجج فلسفية أو تيولوجية (لاهوتية) ومنطقية تعتمد في برهانها على التاريخ . ولغوية مستخرجة من الاساطير والخرافات وتاريخ اللغات [٤٠] وفي المظهر الثاني الاساسي يعتبر العلم الجديد تاريخا للافكار البشرية . وهكذا لفهم طبيعة **الاشياء البشرية** ، وجب علينا نعود الى اصولها الاولى واشكالها البدائية الاولية . وبهذا نتوصل الى الشكل الخاص الذي بحسبه **تولدت الاشياء الاجتماعية** أي نتوصل الى معرفة طبيعتها وخاصة العلم الرئيسية هي التوصل الى تعليل طبيعة الاشياء [٤١] . وهكذا يكون فيكو **المبشر بالطريقة التاريخية** في السوسيولوجيا التي الح عليها دوركهايم فيما بعد .

ويعطينا العلم الجديد المبادىء والاصول للتاريخ الشامل الكلي . وحسب هذا العلم يمر تاريخ الانسانية **بثلاثة ادوار** أو « اعمار » أو « عهود » trois ages: **العهد الالهي** ، العهد **البطولي والعهد الانساني او البشري** . يقابل كلا منها طبيعة خاصة وتقاليد خاصة ، وقوانين طبيعية خاصة ، وحكومات خاصة متلائمة .

اذن هناك ثلاث طبائع ، فالعهد الالهي تقابله طبيعة شعرية او ابداعية . انها طبيعة الشعراء التيولوجيين أو الدينيين في المجتمعات المجوسية القديمة ، وهي **طبيعة وحشية وبربرية** . وقد أدى الخوف الى انشاء الاساطير والخرافات الدينية.

والعهد البطولي وهو عهد الابطال أمثال آشيل وبريام أورومولوس Achille , priam , Romulns وهم يصفون انفسهم بهذه الطبيعة البطولية ويتخذون منها دلالة على تحدرهم من الالهة . ولهذا كانوا يدعون بأنهم ابناء

---

(٤٠) Ibid. , P. 33.

(٤١) Ibid . , P. 35.

العلوم الجديدة في القرن الثامن عشر :

قدم هذا القرن نواحي أخرى أهم بكثير من الفلسفة السياسية والاجتماعية بالنسبة لظهور علم الاجتماع . اذ ظهر فيه الاعتقاد بأن الحوادث الاجتماعية خاضعة **لقوانين** . وقد ساعد على ظهور هذه الفكرة ما يلي :

أ) **فلسفة التاريخ** : ظهرت فلسفة التاريخ في هذا العصر بشكل واضح وقد أطلق عليها فولتير هذا الاسم . اذ حاول فلاسفة هذا القرن ان يتوصلوا الى القانون العام الذي يهيمن على مجموع الحوادث البشرية .

ومن اشهر الذين ساهموا في ابرازها بشكل قوي هو المفكر الايطالي فيكو J.B.vico .

فيكو ١٦٦٨ – ١٧٤٤ م : ويعتبره المؤلفون الايطاليون مؤسس علم الاجتماع ومؤسس فلسفة التاريخ وقد وضع زبدة افكاره في كتابه الشهير « **مبادىء علم جديد** » Principi d'una scienza ficuva وموضوع هذا العلم الجديد هو ،لديه ، **طبيعة الامم** العامة أو المشتركة La nature commune des nations [٣٩] ينطلق العلم الجديد من الفكرة الانسانية الاولية التي هي فكرة الله . وهكذا يصبح هذا العلم ، في احد مظاهره الاساسية ، عبارة عن تيولوجيا مدنية للعناية الالهية . ويعتقد فيكو ان الفلاسفة اهملوا « **العناية** » . فالعلم الجديد سيكون عبارة عن برهان واقعي ، برهان تاريخي « للعناية » اذ انه يجب ان يكون تاريخ الاحكام أو القوانين التي بواسطتها أدارت « العناية » ، دون علم الناس واحياناً رغما عنهم ، المجتمع الاكبر للجنس البشري.

---

(٣٩) Vico : La science nouveulle. (Renaissance du livre.). Paris. P. 155.

القرن الثامن عشر :

كان لهذا القرن فضل كبير على ظهور علم الاجتماع اذ هيأ كل الشروط لظهوره .

الفلسفة السياسية والاجتماعية : ظهر في هذا القرن انتقادات للاوضاع الراهنة وهجوم على المؤسسات الاجتماعية . وأفكار مصبوغة بالصبغة السوسيولوجية . فمثلاً تهجم جان جاك روسو Jean J Rousseau ، في كتابه « العقد الاجتماعي »(Le contrat social) وفي مقالات أخرى ، على النظريات الديكتاتورية في السلطة والمجتمع . وقدم روسو فكرته ان الانسان يولد خيراً وانما يفسده المجتمع . وكانت فكرته هذه معاكسة لفكرة « السقوط » من الجنة التي دافع عنها (الآباء) الكنسيون . وكانت نتيجة هذه النظرية أنه يجب أن نثق بالانسان ونحسن طويته وارادته وعقيدته . واعطى روسو بعض أفكار تعتبر كأنها سوسيولوجية : بقوله ان « العقد ينتج جسداً معنوياً وجماعياً » ، له « ارادته العامة » ، وبتمييزه بين « **الارادة العامة** » وارادة الكل » . وهكذا فقد اقتربت افكاره من افكار سوسيولوجي معاصر هو مكدوجال Macdougall [٣٧] ، وبهذا استحق ان يقول دوركهايم فيه : انه مبشر بعلم الاجتماع . . [٣٨] .

كما ظهر في هذا العصر فولتير والبارون دولباخ D Holdach فهاجما المؤسسات الاجتماعية والاستبداد والاساطير ورجال الدين .

---

(٣٧) راجع : A. Cuvillier : Opi. cit. T. I. P. 8

(٣٨) » E. Durkheim : Montesquieu et Rousseau précurseurs de la sciologie.

ويقول جـاردي Gardet : « **المؤرخ والسوسيولوجي** الشهير ابن خلدون »[٣٦] .

والخلاصة : يعتبر ابن خلدون من مشاهير مفكري التـاريخ وأعظمهم ، ويعتبر تقريباً المؤسس الحقيقي لفلسفة التاريخ والفلسفة الاجتماعية وأحد الذين هيأوا لظهور علم الاجتماع . أما أن نقول انه المؤسس لعلم الاجتماع فهـذا غلو لا يتفق وروح العلم الموضوعية والنقدية .

الفلسفة الاجتماعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر :

ظهر بظهور « النهضة » ميل الى العودة للافلاطونية . فظهر مع هذه النزعة طوباويات كثيرة كاليتوبيا لتوماس موريس Thomas Morus سنة (١٥١٨) ، و « مدينة الشمس » للدومينيكي كامبانيلا Campanella (١٦٢٣) . وظهر في القرن السادس عشر مفكرون مشهورون كجان بودن J. Bodin وماكيافلّي وكذلك ظهر في القرن السابع عشر مفكرون اكثر شهرة . وميزة هذا القرن هو **التركيبات (المذاهب) النظرية الواسعة** . وقد ظهرت تركيبـات ذات نزعات تعليمية وثوقية ، ومن اتباعها بوسوي Bossuet وسبينوزا ، كما ظهرت تركيبات أخرى اكثر اختبارية وواقعية ومن مؤلفيها : هوبز Hobbes (مؤلف اللفياثان Leviathan ١٦٥١) ولوك ذو النزعة الحرة .

وبصورة عامة بقي القرن السابع عشر متعلقـاً بفكرة ثبوت واستقرار المؤسسات الاجتماعية . ولكن السائحين والمرسلين الدينيين أدخلوا عنصراً جديداً على تفكير هذا القرن بوصفهم لعادات وتقاليد الشعوب المختلفة . وهكذا انتقل في نهاية هذا القرن من فكرة الاستقرار والثبوت الى فكرة الحركة والتغير . واستفاد القرن الثامن عشر من **النزعة الوصفية المقارنة** .

---

(٣٦) هذه الآراء الثلاثة الأخيرة منقولة عن مجلة :
Culture & colonisation. Unef. F. G. E. (Avril 1957)

آراء بعض المؤلفين الغربيين :

ولنعط الآن بعض آراء مفكرين غربيين في ابن خلدون :

يقول غاستون بوتول : « يوجد في مؤلف ابن خلدون عمل مرموق من السوسيولوجيا الوصفية التي تحتوي على الاساسي لسوسيولوجيا حقيقيه لافريقيا الشمالية ، حيث ان عدداً كبيراً من الاوصاف (التي جاء بها) ينطبق حتى الآن على الحالة الاجتماعية هذه المنطقة [٣٣] » .

ويقول برنز Barnes : « وعامة لخلدون (هكذا) ، لا لفيكو ، ان يدعي شرف تأسيس فلسفة التاريخ . . . » [٣٤] .

ويقول سوروكين P Sorokin « . . . يبحث ابن خلدون بصورة منهجية تقريباً في كل مشاكل السوسيولوجيا العامة والخاصة المعاصرة بدراسته للمجتمعات البدوية والحضرية .. والقسم الاكبر من هذا العمل يعتبر حديثاً تماماً حتى عصرنا هذا . وجنباً الى جنب مع افلاطون وأرسطو وفيكو وأوغست كونت ، يعتبر ابن خلدون حقاً أحد مؤسسي علم الاجتماع (وكذلك التاريخ العلمي) . » [٣٥]

ويقول تاونبي Toynbee « لقد أدرك ابن خلدون وأنشأ فلسفة تاريخ هي ، دون شك ، أعظم عمل (أو تأليف) أبدعه فكر في أي زمان ومكان » .

ويقول مارسي Marçais : « هي (مقدمته) أحد المؤلفات التي تعد من أهم وأفيد المؤلفات التي انتجها الفكر البشري » .

---

(٣٣) G. Bouthoul : Traité de sociologie T. I. P. 25

(٣٤) H. E. Barnes : Opi. cit. p.p. 25 - 26

(٣٥) P. Sorokin : Society, culture and personality (1947) P. 20.

تقدير لابن خلدون : غالى قوم كثيرون في ابن خلدون ، فمنهم من غالى في حبه فرفعه الى مصاف أكبر السوسيولوجيين ورأى فيه **مؤسس السوسيولوجيا ومؤسس فلسفة التاريخ** وسابق لماركس وأقوى منه ، ومتقدم على تارد واكثر علمية منه ، وعلى دوركهايم واكثر موضوعية منه ووجد آخرون لديه بذور النظرية **العضوية** ، والنظرية **النفسية** ، والنظرية الآلية . . . في السوسيولوجيا . ومن هؤلاء الاستاذ ساطع الحصري في كتابه : « **دراسات عن مقدمة ابن خلدون** » والدكتور عبد الكريم اليافي في كتابه « تمهيد في علم الاجتماع » . والمؤلف الثاني متأثر تماماً في بحثه عن ابن خلدون بالمؤلف الاول وآرائه . . وأقوالهما مغالية وبعيدة عن موضوعية العلم أحياناً .. ولا نتمكن هنا من مناقشتها لان البحث لا يسمح بهذا . إما نحن فلا يمكن ان نعتبر ابن خلدون كمؤسس لعلم الاجتماع . لان العصر الذي عاش فيه ابن خلدون لم يكن نضج بعد نضجاً كافياً يساعد على تأسيس علم إنساني وضعي وموضوعي كعلم الاجتماع . ومؤسس علم ما يجب ان يعرف هذا العلم ويصنفه بين العلوم الاخرى **ويعين مادة دراسته وطرق بحثه وقوانينه** وكيفية التعليل فيه ، كما فعل اوغست كونت ، (سنرى ذلك فيما بعد) . وابن خلدون لم يفعل شيئاً من هذا. ولكننا نستطيع ان نعتبره ، مع مونتيسكو وروسو وفيكو وأرسطو وأفلاطون والقديس اوغسطينوس ، كمبشر بنشوء علم الاجتماع ومهيء له . ودراسته أقرب الى الفلسفة الاجتماعية التي رأيناها عند من تقدمه من المفكرين والفلاسفة منها الى علم الاجتماع .

وقد غالى بعض المؤلفين في تسفيه آراء ابن خلدون والتخفيف من قيمتها ومن هؤلاء طه حسين في رسالته التي قدمها لنيل الدكتوراه عام ١٩١٩ [٣٢] .

---

(٣٢) راجع رسالة الدكتور طه حسين ، ومناقشة ساطع الحصري لها في الجزء الثاني من كتابه : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ١٩١ — ٢١٥ .

واللغة ... من خلال هذه الملاحظات والدراسة نستطيع أن نستنتج أهم افكار ابن خلدون والتي تعد من أفكار الابحاث الاجتماعية الحديثة ، وأهم ماجاء من ملاحظات ووصف :

١) الحياة الاجتماعية ظاهرة طبيعية ولا يمكن للانسان ان يعيش وحيداً .

٢) شروط الحياة تتأتى خاصة عن المحيط الطبيعي وعن الانتاج والعوامل الاقتصادية ويلعب الدين والسياسة دورهما ولكنه دور ثانوي ، اذا قيس بدور العوامل الاولى .

٣) السلطة في المجتمع للجماعات التي تتمسك **بالعصبية** وتتحلى بالشجاعة .

٤) والسلطة ضرورية للانسان لأنه الكائن الحي الوحيد الذي يحتاجها . ولولاها لعمت الفوضى .

٥) يدخل في أسباب سقوط الدولة عوامل نفسية واخلاقية واقتصادية وخاصة ماتعلق منها بالموازنة العامة والنقد ..

٦) وصفه لحياة القرية والمدينة والبدو والحضر يعتبر من مجالي السوسيولوجيا الريفية والسوسيولوجيا المدنية ..

٧) وصفه لحياة البدو يعد من أقوى الدراسات السوسيولوجية الوصفية والانتروبولوجية .

٨) اظهاره لتأثير الوسط الطبيعي يعتبر من أقوى الابحاث حتى زمن مونتسكيو

٩) يرى ان العملية التاريخية عبارة عن **وحدة واستمرار** ، وان **التاريخ في تبدل وتطور** ، وان هذا التحول او التطور عائد الى تأثير العوامل السيكولوجية والبيئية . وبهذا نستطيع ان نقول أن لابن خلدون ، قبل فيكو شرف تأسيس فلسفة التاريخ ، وان نظرته الى العوامل الداخلة في العملية التاريخية تعتبر أقوى وأحدث من نظرة فيكو الذي أتى بعده بثلاثة قرون .

١٠) الحاحه على عدم الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام .

وان طبيعة الملك الانفراد بالمجد (ص ٩١) ، وان الترف مؤذن بهرم الدولة (ص ٩٢) . ويرى أيضاً أن للدولة اعماراً طبيعية كالاشخاص . ويرى «ان عمر الدوله لايعدو في الغالب ثلاثة أجيال لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم ... والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف ... ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد بـه ... ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء ... ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيـل الاول وباشروا احوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ... فلايسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه ماذهب ويكونون على رجاء من مراجعـة الاحوال التي كانت للجيل الاول ... وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية ... ويبلغ فيهم الترف غايته ... فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم ... فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من أهل الفجوة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يفني عن الدولة بعض الفناء حتى يأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت . فهذه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها ولهذا كان انقراض الحسب في الجيـل الرابع ... وهـذه الاجيال الثلاثة عمرهـا مائة وعشرون سنة .. » (ص ٩٣ — ٩٤) .

ويرى أيضاً ان الاجتماع ضروري للبشر وهو معنى العمران الذي يتـكلم عنه ، وانه لابد في الاجتماع من وازع (ص ١٦٥) . المهم اننا نرى في مقدمة ابن خلدون دراسة في فلسفة التاريخ وفي تعريف التاريخ وتعيين طريقة البحث فيه وفي الفلسفة الاجتماعية . وفي هذه الدراسة نجد ملاحظات عامة متفرقة تختلط أحياناً دون نظام ويتكلم فيها عن المجتمع واشكاله والحضارة والصناعات والعلوم

ويدل على ذلك دلالة واضحة قوله : « فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة ، **أن ننظر** في الاجتماع البشري الذي هو العمران **ونميز مايلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لايعتد به وما لايمكن أن يعرض له** »[٣٠] .

وهذا البحث يعتبر من نطاق الفلسفة الاجتماعية وفلسفة التاريخ بصورة محضة

المهم أن ابن خلدون درس الاقاليم وتأثيرها على البشر إذ نجد لديه مثل هذه المواضيع : الجغرافيا والاقاليم في المعتدل من الاقاليم والمنحرف ، وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم ، وفي أثر الهواء في أخلاق البشر [٣١].

وألح على دراسة تأثير المحيط الجغرافي في أخلاق السكان وعاداتهم وحضارتهم. وقد رأينا مثل هذا البحث عند ابيوقراط وأفلاطون وأرسطو وبعض مفكري العصر الوسيط (سنعود الى آرائه هذه في الفصل التاسع) .

وقد بحث في سكان البدو وسكان الحضر . وفي رأيه أن اجيال البدو والحضر طبيعية (ص ٦٧) ، وان البدو أقدم من الحضر وهم أصل العمران (ص ٦٨) ، وان اخلاق البدو أقرب الى الخير (ص ٦٩) وهم أشجع واكرم وأقرب الى الدين لشظف عيشهم وبساطتهم (ص ٧٠) ، وبحث في شروط الرياسة (ص ٧٣) ، وفي رأيه أن العصبية أساس الملك (ص ٧٧) ، والامم الوحشية ملكها أوسع (ص ٨٠) ، والملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبيات (ص ٨٥) ، ويرى أن أهل البوادي مغلوبون لأهل الامصار (ص ٨٤) ، وان الدولة اذا استقرت وتمهدت فقد تستغني عن العصبية التي قد تكون مبدأ نشأتها (ص ٨٥) ، ويرى أن الدين قوة للدولة ويدخل في أصل نشأتها (ص ٨٧) . ويرى أن المغلوب يقتدي بالغالب ويتشبه به (ص ٨١)،

---

(٣٠) نفس المصدر السابق ص ٢٢

(٣١) راجع المقدمة الثالثة والرابعة .

الخليقة »[٢٨] . وتعريفه لهذا العلم لايختلف عن تعريفه للتاريخ لا في قليل ولا في كثير . ويستطيع القارىء ان يقارن بسهولة بين التعريفين ليدرك صحة رأينا .

وقد رأى بعض دارسي علم الاجتماع ؛ كالاستاذ ساطع الحصري ، والدكتور عبد الكريم اليافي وسواهما ، في هذا التعريف تعريفاً لعلم الاجتماع ، ومن هنا حكموا بأن ابن خلدون هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع . والواقع أن هذا التعريف ينطبق على الفلسفة الاجتماعية والفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ أكثر مما ينطبق على علم الاجتماع . وقد صرح نفسه بذلك إذ قال ، كما رأينا ، أن صاحب علم التاريخ يحتاج الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار والسير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك . . وأغلب هذه الابحاث يدخل في نطاق الفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ والفلسفة الاجتماعية والانتولوجيا والانتروبولوجيا . وعلم الاجتماع لايبحث في قواعد السياسة ولا في طبيعة الموجودات ولا في اختلاف الامم والبقاع .

وقد سبقه الى مثل هذه الابحاث أرسطو في كتابه « السياسة » وأفلاطون في « الجمهورية » و « النواميس » . كما بحث في ذلك قبله كثيرون من فلاسفة الافلاطونية الحديثة والقديس أوغسطينوس والقديس توما الاكويني . . وأقر نفسه بتعرفه على ماكتبه اليونان من قبله بقوله : « وانما وصل الينا علوم أمة واحدة وهم يونان »[٢٩] .

وأغلب أبحاثه في « مقدمته » من نطاق فلسفة التاريخ والفلسفة الاجتماعية والفلسفة السياسية .

---

(٢٨) نفس المصدر السابق ص ٢٢

(٢٩) نفس المصدر السابق . ص ٢٢

وقد عرض ابن خلدون للطريقة التاريخية وما يجب ان تتحلى به من **موضوعية واستقصاء وشك** وتمحيص وابتعاد عن التقيد بالنقل .. [٢٥] وليتجنب الوقوع في الاخطاء التي وقع فيها كثير من سالفيه ؛ وسببها الجهل بطبائع الموجودات والامور ، حاول ابن خلدون أن يضع علماً يبصر المؤرخ بطبائع الاشياء وطبيعة العمران البشري والمجتمع البشري . ولهذا يصرح: « فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن (أي التاريخ) إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون مابينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها ، وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث واقفاً على أصول كل خبر ، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ماعنده من القواعد والاصول ، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً ، وإلا زيفه واستغنى عنه »[٢٦]. ويعرف هذا العلم ويحدد موضوعه بقوله: « وكأن هذا علم مستقل بنفسه ؛ فإنه **ذو موضوع هو العمران البشري والاجتماع الانساني** ؛ وذو مسائل وهي بيان مايلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد أخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً »[٢٧]. ويعود فيلح على طرافة وجدة وابتكار هذا العلم الجديد ، كما ألح من قبل على طرافة وجدة كتابه في التاريخ بقوله « واعلم ان الكلام في هذا الغرض **مستحدث الصفة ، غريب النزعة .. وكأنه** علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من

---

(٢٥) راجع نفس المصدر السابق ص ٤ - ٢٤

(٢٦) نفس المصدر السابق ص ١٦ .

(٢٧) نفس المصدر السابق ص ٢٢

ويقسم هذا المؤلف الى :

١ – المقدمة وهي في فضل علم التاريخ ...

٢ – الكتاب الاول في علم العمران ؛ ٣ – الكتاب الثاني في أخبار العرب واجيالهم . ويتعرض لمن عاصرهم من نبط وترك وسريان ويهود وقبط ...

٤ – الكتاب الثالث في أخبار البربر ...

قد عرفت المقدمة والكتاب الاول بـ « بمقدمة ابن خلدون » التي اشتهر بها بين المفكرين والمؤرخين . المهم ان كتاب ابن خلدون في علم التاريخ . ولكن ابن خلدون يمهد له بمقدمة عن علم التاريخ وموضوعه : العمران البشري .

يرى ابن خلدون ان التاريخ « ... خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ومايعرف لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ومايتشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ومايتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال.[٢٣]

وقد قال في مكان آخر: « فأنشأت في التاريخ كتاباً رفعت به عن أحوال الناشئة من الاجيال حجاباً وفصلته في الاخبار والاعتبار باباً باباً وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا واسباباً .. فهذبت مناحيه تهذيباً وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريباً وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً ، وطريقة مبتدعة وأسلوباً ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية مايمتعك بعلل الكوائن وأسبابها..» [٢٤] .

---

(٢٣) ابن خلدون : المقدمة .. ص ٢٠ (طبعة المطبعة الخيرية – القاهرة)

(٢٤) نفس المصدر السابق . ص ٣ – ٤

علم الاجتماع وذلك بدراستهم **لنفسيات الشعوب وتقاليدها وعاداتها** والمقارنة بينها وقال الاستاذ ريني مونيي R.Maunier « كتب ابن حوقل (كتب هو حنقل) في القرن العاشر رسالة في الطرق والممالك . »[٢١] .

ويرى هذا المؤلف ان مقارنات هؤلاء الرحالة بين شعوب مختلفة كانت تهيئة عامة أولى لظهور الابحاث الوضعية والوصفية . اذ يقول : ان الانسان عندما يقوم بسياحات ويقيم في بلد ما فانه يصل بالتالي لأن يلاحظ وبالتالي لان يقارن .. ومنذ بدأت الرحلات والسياحات ومنذ أخذت الاقامة بين الشعوب الغريبة بالظهور ، فانه كان من الواجب ان تظهر السوسيولوجيا .[٢٢]

ومهما يكن من أمر فان التاريخ العربي حافل بأمثال هؤلاء الرحالة الذين طافوا في مختلف انحاء المعمورة وأتوا مثقلين بكنوزها الثقافية والحضارية . ومن هؤلاء اليعقوبي (+ ٨٩٧ م) ، والمسعودي (+ ٩٥٧ م) ، وابن حوقل (+ ٩٩٠ م) ، وابن بطوطة (+ ١٣٧٧ م) ، والذين تعتبر مقارناتهم واوصافهم نوعاً من الدراسة الاجتماعية الموضوعية واحياناً الانتروبولوجية أو الاتنولوجية .

ابن خلدون : (١٣٣٢ - ١٤٠٦ . م) وننتقل الآن الى علم من اعلام الفكر العربي الذي نجد اسمه في جميع تواريخ السوسيولوجيا المعاصرة مقرونا باسماء اكبر مفكري التاريخ البشري ، ألا وهو أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن ابن خلدون . ولد في تونس ونشأ فيها ، وتوفي في مصر ، عاش في عصر مملوء بالاضطرابات والفتن والحروب . وقد ألف بن خلدون كتاباً هاماً هو « كتاب **العبر** وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » .

---

(٢١) راجع : R.Maunier : Introduction à la sciologie.P.75

(٢٢) راجع : Ibid.,P.72

« ويشبه هـــذا المؤلف الاخـير ، الى حـد ما ، جمهورية افلاطون . فهو نوع من الطوباويات (ايتوبيا) السياسية ، وضع فيه الفارابي فلسفته العامة وآراءه في الاصلاح الاجتماعي الذي يهدف من ورائه الى تأمين العدالة والسعادة لاعضاء مدينته الفاضلة . ونجد لديه فكرة أرسطو « الانسان مدني بالطبع ». ويتكلم فيه أيضاً عن انواع المجتمعات الكاملة منها وغير الكاملة . فالكاملة تحتوي على ثلاثة أشكال : **العظمى والوسطى والصغرى**. فالعظمى هي اجتماعات الناس كلهم في المعمورة ، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة ، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من مسكن أمة . وغير الكاملة هي كأهل القرية ، واجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع في سكة ، ثم اجتماع في منزل .. ونقع لديه على الفكرة التي تشبه المجتمع بالجسد اذ يقول : « والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي يتعاون اعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه ».[١٨] ولكنه يجد فروقاً بين المجتمع والجسد حيث يعتقد : « .. ان اعضاء البـدن طبيعية والهيئات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، واجزاء المدينة وان كانوا طبيعيين لها فان الهيئات والملكات التي يفعلون بها افعالهم للمدينة ليست طبيعية بل ارادية . »[١٩].

ويرى ان روابط المجتمع تحصر في : « الاشتراك في التناسل » والقوة ، و « تشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك في اللغة واللسان » و « الاشتراك في الصقع » و « الايمان والتحالف » على مافيه خير المجموع »[٢٠].

الرحالة الجغرافيون :

وكان للرحالة الجغرافيين ، كغيرهم من الرحالة ، الفضل في التهيئة لظهور

---

(١٨) الفارابي : آراء اهل المدينة الفاضلة ، ص ٧٨

(١٩) نفس المصدر السابق : راجع : ص ٧٩ — ٨٠

(٢٠) راجع المصدر السابق ص ١٠٩ — ١١١

والاداريون الحواس ، والموظفون اليدان ، والموظفون الماليون المعدة والامعاءان ، والفلاحون الرجلان . [١٦] .

وأكبر أعلام (الآباء) هو القديس توما الاكويني Toomas d' Aquin (١٢٢٧ - ١٢٧٤ م) نجد زبدة أفكاره في كتابه الضخم « **السوما** » أو « **المجموعة** ». لقد بسط آراءه قائلا . أن الانسان سياسي بالطبع ، وان المجتمع عبارة عن مجموعة من الاهداف والمصالح يتمكن فيه الانسان من التعبير عن خير اهتماماته ، وان السلطة العليا ضرورية لقيادة المجتمع الى ما فيه خير الجميع وأصل الدولة تأتي عن الدور الأبوي لروساء العائلات . ولكن لخلق سلطة عليا ونافذة وتنظيم سياسي رفيع كان من الضروري تفويض هذه القوة أو السلطة ، حسب عقد ، إلى رئيس مشترك . وينكر على ارسطو قوله : ان المدينة هي خير دولة ويعتقد بأن الدولة الفضلى تتألف من عدة مدن . ويرى ان منشأ السلطة هو الله ، ولكنها أدنى من السلطة الروحية .. ويقول بالتشابه بين المجتمع والجسد الحي . ويلح على تأثير المناخ في المجتمعات .. [١٧] .

الفلسفة الاجتماعية والسياسية عند العرب والمسلمين :

لقد ظهر ، في العصر الوسيط ، لدى العرب مفكرون وفلاسفة ، فمنهم من تأثر بأفلاطون والافلاطونية ـ الحديثة ، كالفارابي وابن سينا ... ومنهم من تأثر بأرسطو كعلماء الكلام ، وابن رشد ، .. ويهمنا ان نتكلم من ناحية الفلسفة الاجتماعية عن الفارابي وابن خلدون خاصة .

الفارابي (٨٧٢ - ٩٥٠ أو ٩٥١) الفارابي مولع بالتنظيم الاجتماعي ولهذا كتب « السياسات المدنية » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

---

(١٦) راجع : H.E.Barnes : Opi.cit.P.18

(١٧) راجع : Ibid.,p.16 - 20

ولكن بعض الآباء انحرفوا ، مع الزمن ، عن تعاليم المسيحية الاولى متأثرين بالسياسة **الاستعبادية والاقطاعية** والارستوقراطية . ولهذا كانوا عونا لها على الطبقات الفقيرة واصبح الخضوع للرؤساء في رأيهم فضيلة والثورة السياسية عبارة عن خطيئة أو إثم... وقد استغل نتائج الثورة الفكرية المسيحية **القديس اوغسطينوس** (٣٥٤ - ٤٣٠ .م) وخاصة في كتابه « مدينة الله » التي كتبها بين سنة (٤١٢ - ٤٢٦ .م . وقد عالج في هذا الكتاب مواضيع مختلفة : تاريخية وفلسفية ودينية وانتروبولوجية ... ونجد لديه بعض الافكار والتحليلات السوسيولوجية التي دخلت في صلب كثير من المفاهيم الحقوقية والسوسيولوجية الحديثة كأفكار : الحق الطبيعي ، وشرعية السلطة ، والحرية الطبيعية للانسان ، وأصل القدرة على القسر الذي تمارسه الدولة ... ونادى بالعدالة الاجتماعية « اذ يقول : » ما المُلك دون عدالة سوى قاطع طريق متوج بالظفر وما المُلك دون عدالة سوى كهف لصوص[١٥] «.

الفلسفة الاجتماعية والسياسية في العصر الوسيط :

لقد خبا **وميض الفكر المبدع في العصر الوسيط** ، ولهذا سمي العصر الوسيط « بالعصر المظلم ». وكان هم المفكرين ، وجلهم من (الآباء) ، اجترار آراء أرسطو والى حدما ، أفلاطون ، وتثبيت الوضع الاقطاعي القائم . وكانت أفكارهم حول الدولة والحقوق قائمة على اساس **تيوقراطي** Théocratique .

ومن أشهرهم **جون ساليسبوري** (John of Salisbury) الانكليزي الذي ألح على المقارنة بين المجتمع والجسد . ففي رأيه : نجد في المجتمع فئات أو طبقات تقابل في الجسد النفس والعقل والقلب والاعضاء الاخرى في الفرد . فالامير هو رأس الجسد السياسي ، والكهنوت النفس ، والسينا القلب والحكام

---

(١٥) نقلا عن: G.Bouthoul : Histoire de la sociologie.P.18

الفلسفة الاجتماعية والسياسية عند الرومان

لعب التفكير الروماني دوراً هاماً بتوجيه الاذهان الى **الدراسة الوضعية** لعقلية الشعوب وطباعهم وتقاليدهم ومؤسساتهم الاجتماعية . هذا ما قام به خاصة تاسيت Tacite في دراسة الجرمانيين، وقيصر Cesar في دراسة الغاليين Gaulois. وأهم ما قدمه المفكرون الرومانيون ، في هذا المجال ، هو دراسة شرعية لأصل وطبيعة السلطة **السياسية**. اذ قالوا بأن اصلها مرجعه الى قبول ورضا الشعب : أي انهم قالوا بنظرية العقد الاجتماعي التي ستلعب دوراً هاماً في نظريات القديس اوغسطينوس وروسو وهوبز .

الفلسفة الاجتماعية في العالم المسيحي :

لقد لعب الانجيل دوراً هاماً ، في أول الامر ، في توجيه الاذهان الى الطبقات الفقيرة ودراسة أوضاعها الذرية ومساندتها ضد الطبقات الغنية ، والى محبة جميع الشعوب دون التعلق بالتعصب القومي والتعصب العرقي الذميمين اللذين تمسك بهما كثير من مفكري اليونان والرومان ، والى محاربة الرق والاستعباد والتفريق الطبقي ، لأن الجميع متساوون أمام الله ؛ ولهذا نادى بعض آباء الكنيسة الأول بإلغاء الملكية الفردية ، كما نادوا بكثير من الافكار الاشتراكية والشيوعية التي كان لها أثر هام في تفكير الاشتراكيين الفرنسيين والالمان .. واستندوا بهذا على المبدأ القائل : « لقد أعطيت خيرات الارض بصورة مشتركة لجميع الناس ». ولهذا كتب القديس أمبرواز (٣٤٠-٣٩٧م): « لقد ولدت الطبيعة حق الاشتراك ولكن الظلم هو الذي صنع حق الملكية الخاصة »[١٤] .

---

(١٤) نقلا عن: A. Cuvillier : Manuel de sociologie. T.I.P.5

بحث أرسطو في شروط صلاح المدينة فوجدها : ١ً) في عدد السكان الذي يجب ألا يزيد عن الضروري ؛ ٢ً) في مساحة الأرض التي يجب ان تكون كافية لاعاشة سكان المدينة ؛ ٣ً) في وظائف الدولة أو الطبقات الاجتماعية التي تقوم بهذه الوظائف . وكلما كان المواطنون أفضل أخلاقاً كانت المدينة أفضل وأدوم وأكثر استقراراً وصلاحاً .

وقد ظهر كثير من أفكار أرسطو التي قدمناها في مذاهب سوسيولوجية متنوعة سنراها فيما بعد عند كونت ودوركهايم وسبنسر ، وعند فلاسفة اجتماعيين كابن خلدون ومونتسكيو .

وعلى الرغم من دفاع أرسطو عن الاوضاع الراهنة في عصره وعن دعم المستغلين وملكياتهم الواسعة واستعبادهم للطبقات الفقيرة ، وعلى الرغم من اتخاذ أفكاره كدعائم للنظام الاقطاعي ، لا يمكن نكران ما قدم للطريقة العمليه الاستقرائية من جهود بأبحاثه الواقعية التي فاقت مثالية أفلاطون وتياره من حيث روح البحث والاستقصاء .

توسيديد Thucydide (**نحو ٤٦٠ - نحو ٣٩٥**) : كتب تاريخ حرب البلوبونيز . وفي الفصول الاولى من كتابه نظرة عامة عن تاريخ اليونان ، حاول فيها ان يعلل الحوادث التاريخية . ويعتبر كتابه هذا الاول من نوعه في فلسفة التاريخ . وقد حاول ان يشرح الحوادث المعاصرة ويعود بها الى أصولها التاريخية البعيدة ويتوصل الى خطوطها العريضة ؛ وكان بعمله هذا يتبع طريقة سيوسيولوجية حديثة هي الطريقة التاريخية والإتنوغرافية التي تبحث عن الاشكال البدائية للمؤسسات والتوصل الى دراسة المجتمعات البدائية .

وستلعب الفلسفة اليونانية وخاصة الفلسفة الاجتماعية والسياسية دوراً هاماً في التفكير العالمي حيث رسمت له خطين تأثر بهما عدد كبير من المفكرين في جميع انحاء العالم ، هما : خط **افلاطون المثالي** وخط أرسطو **الوضعي والواقعي** .

الانسان المنعزل (المنفرد) لا يكفي نفسه بنفسه في جميع الحالات التالية : دوام النوع ، الدفاع عن النفس ، القيام بأود الحياد ، ونمو الافكار والقوى المعنوية التي هي غايته المثلى [١٣] . ولا يمكن فصل فاعليات الانسان عن المدينة ولهذا وجب ألا يدرس خارج المدينة . وميزة الانسان البالغة الاهمية ،والأهم عندما نريد تعريفها ، **هي كونه حيواناً سياسياً** .

ويأخذ أرسطو عن ايبوقراط نظريته في تأثير المناخ في الحياة الاجتماعية والسيكولوجيا الاجتماعية . ولكن يلح على تبيان هذه العوامل اكثر من ايبوقراط وأفلاطون...

كما يرى ان الاسرة هي المجموعة الاولية السابقة لسواها . وهي نواة الحياة الاجتماعية . وقد سبقت سواها الى الظهور والغرض منها القيام بالحاجات اليومية . والأب رأس الاسرة وما على الأم سوى الخضوع . وقد تجنى أرسطو ، بعكس أفلاطون ، على المرأة ؛ كما أكد ضرورة اقتناء العبيد . وبرر ذلك بالطبيعة حيث ان الناس خلقوا صنفين : صنف خلق ليسود ويستعبد ، وصنف خلق ليخضع ويستعبَد . وقد دافع عن الملكية الفردية . ودرس الثروة والمبادلة التجارية **والمال** وهاجم خروج المبادلة عن غايتها التي وضعت لها ، كما هاجم الربا .

وتظهر بعد الاسرة الى الوجود ، القرية التي تتكون من عدة أسر ، وبعد القرية المدينة التي تتكون من عدة قرى . . ويلح أرسطو على دراسة القرية والمدينة وصفات أهلها والحياة فيها . . ويبحث بعد ذلك في نوع الحكومات الصالح منها والفاسد . فالحكومة الصالحة ثلاث : الملكية ، والارستقراطية والديموقراطية ؛ والحكومات الفاسدة ثلاث أيضاً : المستبدة ، والاوليغارشية والديماغوجية . . ويرى ان خير من يحكم المدينة هي الطبقة الوسطى . وقد

---

(١٣) راجع : Ibid ,I,I,12

أ) **عند ما يزداد عدد** أحد عناصر المدينة ، ٢) عندما يزداد عدد مجموع المواطنين زيادة قوية . ويصبح في هذه الحالة التنظيم القديم للمدينة غير صالح للسكان . فلكل تركيب معين مجموعة سكان معينة والعكس بالعكس (١٠) . وقد ذهب الى القول ان الجسد الاجتماعي للمدينة القديمة مكوّن على شكل يتمكن معه من ضم ١٠ آلاف مواطن : فاما ان يحافظ على هذا العدد واما أن تزول المدينة . وبمعنى آخر يرى أرسطو ان طبيعة المجتمع لا ترتبط فقط بعناصرها ولكن ترتبط أيضاً بالعلاقة أو النسبة العددية لمختلف رهوطها (أو مجموعاتها) وأخيراً بعددها المطلق ...

وتقوم النظمة الاجتماعية على تآزر الوظائف . ولا يهم كثيراً تفرق الذين يقومون بهذه الوظائف ، فالمهم ليس الاتصال والتماس والقرب وانما التعاون والتآزر (١١) .

والأساس في الحياة الاجتماعية هو **اتحاد** الافكار ، الذي يؤدي الى تعاون الارادات . ويجب ان يعتبر العدد الكبير من الناس المجتمعين للتذاكر في شؤون المدينة وكأنه يملك شعوراً واحداً وعقلاً واحداً ، ولا تختلف المذاكرة التي تسبق **القرار** الذي يؤخذ معاً أو بالاشتراك بطبيعتها عن مذاكرة الفرد . ولكن **الفرد الجماعي** يتحلى بحكمة أعظم كلما امتلك عدداً أكثر من الاعضاء وكثف تجارب اكثر اتساعاً وتنوعاً (١٢) .

ولا يمكن ان يكون الفرد المنعزل حداً أو غاية للعلم . لأنه لا يكتفي بنفسه ، ولهذا لا يمكن ان يفسر نفسه بنفسه . نجد هنا عند أرسطو الخطوط العريضة لنظرية أوغست كونت التي سنراها فيما بعد . اذ يؤكد أرسطو ان

---

(١٠) راجع : Ibid : IV.7,IV.6.

(١١) راجع : Ibid.,III,1.11

(١٢) راجع : Ibid ,III.IV.4

ولهذا لاقت أفكار أرسطو قبولاً حسناً في القرون الوسطى. فتبنى تفكيره كثير من المفكرين ورجال الدين، كل ذلك لارضاء النظام الاقطاعي والارستوقراطي الذي كان سائداً في ذلك العهد.

يؤكد أرسطو أن « **الانسان حيوان سياسي** »، أي أنه غير قابل للانفصال عن الحياة الاجتماعية. ونتيجة لهذا، أظهر ضرورة العلاقات الاجتماعية لنمو الشخصية البشرية الصحيح، وبين شذوذ أو « لا سوية » (abnormality) الانسان غير الاجتماعي.

وقد قدم تعليلاً للتطور الاجتماعي على ضوء الغريزة الاجتماعية، وانتشار طبيعة الانسان الاجتماعية، واتساع هدف وغرض الرغبة والحاجة الى المجتمع[٨].

ويعتقد أرسطو أن الاساس الذاتي لمجتمع منظم **يكمن في الصداقة**، التي علق عليها أهمية كبرى في سير وانتظام وتوازن الحياة الاجتماعية. وقد ألح، أكثر من أفلاطون، على وجوه الشبه بين **الجسد** والمجتمع. شبه المجتمع **بكائن حي** خاضع لقانون **الولادة والنمو والموت**. وقرر أن التبدل (أو التغير) هو **الشرط** للحياة الاجتماعية. ولهذا يصرح بان المجتمعات تختلف باختلاف المكان والزمان، ولا يصلح نفس التنظيم الاجتماعي لجميع الشعوب[٩]. ويتألف المجتمع، حسب رأيه، من عناصر مختلفة غير متجانسة. ويكمن في هذا الاختلاف الشرط لتعاون هذه العناصر، ولعلاقات **الخضوع والسلطة او السيطرة**. **فدارج الحياة الاجتماعية** (Hiérarchie sociale) والدولة وتقسيم العمل تنأتى عن لا تجانس الاجزاء المكونة للمجتمع: ويحصل عن هذا **نظام توزان**. واذا ما تغيرت علاقة **الاجزاء** حصل عن ذلك نمط جديد من أنماط التوازن. ويحصل اختلال التوازن في حالتين :

---

(٨) راجع : H . E . Barnes : Opi . cit . P . 8

(٩) راجع : Aristote : Poltique : IV,1, 3 et 5